

الْحَاكِمِي
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَكْبَرِيِّ

تأليف
العلامة سيد مرتضى المكي

الجزء الخامس

موسسة النشر والادب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الهادي في تفسير القرآن الكريم

المجلد الخامس



تأليف

العلامة سيّد مرتضى المهري

سرشناسه	: مہری، سید مرتضیٰ، ۱۳۲۴ -
عنوان و نام پدید آور	: الہادی فی تفسیر قرآن کریم [کتاب] / سید مرتضیٰ مہری.
مشخصات نشر	: قم : مؤسسه المعارف الإسلامیة، ۱۴۳۷ق. = ۱۳۹۵
مشخصات ظاہری	: ۵ ج.
فروست	: مؤسسه المعارف الإسلامیة: ۲۰۹، ۲۱۹.
شابک	: دوره: ۹-۱۵-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸
	: ج (۱) ۱۶-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸ ؛ ج (۲) ۱۷-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸ ؛ ج (۳) ۱۹-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸
	: ج (۴) ۲۰-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸ ؛ ج (۵) ۳۱-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸ ؛ ج (۶) ج (۷) ۳۲-۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی	: فاہا
یادداشت	: عربی.
یادداشت	: ج. ۳ (چاپ اول: ۱۳۹۴).
یادداشت	: ج. ۴ (چاپ اول: ۱۳۹۵).
یادداشت	: ج. ۵ (چاپ اول: ۱۳۹۷) (فیا).
مندرجات	: ج. ۳. تفسیر سورہ الشوری. - ج. ۴. تفسیر سورہ الاحقاف. - ج. ۵. تفسیر سورہ الذاریات.
موضوع	: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
شناسه افزوده	: بنیاد معارف اسلامی
ردہ بندی کنگرہ	: ۱۳۹۵ / ۸۶۶۵۲ م / ۹۸ BP
ردہ بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۳۴۸۳۰۶۱



هویة الكتاب:

اسم الكتاب :	الہادی فی تفسیر القرآن الکریم / ج ۵
المؤلف :	العلامة السيد المرتضى المہری
الناشر :	مؤسسة المعارف الإسلامیة
الطبعة :	الأولى ۱۴۴۲ هـ. ق
المطبعة :	عنت
العدد :	۱۰۰۰ نسخه
رقم الایداع الدولي للدورة :	978-600-146-015-9
رقم الایداع الدولي / ج ۵ :	978-600-146-031-9

حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة المعارف الإسلامیة

قم المقدسة - هاتف: ۰۹۱۲۷۴۸۸۲۹۸ - ۰۳۷۳۲۰۰۹ ۹۸ ۲۵ فاكس ۰۳۷۷۴۳۷۰۱ ۹۸ ۲۵ ص ب ۷۶۸ / ۳۷۱۸۵

www.maarefislami.com
E-mail : bonyad.maaref@gmail.com

تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ يَذُرُوا ۖ فَأَلْجَمْتَ لَآئِهِمْ ۖ وَالَّذِينَ يَسْتُرُوا ۖ فَأَلْجَمْتَ لَآئِهِمْ ۖ وَالَّذِينَ يَصَادِقُونَ ۖ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ ۖ

السورة مكية وتعرض لموضوع المعاد وتردّ على أقاويل المشركين حول هذا الموضوع، ثمّ تبين الجزاء هناك حسب الأعمال وتشير إلى عذاب الاستئصال الذي أصاب أقواماً من المكذّبين بالرسالات.

﴿وَالَّذَارِيَاتِ ذُرْوًا﴾ أقسم الله تعالى في كتابه العزيز بمجموعة من المخلوقات تتناسب مع ما يراد بيانه، والمراد هنا بيان أنّ وعد الله حقّ ومنه وعده بالجزاء يوم القيامة، وأنّ يوم الجزاء آتٍ لا محالة.

والقسم لدى التحليل ربط بين أمر يراد بيانه أو طلبه أو تعهّد بفعل أو ترك وبين شخصية المقسم به، فإذا قلت: والله لأفعلنّ كذا، فإنّك تربط بين علاقتك بالله تعالى وإكرامك وتعظيمك له وبين هذا التعهّد، فكأنّك تقول: كما أنّي لا أنفك من إكباري وتعظيمي لرّبي، كذلك لا أنفك من هذا التعهّد. وكذلك إذا

قلت: والله كان الأمر كذا، فإنك تربط بين هذا التعظيم وبين صدقك في الأخبار بهذا الشيء.

والله تعالى يقسم بكثير من مخلوقاته كالشمس والقمر والليل والنهار وغيرها. وربما تبدو كرامة بعض ما يحلف به غريبة لنا. ولعل الوجه في ذلك أن نسبة الخلاق إليه تعالى من حيث التكوين نسبة واحدة، وكرامتها ليست إلا من جهة استنادها إليه تعالى، ودلالتها على قدرته وعلمه وعموم ربوبيته، وإنما يختار من بينها ما يناسب المقسم عليه.

«الذاريات» من ذرت الريح الشيء بمعنى أسفّته وأطارته، فالظاهر أن المراد بها الرياح التي تذرّو التراب ونحوه.

وقوله: «ذُرُّوا» مفعول مطلق يؤتى به لتأكيد المضمون، وكأنه لدفع توهم إرادة المعنى المجازي، فإذا قلت: ضربته ضرباً تؤكّد أن المراد بالضرب هو الضرب واقعاً لا معنى آخر. ولذرّو الرياح دور عظيم في تصفية الجو من الأتربة والأبخرة والروائح الكريهة ولقح الأشجار وتكوين السحب ونقلها وغير ذلك ممّا وصل إليه العلم وما لم يصل، ولكن المراد به هنا بقرينة ما بعدها ذرو الأبخرة وجمعها في أجواء باردة لتكوين الغيوم الممطرة.

«فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا». الوقر: الحمل الثقيل وهو مفعول به، ولا يبعد أن يكون المراد بالحاملات السحب، حيث إنها تحمل المطر أو الثلج، والتعبير بالحمل تجوّز تشبيهاً للسحب بدوابّ تحمل الأثقال، مع أنّها لا تحمل الماء والثلج كما هو واضح، وإنما تتحوّل إليهما بسبب المؤثرات الخاصّة في الجوّ.

ولعل الوجه في عطفها على الرياح الذاريات بالفاء الدالة على الترتيب من

جهة أن الرياح هي السبب في تكون الغيوم، وفي حركتها وانتقالها، وحيث إن الفاء عطفت الحاملات على الذاريات، فيتعلق بها القسم المذكور أيضاً وكذا فيما بعدها.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾، أي الجاريات يسر وسهولة و ﴿لَا يُسْرًا﴾ مصدر، فيجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق، والتقدير: جرياً ذا يسر، ويجوز أن يكون بمعنى اسم الفاعل ويكون حالاً من الجاريات.

والمراد بها - على الظاهر - السفن التي تجري في البحر يسر وسهولة، بالرغم من أنها تحمل أثقالاً عظيمة، وهذه من النعم الكبرى التي من الله تعالى بها على عباده وتطرق لذكرها كثيراً في كتابه العزيز؛ والسفن كانت من قديم الزمان وإلى يومنا هذا من أرخص وأقوى وسائل الحمل والنقل.

ولعل عطف الجاريات بالفاء الدال على الترتيب - كما مر - من جهة أن جريانها بسبب الرياح أيضاً.

﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾ التقسيم تجزئة الشيء إلى أقسام، وإيصال كل قسم إلى من يستحقه، و ﴿أَمْرًا﴾ مفعول به وهو بمعنى الشيء وجمعه أمور. وبناءً على التفسير المأثور - كما سيأتي - يراد بها الملائكة الكرام؛ لأنهم بأمره تعالى يقسمون الأرزاق وغيرها من الأمور التي قدرها الله تعالى حسبما أمروا به، والمراد بالأمر هنا - كما قيل - الجمع أو الجنس؛ لأن الملائكة تقسم كل الأمور.

ولعل وجه العطف بالفاء على الرياح من جهة أنها تحمل السحاب إلى المكان الذي قدر له المطر، والمطر ممّا يقسمه الملائكة. والتأنيث في قوله: ﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ﴾ باعتبار الجمع، كقوله تعالى فيهم أيضاً: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا *

فَالرَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا^١، وقد مرّ في تفسيرها أنّهم طوائف من الملائكة، وجاء في نفس السورة التعبير عنهم بالجمع المذكّر، قال تعالى: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^٢ ومثل التعبير عنهم بالمقسّمات أمراً قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾^٣ والتدبير من الله تعالى، كما قال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾^٤ ولكن حيث إنّ الملائكة هم الوسطاء والشفعاء وعن طريقهم ينزل التدبير صحّ التعبير عنهم أيضاً بالمدبّرات أمراً. قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^٥ وهذه الآية تدلّ على أنّ الملائكة شفعاء في الخلق والتدبير، ولكن شفاعتهم لا تكون إلا بإذنه تعالى.

وقيل: إنّ كلّ هذه الأوصاف الأربعة أوصاف للرياح، فـ«الذاريات» هي الرياح التي تنشئ السحاب أولاً، و«الحاملات» الرياح التي تحمل السحب إلى أماكن مختلفة، و«الجاريات» الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها، و«المقسّمات» الرياح التي تفرّق الأمطار على الأقطار.

ولكنّه غير صحيح، لأنّ الرياح ليست هي التي تقسّم الأمطار وإنّما توصل السحب وتحركها، مضافاً إلى أنّ التقسيم لم يتعلّق في الآية بالمطر ليسند إلى الرياح، بل بالأمر، ولا معنى لإسناد تقسيم الأمر إلى الرياح وإنّما يصحّ إسناده

١. الصّافّات (٣٧): ١ - ٣.

٢. الصّافّات (٣٧): ١٦٥ - ١٦٦.

٣. النّازعات (٧٩): ٥.

٤. السّجدة (٣٢): ٥.

٥. النّجم (٥٣): ٢٦.

إلى الملائكة، والأمر يشمل المطر وغيره.

وروى القمّي في تفسيره عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله: «وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا» فقال: «إِنَّ ابْنَ الْكُوءِ سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَنْ: «الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا» قَالَ: الرِّيحُ، وَعَنْ: «فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا» فَقَالَ: هِيَ السَّحَابُ، وَعَنْ: «فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا» قَالَ: هِيَ السَّفِينُ، وَعَنْ: «فَالْمُقْسَمَاتِ أَمْرًا» فَقَالَ: الْمَلَائِكَةُ.^١ وروى العامة هذا الحديث أيضاً عنه عليه السلام بطرق مختلفة.

وفي «الدر المنثور» عن عدة من المجاميع الحديثية قال: «جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب، فقال أخبرني عن «الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا» قال: هي الرياح، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته. قال: فأخبرني عن: «الحاملات وِقْرًا» قال: هي السحاب، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن: «الجاريات يُسْرًا» قال: هي السفن، ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن: «المقسمات أَمْرًا» قال: هن الملائكة ولولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت، فلما برأ دعاه فضرب مائة أخرى وحمله على قتب؛ وكتب إلى أبي موسى الأشعري امنع الناس من مجالسته، فلم يزوالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالإيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً، فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب عمر ما أخاله إلا قد صدق فخلّ بينه وبين مجالسة الناس».^٢

ولم يتبين ذنب هذا الرجل المبرّر لهذه العقوبة. وما أظنّ أوّل الحديث مطابقاً

١. تفسير القمّي ٢: ٣٢٧ - ٣٢٨.

٢. الدر المنثور ٦: ١١١.

للواقع، ففي رواية أخرى في «الدرّ المنثور» أيضاً: «سأل صبيغ التميمي عمر بن الخطاب عن: ﴿الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ وعن: ﴿الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ وعن: ﴿النَّازِعَاتِ غُرْفًا﴾ فقال عمر: اكشف رأسك، فإذا له ضفيران فقال: والله لو وجدتكم مخلوقاً لضربت عنقك، ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه مسلم ولا يكلمه».

فالظاهر أنه لم يجب على سؤاله وإنما أمر بهذا الحكم الغريب، لأنه سألته عما لا يعلمه! والظاهر أنه اعتبر حلق الرأس علامة كونه من الخوارج؛ لأنهم كانوا يحلقون رؤوسهم وكانوا يسألون هذه المسائل لإيجاد الشبهة في أفكار العامة، ولا شك أنه من خبثهم، كما أن ابن الكوا الذي سأل أمير المؤمنين (عليه السلام) كان منهم أيضاً وله مواقف كثيرة من الخبث في مقابله (عليه السلام) ولكنه لم يضربه ولم يهنه، بل أجابه عن كل ما سأل، وما واجه الخوارج بعنف إلا بعد أن قتلوا الناس ونشروا الرعب في المجتمع. ولو كانوا لمجرد أفكارهم الخاطئة يستحقون القتل لقتل الرسول (ﷺ) ذا الشدة وجماعته، فهو بالرغم من التحذير عنهم وعن أفكارهم لم يأمر بقتلهم. ثم إنه تبين بعد الكشف عن رأسه أنه ليس منهم فما المبرر لضربه وإبعاده؟!

ومن غريب ما في الحديث أنه لو لم يسمع التفسير من الرسول (ﷺ) لم يقله؟! وما المانع من تفسير «المفردات» خصوصاً في مثل قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾، فإنه لا يحتمل غير الرياح؟!

فهذا كله قرينة على أن صدر الحديث مجعول، مع أنه لا يناسب رأي

ال خليفة حول القرآن والحديث، حيث إنه صاحب الكلمة المشهورة «إن الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله» وهو الذي منع كتابة الأحاديث النبوية، واستمر المنع قرناً أو أكثر، وعذره في ذلك أن الناس يشتغلون بالأحاديث وينسون كتاب الله تعالى، فلو كان فهم معاني الآيات متوقفاً على الأحاديث لم يكن وجه لما صنعه. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾. «ما» موصولة، فالمعنى أن الذي وعدكم الله تعالى صادق بمعنى أنه يتحقق لا محالة، والصادق في الواقع هو فاعل الوعد وهو الله تعالى، فإسناده إلى ما وعد بالمجاز، نظير قوله تعالى: ﴿عِيشَةً رَاضِيَةً﴾^١ مع أن الرضا صفة صاحب العيشة، ويمكن أن تكون «ما» مصدرية وإسناد الوصف على حقيقته بمعنى أن الوعد أو الوعيد صادق أي متحقق.

والوعد يشمل الخير والشر، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾^٢ والوعد والإيعاد أيضاً كذلك في أصل اللغة ولكنهم في الغالب يستعملونهما في خصوص الشر.

وقيل: إن قوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾ من الإيعاد ولا دليل عليه، بل ظاهر عطف الآية التالية أنهما من باب واحد وهو الوعد العام والدين العام.

وهذه الجملة هي المقسم عليها ولعل مناسبتها مع الأقسام بما ذكر أن حركة الرياح والسحب والسفن وتقسيم الأمور والأرزاق والأمطار كلها من باب تدبير الأمور لتنظيم حياة الإنسان على هذا الكوكب مما يدل على أنه لم يخلق سدى، فلا بد له من يوم يجازى فيه على أعماله، ونحن نجد أن الإنسان لا يوضع

١. القارعة (١٠١): ٧.

٢. التوبة (٩): ٦٨.

موضعه الصحيح في هذه الحياة، فكم من إنسان يستحقّ المجد والثناء، بل يجب أن يطاع بإذن الله، وهو يعيش في السجون أو في العزلة، وكم من إنسان يستحقّ الهلاك وهو متسنم أعلى المناصب، فلا بدّ من وجود عالم آخر يوضع فيه كلّ إنسان موضعه، وهذا مقتضى العدل الإلهي.

وهكذا يستدلّ القرآن في مواضع عديدة على المعاد كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^١.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ الدين: هو الجزاء، وسيأتي ذكر يوم الدين في السورة ومن هنا يبدأ التعرّض لهدف السورة وهو التأكيد على البعث والنشور ومجازاة كلّ إنسان بعمله، ويتبيّن بوضوح أنّ تقديم القسم بهذه الأمور لإلفات الأنظار إلى بدائع تدبيره تعالى في الكون ممّا يدلّ على أنّ الخلق لم يتمّ عبثاً وجزافاً ليكون ذلك حافزاً للإيمان باليوم الآخر.

وذكر العلامة الطباطبائي رحمته الله وجهاً آخر للعلاقة بين هذه الأقسام والمقسم عليه، وهو أنّ ما أقسم به كلّها تسير سيراً والمقسم عليه هو نهاية السير إلى الله تعالى^٢ وهو جيّد.

١. المؤمنون (٢٣): ١١٥.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣٤٥.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ ﴿٩﴾ قَتَلَ
الْخَرِصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَقٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ
عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِمِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾. السماء: جهة العلو. وفي «المفردات»: «سما كل شيء اعلاه»،^١ فتطبق على الأجرام الفلكية التي نجدها فوقنا.

والحُبُوبُ: جمع حَبِيكة أو حَبَاك وقد اختلفت كلمات اللغويين والمفسرين في معنى الكلمة، فقيل: إنها بمعنى الطريقة، أي ذات طرائق كالطرائق التي تحصل على الرمل أو الماء بفعل الرياح والتي تحصل في خصائل الشعر ونحوها. ولكن ما هي طرائق السماء؟ قيل: إن المراد بها النجوم، لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب، فالتعبير يكون مجازياً.

وقيل: طرق النجوم حيث تسير في السماء. وعليه فهي طرائق وهمية. وقيل: طرائق المجرة التي تبدو ليلاً في قبة السماء. وقيل: طرائق السحاب. وقيل: إن تفسير الكلمة بالطرائق يتأيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾^٢ وهو غير صحيح؛ لأن هذه الآية تعتبر السماوات طرائق، والآية هنا - بناءً على هذا المعنى - تعتبر السماء ذات طرائق.

وروي عن ابن عباس أنها بمعنى ذات الخلق الحسن.^٣ وعليه فلا بد من قراءة

١. مفردات ألفاظ القرآن: ٢٤٣.

٢. المؤمنون (٢٣): ١٧.

٣. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٢٥٤.

الكلمة مصدراً ولا يستقيم هذا على القراءة المشهورة، فإنها جمع بناءً عليها وهناك قراءات أخرى، قال في «الكشاف»: «وقرئ الحبك بوزن القفل، والحبك بوزن السلك، والحبك بوزن الجبل، والحبك بوزن البرق، والحبك بوزن النعم، والحبك بوزن الإبل»^١.

وقيل: إنها بمعنى الشدة والاستحكام، ومنه الدرع المحبوك، وحبكت الثوب، أي أحكمت نسيجه، وعليه أيضاً تكون مصدراً.

وأما بناءً على القراءة المشهورة فهي جمع، وكل ما قيل في تفسيرها حينئذ لا يغني شيئاً، ويمكن أن يكون المراد بها ترابط أجزائها مع بعض رباطاً وثيقاً، فكأنها محبوكة بعضها ببعض، أي منسوجة باستحكام.

قال في «العين»: «الهابك رباط الحضيرة بقصبات تعرض ثم تشدّ، كما تحبك عروش الكرم بالحبال، واحتبكت إزارى: شدته»^٢.

فإذا قرئت الكلمة مصدراً كانت بمعنى نفس الترابط، وإذا قرئت جمعاً فبمعنى كونها ذات أجزاء مترابطة أو ذات رباطات وثيقة وإن كانت لا ترى.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذه هي الجملة المقسم عليها و﴿فِي﴾ للظرفية المجازية، فحيث كان الناس مختلفين في الأقوال فكأن كلاً منهم يعيش في قول مخالف لقول الآخرين. والظاهر أنها في سياق التأكيد على أن ما وعده الله صادق وأن الدين والجزاء واقع.

وعليه فيمكن أن يكون الخطاب لأهل مكة والمشرّكين كما قال المفسّرون،

١. الكشاف ٤: ١٥.

٢. كتاب العين ٣: ٦٦.

حيث كانوا ينكرون المعاد والجزاء والرسالة. والمراد أنهم لا يستقرّ لهم قول في شيء من الأمور المتعلقة بالأمور الغيبية، فعن الرسول ﷺ تارةً يقولون: ساحر، وتارةً يقولون: شاعر، وتارةً يرمونه بالجنون، وتارةً بالكهانة، وتارةً بالافتراء، وعن القرآن أيضاً تارةً يصفونه بأنه سحر، وأخرى بأنه إلقاء الشياطين أو شعر أو تعليم بشر أو أساطير الأولين؛ وإذا سئلوا عن خالق الكون والرازق ونحو ذلك يقولون: الله تعالى، ومع ذلك يقولون بربوبية الأصنام التي لا تعقل شيئاً؛ وعن الآخرة تارةً يزعمون أنه لا حياة بعد الموت، وتارةً يقولون: إنّ الأصنام شفعاؤهم يوم القيامة وهكذا في سائر الشؤون.

ويمكن أن يكون المراد خصوص اختلافهم في يوم القيامة بقرينة ما قبله. ومناسبة القسم بالسماء لهذه الأقاويل المختلفة أنّ الله تعالى خلق السماء باستحكام ونظام مستقرّ وأنتم لا تستقرّ لكم رأي.

ويمكن أن يكون الخطاب للبشر، والمراد الإشارة إلى اختلاف البشر في أفكارهم وعقائدهم في الكون والحياة والشؤون الاجتماعية وما يجب وما لا يجب، وما يجوز وما لا يجوز والعادات والتقاليد والسنن وغير ذلك.

والاختلاف ناشئ من طبيعة الإنسان ولو دققنا النظر لم نجد شخصين يتفقان في جميع العقائد مهما تقاربا في العوامل الوراثية والاجتماعية وغير ذلك من المؤثرات في الفكر والعقيدة، فالاختلاف جزء من نسيج الفكر البشري وهو أمر غريب، فالإنسان بحكم كونه اجتماعياً يحاول أن يتقرب إلى أبناء نوعه، ومع أنّ الكلّ يحاول فهم الحقيقة على ما هي عليه، والحقيقة واحدة لا تختلف ومع ذلك نجد هذا الاختلاف العظيم في جميع أصناف البشر وإن كان يجمع كلّ مجموعة

منهم دين أو قانون اجتماعي أو تقاليد عرفية، ولكن سرعان ما تجد أبناء الدين الواحد يختلفون إلى مذاهب شتى، ويختلفون في كلّ مذهب إلى مسالك متعدّدة، بل لا تجد فردين من البشر يتفقان في كلّ ما يحاول البشر معرفته.

وإذا قلنا بأن معنى الحُبْك الطرائق، فربّما تشير الآية إلى أنّ الاختلاف في البشر يعدد الأفراد وكأنّ لكلّ فرد طريقه الخاصّ به كطرائق الرمل والماء التي تتكوّن بفعل الريح.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾. الإفك: هو الصرف عن الحقّ إلى الباطل، فالظاهر أنّ الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يعود إلى الحقّ المعلوم من قوله: ﴿مُخْتَلَفٍ﴾ إذ الاختلاف يدلّ على أنّ هناك حقّاً يحاول الكلّ الوصول إليه، فيصرف عنه من يصرف، والإيهام في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ يدلّ على أنّ معظم الناس مصروفون عن الحقّ نظير قوله تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِنْ آلِيَمٍّ مَا عَشِيَهُمْ﴾^١.

والتعبير المبني للمجهول من دون ذكر السبب يوحي بأنّ هناك موانع عديدة تمنع من وصول أكثر الناس إلى معرفة الحقّ، كما نجد هذه الموانع أمامنا في مختلف المجالات ولا يتنافي ذلك اختيار الإنسان ابتداءً في انتخاب طريق الهداية وإن كان بعض الموانع المذكورة خارجة عن الاختيار، كالعوامل الوراثية والبيئية والاجتماعية.

ويمكن أن تكون «عن» للتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾^٢ والضمير يعود إلى الاختلاف، أي يؤفك بسبب هذا الاختلاف قوم كثير.

١. طه (٢٠): ٧٨.

٢. هود (١١): ٥٣.

وبناءً على كون الخطاب للمشرّكين خاصّة يمكن أن يكون الضمير في: «عَنْهُ» يعود إلى الاعتقاد بيوم المعاد أو بالقرآن، كما مال إليه العلامة الطباطبائي رحمته الله.^١ ومهما كان فالغرض من الجملة الإشارة إلى أنّ قولهم هذا أو اختلافهم سبب في ضلال جمع كثير من الناس، فعليهم إثمهم وإثم من يضلّونهم، كما قال تعالى: «وَلَيُخْلِنَ أُنْقَاظَهُمْ وَأُنْقَالاً مَعَ أُنْقَالِهِمْ».^٢

﴿قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الجملة في الأصل دعاء عليهم بالقتل، والله تعالى لا يدعو على أحد؛ لأنّه تعالى هو المدعوّ وليس داعياً، فدعاؤه تعالى على أحد بالقتل قد يكون كناية عن إيقاع اللعنة عليه، وقد يكون بمعنى التنديد به وإبراز الغضب عليه، والدعاء بصورة عامّة قد لا يقصد به الدعاء كالصلاة على الرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فإنّ الناس غالباً لا يقصدون بها الدعاء، بل لا ينتبهون إلى كونها دعاءً وإنّما القصد منها إعلام الحبّ والولاء لهم، ولذلك تعدّ الصلاة عليهم شعاراً دينياً يدلّ على متابعة أهل البيت عليهم السلام.

ومثلها أيضاً الدعاء للتعجيل في فرج مولانا صاحب العصر الإمام المهدي المنتظر عليه السلام أو لطول بقائه وصحّته وسلامته، فإنّا نعلم أنّ الله تعالى حافظه وناصره ونعلم أنّه لا يعجل فرجه عن مواعده الذي لا يعلمه إلا هو، سواء طلب الناس التعجيل أو التأجيل، فليست هذه الأدعية إلا إظهاراً للحبّ والولاء والمتابعة. وقيل في معنى الآية: إنّّه من الله تعالى قضاء عليهم بالقتل، فالمعنى أنّهم سيقتلون وهو خلاف الواقع؛ إذ ليس مصير الخراصين كلّهم القتل.

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣٦٧.

٢. العنكبوت (٢٩): ١٣.

والخرص: هو الظن، ومنه خرص ثمر النخل والشجر، وليس معناه الكذب كما قيل لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^١ وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^٢، فيظهر من هذه الآيات أن الخرص هو المحاسبة على أساس الظن، كما أن تخمين الثمر أيضاً من هذا القبيل، ولكنه هنا مذموم، لأنهم ينفون المعاد لا بالاستناد إلى دليل علمي، بل لمجرد الاستبعاد والظن والتخمين، ولا يحق للإنسان أن ينفي شيئاً من دون علم.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: الغمر: في الأصل الماء الكثير المغرق، كما ذكره الخليل في «العين»^٣، ثم أطلق على كل ما يحيط بالشيء، ومنه ما يحيط بالإنسان ويغطيه مادياً كان أو معنوياً، كغمرات الجهل والباطل واللهو والسكر، وكذلك غمرة العطف والحب والحنان والنعمة، يقال: غمره بالحب والحنان أو غمرته النعمة ونحو ذلك. والمراد هنا غمرة اللهو والاشتغال بالباطل الموجب للغفلة عن الخطر العظيم الذي أمامه. و«سَاهُونَ» بمعنى غافلون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ جملة مستأنفة تبين سبب التنديد بهم في الآية السابقة وتبين أيضاً وجه غفلتهم وسهوهم، وذلك لأن السؤال يدل على عدم اهتمامهم بأصل الموضوع، فيسألون عن الوقت، مع أن هذا الأمر الخطير يجب على كل عاقل الاهتمام به حتى لو كان محتملاً باحتمال ضعيف ولا يهتم بموعده، فالمهم أنه آت، ولكنهم إنما سألوا ذلك استبعاداً وتهكماً كقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

١. الأنعام (٦): ١١٦؛ يونس (١٠): ٦٦.

٢. الزخرف (٤٣): ٢٠.

٣. كتاب العين ٤: ٤٦.

صَادِقِينَ»^١.

و«أَيَّانَ» يسأل به - على ما قالوا - عن الزمان والموعِد. وفي «تهذيب اللغة»: أنه لا يكون إلا استفهاماً عن الوقت الذي لم يَجِ،^٢ وقيل أصله: «أي أوان».^٣ وجملة «إِيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ» بيان للجملة السَّوَالِيَةِ بتقدير يقولون.

«يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» هذا جواب عن سؤالهم، أي موعد يوم الدين يوم هم... ولكنه ليس جواباً مطابقاً للسؤال، فإنَّهم سألوا عن الوقت، والجواب جاء عمّا يحدث في ذلك اليوم. والسبب أنه لا يمكن تحديد الوقت، فإنَّ الله تعالى أخفى الموعد عن كلِّ أحد، والجواب يشتمل على تهكُّم في قبال استهزائهم حيث حدّد الموعد بعذابهم.

والفتنة: الإحراق بالنار. ومن الملفت التعبير بأنَّهم على النار يفتنون، ولم يقل بالنار أو في النار، ولا يعبر في المعتاد عن حرق الإنسان بالنار بأنَّه على النار، وإنَّما يعبر بذلك في ما يشوى به عن قصد من لحم ونحوه، ولعلَّ الغرض منه الإشارة إلى أنَّهم يحرقون بها عن قصد، ولو عبر بالباء لشمَل ما لو احترقوا بها صدفة.

«ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ». المراد بالفتنة هنا النار نفسها. وإضافتها إليهم إمَّا بلحاظ أنَّها أعدت لهم أو لأنَّها من صنعهم، فإنَّ الإنسان يصنع النار والجَنَّةَ بعمله، كما ورد في الحديث وكما ورد التعبير في الكتاب العزيز عن

١. يونس (١٠): ٤٨؛ الأنبياء (٢١): ٣٨؛ النمل (٢٧): ٧١ والملك (٦٧): ٢٥.

٢. راجع: تهذيب اللغة ١٥: ٤٧١.

٣. راجع: لسان العرب ١٣: ٤٥.

عين الكافور بقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^١. فهي من صنع عباد الله.

وفي التفسير أن هذه الجملة خطاب يوجه إليهم يوم القيامة تهكماً ومزيحاً من التبكيت والإيلام، ولكن لا يبعد - كما قلنا مراراً - أن هذه الأقوال المحكية عن حال ذلك اليوم ربّما لا تكون حكاية عن خطابات واقعية، بل هي بيان الحال وإنّما يوجه إليهم الخطاب هنا ليعلموا ما سيواجههم من العذاب.

والتعبير بأنّه هو ما كنتم في الدنيا تستعجلون وتطالبون به تهكّم أيضاً، لأنهم لم يطلبوا العذاب وإنّما استعجلوا بيوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٢ وحيث كان العذاب نهايتهم التي يصلون إليها فكأنّها كانت هي المطلوبة والمقصودة، نظير ما يقال: «كالباحث عن حتفه بظلفه». وهذا الاستهزاء بهم في مقابل استهزائهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا يَوْمَ الدِّينِ﴾.

١. الإنسان (٧٦): ٦.

٢. الملك (٦٧): ٢٥.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٤﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ءِئِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٢٥﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْآلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِلَّا شَحَارِهُمُ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٨﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهكذا يتقابل المتَّقون والمجرمون، فهم في هذه الحياة صفان متقابلان، وهناك أيضاً لكل من الفريقين نهاية محتومة سعيدة أو شقية، والبون بينهما هناك شاسع جداً بخلاف ما هنا، فالمتَّقون ليسوا هنا دائماً في عذاب، والمجرمون أيضاً ليسوا دائماً في نعيم، وأما هناك فالمجرمون يوضعون على النار المحرقة كاللحوم المشوية، والمتَّقون في جَنَّاتٍ وعيُون.

والتنكير في الجَنَّات والعيُون للتعظيم، كأنها لعظمتها لا يمكن توصيفها؛ والتعبير بأنهم في عيُون بمعنى أنهم في مجموعها، أي بينها.

﴿ءَاخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الأخذ مطاوعة العطاء، فالمراد أنهم في حال الاستمتاع من عطايا ربهم الجزيلة وليس فيه معنى القبول والرضا كما يظنه المفسِّرون؛ إذ هو أمر واضح فلا حاجة إلى التنبيه عليه و﴿آتَاهُمْ﴾، أي أعطاهم، والجملة حالية وتدل على أنهم في الجنَّة مستمرُّون على هذا الحال وهو أخذ العطايا من ربهم الذي رباهم إلى أن أوصلهم إلى هذه المرحلة من الكمال، وهي تناول العطاء المستمر من الله تعالى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ تعليل للإيتاء والعطاء، وأنه مقتضى ربوبية الرب تعالى، فإن مقتضاها أن يجازى كلَّ أحد بعمله، فحيث كانوا في الحياة الدنيا محسنين استحقَّوا العطاء الإلهي. والإحسان يمكن أن يكون بمعنى العمل

بالحسنات كالصلاة والزكاة، ويمكن أن يكون بمعنى أنهم يحسنون كل عمل يعملونه، فإذا صلّوا كانت صلاتهم في الليل والناس نيام، وإذا تصدّقوا اعتبروا ذلك حقاً للفقير، كما سيأتي.

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، تكرار ﴿كانوا﴾ من دون عطف يدلّ على أنّ الجملة الثانية تفسير للجملة الأولى وبيان لإحسانهم، وقد تبين كيفية تطبيق الإحسان بالمعنيين على أعمالهم.

و«الهجوع» على ما في «العين» وحكي عن ابن السكيت وغيرهما، هو النوم ليلاً، وقيل: بمعنى النوم القليل، وقيل: إنّه ربّما يطلق على السكون أو الاضطجاع من غير نوم. و«ما» زائدة وتؤكد معنى القلة، والمعنى أنّهم ينامون أو يستريحون قليلاً من الليل. وهذا مدح في ما إذا كان الإنسان يسهر الليل بالعبادة أو طلب العلم، وليس مدحاً مطلقاً، فهناك كثير من الناس لا ينامون الليل أصلاً لاشتغالهم بالملاهي والمنكرات أو القتل والغارة والسرقة ونحو ذلك، فليس كلّ سهر بالليل ممدوحاً.

ولكن ينقل عن بعض التابعين وغيرهم أنّهم استعظموا ذلك وقالوا إنّهم لا يمكنهم أن يكونوا من المحسنين إذا كان الإحسان بهذا الشرط خصوصاً في الأزمنة القديمة حيث كان الإسراج غير ميسور لعامة الناس، فكان معظم الناس يأوون إلى الفراش في ساعة مبكرة من الليل، فمن الصعب أن يلتزم أحد بأن لا يهجع من الليل إلا قليلاً خصوصاً في ليالي الشتاء. والواقع أنّه ليس بتلك المشقة المتوهمة لمن يشتغل بالعلم أو العبادة، ولكن ورد في بعض رواياتنا تفسير الآية

بمعنى آخر يرفع هذا الاستعظام وهو أن المراد أنهم كانوا في الأغلب لا ينامون كلَّ الليل، بل يقومون في آخره للتهجد، فقلَّما يغلبهم النوم وتفوتهم صلاة الليل، وعليه فالمراد بالليل جنسه، أي قليلاً من أفراد الليل يهجعون فيها. وهذا يبتنى على أن يكون معنى «الهجوع» النوم ليلًا لا النوم الخفيف كما قيل.

روى الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب الخزاز، عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ العبد يوقظ ثلاث مرَّات من الليل فإن لم يقم أتاها الشيطان فبال في أذنيه». قال: وسألته عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال: «كانوا أقلَّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها». والسند صحيح.

ومثل هذه الرواية ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٢ حيث يأتي فيها نفس الإشكال، فقد روى الشيخ الطوسي رحمته الله بإسناده عن محمد بن الحسين، عن محمد بن إسماعيل، عن منصور، عن عمر بن أذينة عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال: «أمره الله أن يصلي كلَّ ليلة إلا أن يأتي عليه ليلة من الليالي لا يصلي فيها شيئاً»^٣. والسند صحيح.

وورد تأويل آخر لهذه الآية الكريمة في رواية أخرى رواها الشيخ الطوسي بسنده عن محمد بن علي بن محبوب، عن الحسن بن علي، عن العباس بن عامر. عن جابر عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾

١. الكافي ٣: ٤٤٦، باب صلاة النوافل.

٢. المزمَّل (٧٣): ٢.

٣. تهذيب الأحكام ٢: ٣٣٥، الحديث ٢٣٦.

قال: «كان القوم ينامون ولكن كلما انقلب أحدهم قال: الحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»^١. وبناءً على هذا التأويل كانوا ينامون كل ليلة، وكلّ الليل إلا وقت التهجد، ولكنهم كانوا يذكرون الله تعالى كلما تقلّبوا في الفراش، ولكن التأويل الأوّل أقرب وروايته أصحّ.

﴿وَيَا أَشْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. الأسحار: جمع سحر وهو آخر الليل، وقيل: الثلث الأخير منه. والاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى، وقد تأكّد الاستغفار سبعين مرّة في قوت الوتر، ولذلك قيل: إنّ المراد بالاستغفار هنا صلاة الليل؛ ولكنّه بعيد. وأتى بالضمير تأكيداً على أنّهم هم المستغفرون فقط دون غيرهم في إشارة إلى قلّة المستغفرين في الأسحار، لأنّه وقت راحة. وفي بعض التفاسير أنّهم يقومون طول الليل بالعبادة، ثمّ يستغفرون في آخره، كأنّهم قد أذنبوا طول الليل خوفاً من التقصير في العبادة، ولكن ليس في الآية ما يدلّ على أنّهم يستغفرون من تهجّدهم.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. كان ما مضى صفتهم في مقابل ربّهم، وهذه الآية تبيّن موقفهم في الشؤون الاجتماعية، فالتهجد في الليل والاستغفار في السحر لا يعزلهم عن المجتمع ولا يمنعهم من مشاركة الفقراء والمحرومين ألامهم، فهم يعتبرون أموالهم الشخصية مشتركة بينهم وبين الفقراء.

والتعبير يدلّ على أنّهم لا يعتبرون ما يدفعونه للسائل والمحروم صدقة أو تبرّعاً، بل يعتبرون ذلك حقاً من الحقوق المفروضة عليهم في أموالهم، مع أنّ الظاهر أنّه لا يراد به الزكاة الواجبة، فإنّ الزكاة لها مصارف محدّدة وليست خاصّة بالفقراء، مع أنّه لا يجوز دفعها للسائل مع عدم العلم باستحقاقه. وقد ورد

ذلك أيضاً في روايات أهل البيت عليهم السلام في آية مشابهة وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^١

روى الكليني رحمته الله بسنده عن سماعة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال - في حديث - : «ولكن الله عز وجل فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، فالحق المعلوم غير الزكاة وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله، يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله، فيؤدي الذي فرض على نفسه إن شاء في كل يوم وإن شاء في كل جمعة وإن شاء في كل شهر»^٢.

وروى بسند صحيح عن أبي بصير، قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا بعض أصحاب الأموال، فذكروا الزكاة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الزكاة ليس بمحمد بها صاحبها وإنما هو شيء ظاهر، إنما حقن بها دمه وسمي بها مسلماً ولو لم يؤدها لم تقبل له صلاة، وإن عليكم في أموالكم غير الزكاة». فقلت: أصلحك الله. وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال: «سبحان الله أما تسمع الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾» قال: قلت: ماذا الحق المعلوم الذي علينا؟ قال: «هو الشيء يعمل به الرجل في ماله يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشهر قل أو كثر غير أنه يدوم عليه»^٣. وعن القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن رجلاً جاء إلى أبي - علي بن الحسين عليه السلام - فقال له: أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ما هذا الحق المعلوم؟ فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «الحق المعلوم الشيء يخرج من ماله ليس من الزكاة ولا من الصدقة المفروضة. قال: فإذا لم

١. المعارج (٧٠): ٢٤ - ٢٥.

٢. الكافي ٣: ٤٩٨، باب فرض الزكاة، الحديث ٨.

٣. الكافي ٣: ٤٩٩، باب فرض الزكاة، الحديث ٩.

يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو؟ فقال: هو الشيء يخرج الرجل من ماله إن شاء أكثر وإن شاء أقل على قدر ما يملك. فقال له الرجل: فما يصنع به؟ فقال: يصل به رحماً ويقوي به ضعيفاً، ويحمل به كلاً أو يصل به أخاً له في الله أو لنائبة تنوبه، فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته»^١.

والظاهر أن الفرق بين السائل والمحروم، أن الأول يطلب المساعدة ولا يعلم كونه صادقاً في استحقاقه، وقد علم من الروايات بل الآيات أيضاً ومنها هذه الآية أن السؤال أمانة على الاستحقاق ما لم يعلم الخلاف.

وأما المحروم فهو من يعلم حرمانه واحتياجه ولكنه لتعففه لا يسأل، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ لَا يُسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفَافاً﴾^٢ وفي الروايات أن المراد به المحارف وهو - بفتح الراء - الذي لا يصيب خيراً من وجه توجه له، كأن رزقه حُرِفَ وحُوِّلَ عنه فلا يصل إليه مع محاولته.

روى الكليني بسند معتبر عن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ قال: «المحروم المحارف الذي قد حُرِمَ كَدُّ يده في الشراء والبيع»^٣.

وقال الكليني: وفي رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالوا: «المحروم: الرجل الذي ليس بعقله بأس ولم ييسط له في الرزق وهو محارف»^٤.

١. وفي نسخة: «ويقري به ضيفاً».

٢. الكافي ٣: ٤٩٩، الحديث ١١.

٣. البقرة (٢): ٢٧٣.

٤. الكافي ٣: ٥٠٠، الحديث ١٢.

٥. الكافي ٣: ٥٠٠، ذيل الحديث ١٢.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوزِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿وفي الأرض آياتٌ للمؤمنين﴾. جملة استثنائية وقد بدئت مع ثلاث آيات بعدها بقوله: ﴿وفي﴾ ممّا يوهم أنّها معطوفة على الآية السابقة، ولكنها ليست كذلك، كما هو واضح وإن كانت في نفس السياق، فإنّ هذه الآيات تحثّ الإنسان على التدبّر والتفكّر في نفسه، وفيما حوله ليحصل على يقين المتّقين الذين سبق ذكرهم، ولذلك قال ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويتجنّب اللعنة التي يستحقّها الخراصون.

فنظرة إلى الأرض وما فيها وكيفية تدبير أمورها تكفي للإنسان أن يؤمن بأنّ الخالق هو المدبّر للكون، حيث خلق كلّ شيء بحكمة وتدبير دقيق لا يمكن دركه بكنهه ولا الإحاطة بجوانبه حتّى إجمالاً.

ويتبيّن للإنسان بذلك أنّ كلّ هذه الدقّة والتدبير ليس إلا لهدف منشود، فإذا لاحظ كلّ ما في خلق الإنسان من دقّة وحكمة تبيّن له أنّ الله تعالى لم يخلقه سدىً، وأنّه لا بدّ من عالم آخر تحاسب فيه الأعمال، ويوضع كلّ إنسان موضعه. وفي الأرض آيات عجيبة باهرة لا يمكن لإنسان واحد عدّها حتّى بالإجمال، فإنّ ذلك يتوقّف على اختصاصات شتى، والقرآن ليس كتاباً علمياً يحدّد هذه الجهات، وليس هذا من شأنه، وإنّما ينبّه الإنسان ليتأمّل جوانب الكون حسبما أوتي من علم وبصيرة، فكما أنّ الإنسان يلاحظ عظمة الآيات الإلهية في هذا العصر بفضل ما توصّل إليه العلم والأبحاث الكونية كذلك، كان يلاحظها في تلك العهود البدائية، وكلّما تقدّم به العلم والبحث توصّل إلى عجائب أخرى من

خلقة الله تعالى وحكمته وتديره، وكلّما اتسع العلم بحثاً وعمقاً تأكّد لديه أنّ مجهولاته أكثر من معلوماته، بل اتّضح له في كلّ مرحلة عالم واسع كبير لا يبلغ مداه. وقد أفرد العلماء الباحثون كلّ حسب اختصاصه كتباً في عدّه الآيات العظيمة وذكر تفاصيلها حسب ما توصل إليه الإنسان في كلّ عصر.

فمن باب المثال لا الحصر يلاحظ أنّ الله تعالى خصّ هذا الكوكب - في ما نعلم - بمقومات الحياة ولذلك دبر له كلّ مستلزماته بدقّة متناهية، وكما يقول العلماء: لو اختلّ هذا النظام أقلّ اختلال لم يمكن استمرار الحياة على الأرض، فلو تغيّر حجمها صغراً أو كبيراً أو تغيّر بعدها عن الشمس أو تغيّر ميل الأرض على محورها أو تغيّرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطأً أو تغيّر حجم الغلاف الجوّي المحيط بها، أو تغيّر حجم القمر أو بعده عنها أو تغيّر حجم مياه المحيطات أو ارتفاعها وانخفاضها إلى غير ذلك من أنحاء الاختلال لم يمكن استمرار الحياة.

ومن الغريب أنّ بعض علماء الطبيعة - على ما حكى عنه - يذكر جانباً من عجائب هذه النسب الدقيقة، ثمّ ينسب التعادل والتناسب في الغازات المحيطة بالأرض إلى المحيطات. وقال: إنّ من يدرك تأثير المحيطات في بقاء الحياة يجب أن يخضع لها ويشكرها على مواهبها.

يا للجهل والغباء! هل هذا هو نتيجة كلّ هذه العلوم والاكتشافات، فيعود الإنسان إلى الجاهلية الأولى، فكما هم عبدوا الأصنام أخذ الآن يعبد البحر المحيط ويسجد له ويشكره على نعمائه؟! أما أنّ للإنسان أن يعقل أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون بهذه العظمة وهذه الدقّة وهذا النظم إلا بتدبير مدبّر حكيم

فيخضع له ويشكره على نعمائه؟!

وهنا يتبين وجه التقييد الوارد في الآية حيث يدلّ على أنّه لا يستفيد من هذه الآيات إلا الموقنون، وليس المراد بالطبع خصوص من حصل لهم اليقين بالفعل؛ إذ لا يبقى حينئذ وجه لحثّ الإنسان بوجه عامّ على التفكّر والتدبّر، بل المراد بهم من هم من أهل اليقين، فهناك نوع من الناس لا يؤمنون بالآيات مهما كانت واضحة، وذلك لإخلادهم إلى الأرض، فبالرغم من تعمّقهم في عجائب الخلقة وسعة اطلاعهم على خبايا أسرار الكون إلا أنّهم لا يتجاوزون حدود المدلول الأرضي للعلم: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^١ فهؤلاء ليسوا من أهل اليقين ولا تنفعهم الآيات.

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. يكفي الإبصار لمعرفة آيات الله تعالى في خلق الإنسان حتّى لو لم يتعمّق فيه بما توصّل إليه العلم والدراسة، فالإنسان يلاحظ في نفسه عجائب من تدبير الله تعالى من دون مراجعة للبحوث العلمية، والقرآن ينبّه الإنسان الساذج على ملاحظة هذه الآيات بدءاً من خلقه أنّه كيف خلقه الله تعالى من نطفة، وكيف مزج النطفتين، كما قال تعالى: «مِنْ نُّطْفَةٍ امْشَاجٍ»^٢ وكيف تحوّل خلقه إلى علقه، ثمّ إلى مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، ثمّ تكوّنت العظام، ثمّ اكتمت العظام لحماً، ثمّ أنشأ خلقاً آخر، وهو روح ونفس واحدة تجمع كلّ هذه الشاتات، فالجسم يتغيّر وتتبدّل أجزاؤه ولا يؤثر ذلك في تحوّل الشخصية. ثمّ إنّّه يلاحظ في جسمه مختلف الأعضاء والجوارح والأدوات التي بها

١. الروم (٣٠): ٧.

٢. الإنسان (٧٦): ٢.

يقضي حوائجه ويلاحظ أعضائه وقواه الداخلية، كيف تعمل عملها بانتظام في تناول الطعام والشراب، وتغذية الجسم وهضم الطعام، وخروج الفضلات وما يضرّ بالجسم، والتنفس ومقاومة الأمراض، والشعور بالجوع والعطش والتناسل وغير ذلك ناهيك عن كيفية تعقله للأمور وحفظه وتفكيره واستنتاجه، ثم يلاحظ تناسب ما حوله من الأمور الطبيعية لمستلزمات حياته وغير ذلك مما يتعقله الإنسان العادي، بل يبصره ويتحسّسه ويلمسه بكل وجوده، فلا يبقى له شك بعد ذلك في وجود خالق حكيم مدبّر رحيم رؤوف عباد.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. الرزق: هو العطاء والإنعام، وليس فيه معنى الجريان والاستمرار، كما قيل، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةُ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾^١، كما أنه لا يختصّ بالعطاء المحدّد بوقت خاصّ كما قيل أيضاً، وذلك بملاحظة الآية التالية، حيث أطلق الرزق على العطاء المستمرّ.

والرازقية من شؤون الربوبية، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^٢ والظاهر أنّ المراد بالرزق هنا كلّ ما يوجب استمرار البقاء بعد الخلق والتطور والتكامل اللازم إلى أن يصل الإنسان إلى الكمال المنشود، فهذا الرزق مرحلة تعرضه للعطايا الإلهية طيلة حياته في الدنيا ويشمل ذلك ما يحتاجه في شؤونه الماديّة والمعنوية ومنها الهداية، فكلّ ذلك من الرزق الإلهي المستمرّ.

ولكنّ الرزق بمعناه الواسع لا يختصّ بذلك، فقد أطلق في القرآن الكريم

١. النساء (٤): ٨.

٢. الروم (٣٠): ٤٠.

على ما يمنحه الله تعالى في الحياة الأخروية وفي البرزخ أيضاً قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^١ وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾^٢ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^٣.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ بمعنى أن الرزق من عند الله بناءً على أن المراد بالسماء جهة العلو المعنوي وعالم الأمر، فمفاد هذه الآية نفس ما تفيدته الآية السابقة، أي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾^٤ وكونه في السماء قيل بمعنى أن تقدير رزقكم فيها، ويمكن أن يكون المراد أن الرزق بالمعنى المصدري يتحقق في السماء، أو أن خزائن الرزق عند الله تعالى، كما قال عز من قائل: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^٥ والعندية هنا ليست مكانية، كما أن الظرفية في الآية مورد البحث ليست مكانية، وما من شيء على الأرض، بل في الكون بصورة عامة إلا وهو ينزل من السماء بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^٦ وقال أيضاً: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾^٧ فالرزق كالخلق وكأي حادث آخر أصله في السماء ومن السماء.

١. سبأ (٣٤): ٤.

٢. الأعراف (٧): ٥٠.

٣. آل عمران (٣): ١٦٩.

٤. الروم (٣٠): ٤٠.

٥. الحجر (١٥): ٢١.

٦. الزمر (٣٩): ٦.

٧. الحديد (٥٧): ٢٥.

وقيل: إن المراد بالسماء جهة العلو الحسي، والمراد بالرزق المطر؛ لأنه سبب لكثير من الأرزاق، كما عبّر به عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^١، وهو بعيد عن الآية مورد البحث خصوصاً بملاحظة عطف ﴿مَا تُوَعَّدُونَ﴾، والتعبير عن المطر بأنه رزق لا يقتضي أن يحمل الرزق بقول مطلق عليه.

وقوله: ﴿وَمَا تُوَعَّدُونَ﴾ عطف على رزقكم، أي كلّ ما توعّدون به من خير وشرّ في الدنيا والآخرة وفي أيّ مرحلة من مراحل الوجود إنّما يأتيكم من السماء، فهناك خزائن كلّ شيء.

والعطف هنا من عطف العامّ على الخاصّ، فإنّ الرزق في الجملة ممّا وعده الله للإنسان ولكن بعض أنواعه مقتضى الربوبية ويتبع الخلق، كما مرّ في آية سورة الروم ولا يختصّ بالإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^٢ كما أنّه يتعلّق بالإنسان من بدء الخلقة قبل أن يتعلّق شيئاً وتشمله الوعود. والحاصل أنّ المراد بما توعّدون كلّ ما يتحقّق للإنسان والذي وعده الله تعالى، ومنه ما وعده من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، وكذلك وعده تعالى بنصرة أنبيائه ﷺ والمؤمنين بهم، ولا وجه لتخصيصه بالثواب، كما في «الميزان»^٣، وخصوصاً بملاحظة الآية التالية، بل لا يبعد بملاحظة الآيات التالية المبيّنة لعاقبة المكذّبين من الأقوام السابقة أن يكون محطّ النظر في هذا الوعد ما

١. الجاثية (٤٥): ٥.

٢. هود (١١): ٦.

٣. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣٧٥.

تكرّر التهديد به في مخاطبة مشركي مكّة من احتمال نزول العذاب الإلهي عليهم. والوعد لا يختصّ بالخير كما توهم، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾^١ وغيرها من الآيات. وقد مرّ نحوه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.

﴿قَوْرَبُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾. اختلفوا في مرجع الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ وأقوى ما قيل: إنّه يعود إلى ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ وقد تكرّر في الكتاب العزيز التأكيد على أنّ وعد الله حقّ، فالبشر الجاهل البعيد عن معرفة الله تعالى يتوهم أنّ ما وعده تعالى كمواعيد غيره قد يتحقّق وقد لا يتحقّق، وعليه فالمراد هنا أيضاً التأكيد على أنّ مواعيده تعالى تتحقّق بلا ريب، ولعلّ التأكيد إنّما هو على ما وعده من الثواب والعقاب في الآخرة، فإنّها هي التي يكذب بها كثير من الناس ويستبعدونها فاستلزم التأكيد والقسم، ويحتمل - كما مرّ آنفاً - أن يشير بذلك إلى احتمال نزول عذاب الاستئصال.

ويحتمل بقرينة القسم ربّ السماء والأرض أن يكون مرجع الضمير هو كون الرزق وما يوعدون في السماء ومن السماء، أي من عند الله تعالى؛ فيكون الغرض من اختيار هذه الصفة ﴿رَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الإشارة إلى أنّ ربّ السماء والأرض واحد، فالذي يقدر ما في الأرض من رزق وغيره هو ربّ السماء بذاته. والتشبيه بالنطق باعتبار أنّه أمر محسوس ومن فعل الإنسان، فلا يمكن أن يرتاب فيه. و﴿مِثْلُ﴾ منصوب وصفاً بتقدير مفعول مطلق، أي إنّهُ لَحَقٌّ حَقّاً واضحاً مثل نطقكم.

هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٦﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
 قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٧﴾ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٨﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ
 قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَنُشْرُوهُ بِغُلْمٍ عَلِيمٍ ﴿٣٠﴾
 فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ
 رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٢﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾. يبدأ من هنا بذكر بعض الأخبار عن
 الأنبياء والمرسلين والأقوام الذين بعثوا إليهم، ليكون تأكيداً على ما مر من أن
 وعد الله حق، وابتدأ بذكر قوم لوط وما نزل عليهم من العذاب وقدّم على ذلك
 قصة نزول الملائكة على إبراهيم عليه السلام كما تكرر ذلك في القرآن الكريم، وفي
 ذلك إشارة إلى أمر مهم ينبغي التنبيه له وهو عظمة مقام الرسول صاحب الشريعة
 حيث كان لوط يتبع شريعة إبراهيم عليه السلام وكان ممن آمن به، كما في قوله تعالى:
 ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ﴾، ثم أرسل إلى هذا القوم ليلبغهم شريعة إبراهيم عليه السلام فلما قضى الله
 عليهم العذاب أرسل الملائكة أولاً إلى إبراهيم ليخبروه بذلك ويبدو منه أن من
 سننه تعالى أنه لا يعذب قوماً حتى يخبر الرسول صاحب الشريعة، ولعلّ تلطيف
 الجوهر هو السبب في تبشيره بالولد مقدّمة لإخباره بذلك.

ويلاحظ غاية شفقه عليه السلام على أمته، حيث جادل الرسل في ذلك وطلب لهم
 الإمهال، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ
 لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ

آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ^١. ويلاحظ أن الله تعالى مدحه على ذلك، ثم طلب منه الملائكة أن يعرض عن ذلك، لأن الأمر فيه محسوم من قبله تعالى شأنه. ويتبين مما ورد في سورة العنكبوت أنه جدد المحاولة بحجة أن لوطاً في المدينة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ^٢﴾. فيتبين من هذه الآية أن هذه المحاولة غير ما ذكره في سورة هود؛ لأن التعبير هناك أنه يجادلهم في قوم لوط، وهنا أتى بعذر آخر وهو وجود لوط بينهم.

وهذه الشفقة بادية بوضوح في دعائه ﷺ المحكي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ^٣﴾، حيث إنه لم يدع على الذي يعصيه في عبادة الأصنام، بل طلب له المغفرة مع أنه إمام الموحدين، وما كان يهتم بأمر كاهتمامه بنشر التوحيد. فانظر الفرق بين ما يدعو إليه هذا الرسول العظيم وما ينشره المتشددون في هذا العصر من التحريض على قتل المسلمين الموحدين باتهامهم بالشرك.

والاستفهام هنا بقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ ينبّه على أهمية الحديث، كما تقول لمن تريد أن تخبره بواقعة مهمة: هل سمعت بكذا وكذا، والضيف يطلق على المفرد

١. هود (١١): ٧٤ - ٧٦.

٢. العنكبوت (٢٩): ٣١ - ٣٢.

٣. إبراهيم (١٤): ٣٥ - ٣٦.

والجمع، لكونه في الأصل مصدرًا، ومعناه في الأصل الميل والعطف، ومنه إضافة الشيء إلى الشيء أطلق عليه لميله وانعطافه إلى القوم أو لإضافته إليهم، فكأنه أصبح واحداً منهم. والظاهر أن توصيف الضيف بكونهم مكرمين إشارة إلى إكرام إبراهيم عليه السلام لهم قبل أن يعرفهم، ولذلك لم يرد الوصف في سورة الحجر حيث لم يرد ذكر لإكرامه إياهم، قال تعالى: ﴿وَبَيَّنُّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾^١ وهذا الوجه أقرب من القول بأن التوصيف بلحاظ كونهم مكرمين عند الله لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُتَكْرِمُونَ﴾^٢.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. الطرف متعلق بالحديث أو بالمكرمين، بناءً على ما مر من أن المراد إكرام إبراهيم عليه السلام لهم. والآيات تدلّ بوضوح على أنهم تمثلوا بصورة بشر ودخلوا عليه وهو أمر ممكن ولا نعرف كيفيته، وما يقال في هذا الشأن تخرص على الغيب.

وقوله تعالى: ﴿سَلَامًا﴾ مقول قول الرسل، وهو مفعول مطلق، أي نسلم سلاماً. وقوله عليه السلام في الجواب ﴿سَلَامٌ﴾ بتقدير عليكم. قالوا إنه أتى بالجملة الاسمية في الجواب ليكون أحسن من تحيتهم، فإن الجملة الفعلية كقولهم «نسلم سلاماً» تدلّ على الحدوث، والاسمية تدلّ على الثبوت والاستمرار، وهذا أيضاً جزء من إكرامه عليه السلام لضيفه، وورد مثله أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِابْتِسْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾^٣.

١. الحجر (١٥): ٥١ - ٥٢.

٢. الأنبياء (٢١): ٢٦.

٣. هود (١١): ٦٩.

وأما قوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ فلا ينافي الإكرام، بل يؤكد، لأنه يدل على أنه أكرمهم بالرغم من إعلانهم أنه لا يعرفهم. ولكن المفسرين أولوا ذلك بأنه لم يخاطبهم بذلك، بل قاله لمن حوله، وهو خلاف الظاهر ولا وجه للتأويل. وكثيراً ما يستفهم الإنسان من يحييه بعد رد التحية بأفضل ما يكون ويسأله من هو وأنه لا يتذكره.

والسلام والسلم والسلامة بمعنى واحد، وهو ما يقابل الابتلاء بالآفات والعهات الظاهرة والباطنة. والظاهر أنه إنما عدّي بـ «على» باعتبار أن السلامة من الله تعالى، فكأنه يوقع السلامة عليه فيشملة ويكتنفه. وإذا نسب السلام إليه تعالى فهو نفس إيقاع الأمن والسلامة. وقد لا يكون سلامة جسمية، بل سلامة في الدين كقوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾^١ وإذا نسب إلى غيره تعالى فهو دعاء إلا ما يصدر من الملائكة عليهم السلام بأمر منه تعالى، كما ورد في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^٢، فإنه أيضاً إيقاع للأمن والسلامة.

ولكن الذي يصدر من غيره تعالى لا يقصد به الدعاء غالباً، بل يراد به التحية، كما أن الصلاة على النبي وآله يقصد بها الاحترام وإعلان الولاء، فلا مانع من كون المعنى في الأصل هو الدعاء، ولكن يقصد به التحية أو الوداع أو الاحترام ونحو ذلك.

﴿فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾. الروغان: الميل إلى الشيء في خفاء، فالمعنى

١. مريم (١٩): ١٥.

٢. الزمر (٣٩): ٧٣.

أَنَّهُ الطَّيِّبُ انتَهز فرصة غفلتهم حسب ظَنَّهُ ليدخل على أهله ويأتيهم بطعام، وهذا أيضاً من إكرامه الطَّيِّبُ حيث أخفى ذلك عنهم. ثمَّ إِنَّه جاءهم بعجل سمين ووصفه في سورة هود الآية ٦٩ بالحنيذ أي المشوي، ويبدو من الآية أَنَّ الطعام كان أكثر من حاجتهم الظاهرية، حيث أكد على أَنه أتى بعجل سمين، وفي الروايات إِنَّهم كانوا ثلاثة وفي بعضها أربعة، وهذا أيضاً من كرمه وإكرامه الطَّيِّبُ لضيفه، ويدلّ على جواز ذلك في إكرام الضيف وهو قطعاً مشروط بأن لا يستوجب التبذير وإهدار المال.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾. وهذا أيضاً من إكرامه لهم، حيث قَرَّبَ الطعام إليهم ولم يدعهم إلى مكان الطعام، ولكنّه فوجئ بامتناعهم من الأكل فسألهم مستغرباً: أَلَا تَأْكُلُونَ؟

والحاصل أَنَّ في الآيات الكريمة بيان لوجوه من الإكرام: جوابه في التحيّة والروغان وكثرة الطعام وتعجيله في إحضاره وعرضه عليهم. والفاء في هذه الأفعال المتتالية للعطف وتفيد تتبعها، والتعجل بإحضار الطعام إليهم، وفي ذلك أيضاً إكرام للضيف.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. الوجس: الصوت الخفيّ، فالمراد بالإيجاس الشعور الخفيّ، أي شعر في قرارة نفسه بخوف ضعيف خفيّ؛ فلم يظهره، فكأنّه شعر بنوع من عدم الارتياح لامتناعهم من الأكل، والظاهر أَنَّ السبب فيه هو احتمال قصد الشرّ فيهم، فَإِنَّ الضيف إذا أكل من طعام مضيفه لا يضمن له الشرّ غالباً، ومع أَنه أخفى خوفه إلا أَنه لا يخفى على الملائكة، فقالوا له: لا تخف، فعرف أَنهم ملائكة ربّه ولم يكتفوا ببثّ روح الطمأنينة فيه، بل

بشروه بـغلام عليم.

والمفسرون قالوا: إن معناه أنه سيكون عليماً بالوحي بعد ذلك. ولكن الظاهر أن المراد كونه عليماً حين كونه غلاماً، ولا عجب من فعل الله تعالى، كما حصل في يحيى وعيسى عليهما السلام. وجه الاستظهار هو ما ذكرناه في تفسير سورة الصافات في توصيف إسماعيل عليه السلام بالـغلام الحليم، وهو أن الإنسان يمرّ بمراحل قبل الغلّة وبعدها، فإن كان المراد التوصيف بالعلم والحلم في الكبر، فلا وجه لذكر الغلّة معه، فالظاهر أن المراد بذلك الإشارة إلى أنه عليم في أيام غلّته وهي أيام الطيش والجهالة في عامة الناس، كما أن إسماعيل عليه السلام وصف بالحلم في أيام غلّته وهي أيام ثوران الشهوة والتسرّع والاندفاع.

والمراد به إسحاق عليه السلام كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾^١ والقصة واحدة، ومن الغريب ما حكي عن بعضهم من أن المراد به إسماعيل عليه السلام.

﴿فَأَقْبَلَ بِنُورِهِ فِي صَرََّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾. الظاهر أن المراد بإقبالها أنها أقبلت على الرسل حينما سمعت كلامهم، وقيل: أقبلت على أهلها. والظاهر أيضاً أن المراد بالصرّة الصياح أو شدّته، كما هو أحد معاني الكلمة، ولعلّ الأصل في معناها هو الشدة، يقال ريح صرصر أي شديد، وقيل: معناها الجماعة، أي أقبلت في جماعة من نسائها، وهو بعيد لا يناسب المقام. وصكّت أي لطمت وضربت وجهها بقوة وصوت وهو معنى الصكّ، والمناسب للفظه وإنما عبّر به عن الصكّ الذي يدفع حين العقد والمبايعة، لأنهم كانوا يضربون بأيديهم بعضاً ببعض تعبيراً عن شدة

التزامهم بالعقد، ولذلك أيضاً يعبرون عن البيع بالصفقة.

والحاصل أن سارة عليها السلام أقبلت إلى الرسل وهي تصيح وتضرب وجهها لشدة استغرابها للخبر حيث كانت كبيرة في السن وعقيمة لا تلد وزوجها أيضاً كبير في السن ولم يولد له إلى ذلك اليوم إلا إسماعيل عليه السلام بعد لأي من الزمان.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، أي أنا عجوز عقيم. والعجوز: فعول بمعنى الفاعل، أي العاجزة، وهي المرأة الشبيخة أطلق عليها ذلك، لأنها تعجز عن كثير من الأمور، ونذر التعبير عنها بالعجوزة، ولا يطلق العجوز على الرجل الهرم.

والعقيم: المرأة التي لا تلد والرجل الذي لا يولد له، وهو فعيل بمعنى المفعول، أي عقمه الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾^١ وسيأتي البحث عن معنى العقم إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾^٢ في نفس السورة.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾، «كذلك»، أي كما أخبرناك، قال ربك، فليس هذا كلاماً من عندنا والله تعالى حكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة، فلحكمة آخر هذه الولادة، ولحكمة يهب هذا المولود المبارك في هذه الظروف الغريبة وهو عليم بالحال، فلا يخفى عليه حالك وحال زوجك.

وفي سورة الحجر حكى نظير هذه المحادثة بين الرسل وإبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشِّرْهُنِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا

١. الشورى (٤٢): ٥٠.

٢. الذاريات (٥١): ٤١.

الضَّالُّونَ^١ وطبقاً لهذه الحكاية كان إبراهيم عليه السلام هو الذي أبدى استغرابه من البشارة، ولا مانع من تكرار الواقعة، فأجاب الرسل تارةً عن استغراب إبراهيم عليه السلام وتارةً عن استغراب زوجته.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ﴿٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٧﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾. الخطب: قيل: إنه بمعنى الشأن العظيم وإنه أطلق عليه ذلك، لأنه يكثر فيه التخاطب. وقيل: إنه بمعنى الشأن مطلقاً لقولهم خطب يسير، وفي «معجم المقاييس»: والخطب: الأمر يقع وإنما سُمِّيَ بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة؛ وقال الخليل في «العين»: إنه بمعنى سبب الأمر. فمعنى السؤال: ما هو شأنكم المهم أو ما هو سبب نزولكم، حيث إنه تبين له أن هذه البشارة ليست هي الشأن الأساسي لنزولهم، فسأل: ما هو الشأن العظيم الذي نزلتم له؛ ولعله عرف ذلك من عددهم أو حالتهم.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أفصح الملائكة أن مهمتهم إنزال العذاب على قوم مجرمين وهذا عذاب الاستئصال يبيد قوماً بأجمعهم لا يشدّ منهم أحد حتى الشيوخ والأطفال، فتدفن القابليات وتبيد ثقافة بشرية بكاملها، وهذا لا يتحقق إلا في ظروف خاصة.

والمراد بالقوم هنا قوم لوط عليه السلام اختاره الله تعالى رسولاً إلى قوم في قرية سدوم ليدعوهم إلى التوحيد وإلى شريعة إبراهيم عليه السلام. والرسول من أمثاله كثير،

وإنما ذكره الله تعالى لخصوصية في قومه جرّتهم إلى هذا العذاب المخزي، وكان القوم يرتكبون الفواحش ويأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويأتون في ناديهم المنكر علانية، فأتاهم لوط عليه السلام وتجرع الغصص في إنذارهم وتخويفهم، فلم ينفع فيهم، بل تمادوا في غيهم وأعانتهم زوجة لوط على كفرهم وعنادهم، فاستحقوا عذاب الاستئصال.

وفي البشر في عصرنا وغيره من هم مثلهم أو أكثر منهم طغياناً وكفراً وخوضاً في المفسدات الاجتماعية والخلقية، ولكن الفرق الواضح هو وجود رسول معصوم بينهم يأتيتهم بالآيات البينات وينذرهم عذاب ربهم، ولا شك أنهم كانوا يعلمون صدقه وخلوص نيّته، ولذلك بقي فيهم آمناً لم يعتدوا عليه، ولكنهم رفضوا الانصياع لأوامره والإيمان به ترجيحاً لما تتطلّبه شهواتهم ونزواتهم. وهذا هو الإجماع الحقيقي حيث يقدم الإنسان هواه الخسيس على إطاعة ربه.

والإجرام هو اكتساب الإثم والخطيئة، وقيل: إنّ أصله القطع أطلق على من يأتي بإثم، لأنّه بذلك يحوز شيئاً ويكتسبه، فكأنّه اقتطع ثمرّاً من شجرة، ولكن هذا غير صحيح؛ لأنّه لا يطلق على من يكتسب الخير. وقلنا سابقاً إنّ الإطلاق لعله من جهة أنّه يقطع بذلك علاقته بربه؛ فإنّ الإجرام في العرف لا يطلق على كلّ مخالفة للقانون، بل على ما يوجب انفصال الإنسان عن مجتمعه، كقتل النفس ونحو ذلك، فإذا أطلق في الشرع فيراد به من قطع علاقته بربه.

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ طِينٍ﴾ ورد التعبير عن عذاب هذا القوم بالمطر في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وفي آيات أخرى

أيضاً، ويَبين في سورة هود حقيقة هذا المطر، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ^١ ونظيره قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ^٢ وعبر عن عذابهم في سورة القمر بأنّه كان حاصباً، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ^٣ والحاصب الريح التي تحمل الحصباء أو تحصب القوم بمعنى أنّها ترميهم بالحجارة.

وأما «السجّيل» فقد اختلفوا في معناه، والظاهر أنّه معرّب من «سنگ گل»، أي حجر الطين أو الطين المتحجر أو حجارة من طين كما ورد هنا. وقيل: إنّها كلمة عربية بمعنى المرسل، وقيل: بمعنى كثيرة شديدة، وقيل: بمعنى أنّها حجارة سجّل عليها، وكلّ ذلك بعيد لمكان «من»، ويرد على الأخير أيضاً أنّه يلزم التكرار لقوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً﴾. ومهما كان فصريح هذه الآية أنّها كانت حجارة من طين وربّما يستغرب من اختيار ذلك لأنزال العذاب وإهلاك القوم مع إمكان استخدام حجارة صلبة، بل قطعاً من حديد ونحوه.

ومن الملفت للنظر أنّ ما أرسله الله تعالى لإهلاك أصحاب الفيل أيضاً كانت حجارة من سجّيل، ولعلّ السرّ في ذلك إعلام الناس بأنّ هلاك القوم، إنّما كان من جهة أنّه عذاب الله تعالى لا بسبب صلابة الحجارة وإلا فما كان ينبغي أن يموت الجميع بهذه الحجارة الرخوة، ولذلك قيل في أصحاب الفيل إنّ الحجارة

١. هود (١١): ٨٢ - ٨٣.

٢. الحجر (١٥): ٧٣ - ٧٤.

٣. القمر (٥٤): ٣٤.

كانت تقع على رؤوسهم وتخرج من أدبارهم. وأمّا ما ذكره بعض المفسرين الجدد من أنّه لا يبعد أن تكون تلك الحجارة من بركان ثائر في نفس الوقت المحدّد بتدبير من الله تعالى، فلا دليل عليه ولا موجب لفرضه، فكأنّه استغرب أن يقتل هذا الجمع الكثير بحجارة من طين ووحل.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، أي معلّمة عند ربّك، والسوم والسيما: العلامة. ومعنى كونها معلّمة أنّها ليست من الحجارة العامة، بل هي حجارة خاصّة، خلقها الله تعالى ليعذب بها المسرفين، الذين تجاوزوا الحدّ في إجرامهم، ولعلّها ليست من جنس هذا الطين. وقد مرّ بيان سبب التعبير عنها بأنّها من طين. والتعبير عن الله تعالى بالربّ مضافاً إلى إبراهيم عليه السلام يتضمّن أمراً، وهو أن الحكم محسوم من قبل ربّك، فلا تجادل فيه، كما صرّح بذلك في سورة هود وقد مرّ بيانه.

ويمكن أن تكون هذه الجملة خطاباً لنبيّنا صلى الله عليه وآله كما هو كذلك قطعاً في نظيرها في سورة هود، فيكون التعبير بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ إشارة إلى احتمال أن يصيب هذا العذاب قومك أيضاً إذا عاندوك، كما أنّ التعبير عن القوم بالمسرفين ينبئ عن أنّ مورد هذا العذاب كلّ من تجاوز الحدّ في الإجمام ولا يختصّ بنوع خاصّ منه، كمن يرتكب عمل قوم لوط. وعبر عن هذا التعميم في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾^١ والمراد أنّه قريب من جميع الظالمين. وفيه تعريض بكفّار قريش، وهذا القرب من جهة الاستحقاق وليس قرباً مكانياً، كما توهم بعضهم حيث قال: إنّ المراد كونها موجودة حوالي بلدهم، أي قوم لوط وأنّه لا مانع من وجود بركان قريب منهم.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليست هذه تنمة لحديث الملائكة عليه السلام، بل الفاء هنا تفصح عن جمل محذوفة بعد الانتهاء من مخاطبة إبراهيم عليه السلام والخروج من عنده لتنفيذ المهمة، وهذه الآية تبين أن الله تعالى لا ينزل عذاب الاستئصال إلا بعد إخراج المؤمنين، كما ورد ذلك في سائر الموارد، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^١ وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾^٢ وغير ذلك.

ويظهر من الآية أن المناطق في النجاة من العذاب ليس هو الإسلام، بل الإيمان وهما مختلفان، فالمسلم يشمل المنافق حتى لو أعلن نفاقه، وقد فصل الله تعالى بين المؤمنين والمنافقين في غير مورد وإن كان ربما يعبر عن كل من آمن ظاهراً بالمؤمنين.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذه الآية تدلّ على غاية الانحطاط في ذلك المجتمع وأنّ الفساد والكفر قد عمّ البلد بدون استثناء وهو أمر غريب. وتغيير التعبير من المؤمنين إلى المسلمين يدلّ على أنّه لم يسلم منهم حتى في الظاهر أحد وانحصر المسلمون بأهل هذا البيت، وهم أيضاً لم يكونوا بأجمعهم مؤمنين، فقد شمل العذاب امرأة لوط عليه السلام، بل ضرب الله تعالى بها وبامرأة نوح عليه السلام مثلاً للذين كفروا. ومن هنا يتبين ضعف ما قيل من أن الآيتين تدلان على وحدة الإيمان والإسلام.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الآية الكريمة تختصر الحادث، فلم

١. هود (١١): ٥٨.

٢. هود (١١): ٦٦.

تبين ماذا حدث للقوم، وإنما تشير إلى أنه ما ترك منها إلا آية للذين يخافون، ومعنى ذلك أن العذاب لم يبق منهم ومن بلدهم وحضارتهم إلا أثراً يعتبر منه العابرون، ويستنبئون منه ماذا قد حلّ بالقوم من العذاب الأليم.

والمعروف أن آثار القرية المنكوبة كانت باقية على عهد الرسالة، قال تعالى: ﴿وَإِنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^١ ولكنها آية لمن يخاف عذاب الله، وليست آية للمنهمكين في الشهوات والذين لا يتأثرون إلا بما يشير حواسهم الظاهرية، فلا يخافون عذاب الله تعالى ونقمته، إذ لا يؤمنون به وبآياته ولا يؤمنون بالغيب، وهم يمرّون على آيات الله ليلاً ونهاراً ولا يؤمنون بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^٢.

١. الصافات (٣٧): ١٣٧ - ١٣٨.

٢. يوسف (١٢): ١٠٥.

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ
 مَجْنُونٌ ﴿١٩﴾ فَأَخَذْتُهُ وَجُنُودَهُ فَبَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٢١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٢٢﴾ وَفِي
 ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْغَةُ
 وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ
 قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي وفي موسى آية، وحذفت
 لدلالة الجملة السابقة أو الجملة معطوفة عليها مع تقدير فعل آخر، نحو «وجعلنا»
 فيكون المعنى: وجعلنا في موسى آية. و﴿إذ﴾ ظرف للآية، أي كان ﷺ آية حين
 أرسلناه إلى فرعون.

والمراد بالسلطان المبين الحجة الدامغة والمعجزات الباهرة الواضحة التي
 أظهرها الله تعالى على يده ﷺ مما لم يبق مجالاً للشك، وكان فرعون يعلم صحة
 ما يقوله موسى ﷺ، كما قال تعالى حكاية عن قوله خطاباً لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ
 عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾^١ ولكنه لم يتنازل له وهو أمر
 طبيعي ومتوقع؛ إذ يستبعد جداً من طاغوت يستعبد الناس ويدعي لنفسه الربوبية
 العليا أن ينزل عن عرشه ويطيع إنساناً فقيراً لا يملك إلا عصاه، وهو في نفس
 الوقت قد تربى في حجره وتحت عنايته، بل كان قد تبناه على ما يبدو من
 القرآن الكريم. وهذا هو بيت القصيد والمقصد الأساس في الآية، أي التنبيه على

ما يوجب امتناع البشر من الإيمان بالرسول، ويذكره الله سبحانه تسلياً للرسول ﷺ والمؤمنين وتأنيباً للمتكبرين وطواغيت قريش.

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، أي أعرض بجانبه. والركن: الجانب. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾^١ والجانب: الجنب أو صفحة الوجه. والإعراض بالجانب كناية عن عدم الاهتمام بالشئ واحتقاره. ويمكن أن يكون المراد بالركن جنوده وملأه الذين كان يركن إليهم ويتقوى بهم، فتكون الباء للمصاحبة أو بتقدير متقوياً بركنه ونحو ذلك.

والحاصل أنه لم يواجه المعجزات والحجج ببرهان أو دليل، بل قابلها بالتحقير والازدراء والكبر والخيلاء. وكدأب الطغاة في جميع العصور تخبط في توجيه التهم إلى موسى عليه السلام ليعبد الناس عنه، خوفاً على سلطانه، فتارة وصفه بالسحر، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾^٢ وتارة وصفه بالجنون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^٣ مع أن الوصفين لا يجتمعان إلا أن الطغاة لا يجدون بداً في مقابلة الأنبياء والمصلحين إلا توجيه التهم الفارغة، وهنا أيضاً تردّد بين الوصفين.

﴿فَآخِذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، إشارة إلى قصة غرق فرعون وجيشه بعد أن تعقبوا موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وقد ذكرت القصة في عدة مواضع من القرآن الكريم، ولكنه هنا اختصر الأمر وأشار إليه إشارة خاطفة مهينة

١. فصلت (٤١): ٥١.

٢. الشعراء (٢٦): ٣٤.

٣. الشعراء (٢٦): ٢٧.

تنبيهاً على أن الله تعالى لا يهمله شأن الطغاة ولا يختلف عنده الكبير والصغير، فأخذه الله تعالى مع جنوده - وهم ركنه الذي كان يتقوى بهم - ورمى بهم في البحر، كما ترمى القمامة.

ونبذ الشيء إلقاؤه وطرحه لقلة الاهتمام به. وفي التعبير من استصغار شأنهم وتحقيرهم بعد أن استكبروا في الأرض ما لا يخفى، والغرض منه تنبيه مستكبري قريش أن مثل ذلك ربما تكون عاقبتهم.

واليم: هو البحر. وقيل: إنه ينطبق على النهر العظيم كالنيل. ولكن الصحيح أن فرعون غرق في البحر؛ لأن النهر لو كان يتوقف مأؤه عن الجريان لأصبح الماء مرتفعاً من جهة ارتفاعاً عظيماً يزداد بسرعة هائلة، ولكنه من الجهة الثانية لا يرتفع، بل يجري الماء وتشف الأرض والله تعالى يقول: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^١ وقد انكشف اليوم بملاحظة الآثار الباقية أن ممر بني إسرائيل كان في البحر الأحمر.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ جملة حالية، أي إنه غرق وتسبب في غرق قومه وجنوده بإصراره على الطغيان، فاستحق الملامة من الله تعالى وممن بقي من قومه ومن الناس أجمعين. والمليم اسم فاعل من ألأم، أي أتى بما يوجب اللوم، كما يقال: أغرب لمن أتى بأمر غريب.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، أي وللناس عامة وللسكان الجزيرة العربية خاصة آية في قوم عاد وهم كانوا من أهل هذه المنطقة، وكانت آثارهم باقية في عهد نزول القرآن، فلهم في هذا القوم آية إذ أرسل الله تعالى إليهم

رسولهم هود عليه السلام فلم يسمعوا له، فأنزل الله عليهم عذاب الاستتصال، وأرسل عليهم الريح العقيم.

والعقم على ما في «معجم مقاييس اللغة» بتلخيص: يدلّ على غموض وضيق وشدة يقال: حَرَبٌ عَقَام، أي لا يلوي فيها أحدٌ على أحدٍ لشدّتها. وداءٌ عَقَامٌ: لا يُبرأ منه. ومنه قولهم: رجل عَقَام، وهو الضيق الخلق. ومنه عَقِمَتِ الرَّحْمُ عَقْمًا، أي لا تقبل الولد. قال الخليل: عقلٌ عقيم للذي لا يُجدي على صاحبه شيئاً. ويقال: المُلْكُ عقيم وذلك أنّ الرّجلَ يقتلُ أباه على الملك. والدنيا عقيم: لا تردُّ على صاحبها خيراً. والريّحُ العقيم: التي لا تُلقح شجراً ولا سحاباً.^١

والمفسرون أيضاً قالوا هنا: إنّ الرّيحَ العقيم هي التي لا تُلقح شجراً ولا سحاباً. ونسب أيضاً إلى ابن عباس ولكنه بعيد من جهة أنّ الريح المذكورة لم تكن غير نافع فحسب، بل هي التي أهلكتهم وقطعت دابرهم، فلا ينبغي توصيفها بعدم النفع، فالأولى أن يقال: إنّ العقم بحسب موارد الاستعمال بمعنى ما لا عقب له وبهذا الاعتبار يوصف به الرجل والمرأة وتوصف به الحرب إذا هلك أكثرهم، فكأنهم ماتوا بأجمعهم، ويوصف به الداء أيضاً، لأنّه ينتهي إلى الموت، ويوصف العقل إذا كان لا ينفع شيئاً، والريح إذا كانت لا تلقح الشجر ولا تمطر، ولكن هذه الريح كانت عقيماً، لأنّها لم تبق منهم أحداً، بل ولا شيئاً ينتفع به، ولذلك جاءت الجملة التالية بدون عاطف، لأنّها تفسّر العقم. ولذلك أيضاً أتى بالفعل المضارع لبيان أنّ هذه كانت صفته وليس إخباراً عن حال وإلا لكان الأنسب أن تكون بصيغة الماضي.

﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾، أي لا تترك شيئاً مما أصابته إلا جعلته كالعظم المتفتت. والريم: العظم البالي. وقال ابن سيّدة: «الريم: الخلق البالي من كلّ شيء». والرم له معنيان متضادان، فإن التريم يطلق أيضاً على إصلاح الشيء بعد فساد.

والحاصل أنّ هذه الرياح لم تكن مجرد عاصفة قوية طبيعية تكسر وتُهشّم، فإنّ هذا أمر طبيعي يحصل في كثير من البلدان ولا يعتبر آية خاصة، بل كانت تفتت الأشياء فكانها آثار باقية من القرون الماضية بينما لم تمرّ على خراب البلدة إلا سويغات وهذا الأمر هو الذي أكسبه عنوان آية خاصة تدلّ على أنّ الله تعالى عذّب هذا القوم لطغيانهم.

قيل: إنّ الشيء هنا وإن كان يشمل الجبال والبحار والأودية، ولكنّها خارجة بدليل العقل، لأنّها ليست ممّا تبلى وإنّما يبلى الإنسان والشجر والبهائم. ولكنّ الظاهر أنّ الآية لا تقبل التخصيص وأنّ كلّ شيء أصابته هذه الرياح تفتت وبلى. ولكن لم يكن هناك جبال ولا بحار في تلك المنطقة فبليت بيوتهم وقصورهم وقلاعهم وأشجارهم وأثاثهم وأجسامهم، وكأنّهم ماتوا منذ قرون وتحول كلّ شيء إلى رمل وتراب، ولعلّ هذه الرمال الباقية في تلك المنطقة بتأثير هذا العذاب، فإنّهم أهل الأحقاف، أي كثران الرمل.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي وللناس والعرب خاصة آية في قوم ثمود وهم أيضاً من سكّان المنطقة ورسولهم صالح عليه السلام وهو القائل لهم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ، والمراد بذلك ثلاثة أيّام لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾

ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ^١ والأمر بالتمتع كناية عن الإمهال، والظاهر أن الله تعالى أمهلهم ثلاثة أيام لعلهم يعودون إلى رشدهم، ولعلهم رأوا في هذه الأيام آيات تدلّ على غضبه تعالى، ولكنهم استمروا على عنادهم فاستحقّوا العذاب.

ولكن جمعاً من المفسّرين استبعدوا أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿تَمَتُّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ نفس الإمهال المذكور في سورة هود، بدعوى ما في الآية التالية من أنهم عتوا عن أمر ربّهم، وهذا العتوّ إنّما كان قبل الإمهال المذكور، مع أنّه هنا ترتّب عليه البقاء، فقالوا: إنّ المراد بالحين آجالهم، أي قيل لهم تمتّعوا بالحياة الدنيا إلى الموت.

ولكن هذا غير صحيح، لأنّ الأمر بالتمتع إلى حين الموت أمر عامّ للإنسان من يوم هبوط آدم عليه السلام ولا علاقة له بهذا القوم خاصّة، ولا معنى لجعل هذا الظرف ظرفاً لكون حالهم آية، كما يستفاد من قوله: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ ثمّ إنّ العتوّ كان قبل الإمهال وبعده وأمر ربّهم أيضاً كان قبله وبعده، فكما عتوا عن أمر ربّهم قبل الإمهال عتوا أيضاً بعده، والفاء لا تدلّ على حدوث العتوّ بعد الإمهال، بل على حدوث العتوّ بعد إرسال الرسول المفهوم من السياق.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾. «عتوا» فعل ماضٍ من العتوّ وهو - كما في «المفردات» - النبوّ عن الطاعة،^٢ أي الترفع والإباء عنها. وهذا التفسير أشمل ممّا ذكره غيره ويتضمن أيضاً معنى الاستكبار والطغيان، وإن قيل: إنّ أخفّ من الطغيان الذي هو بمعنى تجاوز الحدّ، ويطلق العتوّ على كبر السنّ، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ

١. هود (١١): ٦٥.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٣٢١.

مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا^١ ولعلّه أيضاً من هذا الباب لعدم طاعة المفاصل والأعضاء والقوى، ولذلك قالوا: إِنَّ الْعِتِيَّ هُنَا بِمَعْنَى الْيَبْسِ. ومهما كان، فالمراد أنهم استكبروا وترفعوا عن إطاعة ربهم. والفاء - كما قلنا - تدلّ على أنّ هذا العناد استمرّ فيهم حتّى بعد التهديد الذي أعلنه الرسول.

والكبر في الإنسان أمر غريب، فهو إذا وجد نفسه مستغنياً عن غيره من البشر يشمخ بأنفه ويطغى على ربّه، وتجده يصرّح بأنّه لا يبالي بعذاب الله، سواء في الدنيا أم في الآخرة، ونسمع كثيراً من البشر ممّن حولنا إذا هاجت بهم العصبية أو الغضب أو النخوة أو الشهوة يتلفّظون بكلمات من هذا القبيل، وهم ليسوا ممّن ينكر وجود الله تعالى أو ينكر الحشر والمعاد، بل يخافون في قرارة أنفسهم من سطوته وعذابه، وهم من عذاب الدنيا أخوف وأشدّ حذراً، وهذا أيضاً من جهل الإنسان وحمقه، ومع ذلك فهو يتظاهر بالشجاعة والتهوّر، وأنّه لا يهتمّ بعذاب الله تعالى وهذا غاية الكبر والغباء.

﴿فَاخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾. الصاعقة: ما له صوت شديد كالرعد، وحيث إنّّه يوجب الغشية أو الهلاك يقال لمن أصيب: إنّهُ صَعِقَ، وقد يقلب فيقال: صاقعة. وقد عبّر عن عذابهم بالصيحة أيضاً، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^٢ وهي أيضاً الصوت الشديد. وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ لعلّه يدلّ على أنّه كان نهاراً وهم أيقاظ يشاهدون العذاب، فيكون وقعه أشدّ عليهم. وقيل: إنّهُ بمعنى ينتظرون لعلمهم بأنّ ما أوعدوا محقّق لا محالة، فيدلّ على غاية شقائهم

١. مريم (١٩): ٨.

٢. هود (١١): ٦٧.

وبؤسهم نتيجة للكبر والطغيان.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَتَّبِعِينَ﴾. الفاء للترتب، أي مع كونهم ينظرون ما يحدث من البلاء لم يستطيعوا قياماً، و«من» زائدة تؤكد عدم تمكنهم من أي نوع من القيام ولو جزئياً، والمراد قيامهم بأي محاولة لصدّ العذاب ودفعه عن أنفسهم، ويمكن أن يكون المراد نفي القيام حقيقة، أي سقط كلّ منهم حيث ما كان وكيف ما كان.

والآية تشير إلى خطأ آخر يقع فيه الإنسان الجاهل وهو مقاومة عذاب الله تعالى، فهو يظنّ أنّه كسائر الحوادث الكونية حيث يمكن تجنبها والفرار منها، كما حدث لابن نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾^١.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُتَتَّبِعِينَ﴾، أي ما كان بإمكانهم أن يطلبوا المساعدة من أحد، كما لا يمكن لأحد أن يساعد من نزل عليه عذاب الله تعالى.

﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِذْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، أي وأهلكنا قوم نوح قبل من ذكر من الأقوام، والمراد التنبيه على أنّهم سبقهم من كان يجب الاعتبار به فلم يعتبروا. والجملة التالية تعليل لإهلاكهم.

والفسق: هو الخروج عن الطاعة وهذا التعليل ينبّه الإنسان أنّ الفسق إذا تفشّى في المجتمع فأصبح صفة القوم، فإنّهم يستحقّون العقاب الجماعي وعذاب الاستئصال إلا أنّ له شروطاً، ومنها ما دلّت عليه الآيات الكريمة من وجود رسول بينهم يدعوهم إلى إطاعة الله ويتلو عليهم آياته وأوامره ونواهيه. ولعلّ هناك

شروطاً أخرى.

والملفت في قصة قوم نوح عليه السلام أن الله تعالى أمهلهم مدة طويلة جداً لم يمهل قوم مثلهم حيث لبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^١.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبِيدُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ؕ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾. الظاهر أنَّ المراد بالسماء بقريئة مقابلتها بالأرض والتعبير بالبناء ما يعلونا من الأجرام الفلكية أو الفضاء الذي تسبح فيه الأجرام. والأيد مخفف الأيدي جمع يد وهي كناية عن القوة، ولعلَّ في الجمع إشارة إلى أنَّ بناء السماء قد تجلَّت فيه أنحاء من القدرة والقوَّة. وتنكيرها للتنبيه على عظمتها، أي بقوة أيما قوَّة لا توصف بوصف ولا تعرف بحدِّ. والتعبير بالبناء يقتضي التدرج، ولا شكَّ أنَّ مظاهر القوَّة والقدرة في بناء الأجرام الفلكية واضحة حتَّى قبل أن يكتشف البشر خصائصها وما تبني عليه من دقَّة رياضية، فالإنسان الساذج أيضاً تعجبه عظمة ما يدرك كبرها وشدة ضوئها كالشمس، كما تعجبه دقَّة مطالع النجوم ومغاربها وكيفية حركتها وتناسق مواضعها وغير ذلك من الشؤون، وأمَّا بعد تقدّم العلوم والأبحاث الفلكية فقد تبيَّنت القدرة والعظمة بوضوح.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. يمكن أن يكون الموسع بمعنى القادر، أي وإنَّا لقادرون قدرة مطلقة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ﴾. وقيل: إنَّه من السعة في الرزق، أي إنَّا لموسعون في رزق العباد الذي هو في

السماء، كما ذكره في آية سابقة. وهو بعيد لا يناسب الجملة السابقة، مع أن السماء هناك تختلف معنى عن السماء هنا، كما أشرنا إليه في تفسير تلك الآية. ويحتمل - كما قيل - أن يكون المراد به التوسعة في خلق الأفلاك والأجرام السماوية، وينقل عن بعض علماء الفلك أن النجوم تتباعد بسرعة مذهلة وأن الفضاء يتمدد بين المجرات باستمرار، وأن حجمه الآن يبلغ نحو عشرة أضعاف حجمه منذ بداية تمدده، ويقال: إن انبثاين حاول أن يحسب وزن العالم بكامله، ثم عدل عن ذلك لما تبين له أن الكون لا حد له ولا نهاية، حيث دلت البحوث العلمية الدقيقة أن المجرات يبعد بعضها عن بعض ملايين السنين الضوئية، وكذلك الأنظمة الشمسية وأن هذا البعد يزداد ويستمر مما يكشف عن أن الفضاء الرحب يتسع آناً بعد آن. فهذا هو معنى أن الله تعالى يوسع السماء. ولا يبعد انطباق الآية على هذا المعنى، ولكن لا يصح التحتم في ذلك. والمعنى الأول هو الأوضح.

﴿وَالْأَرْضُ قَرَشْنَاهَا فَغَنَمَ الْمَاهِدُونَ﴾. فرشناها، أي بسطناها ومهدناها لكم، والبسط في مقابل القبض، يمكن أن يراد به بسط ما على وجه الأرض من حجارة وجعلها تراباً ورملاً يتمكن الإنسان من استخدامه للسكن والتحرك والبناء والزرع ونحو ذلك، ويمكن أن يراد إخراجها من تحت الماء أو إعداد وسائل الحياة عليها. ثم مجّد الله تعالى نفسه بقوله: ﴿فَغَنَمَ الْمَاهِدُونَ﴾ وهو في الواقع بمعنى نعم التمهيد في إشارة إلى عظمة هذه النعمة للبشر، حيث ذلّل الله تعالى لهم الأرض ومهد لهم كل وسائل الحياة عليها. ولعلّ التعبير بالجمع للتدليل على أن هناك قوى كثيرة سخرها الله تعالى لتنفيذ هذه المهمة. ويقال: إن التعبير عن

العظماء بضمير الجمع، إنما هو من جهة أن الفعل وإن كان مستنداً إليهم إلا أنه يتحقق بمجموعة العوامل التي تعمل بأمرهم وإن كانت النسبة تختلف في مورد الإسناد إلى الله تعالى.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. الزوج والزوجان: المثلان المتقارنان ولا يطلق إلا إذا كان كل منهما مكماً للآخر بوجه، كزوجي الباب والحذاء ومنه الذكر والأنثى من الحيوان والنبات، وقد مرّ الكلام في ارتباطك التفسير في تأويل هذه الكلمة عند ذكر النبات في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^١ وقلنا: إن تأويله تبين بوضوح عند اكتشاف أن كل نبات يشمل على الصنفين، ولكن الإشكال يتعاضم في هذه الآية، حيث إن ظاهرها وجود المثلين المتقارنين في كل شيء، فأوله الراغب في «المفردات» بأنه إشارة إلى تركب كل شيء من الوجود والماهية^٢، وأوله المفسرون الجدد بأنه إشارة إلى تركب الأجسام من الذرات تركب كل ذرة من جزءين موجب وسالب. وكلا التأويلين لا ينطبقان على ظاهر الآية، لأن ظاهرها أن الزوجين صنفان موجودان من كل نوع، لا أن كل شيء مركب من زوجين، حتى يأول بالوجود والماهية أو الإلكترون والبروتون.

ويمكن أن يقال - كما ذكرنا سابقاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْثَقْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^٣ - إن التعبير بكل شيء يعني في كل مورد ما يناسبه، وليس على إطلاقه.

١. ق (٥٠): ٧.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٣٨٤ - ٣٨٥.

٣. النمل (٢٧): ٢٣.

فملكة سبأ لم تؤت من كل شيء قطعاً، فالمراد إنها أوتيت كل شيء تحتاج إليه في ملكها وسلطانها من قوة وثروة وعلم وجنود وفي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^١ لا يراد به تبيان كل حقائق الكون، فهي لا تحصى كثرة، بل المراد كل ما يحتاج إليه الإنسان لمعرفة ربه وتحصيل رضاه وثوابه. وعلى ضوء ذلك، فالظاهر أن المراد به هنا بقرينة الآية السابقة كل شيء يحتاج إليه الإنسان في حياته على الأرض التي فرشها الله له ومهدّها، ولعل المراد خصوص الحيوان والنبات. والظاهر أن المراد بالتذكّر تذكّر ربهم الذي أنعم عليهم بكل ذلك.

ولكن ورد في «الكافي» حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) وردت فيه هذه الآية قال: «وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضادّ النور بالظلمة، واليبس بالبلل، والخشن باللين، والصرّد بالحرور، مؤلف بين متعاداتها ومفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مفرّقها وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾»^٢.

ويظهر من ذلك أن المراد بالتذكّر تبين أنه تعالى جعل المزاوجة والمقارنة بين الأشياء، فلا زوج له ولا قرين، ولكنّه لا يفسر معنى وجود الزوجين من كل شيء. وهذا الحديث ورد في «الكافي» في الجواب عن سؤال ذعلب ولم يرد ذلك في «نهج البلاغة» في جوابه، وإنما ورد في خطبة أخرى هي خطبة التوحيد ولم يرد في ذيله ذكر الآية الكريمة. نعم، روى الصدوق حديثاً عن الإمام

١. النحل (١٦): ٨٩.

٢. الكافي ١: ١٣٨ - ١٣٩، الحديث ٤.

الرضا عليه السلام وأنه خطب بذلك عند المأمون، وورد فيه ذكر هذه الآية والجملات شبيهة تماماً بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام والسند ضعيف، وحديث «الكافي» مرفوع لا سند له. والله العالم بحقيقة الحال.

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. قالوا: إِنَّ التقدير «قل يا محمد ﷺ...» بقرينة قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وإِنَّ هذه الجملة من كلام الرسول ﷺ ولكنه خلاف ظاهر السياق، ولا مانع من كونه خطاباً من الله تعالى للناس، فهو يخوفهم من نفسه، كما قال تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^١ والتعبير هنا عجيب متفرد في القرآن، فهو يدعو إلى الفرار إلى الله تعالى، كأن هناك ما يخاف منه غيره. والفرار: الهروب من الشيء. ولذلك ذكر المفسرون أَنَّ المراد الفرار من المعاصي والشرك، والتوجّه إلى غيره، ولكنه يعقبه بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ومعناه أَنَّ الذي يجب أن تفروا منه أيضاً هو الله تعالى، ففروا إليه منه، والمعنى أَنَّهُ هو الضارُّ النافع، فالسما والأرض بيده، والرزق والعذاب بأمره، فلا تتوجّهوا إلى غيره، فقولهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ تعليل للفرار ممّن يجب الفرار منه وهو الله تعالى، وليس تعليلًا للفرار إليه كما يتوهم.

والمبين اسم فاعل من الإبانة، أي الوضوح أو الإيضاح، فيأتي بالمعنيين والمبين بمعنى الموضح والواضح، فعلى الأوّل معنى الجملة أَنَّهُ نذير يبيّن وجه الإنذار ويوضّحه، وعلى الثاني معناه أَنَّهُ نذير واضح الإنذار بحيث لا مجال لتأويله.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. في «الميزان»: «إِنَّ هذا النهي

يفسر الفرار المذكور في الآية السابقة^١. ولكن الظاهر أنه مكمل له والمعنى فرّوا إليه وحده، ولا يغرتكم الإعلام الفاسد، فتوهموا أن هناك غيره ممّن يمكن اللجوء إليه أو أنه يشاركه في التأثير. ومعنى تكرار الإنذار يتّضح بما ذكرناه، فالإنذار الأوّل لبيان أن الفرار منه إليه وهو كما قلنا تعليل للزوم الفرار منه، والإنذار الثاني للتنبيه على خطر الشرك وضّمّ غيره إليه في اللجوء والفرار، فإن ذلك أيضاً ممّا يجب تجنّبه والحذر منه، فإن الله تعالى لا يلجئ إلا من توجه إليه وحده وترك ما سواه وراءه وأخلص في دينه، ويرفض من يكون في قلبه ذرّة من التوجّه إلى الغير واعتباره مؤثراً في الكون من دونه تعالى.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنُونَ﴾ الإشارة في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى مواجهة المشركين للرسول ﷺ في مكة، حيث كانوا يتّهمون الرسول بالسحر تارة؛ لأنّه يتلو على الناس ما يؤثّر فيهم تأثيراً عميقاً، فيميلون إليه وكأنّهم يساقون إليه من غير اختيار ويفرّق بذلك بين الأب وأولاده والأخ وأخيه، ويتّهمونه بالجنون تارة أخرى؛ لأنّه يرفض ما يغروّنه به من المال والجاه ممّا لا يرفضه عاقل حسب ظنّهم.

فالآية الكريمة تسلّي الرسول ﷺ والمؤمنين بأنّ هذا ليس بدعاً منهم، فكما هم يقولون ذلك، كذلك كانت الأمم السالفة يقولونه لرسولهم ولم يشدّ منهم أحد، بل كلّهم قد ابتلي في مرحلة من مراحل الرسالة — على الأقلّ — بهذه الاتّهامات. و«من» الثانية زائدة تفيد التأكيد على الشمول.

﴿اتَّوَاصُوا بِهِ بَلِّغْهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. التواصي تفاعل من الوصيّة، أي هل أوصى

السابقون من يلحقهم من المناوئين للرسالات بهذه المواجهة؟! والاستفهام للتعجب، أي كأنهم تواصلوا به مع أن من الواضح عدمه، والغرض منه إنشاء الاستغراب من تشابه الأقوام والمجتمعات البشرية في مواجهتهم للرسالات، فكانهم قد تواصلوا بذلك.

وهذا الأمر مما يؤكد عليه القرآن في عدة موارد، فيحكي كلام المشركين في مواجهة الرسل السابقين بتعبير واحد، كما يحكي كلام الرسل في تبليغ الدعوة والرسالة بتعبير واحد أيضاً، مع أن الواقع بالطبع ليس كذلك بدقة، وإنما أتى بتعبير واحد من جهة الحكاية بالمعنى والغرض من وحدة التعبير عن كلام الرسل ﷺ بيان وحدة الرسالة، أما في نقل كلام المناوئين فالغرض هو استغراب اتفاق الأمم على مواجهة الحقّ بلسان واحد، فكانهم قد تواصلوا به.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن ذلك، فهي تنفي التواصي، والمراد به التواصي على مواجهة الرسالات وعدم الانصياع لها لا خصوص التعبير بالسحر والجنون، وتبين الآية أن السبب في توافقهم على مواجهة الرسالات أمر آخر وهو اتحاد العلة في جميعهم وهي الطغيان على الحقّ وعدم الاستسلام لما ينافي أهواءهم ونزواتهم.

فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿١٠٠﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿١٠٢﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿١٠٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿١٠٤﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٠٥﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾. التوكلي عن الشيء: هو الإعراض عنه. والمعلوم اسم مفعول من اللوم، أي فأعرض عنهم فأنت لا تلام على كفرهم وعنادهم، وهذه شهادة من الله تعالى بأن الرسول ﷺ قد بذل غاية جهده في إبلاغ الدعوة وأنهم إذا بقوا على كفرهم وعنادهم فليس ذلك لقصور أو تقصير في التبليغ. والتعبير يستبطن تهديداً للمشركين، ولذلك ورد في الروايات أن الصحابة خافوا من نزول العذاب الجماعي حين سماعهم للآية ولما سمعوا بالآية التالية اطمأنوا.

﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. الجملة مكملة للآية السابقة، أي لست ملوماً على عدم استجابة القوم لدعوتك وإنما واجبك التذكير، ولا يضررك عدم تنبئه المعاندين والطاغين، فيوهن عزمك، فإن الذكرى إنما تنفع المؤمنين. والمراد بهم من له قابلية الإيمان - كما مرّ مراراً - أو المؤمنين بالفعل، حيث إنهم يزيدون إيماناً ويتثبتون بالتذكير، ولا شك أن تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم وعزائمهم أهم من أصل الإيمان، فربما يؤمن كثير من الناس بأول معجزة يرونها، بل بما لا يعتبر معجزة لدى أهل الخبرة والحكمة، ولكنهم يرتدّون وينقلبون إذا رأوا ما لا يمكنهم توجييه لضعف عقولهم، فلا بد من الاستمرار في التذكير للمحافظة على إيمان المؤمنين، وهذا لا بد منه في كل صاحب فكرة وهدف يريد تثبيته

في المجتمع، وهذا الاحتمال هو الأقرب في الآية، ولذلك عبّر بالتذكير لا بالدعوة والإبلاغ.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. النون للوقاية وهي مكسورة، لأن التقدير: «ليعبدوني» أبقيت الكسرة للدلالة على الياء المحذوفة، وأمّا نون المضارع فتحذف، لأن الفعل منصوب. وهذه آية عظيمة تحدّد مسار الإنسان ووجهته في حياته حسب إرادة الخالق العظيم، فالذي يجعل هذه الآية نصب عينيه ويعمل بها في كل شؤون حياته، يكون في المسار الصحيح مهما آلت إليه النتائج في الدنيا، ومن أعرض عنها ولو جزئياً فقد تخبط في مشيّه وحاد عن هدف الخليفة.

وفي الآية مواضع للسؤال:

السؤال الأول: ما هي مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها من الآيات؟
والجواب: أنّ هذه الآية وما بعدها تبين ما يجب أن يركز عليه التذكير المأمور به في الآية السابقة، وهو عبادة الله تعالى وحده، وتحدّد معنى الظلم والكفر الواردين في الآيتين الأخيرتين.

السؤال الثاني: أنّ الآية تحدّد مسار الجنّ والإنس وتبين الهدف المنشود من خلقهما ولم تنطرق للملائكة مع أنّهم أيضاً لم يخلقوا إلا للعبادة وقد مدحهم الله تعالى بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ * لَا يَسْـَٔقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ^١.
والجواب: أنّ الآية تنبّه البشر بالهدف من خلقهم لكي لا ينحرفوا عنه وكذلك الجنّ، فإنهم أيضاً مخاطبون بالقرآن، وقد مرّ بعض الكلام حول ذلك في تفسير سورة الأحقاف. وأمّا الملائكة فهم لا ينحرفون أبداً وليس ذلك من

شأنهم، والقرآن ليس خطاباً لهم.

السؤال الثالث: ما هو الوجه في تقديم الجنّ على الإنس؟ وهذا بالطبع ليس سؤالاً أساسياً، فإنّ التقديم والتأخير لا يدلان على شيء وإن تعرّض له المفسرون^١ ووجهه بأنّ السبب لعلّه سبق خلقهم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ﴾.^٢

السؤال الرابع: لماذا أتى بضمير الجمع في الآيات السابقة: «بَيْنَاهَا»، «فَرَشْنَاهَا» وتحوّل إلى ضمير المفرد في هذه الآية؟

والجواب واضح - كما أشرنا إليه آنفاً - من أنّ هذه الأفعال تتحقّق بوساطة القوى الغيبية والطبيعية. وأمّا العبادة فهي لله وحده، وخلق الجنّ والإنس وإن كان بتوسّط الوسائط إلا أنّ قصر السبب في عبادة الله وحده مناسب لعدم الإشارة إليهم.

السؤال الخامس: أنّ الآية تحصر الهدف في العبادة، مع أنّ الإنسان مضطرّ إلى العمل على هذا الكوكب وفق حاجاته الطبيعية، فكيف يحصر نشاطه في العبادة؟

والجواب بوجهين:

الأول: أنّ الآية لا تحصر النشاط المسموح في العبادة، وإنّما تحصر الهدف من الخلق في ذلك، فلا مانع من عمله في سائر المجالات، ولكنّه بالطبع ينبغي أن يحدّ منها مهما أمكن ويقتصر على المقدار الضروري، لا كما هو سيرتنا في

١. راجع: مجمع البيان والدرّ المثور في تفسير هذه الآية.

٢. الحجر (١٥): ٢٦ - ٢٧.

الحياة حيث نجعل العبادة أمراً هامشياً نلجأ إليها إذا سمحت لنا الأوقات وكنا فارغي البال، فالذي يشغل بالنا في الغالب، هو ما ينبغي أن يكون في الهامش والذي يجب أن نتفرغ له ونطرح كل شيء جانباً من أجله أصبح لنا حاجة ثانوية حتى أن اللعب يمنعنا في الغالب من المبادرة إلى الصلاة، بل ظهر في المجتمع الإسلامي من يفتي بأن اللاعب إذا زاحم الصوم لعبه جاز له أن يفطر!!!

وأين هذا من سيرة الرسول ﷺ حيث كان ينتظر الأذان بفارغ الصبر، ويقول: «أرحنا يا بلال» على ما في الحديث^١ مع أنه ما كان يشتغل في غير وقت الصلاة بشؤون الدنيا، بل كان كل ما يفعله عبادة، ولكنّه كان يعشق الصلاة ويحب الإعراض عن الناس حتى المؤمنين والتوجه بكل قلبه إلى ربه، وكان على ما يروى يشتغل بعد صلاة الفجر بالدعاء والتعقيب إلى طلوع الشمس، ويجلس أمير المؤمنين عليه السلام خلفه ويواجه الناس ويجيب على أسئلتهم، حتى لا يمنعوا الرسول ﷺ من انقطاعه إلى ربه.

والثاني: أن حصر الهدف في العبادة لعلّه يستوجب أن يحاول الإنسان أن يجعل كل نشاطه عبادة، وهذا أمر ممكن، فالعبادة ليست بمعنى الصلاة والصوم والحج، بل كل ما يعمله الإنسان بقصد التقرب إلى الله مع كونه ممّا يمكن التقرب به إليه يعتبر عبادة، ويقال: إن كثيراً من أولياء الله تعالى لا يعملون شيئاً إلا بقصد التقرب، فهم دائماً في عبادة حتى نومهم وتلذّذهم، وبالطبع من كان كذلك فإنه لا يتناول في أكله وشربه إلا بمقدار حاجته ليتقوى بذلك على الإتيان بما يجب، ويتجنب ما يحرم، ولا يبحث عن كل ما يتلذّذ به.

والثالث: أن العبادة في اللغة التذلل والخضوع، وهذا الأمر له ثلاثة مصاديق فيما نعلم:

الأول: الإطاعة المطلقة وهذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^١ فإن الناس لا يسجدون للشيطان وإنما يطيعونه.

ويلاحظ: أن الاستفهام الإنكاري في الآية الشريفة موجه إلى بني آدم بأجمعهم لا إلى قوم خاص ربما يسجدون للشيطان. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾^٢.

وليس المراد بالطاغوت الأصنام وكل من يعبد من دون الله كما قيل، فإن الصنم لا يطغى على ربه ولا يشعر بعبادة الناس له.

والطاغوت مصدر بمعنى الطغيان، وإطلاقها على الشخص من باب المبالغة، كأنه هو الطغيان بنفسه، وتنطبق على كل من يدعي لنفسه من الولاية والسلطة على الناس ما لم يمنحه الله تعالى وهم كثير وبعناوين مختلفة وتتحقق عبادتهم غالباً بالطاعة المطلقة.

فالمراد بالآية الكريمة بناءً على هذا المعنى أن الهدف من الخلق هو الإطاعة المطلقة لله تعالى.

الثاني: الدعاء لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^٣ ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي مُبْتَئِثٌ أَنْ

١. يس (٣٦): ٦٠.

٢. الزمر (٣٩): ١٧.

٣. غافر (٤٠): ٦٠.

أَعْبُدِ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ،^١ فهم كانوا يدعون الأصنام ويطلبون منها حاجاتهم، والآية تأمر الرسول ﷺ أن يعلن لهم أن الله تعالى نهاه عن عبادة الأصنام بالدعاء.

وإنما كان الدعاء عبادة، لأنه يشمل على تضرّع واستغاثة مع الاعتقاد بأن المدعو مؤثر في الكون بالاستقلال، وإلا فالدعاء بمعنى الطلب بوجه عام ليس عبادة، والإنسان أيضاً يجوز أن يطلب منه أمر حتى لو طلبت من إنسان يؤثر غيباً بإذن الله تعالى كعيسى عليه السلام الذي يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنه تعالى لم يكن عبادة له؛ لأنك تعتقد أن التأثير في الواقع هو من الله تعالى وليس منه، كما تعتقد ذلك في التأثير الطبيعي من الإنسان أو غيره.

وعلى هذا المعنى فالدعاء الذي هو عبادة أيضاً لا يكون إلا من الله تعالى، فإنه هو المؤثر في الكون بالاستقلال، وكل أثر من غيره إنما هو بإذنه تعالى. وعليه فمعنى الآية المباركة أن الهدف من خلق الجن والإنس هو أن يتوجهوا إلى الله تعالى بحاجاتهم.

الثالث: الطقوس الخاصة في كل دين مما يعبد بها الآلهة تقريباً إليها لطلب الحوائج أو لأي أمر آخر، كما يلاحظ في الثقافات المختلفة والأديان، سواء السماوية أو غيرها، وفي الإسلام أيضاً طقوس تعتبر عبادة لله تعالى كالصلاة بجميع أجزائها من القيام والركوع والسجود وعدم الالتفات والتوجه إلى غيره تعالى وعدم التحرك وعدم التكلم مع الغير وهكذا غيرها من العبادات ومن أوضح طقوس العبادة السجود ولذلك اتفق فقهاء المسلمين - على ما يبدو -

على حرمة لغير الله تعالى.

والغرض من الآية - بناءً على هذا المعنى - واضح، وهو أن الهدف من الخلق أن يمارسوا الطقوس العبادية لله تعالى.

والحاصل أن هذه الآية الكريمة تحصر الهدف من خلق الجن والإنس في عبادته تعالى بكل واحد من هذه المعاني الثلاثة.

السؤال السادس: أنه كيف يكون لله تعالى هدف وغرض في خلقه لشيء من مخلوقاته وهو غني عن الخلق، ولا نقص له ليستكمل بخلقه، ولا حاجة له إلى شيء، ولا تنفعه عبادة الجن والإنس وهذا أمر واضح؟

والجواب عنه: أن الهدف ليس بمعنى ما نعتبره هدفاً وغرضاً لأفعالنا مما يعود نفعه إلينا، بل هو بمعنى ما يعود إلى نفس المخلوق، فمعنى كون العبادة غرضاً وهدفاً في خلق الإنسان أنه الهدف الذي يجب عليه أن يتبعه، فإن تركه فسوف يتضرر بنفسه.

وبعبارة أخرى مقتضى حكمة الله تعالى أن تكون أفعاله لحكمة وغرض ولا تكون عبثاً، ومقتضى غناه أن لا يعود النفع إليه، فالحكمة في خلق الجن والإنس هو العبادة ونفعها يصل إليهم. ولذلك لم يقل في التعبير عن الغرض: «لأعبد» أو «لأكون معبوداً»، بل قال: ﴿لِيَعْبُدُون﴾ فالهدف هو عابديتهم لا معبودية الباري جلّ وعلا.

ويمكن أن يقرّر الجواب بوجه آخر وهو أن عبادة الجن والإنس ربما يكون لها تأثير مهم في الكون، فالذي يعبد الله تعالى يربط بين السماء والأرض ربطاً اختيارياً من الأرض، أي من عالم الطبيعة، وربما لا نعقل تأثيره إلا أن من

المحتمل وجود هذا التأثير، فهو يصحّح كون الهدف من خلقهما العبادة الاختيارية، وليس ذلك كالتسييح التكويني الذي يصدر عن كلّ مخلوق، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^١ وإذا كان كذلك، فالذي لا يعبد الله تعالى من الجنّ والإنس يعتبر وجوده زائداً لا فائدة فيه، بل ربّما يكون مضرّاً يجب حذفه.

السؤال السابع: أنّه إذا كانت العبادة هي الهدف الذي يقصده الخالق من الخلق، فكيف يمكن أن يتخلّف شيء عن إرادته تعالى؟ وكيف يمكن لبعض الناس أن لا يعبدوه ويخالفوا بذلك الغرض الذي قصده الله تعالى؟ وبعبارة واضحة الهدف من الفعل أمر يترتب عليه بصورة طبيعية، فإذا أردنا نحن أن نصل إلى هدف وعلمنا ما هي الوسيلة وحقّقناها، فلا محالة يتحقّق الهدف، والله تعالى عالم بكلّ شيء، فلا بدّ من أن يخلق ما يحقّق هدفه، فلماذا خلق هذه الخلائق الكثيرة من الثقلين التي لا تحقّق الهدف؟

والجواب: أنّ الهدف إذا كان هو العبادة الاختيارية، فلا يتحقّق إلا بما صنعه الله تعالى من خلق إنسان عاقل جعل فيه شتّى الغرائز مع العقل والقدرة على التفكير، ثمّ إرسال الرسل وإنزال الكتب لتعليمه وتثقيفه وتطميعة بالثواب وتحذيره من العقاب، ليتحقّق منه الهدف المنشود وهو حاصل من عبادة بعضهم. وربّما يكون الهدف الأسمى هو العبادة التي لا تتسم بطلب الثواب والفرار من العقاب، فجعل الله تعالى في بعض عباده قابلية المعرفة، ليتمكّنوا من خرق الحجب والوصول إلى قمة العرفان الإلهي، بل الرؤية بالقلب ومشاهدة الجمال

المطلق بعين البصيرة، فيعبودونه عرفاناً لحقّه من دون طمع أو خوف، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام على ما نسب إليه: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^١.

وبناءً على هذا الجواب، فالألف واللام في الجنّ والإنس للجنس، كما اختاره العلامة الطباطبائي رحمته الله^٢ وليس للاستغراق، فلا يلزم أن يكون الهدف من خلق كل فرد العبادة، بل الهدف من خلق هذا الجنس هو تحقّق العبادة ولو من بعضهم وهو حاصل بأكمل وجه.

ولكن قال بعضهم: إنّه للاستغراق وإنّ الهدف هو الصلاحية للعبادة بجعل الاختيار والقوى التي تستلزمها وهي حاصلة للجميع. وهذا خلاف ظاهر اللفظ، مع أنّه غير صحيح، فإنّ مقتضاه أنّ الهدف حاصل بمجرد تحقّق الصلاحية، فالهدف محقّق في الطبيعة ولا دخل للإنسان في تحقّقه ولا يحدث هذا الإعلان أيّ تحرّك في الإنسان نحو العبادة، مع أنّه هو القصد من بيانه.

هذا مع أنّ الصلاحية بذاتها لا يمكن أن تكون مقصودة، بل هي مقصودة لهدف أسمى وهو تحقّق العبادة بذاتها، فلا فائدة في الصلوح إن لم تتحقّق العبادة بالفعل فيعود الإشكال.

السؤال الثامن: أنّه لو كانت الآية تعني أنّ العبادة هي الهدف من الخلق فهي تنافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^٣ بناءً

١. راجع: بحار الأنوار ٦٧: ١٨٦.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢٠٣.

٣. هود (١١): ١١٨ - ١١٩.

على أن الإشارة في قوله: ﴿وَلِذَلِكَ﴾ إلى الاختلاف فهو تعالى خلقهم لكي يختلوا. وكذلك تنافي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْإِتْعَامِ بَلْ لَهُمْ أَصْلٌ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^١﴾ والهدف بناءً على هذه الآية هو أن يكونوا وقوداً لجَهَنَّمَ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ^٢﴾. والجواب عن الآية الأولى: أن الإشارة إنما هي إلى الرحمة وهي جملة معترضة تبين أنهم لم يحققوا الهدف من خلقهم، فاستحقوا النار، والله تعالى إنما خلقهم ليرحمهم، وهي غاية وراء الغاية المذكورة في الآية مورد البحث، فالله تعالى خلقهم ليعبدوه وإنما أراد منهم العبادة ليرحمهم، فهي الغاية النهائية والرحمة مقتضى رحمانيته لا يهدف من ورائها شيئاً.

والجواب عن الآية الثانية أن اللام هنا ليس لبيان الهدف والغرض، بل لبيان العاقبة التي يصلون إليها لا محالة، كما يقول الشاعر: «لدوا للموت وابنوا للخراب» والإنسان لا يهدف من طلب الولد الموت ولا يهدف من البناء أن يهدم ولكنهما العاقبة المحتمومة، فالعاقبة لهؤلاء هي النار؛ لأنهم لا يعقلون بقلوبهم ولا يبصرون بأعينهم ولا يسمعون بآذانهم مع أنها تؤدي وظائفها بالطبع. والواقع أن لام العاقبة هي لام الغرض، ولكن كونه غرضاً إنما يصح بنحو الإدعاء أو التجوّر، فمعنى الآية - بناءً على ذلك - أن الله تعالى وإن خلقهم ليرحمهم إلا أنهم حيث تنجر بهم أعمالهم إلى النار، فكأنه تعالى خلقهم ليكونوا وقود النار.

١. الأعراف (٧): ١٧٩.

٢. التحريم (٦٦): ٦.

ويمكن أن يقال بوجه آخر: إن الله تعالى خلق الجنّ والإنس ليعبدوه، ولكن هذا - كما مرّ - هو الغرض من خلق الجنس لا من خلق كلّ فرد، وحيث كان الهدف لا يترتب إلا في ظرف الاختيار، فكان لا بدّ من انحراف كثير منهم عن الصراط المستقيم المؤدّي إلى عبادة الله، ثمّ إلى القرب لديه تعالى، فكون الأكثرية متوجّهين إلى طريق جهنّم نتيجة طبيعية لخلقهم أحراراً عقلاء، وهو بدوره داخل في الهدف الأساسي من الخلق، فصحّ أن يقال: إنهم خلقوا من أجل جهنّم وذلك كمن يأتي بجيش جرّار ليكسب نصراً فهو يعلم أن كثيراً منهم سيقتلون وهو نتيجة طبيعية للحرب، فيصحّ أن يقال: إن الغرض من تجنيد كثير منهم هو الموت، مع أنّه ليس هو الغرض ولو تمكّن القائد لحافظ على حياة كلّ فرد منهم إلا أنّ الحرب بطبيعتها تؤدّي إلى موت كثير منهم، فالموت للبعض غرض أيضاً ولكنّه غرض ثانوي لا بدّ منه لتحقيق النصر وكذلك انحراف الكثير، بل الأكثر غرض ثانوي لا بدّ منه بطبيعة الحال، لتحقيق الهدف الأسمى وهو عبادة الأحرار التي لا تتحقّق إلا ببذل الحرّية للجميع وهو بدوره يجبرهم إلى النار بسوء اختيارهم.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾، ﴿مِنْ﴾ الثانية زائدة تفيد التأكيد، أي لا أريد منهم رزقاً ولا جزءاً من رزق. وهذه الآية تبين أنّ الله تعالى غنيّ عن عباده ولا يقصد من عبادتهم أو عبوديتهم مصلحة لنفسه وهذا أمر واضح، فالله تعالى لا يطلب من الإنسان رزقاً ولا يريد منه أن يطعمه، بل هو لا يحتاج إلى رزق ولا إلى طعام، فذكر ذلك مع كلّ وضوحه للتنديد بمن يمنّ على الله تعالى بعبادته وكأنّه بذلك يرزق ربّه شيئاً أو يقدّم له طعاماً، وهذا غاية في الاستهزاء بهم والتشنيع عليهم.

والرزق له معنى واسع - كما مرّ الكلام حوله في تفسير الآية ٢٢ من هذه السورة - فهو يشمل كلّ ما يتوقّف عليه تكامل الشيء. وذكر الإطعام بعد الرزق من باب ذكر الخاصّ بعد العامّ لمزيد من التشنيع بذكر أوضح مصاديق الرزق مع وضوح غناه تعالى عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، تعليل لعدم طلبه تعالى الرزق من أحد، فإنّ الرزق كلّهُ منه والإتيان بالضمير يفيد الحصر، والرّزاق مبالغة في الرازقية، بل ليس هناك رازق غيره بالمعنى الذي ذكرناه في الآيات السابقة، حيث إنّ الرزق من شؤون الربوبية، وهو مرحلة ما بعد الخلق لكلّ موجود حيّ.

ولعلّك تسأل: لماذا جعل الوصف المنحصر فيه تعالى الرزاق وهو من المبالغة مع أنّه لا رازق غيره، فكان الأولى أن يقال: هو الرازق؟

والجواب: أنّه حيث كان تعالى لا يكفي في رزق الخلق بمقدار الكفاية، بل يزيد في رزقهم حسب ما هو موجود في الطبيعة، ولا يختصّ ذلك بشأن من الشؤون، بل يرزقهم من كلّ جهات الحاجة المادية والمعنوية ويزيدهم في كلّ ذلك فلم يناسب توصيفه بالرازق، بل هو الرّزاق. أمّا زيادته في الحاجات المادية فهي واضحة، فالله تعالى لم يقتصر في هذا المجال برفع الحاجة، بل خلق لنا من الفواكه وغيرها كلّ ما لذّ وطاب وزين الأرض بالمناظر الطبيعية الخلابة، وهدى الإنسان إلى خلق أنحاء الزينة في المسكن والملبس وغيرهما. وأمّا الزيادة في الحاجات المعنوية فهو بلطفه العميم لم يكف بآن وهب للإنسان العقل وهو كافٍ في الحجّة، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب وجعل له الحجج والأئمة الذين يدعون إلى الصراط المستقيم، وهم بسيرتهم مثل للمؤمن الصالح.

وتوصيفه بالقوة لدفع توهم أنه بحاجة إلى من يساعده في أي شأن من شؤونه، والحصر هنا أيضاً يفيد أنه لا قوة في الكون إلا به تعالى، بل لا وجود إلا به، فكل شيء سواه ليس إلا نفس الافتقار إلى الله تعالى.

والمتين من المتن، أي القوة والصلابة الثابتة، فالقوة فيه تعالى لا يستند إلى شيء ولا يعتمد على شيء، وكل قوة تفرض غير قوته يستند إلى قوته تعالى، بل غالباً ما يستند إلى قوى طبيعية أيضاً، فليس هناك قوة ذاتية ثابتة إلا قوته تعالى.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾. الفاء للتفريع، أي حيث كان الهدف من الخلق عبادة الله وحده، فمن يعبد غيره سينال العذاب في الآخرة أو في النشأتين، فالمراد بالذين ظلموا المشركون؛ لأنّ الشرك بنفسه ظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^١ وليس الشرك ظلماً على الله كما يتوهم، فإنّ الظلم لا يقع عليه تعالى، كما قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^٢، بل الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ولا يتوقف صدقه على وجود مظلوم. هذا مع أنّهم ما كانوا يكتفون بشركهم، بل كانوا يمنعون الرسول ﷺ من نشر دعوته ويمنعون الناس من الارتباط به والاستماع إليه، فهم كانوا يظلمون المجتمع ويظلمون أنفسهم أيضاً.

والذنوب مأخوذ من الذنب وسمّي به الدلو العظيم ولعلّه كان له ذنب فسمّي به، ثم استعير للحظّ والنصيب، قال الشاعر: «لنا ذنوب ولكم ذنوب»، أي حظّ من ماء البئر.

١. لقمان (٣١): ١٣.

٢. البقرة (٢): ٥٧ والأعراف (٧): ١٦٠.

والمراد بأصحابهم المناوئون للرسالات في الأمم السابقة، عبّر بذلك للمشابهة بينهم، وقد حذر الله المشركين في مواضع من كتابه الكريم بأنهم يستحقّون مثل ما نزل على الأمم السالفة من العذاب، فالمراد بالذنوب النصيب والعاقبة، أي إنّ عاقبة هؤلاء كعاقبة من كان قبلهم.

وحيث كانوا يستهزئون بهذه التحذيرات ويقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ردّ عليهم ونهاهم عن الاستعجال بالعذاب بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُون﴾ بكسر النون وتقدير الياء، أي لا يستعجلوني ولا يطلبوا منّي العجلة، فإنّ ذلك ليس من مصلحتهم، وإنّما يؤخّره الله رفقاّ بهم ولعلّهم يهتدون. وسيأتي الكلام حول تحقّق هذه العاقبة.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾. الفاء تدلّ على الترتّب وإنّ التحذير من هذا اليوم يترتّب على مضمون الآية السابقة وهو تشابه عواقبهم مع من قبلهم. والويل كلمة تقال للتنديد بأحد والتقبّيح لفعله، ويختلف معناها باختلاف الموارد، كما يظهر من موارد الاستعمال، والذي تفيدّه هنا هو التهديد كما هو واضح.

والمراد بالذين كفروا، هم نفس من عبّر عنهم بالذين ظلموا، ولكنّه لم يأت بالضمير، بل أبدله إلى الاسم الظاهر تنبيهاً على أنّ المناط في استحقاق العذاب هو الكفر.

والمعروف في التفاسير أنّ المراد باليوم الموعود يوم ينزلّ عليهم العذاب بأيدي المؤمنين ويستأصل شأفتهم وهو يوم بدر. ولكنّه بعيد؛ لأنّ الفاء - كما قلنا - تدلّ على ترتّب هذا التحذير على مفاد الآية السابقة، فلا بدّ من تشابه عاقبة المشركين بعاقبة من كان قبلهم من الكفّار مع أنّها ليست كذلك، حيث لم ينزل

العذاب يوم بدر على جميع الظلمة ولم يستأصلهم، كما كان شأن العذاب في الأمم السالفة.

وقيل: إن المراد به يوم القيامة وهذا أبعد لنفس الوجه السابق، لأن الظاهر من الآية السابقة أن المراد عذاب الاستئصال في هذه الدنيا وهو الذي كانوا يستعجلون به.

ويحتمل أن يكون المراد ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَازْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾^١ من أن المراد تهديدهم بأن ذلك متوقع وأنكم تستحقونه وليس إعلاماً بالتحقق فعلاً؛ لأن لنزول عذاب الاستئصال شروطاً لم تتحقق فيهم ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^٢ ولما آل الأمر إلى تفكك قواعدهم ودخول الناس في دين الله أفواجا لم يبق ما يستوجب نزول العذاب العام.

وقد مرّ بعض الكلام حول هذا الموضوع أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾^٣.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

١. الدخان (٤٤): ١٠.

٢. الأنفال (٨): ٣٣.

٣. الفتح (٤٨): ٢٥.

تفسير سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكَتَبَ مُسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

سورة الطور مكية تتناول موضوع المعاد والتأكيد على وقوع ما وعده الله تعالى يوم القيامة من الثواب والعقاب مع بيان بعض خصائص الأمرين، ثم تؤكد على رسالة الرسول الكريم ﷺ وترد على أقاويل المشركين وتسويلاتهم بطريقة السؤال والاستنكار، وتأمره ﷺ بالصبر مع التهديد بالعذاب لمناويله.

﴿وَالطُّورِ﴾ اختلف اللغويون في أن الطور هل هو بمعنى الجبل أو خصوص الجبل الذي فيه شجر أو هو اسم لجبل خاص، كما اختلفوا في أن الكلمة في الأصل عربية أم سريانية. ويبدو أنه اسم لمجموعة من الجبال، قال في «تاج

العروس»: «الطور جبل قرب أيلة وهو بالسريانية طورى... والطور جبل بالشام ... والطور جبل بالقدس عن يمين المسجد ويعرف بطور زيتا، وقد سعدته وتبركت به، والطور جبل آخر عن قِبَلِهِ به قبر هارون عليه السلام وهو يزار إلى الآن، والطور جبل برأس العين، والطور جبل آخر مطلقاً على طبرية الأردن، والطور أيضاً جبل شاق عند كورة تشتمل على عدة قرى تعرف بهذا الاسم بمصر من القبلية»^١ ومدينة الطور في هذا العصر مدينة سياحية وتاريخية في محافظة سيناء وتعتبر من أهم مراكز السياحة في مصر وتقع بجانب جبل يسمى جبل الطور.

ومهما كان فالظاهر أن المراد بالطور هنا طور سيناء وهو الجبل الذي نودي بجانبه موسى عليه السلام بالرسالة، قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾^٢ وهو من أعظم بقاع الأرض، حيث تجلّى فيه الله تعالى لكلّ من أمره بأن يخلع نعليه، فإنه بالوادي المقدس، وسمّاه في موضع آخر طور سينين وأقسم به أيضاً، قال تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ﴾^٣.

والمعروف أنه اسم جبل في سيناء بمصر ويقال: إنه جبل بفلسطين ويسمى جبل طابور أيضاً، ولكن بعض التحقيقات الأخيرة تؤكد أنه وراء خليج العقبة في أراضي الحجاز حالياً والله العالم.

ومهما كان فإن الله تعالى بدأ هذه السورة بالقسم بمقدسات على الأرض وأمور مبهمة أو غيبية لبيان أمر عظيم وهو وقوع العذاب الإلهي في مواعده المقرر لا محالة، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾.

١. تاج العروس ٣: ٣٦١.

٢. مريم (١٩): ٥٢.

٣. التين (٩٥): ١ - ٢.

وقد مرّ في تفسير سورة الذاريات بعض الكلام في ما أقسم به الله تعالى في كتابه العزيز، وقلنا: إنّ الله تعالى يقسم بكثير من مخلوقاته كالشمس والقمر والليل والنهار وغيرها، وقد لا يكون السبب كرامة خاصّة لذلك الشيء، فإنّ نسبة الخلاق إلى الله تعالى من حيث التكوين نسبة واحدة، وكرامتها ليست إلا من جهة استنادها إليه تعالى، ودلالاتها على قدرته وعلمه وعموم ربوبيته، وإنّما يختار من بينها ما يناسب المقسم عليه، والمناسبة أيضاً قد تكون خفيفة. بل إنّ بعض ما يقسم به الله تعالى أمور مبهمّة، وكلّ ما يقال حولها من التطبيق مجرد احتمال.

وقد يكون ذلك نوعاً من براعة الاستهلال، حيث يؤتى بمقدّمات ربما تكون في نفسها غير واضحة، ولكنّها تحثّ السامع على التأمل في النصّ وفي المعنى الذي هو المقصود بالذات وهو مذكور بصراحة، ومن هذا القبيل التغزّل قبل مدح العظماء.

ولعلّ مناسبة القسم بالطور للمقسم به هنا - وهو التأكيد على وقوع العذاب يوم القيامة - هو أنّه تعالى منّ على البشر بتجليّه في الطور لإرسال الرسول إليهم وإبلاغهم رسالة السماء وتحذيرهم من العذاب المؤكّد الذي يترتب على ظلمهم في الأرض.

﴿وَكِتَابٍ مُنطُورٍ* فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾. السطر صفّ مجموعة من خطوط الكتابة أو الشجر أو البشر ونحو ذلك، فهو يدلّ على اصطفااف بانتظام.

والكتاب: المكتوب والكتّب في الأصل بمعنى الجمع، ويطلق على مجموعة من الألفاظ أو المعاني والحقائق.

والرقّ: الجلد الرقيق الذي كان يستعمل قديماً في الكتابة.

والنشر هو البسط. فالمقسم به هنا كتاب كتبت أسطره في صفوف منتظمة وعلى صفحات من جلد رقيق وهو منشور، أي لم يلفّ ويجمع، بل هو مفتوح يقرأه من يشاء؛ أو المراد من النشر الانتشار في الناس، فهو ليس كتاباً مغموراً لا يعرفه أحد.

ولعلّ التخصيص بكونه مسطوراً في الرقّ لثلاثي يشمل ما لو كانت مجموعة من المطالب المنتظمة، ولكن لم تكتب ولم تنشر. ولا يبعد بقرينة الطور أن يكون المراد به التوراة وهي من أوسع الكتب انتشاراً في تلك الحقبة من الزمان.

وقيل: المراد به المصحف الشريف. ويلاحظ أنّ الكلمتان، أي الكتاب والرقّ نكرتان، فينطبق الكتاب على أيّ كتاب بهذا الوصف وهذا ممّا يزيد في إبهامه. وأمّا القول بأنّه الكتاب الذي يلقاه الإنسان منشوراً يوم القيامة وقد سجّل فيه أعماله، فلا وجه له؛ لأنّه ليس كتاباً في رقّ، وكذلك القول بأنّه اللوح المحفوظ الذي فيه أخبار ما كان وما يكون وتقرأه الملائكة.

وتبيّن مناسبة القسم للمقسم عليه بملاحظة ما ذكرناه في القسم بالطور، فإنّ الكتاب المنزل من الله تعالى على البشر أيضاً ممّا يحذّر الله به عباده من عذاب يوم القيامة، وبصورة عامّة كلّ ما أقسم به الله تعالى هنا من نعمه على البشر ومن آيات ربوبيته، وكلّها تناسب التأكيد على أنّ ما أوعده الله به من العذاب واقع لا محالة، كسائر ما وعد الله تعالى.

﴿وَالْبَيِّنَاتِ الْمَغْمُورِ﴾. العمران يطلق على البناء، وعلى كثرة اختلاف الناس الى مكان ما. وعلى كلّ منهما يمكن أن يحمل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ

أَمَّنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^١. والمعروف أنّ المراد بالبيت هنا الكعبة المعظمة، سمّيت به على أساس المعنى الثاني للعرمان، وذلك لكثرة الطائفين حولها وعدم انقطاعهم. وقيل: هو بيت المقدس بقرينة الطور.

ولكن هناك روايات في كتب الفريقين مفادها أنّ البيت المعمور موضع في السماء تصلّي فيه الملائكة، فقد روى السيوطي في «الدر المنثور» عدّة روايات عن الرسول ﷺ وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذلك، وورد ذكره في روايات كثيرة أيضاً من طرقنا وهي وإن لم تفسّر الآية إلا أنّها تفسّر هذه الكلمة.

وقد مرّ بعض الكلام حول هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾^٢ حيث ذكرنا الإشكال في نزول القرآن في ليلة واحدة، مع أنّه نزل في أكثر من عشرين سنة، وأنّه أُجيب عنه بوجوه:

منها: أنّ القرآن نزل في ليلة القدر في البيت المعمور وهو بيت في السماء، ثمّ نزل تدريجاً على الأرض.

واعترض على هذا الوجه باستغراب تفسير البيت المعمور ببيت في السماء باعتبار أنّ المراد به في قوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَعْمُورِ﴾ الكعبة المعظمة.

وقلنا هناك: إنّ ذكر هذا البيت ورد في روايات كثيرة في كتب الفريقين سنذكر بعضها، فالاستغراب لا وجه له، ولا يبعد أن يكون له معنيان، بل يمكن أن يكون المراد به هنا أيضاً ذلك، ولعلّ المراد بالبيت الذي في السماء غير ما نعرفه من معنى البيت.

١. التوبة (٩): ١٨.

٢. الدخان (٤٤): ٣.

وقد ورد ذكره في الدعاء (١٢) من الصحيفة السجادية ومضمونه الصلاة على الملائكة الكرام، قال: «والطائفين بالبيت المعمور» ويبعد إرادة الكعبة المعظمة. وروى الكليني بسنده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألت عن قول الله عز وجل: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^١ وإنما أنزل في عشرين سنة بين أوله وآخره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم نزل في طول عشرين سنة»^٢ ورواه الصدوق عنه أيضاً.^٣

وروى الكليني أيضاً بسند صحيح عن زرارة والفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لما أسري برسول الله ﷺ إلى السماء فبلغ البيت المعمور وحضرت الصلاة فأذن جبرئيل وأقام، فتقدم رسول الله وصف الملائكة والنبيون خلف محمد ﷺ»^٤.

وروى عن علي بن محمد، عن إسحاق بن محمد، عن عبد السلام بن صالح، عن الرضا عليه السلام في الذي تدركه الصلاة وهو فوق الكعبة قال: «إن قام لم يكن له قبلة، ولكنه يستلقي على قفاه ويفتح عينيه إلى السماء ويعقد بقلبه القبلة التي في السماء البيت المعمور ويقرأ، فإذا أراد أن يركع غمض عينيه، فإذا أراد أن يرفع رأسه من الركوع فتح عينيه والسجود على نحو ذلك»^٥. وهذه الرواية ضعيفة لا يعمل بها.

وفي حديث: «أما بدء هذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فردت الملائكة على الله عز وجل فقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

١. البقره (٢): ١٨٥.

٢. الكافي ٢: ٦٢٨.

٣. الأمالي (الصدوق): ١١٩، المجلس الخامس عشر، الحديث ٥.

٤. الكافي ٣: ٣٠٢، باب بدء الأذان والإقامة، الحديث ١.

٥. الكافي ٣: ٣٩٢، باب الصلاة في الكعبة وفوقها، الحديث ٢١.

الذّماء^١ فأعرض عنها، فرأت أنّ ذلك من سخطه فلاذت بعرشه، فأمر الله ملكاً من الملائكة أن يجعل له بيتاً في السماء السادسة يسمّى الضراح بإزاء عرشه، فصيّره لأهل السماء يطوف به سبعون ألف ملك في كلّ يوم لا يعودون^٢.

إلى غير ذلك من الروايات وهي كثيرة وفي أبواب مختلفة. وورد في المقدمة التاسعة من «تفسير الصافي» تفسير البيت المعمور بقلب الرسول ﷺ^٣. ولكنه لا دليل عليه، وروايات الفريقين صريحة في أنّه بيت في السماء إلا أنّ السند ضعيف في أكثرها، ولكن فيها ما هو معتبر سنداً.

ومهما كان فظاهر الآية وإن انصرف إلى الكعبة المعظمة، ولكن لا يبعد إرادة ما ورد في الروايات، مع أنّها لم ترد في تفسير الآية.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ الظاهر أنّ المراد به السماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾^٤ وقال أيضاً: ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾^٥ وسيأتي في تفسيرها - إن شاء الله - أنّ المراد بها الغلاف الجوي، وهو سماء بالنسبة إلى الأرض، قال في «العين»: «السماء سقف كلّ شيء»^٦ وقال ابن دريد في «الجمهرة»: «سماء كلّ شيء أعلاه»، فالغلاف الجوي سماء لنا؛ لأنّه هو الذي نجده كالسقف قد رفع فوقنا، وأمّا الأجرام الفلكية التي نراها، فكوكبنا جزء منها وليست سقفاً مرفوعاً

١. البقرة (٢): ٣٠.

٢. الكافي ٤: ١٨٧، باب بدء البيت، الحديث ١.

٣. راجع: تفسير الصافي ١: ٦٥.

٤. الأنبياء (٢١): ٣٢.

٥. الغاشية (٨٨): ١٨.

٦. كتاب العين ٧: ٣١٩.

٧. جمهرة اللغة ٢: ٨٦٢.

فوقنا. والغلاف الجوي من أهم نعم الله تعالى على سكّان الأرض، بل لولا هذا الغلاف لم يكن على هذا الكوكب أثر من الحياة.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ البحر المسجور، أي المملوء ماءً. والبحار من آيات الله الكونية ومن نعمه على الإنسان ومن مقومات بقاء الحياة على هذا الكوكب بحيث يقال: إنّ أيّ تغيير في حجم مياه المحيطات أو ارتفاعها أو انخفاضها يوجب عدم إمكان استمرار الحياة على الأرض، وإنّ هناك نسبة دقيقة بينها وبين الغازات المحيطة بالأرض.

وقيل: إنّ السجر بمعنى الإيقاد وتهيج النار، وإنّ منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، أي أشعلت ناراً، ومنه سجرت التنور، بمعنى أوقدت فيه النار، وقد قال تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.^١ وعليه فيكون المراد هنا القسم بالبحر المشتعل ناراً يوم القيامة أو حين اقترابه.

وقيل: أي الذي ذهب ماؤه، وذلك في يوم القيامة؛ وعلى هذا فالسجر من الأضداد ولم يثبت ذلك.

وهذا المعنى والذي قبله لا يناسبان سائر ما أقسم به هنا، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ بصدد بيان وقائع يوم القيامة أو ما هو قريب منه، وأمّا هنا فإنّما يقسم ببعض آياته تعالى ونعمه على الإنسان على أنّ عذاب يوم القيامة لواقع، فالظاهر أنّ الصحيح هو المعنى الأول.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذه هي الجملة المقسم عليها. والظاهر أنّ المراد به

١. التكوثر (٨١): ٦.

٢. غافر (٤٠): ٧٢.

عذاب يوم القيامة لقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ وهو يوم القيامة، ولأنه العذاب الذي ليس له دافع؛ وأمّا عذاب الدنيا فتدفعه أمور كثيرة، منها وجود الرسول بين قومه، ومنها الاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^١ حتّى أنّ قوم يونس ارتفع عنهم العذاب بعد نزوله، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^٢.

واختيار كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ بدلاً عن اسم الجلالة يتضمّن تهديداً لكفّار مكّة المناولين للرسول ﷺ.

والوقوع في الأصل ليس بمعنى الحدث، بل الهبوط من فوق وإن استعمل كثيراً في الحدث، فالتعبير ربما يدلّ على أنّ العذاب حاضر مهيباً، وكأنّه في مكان مرتفع ينتظر الأمر ليقع على من أراد الله عذابهم وهم المكذّبون ليوم الدين، لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^٣.

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾، «من» زائدة تفيد تأكيد انتفاء أيّ دافع عن العذاب، أي ما يدفعه ويمنع تحقّقه. والمراد إزالة كلّ توهم باحتمال التغيّر والتأخير، فإنّ الإنسان المغفل كثيراً ما يمتّني نفسه بمثل ذلك، فإذا رأى من الآيات ما يرغمه على تصديق الرسالات، فهو يحاول أن يقنع نفسه بأعذار واهية ليستمرّ في تمتّعه بالشهوات في الدنيا، ومنها احتمال أن يتبدّل الرأي أو يحدث ما يمنع من وقوع

١. الأنفال (٨): ٣٣.

٢. يونس (١٠): ٩٨.

٣. الطور (٥٢): ١١.

ذلك، كما لو حذرت المراصد الفلكية مثلاً باحتمال حدوث اصطدام بين الأرض وبعض المذنبات مما يوجب هلاك البشر بأجمعهم أو أكثرهم، فإن الغالب وإن خافوا على أنفسهم إلا أنهم يمتنون أنفسهم باحتمال حدوث انحراف في مسار المذنب، وهكذا يتوهم الإنسان أن أخبار يوم القيامة أيضاً من هذا القبيل.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ الظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ والمور فُسّر في اللغة تارة: بالتردد السريع عَرَضاً ويراد به الاضطراب، وأخرى: باللين، وثالثة: بالسيلان، يقولون: مار الدم أو الدمع، أي سال. والمفسرون فسّروا الكلمة هنا بالاضطراب.

والكلام في أنه ما هو المراد بالسماء في هذه الآية؟ وما هو المراد باضطرابها؟ ومتى يقع؟ والوارد في التفاسير أن السماء هي مجموعة الكواكب والمجرات، وأن هذا الاضطراب مقدمة لزوال النظام الكوني، وأنه من حوادث الساعة، أي يوم فناء هذا الكون.

قال في «الميزان»: «فيه إشارة إلى انطواء العالم السماوي، كما يذكره تعالى في مواضع من كلامه كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾^١ وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾^٢ وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾^٣ كما أن قوله: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾^٤ إشارة إلى زلزلة الساعة في الأرض التي يذكرها تعالى في مواضع من كلامه، كقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ

١. الانفطار (٨٢): ١ - ٢.

٢. الأنبياء (٢١): ١٠٤.

٣. الزمر (٣٩): ٦٧.

٤. الطور (٥٢): ١٠.

هَبَاءٌ مُنَبِّئًا^١ وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾^٢.

ولكن الظاهر أن مور السماء ليس بمعنى زوالها، فهو نظير انشقاق السماء، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^٣ وتشقق السماء في هذه الآية على الظاهر بمعنى انفتاح أبوابها وتمكّن الإنسان من الارتباط بالملائكة بعد أن كان محروماً عنهم في هذا العالم، ولذلك كان التشقق بالغمام وهو السحاب، والمراد به هنا ما يبقى بين الإنسان والملك من حائل خفيف، ولذلك أيضاً نزل الملائكة تنزيلاً بمعنى أنهم نزلوا عن سموهم وترفعهم عن الاختلاط بالبشر.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾^٤ فالسمااء باقية، ولكنها واهية، أي مسترخية ضعيفة، وقوله ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾^٥ وغيرها من الآيات مما يدل على بقاء السماء يوم القيامة، ولكنها واهية مفتوحة الأبواب ووردة كالدهان، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾^٦ وهي كالمهل، أي الزيت أو النحاس المذاب، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾^٧.

١. الواقعة (٥٦): ٤ - ٦.

٢. النبأ (٧٨): ٢٠.

٣. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٧.

٤. الفرقان (٢٥): ٢٥ - ٢٦.

٥. الحاقة (٦٩): ١٦.

٦. النبأ (٧٨): ١٩.

٧. الرحمن (٥٥): ٣٧.

٨. المعارج (٧٠): ٨.

وهذه الآيات تختلف في مضمونها عما يدلّ على فناء الكون المادي من الكواكب والمجرات، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾^١. وهكذا يتبيّن أنّ المراد بالسماء هنا عالم الملائكة لا السماء بالمعنى المادي، كما يتبيّن أنّ ظرف وقوع هذا الأمر هو يوم القيامة، وليس يوم انهدام العالم وطَيّ السماء، ويدلّ على ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى في تفسير الآية التالية. فالمرور هنا ليس بمعنى الاضطراب كما قالوا، بل هو بمعنى اللين أو السيلان ليناسب انشقاق السماء وتشبيها بوردة كالدهان أو بالمهل بمعنى الزيت أو النحاس المذاب وتوصيفها بأنّها واهية ونحو ذلك.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ المعروف في تفسير الآية أنّ المراد بتسيير الجبال زوالها وانعدامها يوم فناء الكون، وقد مرّ بنا كلام العلامة الطباطبائي رحمته الله وهو أمر محتمل هنا، وفي مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾^٢ قال العلامة في تفسيرها: سِيرَتْ بما يصيبها من زلزلة الساعة من التسيير، فتندك وتكون هباءً منبثاً وتصير سراباً على ما ذكره سبحانه في مواضع من كلامه^٣.

ومثله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيلاً مَّهِيلًا﴾^٤ وانهدام الكون أمر واقع لا محالة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾^٥ وغيرها من الآيات. ولكنّ الظاهر أنّ الآيات التي تخبر عن تسيير الجبال أو بعضها على الأقلّ تتحدّث عن حوادث يوم القيامة لا يوم انهدام الكون المادي، قال

١. إبراهيم (١٤): ٤٨.

٢. التكوين (٨١): ٣.

٣. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٧.

٤. المزمل (٧٣): ١٤.

٥. إبراهيم (١٤): ٤٨.

تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾^١ فقله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يدل على أن هذا من خصائص يوم القيامة، حيث يحيي الله تعالى نفوس البشر.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^٢ وهو كالصريح في أن تسيير الجبال يتم في يوم الحشر ومثله قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾^٣، حيث ورد بعدها قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾^٤ وذلك لا يكون إلا يوم الحشر، أي بعد النفخة الثانية. وهنا أيضاً تدل الآيات التالية على ذلك، فإن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^٥ واضح في المراد بهذا اليوم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا﴾^٦ وهكذا غيرها.

وملاحظة مجموعها تقضي بأن المراد بها أمر آخر غير زوال الكون الذي يتحقق بالنفخة الأولى، وهذا الأمر هو انكشاف الواقع في المحشر وعدم إمكان تستر الإنسان بشيء ولا اللجوء إلى شيء كالجبال، فما في سورة طه من أنه تعالى ينسف الجبال ويترك الأرض مستوية لا فيها مرتفعات ولا تعاريج أو طرق ملتوية، يمكن أن يكون كناية عن عدم إمكان التستر ذلك اليوم، وأن الحقائق

١. طه (٢٠): ١٠٥ - ١٠٨.

٢. الكهف (١٨): ٤٧.

٣. الواقعة (٥٦): ٤ - ٦.

٤. الواقعة (٥٦): ٧.

٥. المزمل (٧٣): ١٢ - ١٤.

واضحة مكشوفة للجميع، وكذلك بروز الأرض في سورة الكهف وحمل الأرض والجبال ودكهما معاً في سورة الحاقة وغير ذلك من التعابير الواردة في الآيات.

والحاصل أنه لا يبعد أن يكون تسيير الجبال هنا أيضاً كناية عن عدم إمكان التستر في ذلك اليوم ولا اللجوء إلى ملجأ، فإنّ الإنسان الساذج ربما يمتني نفسه باللجوء إلى ما يلجأ إليه في الأرض، كما قال ابن نوح عليه السلام: ﴿سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.^١

ولعلّ هذا هو السبب في سؤال المشرّكين عن الجبال المنقول عنهم في الآية التي نقلناها عن سورة طه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ فكأنهم كانوا يمتنون أنفسهم باللجوء إليها والاختفاء فيها.

ومن الأخطاء الخطيرة للإنسان مقارنة حقائق ذلك العالم بما يراه ويشعر به هنا، وهذا الخطأ نجده في المؤمنين أيضاً. والكافر وإن أنكر يوم القيامة إلا أنه لا يمكنه نفي الاحتمال، فهو يمتني نفسه أيضاً بهذه الأماني الخاطئة، وكان منهم من يدفن معه المجوهرات أو يحمل معه السلاح، ومنهم من يعوّل على بطشه وقوّته، كما حكى عن بعض كفّار قريش أو على ماله أو وجاهته أو على شفعائه وهكذا. والقرآن يرفع هذه الغشاوة عن أعين البشر ويصرّح بأنّ ذلك اليوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ولا ينفع مال ولا بنون.

وما ورد في هذه الآيات أيضاً يدخل في هذا السياق ويبيّن للإنسان أنه لا مهرب ذلك اليوم من عذاب الله تعالى، بل إنّ عذاب الله تعالى على الأرض أيضاً

لا مهرب منه، كما قال نوح عليه السلام في جواب ابنه.

﴿قَوْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ الويل كلمة تقال للتنديد بأحد والتقبيح لفعله، ويظهر من موارد الاستعمال أن معناها يختلف حسب الموارد، والذي تفيده هنا هو التهديد.

والمراد بالمكذِّبين الذين يكذبون بيوم الدين، وذلك بقرينة أن السياق وارد في التأكيد عليه، وهذا إعلام من الله تعالى بتعاسة حال المكذِّبين بيوم الدين في ذلك اليوم، حيث يواجهون عقاب الله تعالى وهو حصيلة أعمالهم، فكيف يكون حالهم وقد كانوا في خوض يلعبون؟!

وقد تكرر التعبير في القرآن بالخوض، وهو في الأصل بمعنى الورود في الماء بحيث يغمره، ويستعار به لمن اشتغل بشيء وانتهى به بحيث لم ينتبه إلى ما حوله وإلى ما ينتظره من خطر، ولا يطلق غالباً إلا في مورد الانغمار بالباطل والخوض فيه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^١ أي يخوضون في تكذيب الآيات والاستهزاء بها.

وتنكير الخوض للتعجب منه، أي في خوض عجيب، وفعل المضارع يدل على الاستمرار، والمراد أنهم بصورة مستمرة في حال اللعب خائضين فيه، وذلك لأن كل ما يهتمهم شأنه فهو لعب وباطل.

واللعب هو الفعل الذي لا تترتب عليه نتيجة مهمة إلا ما يترتب على أفعال الأطفال من الانشغال بالأشياء التافهة لئلا يشغلوا بما يضرهم.

وكل ما يفعله مكذبو القيامة من هذا القبيل، حتى ما اعتبروه من الأمور

الجادة، كالتجارة والسياسة والدراسة والبحث العلمي، فإنهم في جميع الأحوال يلعبون بمعنى أنهم تستهويهم الأمور التافهة وتشغلهم عن أهم الأمور والأخطار، فالذي يسير نحو الهاوية بقطار سريع يجب أن لا يشغله شيء إلا محاولة إنقاذ نفسه ومن معه، فإذا اشتغل بأي أمر آخر مهما كانت نتيجته، فإنه اشتغال بأمر تافه في تلك الحال، وهذا حال الركب البشري البائس في جميع القرون.

هذا في ما إذا كان شغلهم الشاغل مما يترأى له في ظاهر الأمر فائدة - كما يظنون - من تجارة وسياسة ودراسة ونحو ذلك وإن كان كلها لعباً ولهواً إذا اشتغل الإنسان بها عن الآخرة والاهتمام بشؤونها، ولكن الأفظع في هذا العصر - وهو على ما يقال: عصر العلم والعولمة - أن أكثر ما يشغل بال الغالب من الناس حتى الكبراء والأمراء هو اللعب بمعناه الواضح والصريح، وهم لا يتورعون عن تسميته لعباً، فتجد أن أكثر الدول تصرف الأموال الطائلة في سبيل اللعب ككرة القدم مثلاً، ولا يغرتكم تسميته عند بعضهم بالرياضة، فما هو إلا إخفاء للحقيقة وخداع للنفس، فما يهتمون به في هذا الشأن ليس من الرياضة النافعة للجسم، بل هو كما يعترفون به منشأ لبعض الأمراض.

أضف إلى ذلك ما يسمونه بالفن من أنحاء الغناء والموسيقى المثيرة والأفلام الناشرة للفساد الاجتماعي والداعية للانحلال الخلقي إلى غير ذلك مما يترفع المؤمن حتى من ذكره.

وليس هذا الخوض العجيب في اللعب إلا نتيجة الكفر المنتشر في عواصم الثقافة البشرية، والذي تصلنا أمواجه شتى أم أبنائنا.

والسر في حث الدول على ذلك هو إغفال الناس عن الأوضاع السياسية

والاقتصادية للبلد، ليتمكن سراق المال العام من نهب الثروات.

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ يوم ظرف للدع بدل عن ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ أو مفعول لفعل مقدر، أي اذكر يوم يُدْعَوْنَ.

والدع هو الدفع بعنف وشدة. والمعنى واضح، ولكن ربما يشير هذا التعبير استغراباً في النفوس، فهو يصوّر التعامل مع الكفار والمجرمين بقسوة وعنف لا مثيل له في الأرض، وهكذا سائر التعابير التي نجدها في القرآن الكريم في هذا الموضوع، ولعلّ بعض الغافلين يستبعد أن يكون ذلك واقعياً، ويتوهم أنّه للتهويل، ولكنّ القائل هو الله تعالى وهو لا يعبر بمبالغة.

ولكنّ الذي يهون الخطب أنّ هذا التعامل ليس مع كلّ من عصى وخالف حتّى الكفار منهم، بل هو عاقبة المكذّبين، والمراد بهم المشركون من قريش وأمثالهم في كلّ عصر ممّن لا يألون جهداً لبثّ الكفر وتكذيب الرسالات، بل يعلنون عداؤهم لله تعالى، والله قد أمهلهم في الدنيا ولم يعذبهم، فما زادوا إلا كفراً وبغضاً، فحقّت عليهم كلمة العذاب؛ لأنّ غاية ما يمكن أن يدعونه هؤلاء هو عدم العلم بما سيحدث أو عدم الدليل، ولا وجه للتكذيب والإصرار من دون دليل، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^١.

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِّمْتُمْ بِهَا تَكْذُوبُونَ﴾ هل هذه جملة تقال لهم حين يصلون إلى حافة النار تنكيلاً بهم، فإنّ الكلام ربما يجرح النفوس بما لا تجرحه المدى والسيوف؛ أم أنّه لسان الحال، فهم حيث يجدون ذلك كأنّهم يخاطبون بهذه الجملة

وَيُغَيِّرُونَ بتكذيبهم لهذه الحقيقة الواضحة؟ يحتمل كلا الأمرين، ولكن الأقرب في النظر هو الثاني.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ تعبير آخر لهم على الوجهين السابقين، حيث كانوا يَتَهَمُونَ الأنبياء بالسحر حين مشاهدة الآيات والمعجزات، فيقال لهم: ذلك اليوم لو كان كل ذلك سحراً فهل هذه النار أيضاً من السحر وليست حقيقة — وهذا هو معنى الفاء في الآية — أم أنتم لا تبصرونها كما كنتم تدعون أنكم لا تبصرون آيات الله تعالى؟ هذا وهم يرونها بأعينهم وتلفح وجوههم وهجها، وهذا غاية في التهكم والاستهزاء.

﴿اضْلَوْهَا فَاضْبِرُوا أَوْ لَا تَضْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الصلي مقاساة حرارة النار والاحتراق بها، ولا يبعد أن يكون الخطاب أمراً تكوينياً، فهم مرغمون على الاحتراق والصلي، ويقال لهم: إن صبرهم هنا لا فائدة فيه، فالإنسان في الحياة الدنيا إذا صبر على الآلام يحصل على قوة جسمية وروحية، وربما يحصل على ثواب في الآخرة، ولكن الصبر يوم القيامة لا أثر له وكذلك الجزع، فهو ربما يفيد في الدنيا ويجلب ترخماً وشفقة من المباشر للتعذيب أو الأمر به، وهو هناك لا يؤثر شيئاً، فالصبر والجزع متساويان، وهذا الأمر أيضاً مما يتبين هناك بوضوح، فلا حاجة إلى خطاب.

و﴿سواء﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي متساويان وهو خبر لمبتدأ مقدّر، أي صبركم وعدم صبركم متساويان، والمصدر لا يثنى ولا يجمع.

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة تردّ على من يستغرب هذه القسوة في التعامل مع الكفار والمشركين، وذلك لأنّ الجزاء هناك ليس قانوناً وضعياً حتّى

يلاحظ فيه التناسب مع الجريمة، بل هو انعكاس لنفس العمل وتجسيم له، فما يجده الإنسان هو نفس العمل بوجه ولا ينفعه الندم هناك، فإنّ العمل لا ينفكّ من عامله في أيّ عالم من العوالم.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٦٦﴾ فَيَكْبِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَيَوَقُّهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ ﴿١٦٧﴾ كُتِبَ لَهُمْ مَا شَاءُوا مِنْ قَبْلِ أَن يُهْلَكُوا مِنْ أَشْرَرِ الْمُوقَّعِينَ ﴿١٦٨﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ
وَزَوْجُهُمْ فِي خُورٍ عِينٍ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿١٧٠﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيهَا
وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٧١﴾ يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ فِيهَا * وَيَطُوفُ
عَلَيْهِمْ غُلَامَانِ هُمْ كَاثِمُونَ ﴿١٧٢﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٧٣﴾
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿١٧٤﴾ فَمَنْ رَبُّ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ
الْأَسْمُومِ ﴿١٧٥﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ من هنا يبدأ ذكر النعم التي من الله تعالى بها على عباده المتقين يوم القيامة ليقترن بالترهيب والترغيب، وهذه سنة الله تعالى في كتابه الكريم.

وتنكير الجنّات والنعيم للتعظيم. والجنة البستان الذي يستر شجره الأرض، مأخوذ من جن، أي ستر.

والنعيم: الخفض والدعة كما في «العين».^١

والخفض: لين العيش وسعته.

والدعة: الراحة. وقال الراغب: النعيم: النعمة الكثيرة.^٢

﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الفكاهة تأتي بمعنى التمتع والتعجب والمزاح. والفكاهة

١. كتاب العين ٢: ١٦٢.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٤٩٩.

ما لذّ وطاب من الثمار. فقلوه ﴿فاكهين﴾، أي منتعمين معجبين بما آتاهم ربهم أو أنهم يتفكّهون بذكر النعم.

ولم يقل فاكهين بنعم الجنة، بل بما آتاهم ربهم، وهذا هو الموجب لتلذّذهم حيث يشعرون بأنّ النعمة أتتهم من ربهم، أي إنّها نتيجة تلك التربية حيث أتوا بالأعمال الصالحة.

﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ عطف على الجملة السابقة، فيكون ذكراً لنعمة أخرى، وهو وقايتهم من العذاب وهو أعظم من النعم التي يتنعمون بها، فإنّ دفع المفسدة أولى من جلب المنفعة، ويمكن أن تكون الجملة معطوفة على قوله: ﴿آتاهم﴾ بناءً على أنّ ﴿ما﴾ مصدرية، فهم فاكهون بإتيان النعم والوقاية من العذاب. وتكرار كلمة ﴿رَبُّهُمْ﴾ للتأكيد على ما مرّ من أنّ النعمة أتتهم من ربهم ونتيجة لتربيّتهم.

والتعبير بالوقاية من عذاب الجحيم ربما يفيد أنّ الجميع في معرض العذاب لولا وقاية الله تعالى وحفظه، ولعلّه يستفاد أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُتْجِي الَّذِينَ أَتَقَوْا وَنَنْزِلُ السَّيْلَ فِيهَا جُثَاً﴾^١ والجحيم: النار شديدة التأجج.

والحاصل أنّ الآية تبيّن حال المؤمنين في تنعمهم وأنهم يتحدثون عن النعم فرحين بها، والحديث عن النعم أيضاً من التّنعّم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال: إنّ هذا خطاب يخاطبون به هناك، ليكون مزيداً من التّنعّم، ولا شك أنّ مثل هذا الخطاب العلوي الصادر من الله

تعالى أو بأمره هو ألدّ النعم وأطيبها إطلاقاً، ولكن لا يبعد أن يكون هذا الأمر أمراً تكوينياً يؤثر في إتاحة الفرصة لهم للأكل والشرب والتلذذ بكلّ ما هناك من نعم.

وقوله: ﴿هنيئاً﴾ صفة لمفعول مطلق مقدّر، أي كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً، أو صفة للطعام والشراب، أي كلوا طعاماً هنيئاً واشربوا شراباً هنيئاً. والهنيء من الطعام والشراب ومن كلّ نعمة ما لا تتعبه مشقة ولا وخامة، كما في «المفردات»^١، أو ما يأتيك بلا مشقة، كما في «مقاييس اللغة»^٢ أو بالأحرى ما يجتمع فيه اللذة والطيب وعدم المؤاخذه والخوف، فيكون هنيئاً من كلّ الجوانب.

والطعام في الدنيا ليس هنيئاً بهذا المعنى إلا للجاهل المغفل، لأنّه في الغالب يتعبه إضرار جسمية وإن جهلها الإنسان حين الأكل، فربما يهناً به لجهله ولكنّ الغالب في هذا العصر يعلم به ويتوقّعه، وأقلّ ما يقلقه السمّة وزيادة الوزن والتخمة، فهذا المقدار أمر طبيعي في غالب الأطعمة، ويزيد في بعضها الخوف من ارتفاع الضغط وزيادة الكوليسترول والسكر وغير ذلك باختلاف الأشخاص. كما أنّه في الغالب يتعبه التساؤل عن مصدره يوم القيامة، وهذا جانب عظيم من القلق والخوف لدى المؤمن المتّقّي، فهو لا يهناً بالطعام في الدنيا إلا إذا كان واثقاً مطمئنّاً من حليّة مصدره، وهو في ما بأيدينا قليل إلى غير ذلك ممّا يمنع الهناء في ملذّات الدنيا، ومنها تذكر أنّ في ما حولنا كثيراً من البشر محرومون من

١. مفردات ألفاظ القرآن: ٤٦٧.

٢. معجم مقاييس اللغة: ٦٨.

الطعام والشراب وخصوصاً الأطفال والشيوخ والمرضى، وهناك منهم من لا ينقصه مال، ولكنّ الحرب والعدوان منعه من الالتذاذ بأقلّ ما يحتاجه الإنسان. ولكنّه في الجنّة هنيء بكلّ ما في الكلمة من معنى، فهو لذيذ غاية اللذة والطيب، وتستسيغه النفس والذوق، ولا يخاف الإنسان من عاقبته في جسمه، بل هو لا يجد له فضلاً يستوجب الإفراغ، ولا يخاف من التخمّة أو التسمّم أو أيّ ضرر، ولا من الملاحقة والمساءلة وتعلّق حقّ الغير، فهو هنيء مريء من جميع الجهات إلا أنّ هذا الطعام الهنيء المريء لا يحصل إلا بالعمل في الدنيا وإن كان كلّه تفضلاً من الله تعالى ولكن أنّ الإنسان لا يستحقّه إلا بالعمل الصالح.

﴿مُتَكَيِّئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ وهذا أيضاً تنعم آخر، وهو الاجتماع الأخوي مع سائر المؤمنين، ويبدو من الآية ونظائرها أنّ ذلك شأنهم بصورة مستمرة ولا يملّون ولا يسأمون، وذلك لأنّه أتى بالوصف كحال لهم ممّا يدلّ على أنّ تلك حالتهم المستمرة.

والاتكاء يدلّ على التّنعّم وانحسار الهموم.

والسرر جمع سرير وهو موضع الجلوس، والأصل في هذه المادّة الاستقرار. و﴿مصفوفة﴾ من الصفّ بمعنى تنظيم شيئين أو أكثر في خطّ واحد، وقد وردت الإشارة إلى كيفية نظم السرر في آيات أخرى بأنّها متقابلة، قال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾^١ وكذا في سورة الصافات والدخان والواقعة. والجلوس بالتقابل أحسن كيفية لجلوس الإخوة والأحبة.

﴿وَزَوْجَانَهُمْ يَخُورُ عَيْنَ﴾ التزويج في الأصل بمعنى جعل شيء قريناً لمثله.

والزوجان: المثلان المتقارنان. ويطلق الزواج على عقد النكاح باعتبار أنه يحقّق الاقتران الشرعي بما يترتب عليه الحقوق من الطرفين، ولكنّه هنا يقصد به تحقيق الاقتران تكويناً.

والحور جمع حوراء وهي المرأة بها حور. واختلف اللغويون في معناه؛ قال الخليل في «العين»: «إنّه شدّة بياض العين وشدّة سوادها، ولا يقال: امرأة حوراء إلا لبضاء مع حورها»^١.

وقال الراغب: «قيل: إنّ ظهور قليل من البياض في العين من بين السواد». قال: «وذلك نهاية الحسن في العين»^٢. وقيل: إنّ الحور هو البياض، وحورت الثياب، أي بيضتها، وعليه فالحور بمعنى النساء البيض، وقيل غير ذلك.

والعين جمع عيّن أي المرأة حسنة العين أو ذات العين الواسعة. وظاهر الآية وآيات أخرى كثيرة أنّ هذا من النعم الخاصة بالرجال المؤمنين، وأنّ الله تعالى يقرنهم بهنّ وهنّ نساء خلقن في الجنّة بصورة إنسان ولسن من جنس البشر.

ولكن حيث كان ذلك يحدث تساؤلاً لدى كثير من الناس وخصوصاً المؤمنات بأنّه ما لهنّ في مقابل ذلك؟ لجأ المفسّرون وغيرهم إلى تأويلات شتى للتهرّب من الإشكال؛ فقال بعضهم: إنّ الحور العين كما هو جمع للحوراء العيّن، كذلك يجمع به الأحرور الأعين وهما صفتان في الرجل، فلا يعد أن يقرن هناك رجال بهذه الصفة بالمؤمنات أيضاً.

١. كتاب العين ٣: ٢٨٨.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٢٦٢.

وهذا صحيح من حيث اللفظ في هذه الآية إلا أنَّ هناك آيات أخرى لا تقبل الانطباق على الرجال، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوهُمْ إِلَّا نِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^١ وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَبْكَارًا * عَرُبًا أَتْرَابًا﴾^٢ وقوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾^٣ وغير ذلك، وهذه كلها صفات أنثوية.

وقال بعضهم: إنَّ التزويج بمعنى الاقتران وليس بمعنى الزواج الشرعي المقتضي للمناكحة، وعليه فلا يختص بالرجال المؤمنين.

وهذا أيضاً لا بأس به في حدّ ذاته إلا أنَّه لا يرفع الإشكال من الأساس، كما هو واضح، فهناك فرق بين الاقترانين.

وقال بعضهم: إنَّه لا يبعد وجود مثل ذلك للمؤمنات، ولكنَّ الله تعالى لم يذكره لقيح أن يصرّح به للمؤمنات في هذه الدنيا.

ولكن لعلّ منشأ القبح هو غير الرجال، فيأتي السؤال عن عدم الاهتمام بغيره النساء المؤمنات.

والواقع أنَّ الإنسان لا يعلم ماذا يحدث هناك، فالآيات تصرّح - كما سيأتي - بأنَّ الله تعالى يلحق بالمؤمنين من صلح من أزواجهم، وهذا يشمل الرجل والمرأة، فربما يلحق بالمرأة الصالحة زوجها إن صلح لدخول الجنّة، وكذلك العكس، ولو كان الأمر كما يحبه الرجال والنساء في هذه الحياة الدنيا، فهناك مواضع للتساؤل حيث إنَّ الأزواج هنا ليسوا على شاكلة واحدة، فقد يكون

١. الرحمن (٥٥): ٥٦.

٢. الواقعة (٥٦): ٣٦ - ٣٧.

٣. النبأ (٧٨): ٣٣.

أحدهما من أهل النار، وقد لا يكون المؤمن أو المؤمنة متزوجين، وقد يكون كلّ منهما متعدّد الأزواج، وربما يكونوا صالحين بأجمعهم، فمن يلحق بمن؟ وكيف يجمع الله تعالى هذه الشئات؟ وكيف يرضي هذه الرغبات؟ وهل هذه الغيرة في الرجال والنساء تبقى هناك على حالها أم تزول؟

والذي يهوّن الخطب أمور:

الأول: أنّ هناك فرقاً بين الرجل والمرأة في الرغبة الجنسية، فالرجل بطبيعته يطلب المرأة والمرأة ترغب أن تكون مطلوبة للرجل، وهكذا يتبيّن أنّ المرأة من طلبات الرجل بالطبع، فحقّ أن تذكر من النعم التي ينعم الله تعالى على المؤمنين بها؛ أمّا الرجل فليس مطلوباً للمرأة بحسب طبعها، فلم يناسب أن يذكر من النعم التي تنعم بها المؤمنات.

الثاني: أنّ الله تعالى وعد المؤمنين - وهذا العنوان يشمل المؤمنات - بأنّ لهم في الجنّة ما يشاءون، وأنّ لهم ما تشتهي أنفسهم، فإذا كان هنالك تمييز بين الرجال والنساء أو بين طبقات المؤمنين لاختلاف درجاتهم في الإيمان والعمل الصالح، فلعلّه لا يوجب تمنياً من غيرهم، واشتهاءً لما ليس لديه، وإلا لعمّ الإشكال وتوسّع؛ لأنّ المؤمن الذي يكون في مرتبة أدنى في الجنّة يتمنى أن يكون في مرتبة أعلى، بل في المرتبة العليا ولكنّه لن يحصل على ذلك، فلكلّ مقامه ومنزلته حسب عمله، وإذا لم يحصل عليه فمعناه أنّه ليس له ما شاء ولم ينل ما يشتهي. والأمر كلّ الله تعالى وهو الفاعل لما يشاء والقلوب كلّها بيده يقبّلها كيفما يشاء.

الثالث: أنّ الإنسان يتطوّر ويتكامل وتتغيّر تمنّياته وآماله وأهواؤه حتّى في

هذه الحياة الضيّقة، فهو في طفولته يطلب أموراً لا يطلبها في الشباب، وفي شبابه يطلب ما لا يطلبه في الشيخوخة، وكلّما تقدّم به العمر تغيّرت طلباته، بل كلّما تطورت ثقافته وتوسّع علمه وتكاملت نفسه تغيّر ما يطلبه، فكيف به إذا انتقل إلى عالم آخر يختلف عمّا نحن فيه في كلّ شؤونه. ومن وصل في هذه الدنيا إلى معرفة ربّه فإنّه تتغيّر طلباته، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

فلتلاحظ مثلاً امرأة فرعون ما الذي تطلبه من ربّها حيث قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^١ فهي لا تطلب القصور ولا الجنان ولا الزواج بأيّ إنسان حتّى بالأنبيا المقربين، وإنّما تطلب أن يكون لها بيت عند ربّها مهما كانت صفته. يالها من معرفة وكمال!! ولذلك ورد في الحديث أنّها من النساء الكاملات. فإذا كمل الإنسان المؤمن هناك - وهو يكمل لا محالة - فإنّه لا يطلب إلا أعلى الرتب والمقامات لدى الله تعالى.

الرابع: أنّه لا يبعد أن يكون ما يذكر من نعم الجنّة تقريباً للذهن بما هو مأنوس للإنسان ويكون الواقع مختلفاً عن ما يحكي عنه اللفظ بحسب فهمنا، فهناك حقائق في الكون لا يمكننا معرفتها ولا التعبير عنها، وليس هناك في الثقافة البشرية شبيه لها ولا ما يعبر عنها، فالعرف العام لا يمكنه تصوّر هذه الحقائق إلا بنحو من التقريب بما يتناسب مع ذهنياته المألوفة.

وقد ذكرنا مراراً أنّ هناك مواضع في القرآن الكريم تتبيّن لنا منها بالتأمّل أنّ الأمر ليس كما تصوّره، فالنار هناك ليس كالنار هنا، والطعام والشراب ليسا كالمألوف من الطعام والشراب.

ومن باب المثال نلاحظ سورة الرحمن، حيث إنه يذكر في الجنتين اللتين وعد بهما من يخاف مقام ربّه - وهذا يختلف عن الخوف من عذابه - أن لهم فيهما من كلّ فاكهة زوجين، وأنّ فيهما عينين تجريان، ووصف الجنتين بأنّهما ذواتا أفنان؛ ولكنّه في الجنتين اللتين دونهما وصفهما بأنّهما مدهامتان، وعيناهما نضّاختان، وفيهما فاكهة ونخل ورمان، فالفارق كبير.

ولكن يبعد جداً أنّ الله تعالى لا يعطي بعض أهل الجنّة من كلّ الثمرات وهو أعطاهما لأهل الأرض حتّى الكفّار منهم، فكيف يمنع أهل الجنّة منها إلا النخل والرمان وشيء من الفاكهة؟! كما أنّ جريان العين ليس بدعاً من النعم ليمنع منه بعض أهل الجنّة وتبقى عينهم تنضخ بمعنى أنّها تفور من دون أن تجري، ومثل ذلك يلاحظ في سورة الواقعة والمطففين والإنسان وغيرها.

والحاصل أنّ ملاحظة هذا الأمر والتأمّل فيه يكشف بوضوح أنّ الأمر أكبر بكثير ممّا نفهمه من ظاهر اللفظ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾. هذه من الآيات التي تدلّ على الشفاعة وأنّ الله تعالى يدخل بعض الناس الجنّة إكراماً لقوم صالحين مقربين لديه، ومعنى الآية واضح وهو أنّ الذرية إذا اتبعوا آباءهم الصالحين وكانوا مؤمنين أيضاً يلحقهم الله تعالى بهم.

والمستفاد من الآية أنّ إلحاقهم بالآباء الصالحين شرطين: أحدهما: متابعة الآباء ولم يبيّن مورد المتابعة وحدودها، والآخر: الإيمان، وجاء به نكرة ممّا يقتضي كفاية أيّ مرتبة منه، والباء للمصاحبة.

وليس المراد مجرد الجمع بينهم بمعنى أنّ الفريقين يستحقّان الجنّة إلا أنّهم

ربما يكونون في مواضع متفرقة، فيجمع الله بينهم، بل المراد أن الله تعالى يدخل الأبناء الجنة مع أنهم لا يستحقونها بأعمالهم وإن كانوا مؤمنين.

ولو كان المراد مجرد الجمع بينهما إكمالاً للنعمة عليهما - كما يقال - لم يكن وجه لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ فإنه لدفع توهم أن الإلحاق ربما يتم على حساب النقص من أعمال الآباء، فلو كانوا يستحقون الجنة بأعمالهم لم يكن وجه لهذا التوهم ولم تكن حاجة لدفعه.

والحاصل أن المراد بالإلحاق هو إدخالهم الجنة مع أنهم لا يستحقونها إكراماً للآباء، وهذا لا يتم إلا إذا كان الآباء مقرّبين لدى الله تعالى، والأبناء لم يكن عليهم تبعات شديدة من الأعمال الفاسدة التي قد لا يغفرها الله تعالى، كقتل المؤمن ظلماً وعمداً أو الفساد في الأرض أو نشر العقائد الفاسدة أو إضلال الناس والتشكيك في العقائد الحقّة، فلا يغرنّ بعض الناس أنهم من ذرية الرسول ﷺ وأن الله تعالى بمقتضى هذه الآية يدخلهم الجنة مهما أفسدوا في الأرض وأباحوا دماء المسلمين واستباحوا الأعراض وهدكوا الستور ونشروا العقائد الباطلة إلى غير ذلك من المنكرات.

والدليل على ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾^١ وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾^٢ فهناك شرط لقبول الشفاعة وهو صلوح الإنسان لدخول الجنة، ولا يصلح لها كل شخص وإن ادعى الإيمان، بل لا بدّ من أن

١. غافر (٤٠): ٨.

٢. الرعد (١٣): ٢٣.

يكون صالحاً، وإنما يحتاج إلى الشفاعة لنقص في إيمانه أو في أعماله أو في الأمرين معاً، ويلاحظ أن الله تعالى أبهم هذا الصلوح ولم يبين المناسبات فيه لئلا يتوهم الفاسدون أنهم يدخلون الجنة بصلاح الآباء أو الأبناء أو الأزواج، كما أنه في هذه الآية أيضاً أبهم المتابعة، فلا بد من كونه مؤمناً من دون تحديد لدرجة إيمانه، ولكن الشرط الآخر وهو المتابعة مبهم.

وقد وقع الكلام في أن الآية هل تشمل كل الأولاد حتى من مات قبل التكليف أو خاص بالمكلفين بقريضة اشتراط الإيمان؟ كما اختاره العلامة الطباطبائي رحمته الله.

ولكن هذا الشرط لا يستوجب الاختصاص بالمكلف، فإن الإيمان قد يصدق قبل التكليف أيضاً، مضافاً إلى أن هذا البحث لا أثر له، فإن من مات قبل التكليف يدخل الجنة بنفسه من دون إلحاق.

وأغرب من ذلك من خص الآية بالصغار، فإنه لا وجه حينئذ لاشتراط الإيمان، بل ليس ذلك مطلوباً منهم، مضافاً إلى أن الإلحاق لا يختص بالذرية حسب سورتي الرعد وغافر.

﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، أي ما نقصناهم وهو من باب الإفعال من لات يليت، أي نقص، أو مجرد من ألت يألت، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً^١﴾ والمراد أنه تعالى يلحق الأولاد بالآباء من دون أن ينقص من عمل الآباء شيئاً.

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٧٢.

٢. الحجرات (٤٩): ١٤.

ثم علّل ذلك بقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، والرهن في الأصل هو إيثاق الدين بوثيقة تودع في الغالب عند الدائن ليضمن بتمكنه من تحصيل ماله، ومعنى الإيثاق هو الربط، فكأنه يربط هذا الدين بما رهنه عنده ربطاً وثيقاً لا ينفكّان عن بعض حتى يسدّد الدين، فلا يمكنه أن يبيع أو يهب أو يتلف أو ينقله عن ملكه بأيّ نحو كان، وحيث إنّ هذا يستوجب ثبات الشيء المرهون محبوساً أطلق الرهن على الثبات، كما في «معجم المقاييس»^١، وإلا فالأصل فيه هو الربط والإيثاق.

وهذا هو المراد هنا، أي إنّهُ موثوق ومربوط بعمله لا يتركه، وليس معناه أنّه محبوس بعمله، فإنّ المؤمن في الجنّة ليس محبوساً. والظاهر أنّ المراد به بيان قانون عامّ يشمل الآباء والأبناء، وليس خاصّاً بهم، فالعمل لا ينفكّ عن الإنسان أينما كان.

والنتيجة أنّ الإلحاق لا يمكن أن يوجب سلب العمل عن الآباء ودرجه ضمن أعمال الأبناء، فكلّ إنسان موثوق ومربوط بعمله لا ينفكّ عنه. وهذا يدلّ على أمر آخر من خصائص الجنّة وأهلها، وهو أنّ اجتماعهم في جنّة واحدة واتكأهم على سرر متقابلين لا يستوجب اتحادهم في الثواب والدرجة، فليس الثواب هناك — كما مرّ — بالفواكه واللحم والشراب، بل هو أمر أهمّ وأعظم، ولكلّ إنسان ثوابه ومقامه حسب عمله، وهذا معنى إيثاقه بعمله، وليس بمعنى الحبس كما يتوهم.

وربما يتوهم التنافي بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ إلا أصحاب التّمين^٢، حيث استثنى أصحاب اليمين من هذا الرهن، مع أنّ مودعه

١. معجم مقاييس اللغة ٢: ٤٥٢.

٢. المدّثر (٧٤): ٣٨ - ٣٩.

هنا هم أهل الجنة خاصة.

والجواب: أن الموردين يختلفان، فالآية هنا تبين ربط المؤمن الصالح بعمله الصالح ليتحدد به ثوابه ومقامه ولدفع توهم أن عمله ينقص إذا ألحق به أحد، وفي سورة المدثر ينفي ربط المؤمن بالعمل الفاسد الذي تاب منه وغفر الله له وكفر عنه وستره عن الناس، بحيث لم يبق له أي أثر، حتى أنهم يتقابلون على السرر ولا يتذكرون ما رأوه من صاحبهم المؤمن التائب الذي غفر له، وإلا لاحتقروه لأعماله المشينة التي عرفوه بذلك. ولل كلام تتمّة ستأتي إن شاء الله تعالى في تفسير سورة المدثر.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ المدّ - كما في «العين»^١ - الجذب، وفي «معجم المقاييس»^٢ جرّ شيء في طول. ورجل مديد الجسم، أي طويل، فالمدّ والإمداد إيصال ما به يبقى الشيء على حاله من خير وشرّ، قال تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾^٣ ومنه إمداد الجيش، أي إرسال المدد إليهم من جند وسلاح وعتاد.

وقيل: إن الإمداد يأتي غالباً في الخير، والمدّ في الشرّ، كقوله تعالى: ﴿وَتَمُدُّهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا﴾^٤ ولا دليل عليه.

والحاصل في معنى الآية أن الله تعالى يرزقهم باستمرار من الفاكهة واللحم بجميع أنواعهما و«من» في قوله: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ بيانية، والمراد أنه ليس فيهما أي

١. كتاب العين ٨: ١٦.

٢. معجم مقاييس اللغة ٥: ٢٦٩.

٣. لقمان (٣١): ٢٧.

٤. مريم (١٩): ٧٩.

تحديد من حيث النوع والكمية إنما يتبع اشتهاؤهم.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾. النزاع: قلع الشيء، والتنازع محاولة كلٍّ من الطرفين قلع شيء من الآخر وأخذه بعنف. وقال المفسرون: إنّ التنازع وإن كان في الأصل بمعنى المجاذبة ولذلك - يعبر به عن المخاصمة - إلا أنّه هنا وبقرينة ذكر الكأس يراد به المجاذبة بلطف، كما يفعله الأصدقاء حين الشرب والمنادمة، وهذا تعبير عن تلاطفهم مع بعض واجتماعهم في مجالس الأُنس.

والكأس يطلق على الإناء الخاص للشرب ولا يطلق حتّى يكون فيه الخمر، فهم يتجاذبون كأس الخمر ولكنه ليس كخمر الدنيا يزيل العقل ويستتبع الحديث الباطل والمشاتمة والإثم، بل هو شراب طهور لا لغو فيه ولا تأتيم.

واللغو: هو الكلام الباطل، والتأتيم أن يقول بعضهم لبعض: «أثمت» كما في الصحاح.^١ والكأس كالخمر يذكر ويؤث.

ولكنّي أظنّ - والله العالم - أنّ التنازع بمعناه الحقيقي، فأهل الجنّة مع أنّهم لا يتنازعون ولا يتخاصمون في أيّ موضع وقد نزع الأغلal من صدورهم، فليس هناك طلب للغو ولا حسد ولا محاولة للاستئثار بالخيرات وأمثال ذلك ممّا يتلى بها البشر في الحياة الدنيا ويستوجب المشاحنات بل الحروب، ولكنهم في هذا المقام خاصّة يتنازعون وليس ذلك بمعنى المخاصمة، بل يحاول كلّ أحد منهم أن يتشرّف من هذا الشراب الطهور قبل غيره أو أكثر من غيره، ولكن هذه المجاذبة لا يتخلّلها كلام باطل ولا ظلم وإثم.

والسرّ في هذا التنازع أنّ هذا الشراب ليس كسائر نعم الجنّة، بل هو أمر

خاص، ولذلك عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^١ ولم يقل: وآتاهم أو ما يفيد هذا المعنى، وإن كان هذا السقي وارداً في العباد المقربين وهم من نزل فيهم سورة هل أتى - سلام الله عليهم - إلا أنه لا يبعد أن يكون فيه بالنسبة للآخرين أيضاً ميزة على سائر النعم بالقرب لدى الله تعالى مما يسلب عن أهل الجنة وقارهم، فيتنازعون عليها، بل يسلب العقل أيضاً ولكن لا كسلب الخمر في الدنيا بحيث يستتبع لغواً وتأثيماً، بل بحيث يذوبون في حب ربهم، فلا يريدون غيره، ولعل هذا هو الوجه في تسميته خمرًا.

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ هُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ هذا من تمام الكلام في تداول الخمر فيما بينهم، والمراد أن هذا الخمر يطوف بها عليهم الغلمان، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مَّحَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾^٢ وقال أيضاً: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مَّحَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾^٣، فإن قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ متمم لقوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ وحيث إنهم يسقون كأساً، والكأس لا يطلق إلا للإناء الذي فيه خمر، فالولدان يطوفون عليهم بالخمر وهم الغلمان هنا. وهو جمع غلام، أي الإنسان الذكر في أول بلوغه وقد نبت شاربه، وأصله من الغلطة، أي الشهوة وأطلق عليه لأن الشبق بين عليه.

١. الإنسان (٧٦): ٢١.

٢. الواقعة (٥٦): ١٧ - ١٨.

٣. الإنسان (٧٦): ١٥ - ١٩.

والمراد بطوافهم أنهم يدورون عليهم بالسقي في مجالسهم وهم على سرر متقابلين، إمّا باعتبار أن مجالسهم دائرية، أو باعتبار أنهم إذا انتهوا من سقي الجميع يعودون إلى السقي، فيكون طوافاً وإدارة عليهم، والقصد منهم أنهم لا يملّون من هذا الشرب؛ لأنهم لا يصدّعون عنها ولا ينزفون، ولأنه شراب طهور يقربهم إلى الله تعالى. وشبه الغلمان باللؤلؤ وهو الدرّ المأخوذ من الصدف وذلك لصباحتهم ونظافتهم وبياض وجوههم.

والمكنون، أي المستور، إمّا بلحاظ أنه بعد في الصدف لم يخرج منه فيكون أكثر صفاءً، أو بلحاظ أنه قيّم جداً، فيحتفظ به في ستر.

وقوله: ﴿هَمْ﴾ يدلّ على أن الغلمان ملك لهم يتبعونهم ويخدمونهم. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، مشهد آخر من تنعمهم في تجمّعهم حول بعض، حيث يتذاكرون نعمة الله عليهم، وقوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ جملة حالية، أي أقبل بعضهم على بعض وهم يتساءلون.

والتساؤل تفاعل من السؤال، أي كلّ منهم يسأل الآخر. ولم يذكر متعلّق السؤال، ولكن الذي يظهر من الآيات التالية أنها جواب عن ذلك السؤال، فالظاهر أنهم يسألون عن السبب في نجاتهم من النار ووصولهم إلى هذه النعمة.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾. الظاهر أنه جواب عن السؤال السابق، والمعنى أن سبب نجاتهم هو كونهم في الدنيا وبين أهلهم مشفقين خائفين من الآخرة وما ينتظرهم من محاسبة الأعمال.

والإشفاق يفسّر عادة بالخوف، ولكن في «فروق اللغة» أنه ضرب من الرقة

وضعف القلب ينال الإنسان،^١ واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^٢ اذ لا يصح أن يقال: إنهم من خوف ربهم خائفون. وقوله: ﴿فِي أَهْلِئِنَا﴾ لعل المراد به أنهم كانوا يخافون في موضع الأمن، حيث كانوا بين أهلهم والناس عادة يشعرون بالاطمئنان إن كانوا بين الأهل، ولكن المتقين يشعرون بالغربة وهم بين الأهل؛ لأن قلوبهم متعلقة بربهم وهم يخافون أن يصدر منهم ما لا يرضيه تعالى، فهم يحذرون الآخرة ولا تهمهم شؤون الدنيا، وليس إشفاقهم من عوارضها وحوادثها.

﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السُّمُومِ﴾. المن: هو النعمة العظيمة، والفاء يدل على أن هذه النعمة مترتبة على الخوف من الله تعالى وعذابه ومحاسبته. والوقاية: الحفظ. وإضافة العذاب إلى السموم بيانية، أي العذاب الذي هو السموم.

والسموم صفة مشبهة من السم، وأصله بمعنى الثقب الصغير، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^٣ ويقال للمادة القاتلة سم؛ لأنه ينفذ في مسام الجسم، ولذلك أيضاً يعبر به عن الريح الحارة الجافة، والمراد به هنا نار جهنم سميت به؛ لأن حرارتها تنفذ من مسام الجسم وتحرق الباطن كما قيل، أو لأنها تنفذ في الأرواح، كما قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْإِنْدَةِ﴾^٤. ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾. الظاهر أنه إكمال للتعليل السابق،

١. الفروق في اللغة: ٢٣٦.

٢. المؤمنون (٢٣): ٥٧.

٣. الأعراف (٧): ٤٠.

٤. الهمزة (١٠٤): ٦ - ٧.

ومعناه أنّ الإشفاق والخوف بنفسه لا يكفي للنجاة من النار، بل لا بدّ من الدعاء والتضرّع إلى الله، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^١ ولم يذكروا للدعاء متعلّقاً، ومعناه أنّهم كانوا يدعونه تعالى لكلّ شيء، ويستفاد من الآية أنّهم ما كانوا يدعون غيره وأنّ هذه هي ميزتهم، فهم لا يتوجّهون إلا إليه، ولا يطلبون حاجتهم إلا منه، ولا يأملون الخير إلا عن طريقه، وإن طلبوا من غيره شيئاً فإنّما يعتبرونه منفذاً لما أَراده الله تعالى ووسيطاً بأمره، ولا يعتقدون لشيء الاستقلال في القدرة والعمل.

وقوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا تنبيه على أنّ الدعاء في تلك الحياة لا ينفع شيئاً لمن لم يدع في الدنيا، وأمّا من كان يدعو فيها فلعلّه يفيدّه هناك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢.

وعلّلوا اختصاص الدعاء به تعالى بأنّه هو البرّ الرحيم، والبرّ، صفة مشبّهة من البرّ، وقد اختلفت كلمات اللغويين في تفسيره ولم أجد فيها ما تطمئنّ إليه النفس، فقد فسّر بالصدق والطاعة والإحسان والصلاح وخلاف العقوق ونحو ذلك، وفي موارد استعماله ما لا يناسبه شيء من ذلك كقولهم: «حجّ مبرور»، أي مقبول، ولعلّه من الصدق بمعنى أن يكون الحاجّ صادقاً في تعهده والتزامه بترك محرّمات الإحرام. والبرّ من صفات الله تعالى وقد فسّر بالعطف والإحسان.

والرحيم صفة مشبّهة من الرحمة. وقد ذكرنا بعض الكلام حول معنى الرحمة وإسنادها إلى الله تعالى، وحول الفرق بين الرحيم والرحمن في تفسير سورة الفاتحة.

١. الفرقان (٢٥): ٧٧.

٢. التحريم (٦٦): ٨.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿١٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِءَ رَبِّبَ أَلْمُنُونِ ﴿١٩﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْأَمْتَرِ بَصِينِ ﴿٢٠﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾. الفاء للتفريع، أي حيث تبين مصير الفريقين فاستمر في تذكيرك وتحذيرك لتتم الحجة على الناس، ولا تهتم بما يتسلون به من أعدار، لعدم الانصياع للرسالة الإلهية، ثم يذكر بعض أعدارهم بصورة استنكار، فمنها اتهامهم له تارةً بالكهانة، وأخرى بالجنون. والفاء الثانية للتعليل، أي يجب الاستمرار في التذكير، لأنك لست - بحمد الله وبما أنعم عليك ربك - بكاهن ولا مجنون.

والباء في: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ للسببية، أي ما أنت بسبب ما أنعم الله به عليك كاهناً ولا مجنوناً.

قيل: إنه لا يصح أن يكون سبباً؛ لأن أكثر الناس كذلك، فليس امتناناً خاصاً به، ولذلك أوله العلامة الطباطبائي رحمته الله بأن المراد أنك بنعمة الله عليك لا يمكن أن تكون من هذا القبيل، فليس مجرد النفي.^١ ولكن الظاهر أنه لا حاجة إلى التأويل، فكل من ليس كذلك إنما هو بنعمة ربه، ولا حاجة إلى تخصيص النعمة به رحمته الله. والكاهن من كان يخبر عن المستقبل بدعوى اطلاعه على الغيب عن طريق الجن، وكانت الكهنة في ذلك العهد تعتمد إلى إخبار الناس عن الغيب بهذه

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٨.

الدعائي الفارغة. ولكنّ الظاهر أنّ بعضهم كان يتلقّى واقعاً بعض الأخبار عن طريق الجنّ، وأنّ الجنّ كانوا يتلقّون الغيب عن الملائكة باستراق السمع ويزيدون عليه من عندهم أيضاً، ولما ولد الرسول ﷺ أو لما بعث انتهت الكهانة، لأنّ الجنّ منعوا من استراق السمع، فلم يتمكّنوا من إيصال الأخبار إليهم.

وفي الآيات والأخبار ما يستفاد منه ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّيِّئَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتِ حَرَسٍ شَدِيدٍ وَشُهْبًا* وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَعَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾^١ وقد مرّ بعض الكلام حول ذلك في تفسير سورة الصافات. ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾. ﴿أَمْ﴾ منقطعة، أي بل يقولون شاعر، وهكذا الحال في كلّ الموارد التالية، والإضراب بمعنى نفي المورد السابق وبيان عذر آخر منهم.

وقوله: ﴿شَاعِرٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هو شاعر. والتربّص: الانتظار وتوقع حدوث شيء ولو في المستقبل. والمنون: الموت. أطلق عليه؛ لأنّه يقطع الملذّات، والمنّ هو القطع. والريب في الأصل هو الشكّ، ويقال لما يخاف وقوعه: رابني الأمر، فيمكن أن يكون الريب مصدراً بمعنى المريب، وتكون إضافة الريب إلى المنون من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي تتربّص به الموت الذي يخاف منه، وقيل: المنون بمعنى الدهر وريب المنون حوادثه.

وهذا القول منقول عن بعضهم، حيث كانوا يمتّون أنفسهم بأنّه ﷺ يموت، كما مات من قبله من الشعراء، ويبقى الناس يردّدون شعره دون أن يتبّعوا دينه. وهذا كلام غريب لا يصدر من عاقل، فإنّ الفرق واضح بين دعوة إلى دين

وبين شعر ينشد حول شؤون الحياة في الدنيا، والأوّل يستتبع مؤمنين يدافعون عنه ويتبعونه دون الثاني إلا أنّهم لكبرهم وطغيانهم لم يتمكنوا من متابعة الرأي السديد، ولا من إبداء قول سديد، فكانوا يتخطّون في مواجهة الرسالة المجيدة. ﴿قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾. قيل: معناه انتظروا موتي، فأنا أيضاً أنتظر موتكم، ولكنكم تنتظرون لي موتاً طبيعياً وأنا أنتظر هلاككم بعذاب من الله تعالى ولو بأيدي المؤمنين، كذا في التفاسير.

ويمكن أن يكون المعنى: وأنا أيضاً أنتظر موتي، فلا يضرني الموت متى أَراده الله تعالى، فإنّه لا يأتيني الموت إلا بعد أن ينتهي دوري وتنتهي مهمتي في أداء الرسالة، كما أَراده الله تعالى ولا يهمني الموت بعد ذلك، بل أنا أستقبله بترحاب وأنتظره، فإنّ الموت للمؤمن راحة وهو يتشرف بلقاء ربّه، فلا منقصة فيه، بل هو انتقال إلى مرحلة من الكمال. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾^١، ويؤيد هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿مَعَكُمْ﴾ حيث يمكن أن يستفاد منه أنّه ينتظر ما ينتظرونه بعينه.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ هَذَا﴾، الأحلام إمّا أن يكون جمع حُلُم — بضمّتين — أو جمع حِلْم — بكسر فسكون — والأوّل بمعنى الرؤيا الباطلة، والثاني بمعنى التأمّني والحكمة، والمفسّرون اعتبروه هنا بالمعنى الثاني باعتبار أنّ قريشاً كانت تدّعي الحكمة والعقل. قيل: لأنّهم كانوا يجتمعون مع مختلف الناس في الحجّ والعمرة، فيزيدون خبرة وعقلاً.

والحلم وإن لم يكن بمعنى العقل إلا أنّه يستلزمه، فيعبّر به عنه، والمعنى: هل

أَنَّ حَكَمَتَهُمْ وَعَقْلَهُمْ — كما يدَّعون — هو الذي أمرهم بهذا، أي بمواجهة الرسول ﷺ بهذا النحو من التخطُّط، فتارةً يعتبرونه كاهناً، وتارةً مجنوناً، وأخرى شاعراً؟! وكيف يجمع بين الجنون والكهانة أو الجنون والشعر؟! وهل من العقل مواجهة المنطق والاحتجاج بهذا النحو؟!

ومعنى الأمر البعث والتحفيز. وهذا التعبير ينفي عنهم العقل والحكمة والرزانة، وليس — كما يتوهم — إقراراً لما كانوا يدَّعون من العقل والحكمة. ويمكن أن تكون الأحلام جمع الحُلُم بمعنى الرؤيا الباطلة، ويعبر بذلك عن الأماني الكاذبة والأوهام، فيكون الأمر أوضح. والاستفهام على الأوّل استنكار على أساس الاستهزاء بادعائهم الحكمة، وعلى الثاني استنكار لمتابعة الأوهام والأحلام. والتعبير بالأمر تجوِّز بمعنى أنَّها هي السبب.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. ﴿أَمْ﴾ هنا أيضاً منقطعة، أي بل أهم قوم طاغون وقرئ: «بل هم»، أي ليس ما يقولون نتيجة تفكُّر وتدبير وحكمة، أو ليس من تأثير الأوهام والأحلام، بل نتيجة طغيانهم وكبرهم وعدم إنصياحهم للحق، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذُّونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^١ واعتبر الطغيان صفة للقوم لا لأفرادهم، للإشارة إلى أنَّه أصبح جزءاً من كيانههم القومي، فلا يكادون يتركونه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. عود إلى مجموعة الاتهامات، فهم تارةً يتهمون الرسول ﷺ بالكهانة، وتارةً بالجنون، وأخرى بأنَّه شاعر، والمنقول في هذه الآية أنَّهم يتهمونه بالكذب على الله تعالى.

والتقول: هو صنع القول من نفسه واسناده إلى غيره، وهذا ممّا لا يمكنهم أن يقولوه معتقدين به؛ لأنّه ﷺ كان بين أظهرهم أربعين سنة لم يسمعو منه كذباً ولا رأوا منه خيانة، ولذلك عرف بينهم بالصادق الأمين، ولذلك ردّ على هذا القول بأنهم لا يؤمنون، أي إنّهم يعلمون أنّ كلامهم باطل، وهم لا يقولونه عن جدّ، وهذا يفهم من الإضراب. ولكنّ المشكلة تكمن في نفوسهم التي تأبى الإيمان بالحقّ.

وهذه صفة نوع من البشر المنطوي على نفسه لا يتفتّح ولا يقبل ولا ينصاع للحقّ مع وضوحه، فهو دائماً يتأبى من الإيمان خصوصاً بالأُمور الغيبية، وكأنّ الرفض لكلّ ما يقال له جزء من طبيعته.

والنبي ﷺ ابتلي بهذا النوع الصلف من الناس. ونرى اليوم أيضاً أنّ أخلافهم على نفس الشاكلة. ويلاحظ أنّ كثيراً من الناس ملتزمون بالمبادئ القبلية والعشائرية أكثر من الالتزام بالدين، بالرغم من أنّهم مسلمون يؤمنون ظاهراً بالله تعالى وباليوم الآخر، فكيف بمن لم يؤمن أبداً.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ردّ على اتهامه ﷺ بالتقول والافتراء، حيث إنّ معنى ذلك أنّ هذا القرآن من صنع البشر، فالردّ على أساس أنّه إن كان هذا من صنعه ﷺ فهو بشر مثلكم، فأتوا بحديث مثله، وهذا تحدّ لهم وقد تحدّى القرآن جميع البشر، بل الجنّ والإنس ولم يتمكّن أحد طيلة القرون أن يأتي بمثله.

والقرآن كسائر أنحاء الكلام، والكلام من صنع البشر، ومن الغريب أنّ البشر بالرغم من عداء جمع كبير منهم خصوصاً المشركين، ثمّ العرب من أهل

الكتاب، وبالرغم من التحدي، وبالرغم من كون بعضهم في قمة الأدب العربي وظهور بعض المحاولات إلا أنه لم يدع أحد أنه تمكّن من إنجاز ما يقابل القرآن ولو جزئياً.

فما هو السرّ فيه؛ هل هو في تركيب الكلمات أم في جرس الألفاظ، أم في المعاني، أم في كلّ ذلك، أم في أمر آخر، مجهول؟ وهذا الإبهام حير الألباب، ولذلك ذهب بعض أهل النظر إلى أنّ هذا من باب الصرف بمعنى أنّ الله تعالى يصرف الإنسان ويمنعه تكويناً، وإلا فالإنسان قادر بطبعه من الإتيان بمثله. وهذا غير صحيح قطعاً بملاحظة جميع الجوانب، بل حتّى بملاحظة الجانب اللفظي.

والتحدي هنا ليس بسورة أو بعشر سور أو بالقرآن كلّه، كما في سائر الموارد، بل بحديث يكون مماثلاً لهذا الحديث، وهو يشمل ما لو كان بضع جمل متفرقة.

والتحدي لا ينحصر في الجانب الأدبي من الحديث - وإن كان هو بذاته من أهمّ الجوانب - بل هو معجز من جهات شتى نشير إليها إجمالاً، والتفاصيل في موضع آخر:

فالقرآن معجز من جهة الإخبار عن المغيّبات التي وقعت بعد نزول الآية، ومنها بعض الحقائق التي ما كان البشر في ذلك العهد يعلمها إلى أن توصّل إليه العلم الحديث.

ومعجز من جهة اشتماله على قوانين منظمّة ومتكاملة ومتناسبة لتنظيم الحياة الاجتماعية ممّا لا يمكن أن يفقهه الإنسان المتعلّم بنفسه حتّى بعد قرون، فكيف بذلك العهد.

ومعجز من جهة اشتماله على أحسن وأقوى تصوّر للكون، ولعلاقة الإنسان برّبه، ولمعرفة الله تعالى وصفاته، ولمعرفة أنبيائه عليه السلام وتنزيه ساحتهم عما ألصق بهم من تهمة في الكتب المحرّفة والموضوعة والتاريخ الظالم.

ومعجز من جهة تناسق مضامينها وتوافقها بالرغم من أنّها تليت على الناس طيلة ما يقارب ربع قرن، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^١.

والاختلاف يحصل في تصانيف البشر في مثل هذه المدة بسبب الاشتباه والنسيان، وبسبب التطوّر وتبدّل الفكر، ولأسباب أخرى.

ومعجز من جهة أنّه صدر من إنسان أمّي لم يقرأ ولم يكتب ولم يحضر محضر معلّم طيلة أربعين عاماً، وتاريخه واضح، وهو معروف لدى الناس بذلك. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلْزَمْتَ النَّاسَ الْمُبْتَطِلُونَ﴾^٢ ويقول أيضاً: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^٣ وغير ذلك.

١. النساء (٤): ٨٢.

٢. العنكبوت (٢٩): ٤٨.

٣. يونس (١٠): ١٦.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿١﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٧﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٨﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من هنا يبدأ بتوجيه مجموعة من الأسئلة إلى كفّار مكة والمناوئين للرسول ﷺ وهي ليست للاستفهام، بل للاستنكار ولدفع شبهاتهم حول الرسالة وتفنيد مزاعمهم، وبطريقة السؤال ممّا يطلب جواباً هم عاجزون عنه، وقد اختلف المفسّرون في المراد من السؤال الأوّل على أقوال:

القول الأوّل: أنّ المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، أي من غير خالق ومقدّر، فيكون «من» لا ابتداء الغاية. واختاره جمع ولعلّهم الأكثر، وقد أصرّ على هذا بعض المفسّرين، وذكر أنّ الآية إشارة إلى الاستدلال على وجود الباري بدليل الحدوث، كما في كتب الكلام والفلسفة.

ولكنّه بعيد عن اللفظ؛ لأنّ الآية تفرض ابتداءاً أنّهم مخلوقون بقوله: ﴿خُلِقُوا﴾، فلا معنى لفرض كونهم مخلوقين من غير خالق، بل هو تناقض واضح في اللفظ، وإنّما يصحّ ذلك لو كان يعبر بالوجود: «أَمْ وجدوا من غير شيء».

القول الثاني: أنّ الشيء بمعنى العلة الغائية، فالمعنى هل خلقوا لغير سبب ولا

يترتب على وجودهم أي غرض، كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾^١.
واعترض عليه بأنه لا يناسب الجملة التالية: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

ولكنه غير صحيح؛ لأن الجملة التالية لا يجب أن يكون عدلاً للأولى؛ إذ لم تُصدر الجملة بهمزة الاستفهام، فكل من الجملتين موضع استفهام وسؤال مستقل.

وإنما الاعتراض على هذا التفسير أنه لا موجب للتعبير بالشيء عن السبب، فكان الأنسب أن يقال: من غير سبب أو من غير علة أو عبثاً.

القول الثالث: أن الشيء ورد منكرًا بتقدير صفة تناسب المقام، والتقدير: من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر، قال العلامة الطباطبائي رحمته الله «والمعنى: بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شيء خلق منه غيرهم من البشر، فصلح لإرسال الرسول والدعوة إلى الحق والتلبس بعبوديته تعالى، فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف ولا يتوجه إليهم أمر ولا نهْي، ولا تستتبع أعمالهم ثواباً ولا عقاباً؛ لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم»^٢. ثم قال: إن ما ذكره أقرب من سائر ما قيل وأشمل.

والتكلف باد بوضوح على ما ذكره، مضافاً إلى أن الصحيح في التعبير حينئذ أن يقال: من شيء غير ما خلق منه غيرهم، وما ورد في الآية لا ينطبق على ما ذكره رحمه الله إلا على بعض التعابير العامة. وهناك وجوه بعيدة أخرى.

والذي يخطر بالبال أن المراد: أم خلقوا بشراً من لا شيء، أي لم يسبق وجودهم البشري حالة أخرى، فأصل المخلوقية مفروغ عنه؛ لأنهم يعترفون به

١. المؤمنون (٢٣): ١١٥.

٢. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢٠.

ويعترفون أيضاً أنَّ خالقهم هو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^١ وإنَّما ينكرون الربوبية، فالسؤال لتقرير ذلك عن طريق أنَّهم لم يخلقوا فجأةً على صورة إنسان، بل كانوا في مرحلة سابقة نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم خلقاً آخر، فالله تعالى هو الذي دبر هذا التدرج في الوجود وجعل لكم هذه الأدوات والجوارح والأعضاء الداخلية والخارجية والقوى المختلفة، كل ذلك بتدبير دقيق وفي ضمن مراحل من الحياة، سواء في الطور الجنيني أم بعد الولادة إلى أن يكبر الإنسان ويشيخ ثم يموت.

وقد تعرض القرآن للتنبيه على هذا التدرج والاستدلال به على الربوبية في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَنَّاكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾^٢.

والحاصل أنَّ المراد بالسؤال هنا أنَّهم لم يخلقوا من غير شيء فجأة، بل كانوا شيئاً، حتى قبل النطفة، فمن هو الربّ المدبّر الذي قدر كل هذه المقادير، والنتيجة أنَّ الخالق هو المدبّر وهو الربّ، فهو الإله لا ربّ سواه ولا معبود غيره، وهذا هو ما كان المشركون ينكرونه لجبهلهم وغبائهم.

وهذا هو الأقرب إلى اللفظ وبعده اختيار الأكثر بتأويل أن يكون المراد بالخلق الوجود، أي هل وجدوا من غير خالق؟ فتكون الجملة التالية عدلاً لها: أم

١. الزخرف (٤٣): ٨٧.

٢. المؤمنون (٢٣): ١٢-١٦.

أنهم هم الذين خلقوا أنفسهم أم أنهم أعظم من ذلك، فهم خالقوا الكون برمته. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾. قلنا آنفاً: إن هذه الجملة قد لا تكون عدلاً للجملة السابقة، كما أن الجمل التالية ليست كذلك، فكل منها سؤال مستقل، ولعل المراد بالخالقية هنا - كما ذكره المفسرون - خلق أنفسهم بقرينة الألف واللام، فيكون الاستغراب من دعوى أن يكون الإنسان هو خالق نفسه، وهي دعوى واضحة البطلان. وإنما أتى بها للتشنيع على مقاتلتهم؛ لأن إنكارهم لربوبية الباري - جلّ وعلا - يستلزم مثل هذه الأقاويل الباطلة، وهو أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم أو أن يكون الخالق غيرهم من المخلوقات، وهو مثله في الشناعة والبطلان.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ سؤال استنكاري آخر يزيد في شناعة قولهم وهو أنهم هل هم خالقوا الكون؛ لأن المراد بالسموات والأرض الكون كله، وقد قلنا مراراً: إنه يمكن أن يكون تعبيراً مجازياً عن الكون كله بلحاظ أن الإنسان إذا فتح عينه لا يجد إلا سماءاً تظله وأرضاً تقله، فيعبر عن كل الكون بالسماء والأرض، أو أنه يعبر عنه حقيقة بلحاظ أن المراد بالسموات العوالم الغيبية المجردة، وبالأرض عالم الطبيعة.

ومهما كان فمن الطبيعي أنهم لا يمكنهم دعوى ذلك، ولكن لو تمّ دعوى أنهم خالقوا أنفسهم فخلقهم للكون كله أيضاً أمر ممكن، وبطلانه واضح فلا حاجة إلى استدلال، وإنما الغرض هو بيان فظاعة إنكارهم لربوبية الله تعالى.

﴿بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾. قال جمع من المفسرين: إن المراد بهذه الجملة أنهم وإن قالوا في جواب من سألهم من خلق السماوات والأرض أنه الله تعالى، ولكنهم لا يقولونه عن يقين. ولا حاجة إلى هذا التأويل البعيد، مع أنه لا يناسب الفعل

المضارع، فلو صحَّ ما قالوه لكان المناسب أن ينفي كونهم موقنين.
فالأولى أن يقال: إن الإضراب يفيد أنهم يعلمون - كما هو واضح - أنهم لم يخلقوا الكون، ولكنهم لا يوقنون بوجود الخالق أو بربوبيته تعالى، مع أن النظر إلى الكون وخلق السماوات والأرض يكفي لحصول اليقين بالله تعالى وربوبيته المطلقة إلا أنهم أناس لا يحصل لهم اليقين، فهم دائماً يعيشون حالة الشك والارتياب.

ونحن نجد من حولنا أناساً مبتلين بمرض الوسواس لا يحصل لهم اليقين حتى بالمبصرات والمحسوسات، وهذا مرض، وهم لم يكونوا مرضى بهذا المعنى إلا أنهم في قلوبهم مرض وعلى أبصارهم غشاوة من حب الدنيا والركون إليها.
﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾. الخزائن جمع خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه المال ويستره.

والأصل في المصيطر هو السين، وأبدل إلى الصاد في بعض القراءات لمكان الطاء، حيث إنه من حروف الاستعلاء وهي: «خ، ص، ض، ط، ظ، غ، ق» سميت به لاستعلاء اللسان عند النطق بها. ومعنى السيطرة الرقابة والحفظ والسلطة.

والسؤال الاستنكاري هنا هو أن خزائن الله تعالى هل بيدهم، فتكون ملكاً طلقاً لهم أم لهم سلطة وسيطرة عليها بأي نحو كان، والظاهر أن الغرض منه الرد على اقتراحهم كون الرسالة لغير الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾^١ وهذا الاستنكار نظير قوله تعالى:

﴿أَمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ مُنْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾. فالجواب عنهم يتلخّص في أن الأمر بيد الله تعالى وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأنتم لا تملكون شيئاً من خزائنه المادية، ولا لكم سلطة عليها، فكيف بما فوقها كالرسالة؟!

﴿أَمْ هُمْ سَلَمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾. السّلم: المراقبة والسبب الذي يتوصّل به إلى الأماكن المرتفعة، ولعلّهم سمّوها بذلك تيمناً للسلامة. والسؤال هنا أنّهم يدعون أموراً غيبية؛ منها: إنكارهم الرسالة، مع عدم دليل على النفي، ومنها: تشريعاتهم التي ينسبونها إلى الله تعالى من تحريم أشياء وتحليل غيرها، ومنها: دعواهم أن الملائكة بنات الله جلّ وعلا، فيسأل منهم: من أين علمتم هذه المغيبات، هل لكم سلّم إلى السماء تستمعون فيه؟ فتكون دعواهم كادعاء الكهنة أو الجنّ بأنّ لهم طريقاً إلى السماء، فيسمعون الأخبار الغيبية من الملائكة.

فإن ادّعوا ذلك طولبوا بالدليل: ﴿فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، أي فليأت من يدعي منهم أنّه استمع إلى الملائكة بسلطان مبين، أي دليل واضح وموضّح. والسلطان مصدر بمعنى اسم الفاعل، ويعبّر به عن الحجّة والبرهان القوي، لأنّه يتسلط على الأفكار ويقهرها للقبول. ولعلّ أحسن ما قيل في تفسير السلطة ما ورد في «مفردات الراغب» من أنّها التمكن من القهر.^٢

١. ص (٣٨): ٨ - ٩.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٢٣٨.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، أي في السَّلم، ويبقى السؤال عن معنى كون استماعهم في السَّلم، والجواب: أنَّ السَّلم اعتبر ظرفاً لرصد المستمع مع تضمين الاستماع معنى الصعود بلحاظ وجود السَّلم، فالمعنى أنَّهم يصعدون فيه ويستمعون وهم فيه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونُ﴾، هذا مما يدعون علمه من المغيبات وليس لهم عليه دليل، بل هو أمر باطل واضح البطلان، فمن جهة هم ينسبون إلى الله تعالى الولادة وهو مستحيل، ومن جهة يعتبرون الملائكة إناثاً وهم ليسوا من قبيل الحيوان ليحتمل كونهم إناثاً أو ذكوراً، والله تعالى يردّ عليهم في أكثر من مورد بطريق المجادلة بالتالي هي أحسن، أي الاستناد إلى ما يقبلونه من عقائد وإن كانت خاطئة وخرافية، فهم يعتقدون أنَّ البنين أشرف وأكرم من البنات، بل: ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾،^١ فيسألهم مستكراً كيف تنسبون البنات إلى الله تعالى وتخصّون أنفسكم بالبنين؟! أي كيف تروهنّ مناسباً له دونكم؟! ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾.^٢ وتختلف هذه الآية عمّا قبلها وما بعدها من جهة توجيه الخطاب فيها إليهم ليكون أبلغ في التنديد بهم.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾. يعود الخطاب إلى الرسول ﷺ؛ لأنّ السؤال له تعلّق به وإن كان الغرض منه الاعتراض عليهم.

ومن الواضح أنَّ الرسول ﷺ كمن سبقه من الرسل لم يطلب أجراً على رسالته، فالسؤال في الواقع عن ما استوجب تقاعسهم عن الدخول في الدين، هل

١. النحل (١٦): ٥٨.

٢. النجم (٥٣): ٢٢.

السبب فيه أنّ الأجر الذي طلب منهم أثقل كواهلهم؟! والجواب هو النفي، والغرض تعريتهم وسلب كلّ حجة أو عذر منهم. والمَعْرَم هو الدّين. والمُثَقَّل - كما في «العين» - الذي حُمِّل فوق طاقته.^١

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾، الغيب ما غاب عن الإنسان ولم يمكنه الاطلاع عليه بطريق طبيعي، ويشبه هذا السؤال ما سبق من السؤال عن صعودهم إلى السماء واستماعهم للوحي، فهنا يسألهم: هل يعلمون الغيب بأيّ طريق أمكن، فيكتبون منه ما يدّعونونه من المعرفة؟! والاستفهام للاستنكار، أي هم لا يعلمون الغيب وهو واضح.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾. الكيد: المكر والخبث، أي بل أيريدون أن يمكروا بك وبدينك، بمعنى أنّ لهم نوايا خبيثة في حقك لا يظهرونها. وهذا هو الحقّ في بيان ما هم يقصدون في مواجهة الرسول ﷺ وعدم تصديقهم له، فهم لا يعلمون الغيب ولا يدّعونونه وليس لهم طريق إلى السماء ولا يدّعونونه أيضاً، وليس بيدهم خزائن الله تعالى ولا هم خلقوا شيئاً، بل هم أعجز الخلق، وإنّما يمتنعون من التسليم؛ لأنّهم يريدون كيداً بالرسول ﷺ وإنّما يريدون ذلك حقداً وحسداً.

ويأتيهم الردّ حاسماً: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ولا يرجع إليهم الضمير، بل يذكر الوصف ليعلم أنّ المناط في ذلك هو كفرهم، فيعمّ غيرهم من الكفرة. والضمير المنفصل يدلّ على الحصر ولا يريد نفي الكيد عنهم، بل المراد أنّ كيدهم لن يضرّك شيئاً، فما يكيدونه يرجع إليهم بالضرّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ

الْمُكْرِينَ»^١، بل هم المكيدون حقيقة؛ لأن الله تعالى هو الذي يكيد بهم، ومعنى كونهم مكيدين إما أن الله تعالى يرد كيدهم إلى نحورهم ويعذبهم، أو لأن كفرهم وعدم توفيقهم للإيمان هو بذاته كيد لهم، وهذا هو المتبادر من الآية، لدلالة اللفظ على أنهم مكيدون فعلاً وليس تهديداً لهم بكيد في المستقبل، فيكفيهم كفرهم، وأن الله تعالى أعمى أبصارهم وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا شيئاً، فلا يستطيعون عن كفرهم حولاً.

﴿أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي هل هناك من يستحق العبودية غير الله تعالى؟! والبشر منذ فجر التاريخ يشعر أن هناك يداً غيبية تحكم في الأرض فيخاف منها، كما أنه يرجو مساعدتها وحمايتها، ولكنه في الغالب يخطئ في الوصول إليها، فيتصور أن هناك أرباباً يؤثر كل واحد منهم في جهة من جهات الحياة على هذا الكوكب، ومهمة الرسل هو تصحيح المسار وتحديد الجهة، فالسؤال هنا عن تصور هؤلاء عن الربوبية والألوهية، فإن كان لهم إله غير الله تعالى فإن عذرهم في عدم الاعتراف بهذه الرسالة واضح؛ لأن الرسول لم يأتيهم من عند ربهم.

ثم يكتفي في ردّهم بتنزيهه سبحانه وتعالى عما يشركون، حيث كانوا يعتقدون بأن لغيره دوراً في الربوبية، فيستحق العبودية.

وقد تبين بما سبق من الآيات وغيرها أن الله الخالق هو الرب المدبّر للكون؛ لأن التدبير من شؤون الخلق ولا ينفك منه، والخلق أمر مستمر في كل مخلوق، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَاراً﴾^٢ ولا يشارك الله تعالى شيء في التدبير، كما

١. الأنفال (٨): ٣٠.

٢. نوح (٧١): ١٤.

لا يشاركه في الخلق.

وبهذا السؤال تنتهي مجموعة أسئلة وجهت للقوم لتفنيد مزاعمهم وتعريتهم
عن كل الأعذار، وذلك بطريقة الهجوم العنيف الذي يركع المستكبرين.

وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿١٣٨﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿١٣٩﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٤٠﴾ وَإِن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤١﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٤٢﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿١٤٣﴾

﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ الكسف: القطعة. والظاهر أن قوله من السماء متعلق به لا بقوله: ﴿سَاقِطًا﴾ فالمعنى: وإن يروا قطعة من السماء ساقطة، بقرينة قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾^١، فإن الكسف في هذه الآية صفة للسماء، أي يحول السماء إلى قطع ويسقطها، والمراد بالسماء ما يعلونا من الأجرام الفلكية.

والقطع منها الحجارة الساقطة من جهة العلو، فمعنى الآية أنهم إذا رأوا حجارة تسقط عليهم من فوق يقولون في خداع لأنفسهم: إنه سحب مركوم، أي متراكم كي لا يعترفوا بأن العذاب نزل عليهم، كل ذلك لكبرهم وعنادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾^٢.

قيل: إن هذه الآية جواب عما حكي عنهم في سورة الإسراء من المطالبة بآيات من الله تعالى تدل على رسالته ﷺ حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ

١. الإسراء (١٧): ٩٢.

٢. الحجر (١٥): ١٤ - ١٥.

حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا
تُفَجِّرُهَا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا^١، فالجواب من الله تعالى أنه حتى لو
نزلت عليكم قطع من السماء لكابرتم وقتلتم: إنه سبحانه مكرم.

ولكن الظاهر أن الأمر بالعكس وأن قولهم المنقول في سورة الإسراء ناظر
إلى هذه الآية، وذلك لقولهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾، فيبدو أنه إشارة إلى ما ورد في هذه
الآية ونظائرها.

ولعل سائلاً يسأل: لماذا لم يقل: «ولو يروا»؛ لأن العذاب لم ينزل عليهم طيلة
عهد الرسالة، والتعبير بقوله: ﴿وَلِنْ يَرَوْا﴾ يوهم أن العذاب سينزل وسيقولون ذلك.
والجواب: أن الله تعالى هددهم في موارد من كتابه الكريم وحذّره من
نزول العذاب من السماء، منها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ
صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ^٢ ولعل أوضحها قوله تعالى: ﴿فَازْتَفَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ *
يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ^٣ وما بعدها من الآيات، حيث إن ظاهرها وقوع
العذاب، ولذلك ارتبك المفسرون في تطبيق الآيات، وذكرنا في تفسيرها أن كل
المحاولات غير مجدية وأبدينا احتمال أن يكون المراد مجرد التحذير وبيان
استحقاقهم للعذاب، ولمعرفة التفاصيل راجع تفسير سورة الدخان.

ومن هنا كان التعبير في هذه الآية أيضاً موهماً للوقوع، ولعلهم لذلك قالوا في
سورة الإسراء: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ والله العالم.

١. الإسراء (١٧): ٩٠ - ٩٢.

٢. فصلت (٤١): ١٣.

٣. الدخان (٤٤): ١٠ - ١١.

وغريب أمر هذا العناد في الإنسان، وأغرب منه خداعه لنفسه، فهو يرى العذاب نازلاً عليه والحجارة لا تشبه السحاب، ولكنه يدسّ رأسه في التراب كالنعامة ويقول: إِنَّهُ سحاب مركوم، كما قال ابن نوح عليه السلام ﴿سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ السَّاءِ﴾ وهو يرى أنّ الوضع غير طبيعي، ويرى أنّ أباه ركب السفينة وفيها نجاته، ولكن الغرور والعناد ومجابهة الحقّ مسيطرة على عقله وبصيرته. ولعلّ قوم عاد لمّا رأوا العذاب عاندوا أيضاً، فقالوا: إِنَّهُ عارض ممطرنا. ولكن لا يبعد فيهم الخطأ.

﴿فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾، أي فاتركهم ولا تهتمّ بشأنهم، وهذا تهديد لهم بأنّ الله تعالى سيعذبهم. وليس المراد بالترك ترك التصدي لدفع شرّهم، حتّى يقال: إِنَّهُ نسخ بآيات القتال.

وإضافة اليوم إليهم باعتبار أنّه يوم عذابهم أو هلاكهم. والصعق يدلّ على الصوت الشديد، فإذا غُشي على الإنسان أو مات بسبب الصاعقة يقال: إِنَّهُ صُعِقَ.

إنّما الكلام في المراد بهذا اليوم، فقيل: إِنَّهُ يوم القيامة، وعليه فيمكن أن يراد بالصعق الغشية من شدّة العذاب.

ولكن يبعد هذا الاحتمال أولاً: أنّ الفاء في قوله: ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾ تدلّ على ترتّب مفاد هذه الآية على الآية السابقة حيث ندّد بهم فيها أنّهم إذا رأوا قطعة من السماء ساقطاً عليهم يقولون: إنّها سحاب مركوم، وهذا يقتضي أن يكون التهديد مناسباً لما ورد في تلك الآية وأن يراد بالعذاب عذاب الدنيا.

وثانياً: أن الصعق لم يرد في حالات الناس يوم القيامة.

وثالثاً: أن الآية التالية تدلّ على أن لهم كيداً في ذلك اليوم، ولكنّه لا يغني عنهم شيئاً، مع أنّهم لا كيد لهم يوم القيامة.

وقيل: المراد به يوم النفخة الأولى، حيث يصعق من في السماوات ومن في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَّظُرُونَ﴾^١.

وهذا الاحتمال بعيد أيضاً، فإنّ المخاطبين لا يبقون إلى ذلك اليوم فلا معنى للأمر بتركهم وتهديدهم، بل ليس ذلك تهديداً لمن يبقى ذلك اليوم أيضاً، فإنّ ما يحصل بنفخ الصور لا يعدّ عذاباً يحذر منه، بل هو أمر طبيعي يحصل في الكون حتّى لو كان البشر كلّهم مؤمنين.

وقيل: المراد به يوم موتهم وإن كان موتاً طبيعياً؛ لأنّ الصعق بمعنى الموت. ويردّه أنّ الصعق إذا كان بمعنى الموت فالآية لا تدلّ على عذاب يلقونه ذلك اليوم، فلا وجه لتعقيبه بأنّ لهم عذاباً دون ذلك في الآية التالية.

مضافاً إلى أنّ هذا أيضاً لا يعدّ تحذيراً وتهديداً لهم، فإنّ الموت أيضاً أمر طبيعي يلاقيه كلّ إنسان.

والظاهر أنّ هذه الآية من قبيل الآيات التي تهدّد المشركين بعذاب الدنيا بصورة جازمة، وكأنّ العذاب آتٍ في زمان معين قطعاً، والقصد منه بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال وإن لم يعذبهم الله تعالى لأسباب خاصّة، وقد مرّ الكلام بشيء من التفصيل حول هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ

تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ^١.

ومثل هذه الآية - كما تبيننا عليه في تفسير سورة الدخان - عدة آيات؛ منها قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ^٢﴾. ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَتْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ^٣﴾. وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّراطِ لَنُكَيِّبُنَّ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُورِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ^٤﴾. وأصرح منها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوباً مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ^٥﴾. فإن المراد بالأصحاب أمثالهم من الأمم السالفة، والمراد بالذنوب العاقبة.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي إنهم إذا نزل عليهم عذاب الاستئصال فلا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا ينفعهم. و﴿لا يغني﴾، أي لا يكفي.

١. الدخان (٤٤): ١٠.

٢. الشعراء (٢٦): ٢٠١ - ٢٠٨.

٣. إبراهيم (١٤): ٤٤ - ٤٥.

٤. المؤمنون (٢٣): ٧٤ - ٧٧.

٥. الذاريات (٥١): ٥٩ - ٦٠.

والكيد، كل حيلة يحاول الإنسان بها الوصول إلى مقصوده، والمراد أن مكرهم وحيلهم وسياستهم لا تغني عنهم شيئاً أمام غضب الله تعالى ونزول العذاب، كما أن الأمم السالفة لم يتمكنوا من تخليص أنفسهم من العذاب، فهو ليس أمراً طبعياً لتمكن الإنسان بحيله وعلومه ودهائه أن يدفعه ويحفظ نفسه منه أو يقلل الخسارة، بل هو غضب إلهي يفني المجتمع بكامله، ولا يبقى شيئاً ولا يرحم صغيراً ولا كبيراً ولا يمهلهم للفرار ولا يبقى من القوم إلا بقايا حضارة بائدة تدل على صانعيها وسوء عاقبتهم. وينقطع في ذلك اليوم الانتصار بالغير، لانقطاع كل حول وقوة، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾، أي أقرب إليهم زماناً من عذاب الاستئصال أو أقل منه شأناً وشمولاً.

والمراد بالذين ظلموا هم المشركون المذكورون سابقاً، وإنما أبدل الضمير بالاسم الظاهر للتنبيه على السبب، ولعل المراد بالعذاب ما أصيبوا به يوم بدر وغيره، أو كل ما يصيب إنساناً في حياته من البلاء، فإن كثيراً مما يصيب الإنسان في الدنيا إنما يصيبه بسبب إثمه وظلمه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^١.

ويظهر من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أن هناك فيهم من يعلم ذلك ولو إجمالاً أو لأنه يعلم أن ما يخبر به الرسول ﷺ واقع لامحالة، كما كانوا يعترفون به ولكنه يبدي شجاعة منه وتهوراً لكبره وطغيانه وعناده.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. في معنى الجملة احتمالان:

الأول: أن معناها اصبر على ما تقاسيه من أذى المشركين إلى أن يأتي حكم

رَبِّكَ فِيهِمْ بِالْعَذَابِ أَوْ غَلَبَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، فَالْإِلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِحُكْمٍ﴾ بِمَعْنَى «إِلَى». وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^١.

الثاني: أَنْ يَكُونَ الْإِلَامُ لِتَعْلِيلِ الْأَمْرِ بِالصَّبْرِ، أَيْ أَصْبِرْ لِأَنَّ رَبَّكَ يَحْكُمُ عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ، أَيْ يُوْجِبُهُ عَلَيْكَ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ، أَيْ أَصْبِرْ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَضَى بِإِمْهَالِ الْمُشْرِكِينَ.

نَعَمْ، لَا بَدَّ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى مُتَابَعَةِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى تَلَقِّيْهَا وَعَلَى تَبْلِيغِهَا، فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَشَقُّ عَلَى الْإِنْسَانِ غَالِبًا، وَالرُّسُولُ ﷺ تَحْمِلُ الشَّدَائِدَ فِي سَبِيلِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ امْتِنَالًا لِهَذَا الْأَمْرِ الْمُتَكَرِّرِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَصَبْرٍ عَلَيْهَا.

وَكَانَ يَكْفِيهِ تَلَقِّي الطَّاقَةِ الْإِلَامَةِ لِهَذَا الصَّبْرِ الْمُرِيرِ اسْتِشْعَارَ أَنَّهُ بَعِينَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وَلَعَلَّ الْإِنْيَانَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُهُ مِنْ كُلِّ جَهَةٍ.

وَالْتَعْبِيرُ بِرَبِّكَ يَثِيرُ فِيهِ ﷺ حِمَاسًا شَدِيدًا لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِهِ، حَيْثُ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ دَخِلَ فِي تَرْبِيَّتِهِ وَتَكْوِينِ شَخْصِيَّتِهِ الْمُمْتَازَةِ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقْوِيَ بِهَا دِينَهُ وَيَهْدِيَ بِهَا عِبَادَهُ.

وَهَذَا الْإِعْلَامُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ بِقَدْرِ مَا يَمْلَأُهُ طَاقَةٌ وَقُوَّةٌ وَعَزِيمَةٌ يَثْقُلُ كَاهِلُهُ بِالمَسْئُولِيَةِ الضَّخْمَةِ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ مِنَ الْعَنَاءَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي يَنْعَمُ بِهَا الْبَشَرُ، بَلِ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهِمْ، فَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَسْتَمِرُّ وَلَا يَبْقَى إِلَّا بِعَيْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَنَائَتِهِ إِلَّا أَنْ هَذَا الْخُطَابُ يَدُلُّ عَلَى اهْتِمَامٍ خَاصٍّ بِالشَّخْصِ وَاحْتِفَاءٍ بِهِ وَإِحَاطَتِهِ بِالنِّعْمَةِ الْعَظْمَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى خُطَابًا لِلرُّسُولِ ﷺ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾^٢.

١. يونس (١٠): ١٠٩.

٢. الإسراء (١٧): ٨٧.

ومثله ما خوطب به موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾^١ فَإِنَّه تعالى مع الجميع ويسمع ويرى كل شيء إلا أنه يبعث بالطمأنينة في نفسيهما بالاعتناء بهما على وجه خاص، ومثله قوله تعالى خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^٢ وما خوطب به نوح عليه السلام: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾^٣ والعين ممّا يعبر به عن الحفظ والحراسة.

ولكن العلامة الطباطبائي رحمته الله ذكر في تفسير الآية وجهاً آخر وهو: أنّ المراد اصبر فإنك بمرأى منّا، بحيث لا يخفى علينا شيء من حالك ولا تغفل عنك، ففي تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيد للأمر بالصبر و تشديد للخطاب.^٤ وهو بعيد جداً، خصوصاً بملاحظة سائر الموارد التي أشرنا إليها.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾^٥ الباء للمصاحبة، أي ليكون تسبيحك لله تعالى وتزيهه عمّا لا يليق به مصاحباً لحمده والثناء عليه بما يليق به ممّا وصف به نفسه، وذلك لأنّه ربك الذي يدبر شؤونك ويحفظك بعينه التي لا تنام ولا يترك ولا يهمل أمرك.

ويمكن أن يكون المراد بحال القيام حين يقوم من النوم أو حين يقوم من مكانه ومجلسه، أو حين يقوم للصلاة كما قيل، أو حين يقوم بواجبه الذي ألقى على عاتقه، أي تبليغ الرسالة، أو حينما يكون قائماً أي غير نائم، فالقيام هنا مطلق وليس لتسبيحه وتحميده تعالى وقت محدّد.

١. طه (٢٠): ٤٦.

٢. طه (٢٠): ٣٩.

٣. هود (١١): ٣٧.

٤. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢٤.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾، أي سَبِّحْهُ بعضاً من الليل؛ لأنَّ بعضه للراحة والنوم، وإدبار النجوم ظرف، أي في وقت إدبارها ومغيبها وبروز ضوء الصبح، ولهذا ورد: ﴿إِدْبَارَ﴾ منصوباً.

قيل: إنَّ المراد بالتسبيح وقت إدبار النجوم صلاة الصبح، ولا دليل عليه. ويستفاد من الآيتين بناءً على أنَّ قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ يشمل كلَّ أوقات اليقظة أو القيام بأيِّ عمل أن يكون الرسول ﷺ مشغولاً بالتسبيح والتحميد ليلاً ونهاراً إلا وقت النوم، وهو ما كان يفعله الرسول ﷺ فكلَّ حديثه كان يدور حول تسبيحه تعالى وتمجيده، وأمَّا حمل الآيتين على بعض الصلوات اليومية خاصّة، فلا موجب له ولا قرينة عليه.

والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على رسوله محمّد وآله الطاهرين.

تفسير سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾
 إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ
 الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا
 أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُحْمَرُّونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً
 أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا
 يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

سورة النجم مكية تتناول التوحيد والنبوة والمعاد، كسائر السور المكية وتتناول بوجه خاص معراج الرسول ﷺ وبلوغه أعلى مراتب القرب لدى الله تعالى، حيث لا يبلغه أحد، ويبدو أن مضامين السورة كانت تؤثر أثراً عظيماً في قريش، ولذلك غضب بعضهم وتهجم على النبي ﷺ وقد روت العامة حديثه بوجوه مختلفة.

منها ما رواه الثعلبي في تفسيره، قال: «وروى عروة بن الزبير، عن رجال من

أهل بيته قالوا: كانت بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - عند عتبة بن أبي لهب فأراد الخروج إلى الشام، فقال: الأبرّ محمد فلاؤذنيّه في ابنته فأثاه فقال: يا محمد هو يكفر بالنّجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى، ثمّ تفلّ في وجهه وردّ عليه ابنته وطلّقها، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «اللّهم سلّط عليه كلباً من كلابك» قال: وأبو طالب حاضر، فوجم لها وقال: ما كان أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة. فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره بذلك، ثمّ خرجوا إلى الشام، فترّلوا منزلاً فأشرف عليهم راهب من الدير، فقال لهم: هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه: أعيوننا يا معشر قريش هذه الليلة، فإنّي أخاف على ابني دعوة محمد، فجمعوا أحمالهم وفرشوا لعتبة في أعلاها وناموا حوله، فجاء الأسد، فجعل يتشمّم وجوههم، ثمّ ثنى ذنبه، فوثب وضرب عتبة بيده ضربة، وأخذه فخدشه، فقال: قتلني ومات مكانه. فقال في ذلك حسن بن ثابت:

سائل بني الأصغر إن جتّهم	ما كان أنباء أبي واسع
لا وسّع الله له قبره	بل ضيّق الله على القاطع
رمى رسول الله من بينهم	دون قريش رمية القاذع
واستوجب الدعوة منه بما	يبيّن للنّاظر والسّامع
فسلّط الله به كلبه	يمشي الهوينا مشية الخادع
حتّى أتاه وسط أصحابه	وفد عليهم سمة الهاجع
فالتقم الرأس بيافوخه	والنحر منه قفرة الجائع
ثمّ علا بعد بأسنانه	منعزراً وسط دم ناقع
قد كان هذا لكم عبرة	للسيّد المتبوع والتابع

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع^١
 ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ مرّ بعض الكلام حول القسم في القرآن الكريم في تفسير
 سورة الذاريات، وقد أقسم تعالى في كتابه بموجودات كثيرة ممّا خلقها.
 والنجم في الأصل بمعنى الطلوع. نجم نَجْمًا ونُجُومًا، أي طلّع.
 و﴿هَوَىٰ﴾ من الهوي بمعنى السقوط من علوّ. واختلف المفسّرون في المراد
 بالنجم، والمعروف بينهم أنّ المراد جنس النجم، قالوا: والمراد بالهوي الغروب،
 فهذا قسم بالنجم حين غروبه.

والتخصيص بزمان الغروب قد يكون من جهة أنّ طلوع الكواكب وغروبها
 من آياته تعالى الدالّة على عموم ربوبيته.

ولكن بعض المفسّرين خصّه بالثريا بدعوى أنّ العرب إذا أطلقت النجم
 أرادته، وبعضهم خصّه بالشعري لورود ذكرها في السورة، وبعضهم بالشهاب إذا
 سقط، وفي رواية تأويله بالرسول ﷺ عند نزوله من المعراج، وفي أخرى أنّ
 المراد بهويه وفاته ﷺ وبعضهم أوّلّه بالنجوم من القرآن، أي كلّ قسم منه حيث
 ينزل وحياً بالتدريج، فإنّهم كانوا يعبرون عن كلّ قسم من شيء يوزّع على أقسام
 حسب المدة الزمنية بالنجم؛ لأنّهم كانوا يعينون أجزاء المدة بطلوع النجوم.

والظاهر أنّ أقوى الاحتمالات هو حملة على الشهاب؛ لأنّ تأويل الهوي
 بالغروب بعيد، فالنجوم لا تهوي للغروب وإنّما يترأى للرائي أنّها تتحرّك ببطء
 نحو الأفق ثمّ تختفي، ولا مناسبة للتعبير عن ذلك بالهوي، فإنّ الهوي هو السقوط
 وليس الانحدار، إنّما الذي يهوي واقعاً وظاهراً هو الشهاب، والتعبير عنها بالنجم

غير بعيد؛ لأنّ النجم بمعنى كلّ شيء طالع ولذلك يقال: نجم السنّ والقرن والنبت إذا طلع.

هذا مضافاً إلى أنّ ظاهر الآية يأبى من الحمل على كلّ النجوم، لأنها لا تغرب معاً، فلا بدّ من إرادة نجم خاصّ ولا دليل على حمله على خصوص الثريا أو الشعري، وما ورد من التأويل بالقران أو بالرسول ﷺ لا سند له وكلّ منهما تأويل بعيد في حدّ ذاته.

ومضافاً إلى أنّ توجيه التناسب بين المقسم به - وهو النجم بالمعنى المعروف في حال الغروب - والمقسم عليه - وهو نفي الضلال والغواية عن الرسول ﷺ - صعب جداً.

أمّا إذا أُريد به الشهاب، فالمناسبة واضحة بملاحظة قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾^١. والشهب هي التي تمنع الشياطين من استراق السمع، كما ورد في مواضع من القرآن، وقد مرّ البحث عنه في تفسير سورة الصافات حتّى لو أُريد بالشهاب معنى آخر، فإنّ الرمزية للشهب الموجودة في السماء تبقى كما هي.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ يبدو من كتب اللغة وموارد الاستعمال أنّ الضلالة في مقابل الهداية هي عدم معرفة الطريق الصحيح ولا تستلزم سلوك الطريق الباطل، بل يصدق مع التحير.

والغواية - في مقابل الرشد - هي سلوك الطريق الباطل، فهي أخصّ من الضلالة.

والمراد بالصاحب هو المصاحب للقوم وليس في الصحبة أي دلالة على الصداقة والود كما توهم، بل يصدق حتى مع العداء، كما قال تعالى في صحبة الكافر والمؤمن: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾^١ فالغرض من التعبير به التنويه على أنه مصاحبكم سنين عديدة وأنتم تعلمون خصائصه ونفسياته، ولم تشاهدوا منه طيلة هذه المدة ما يستوجب الحكم بضلاله أو غوايته. فتعليق الحكم بهذا الوصف لبيان الدليل على المدعى. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، أي وما ينطق صاحبكم وهو الرسول ﷺ.

والمراد بالهوى هوى النفس، ويقال ذلك لكل ما تميل إليه النفس، ولا يختص بالشهوة أو بما هو باطل كما قيل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^٢.

والحاصل أن الآية تنفي أن يكون ما ينطق به الرسول ﷺ ناشئاً عن مقاصد شخصية، وإنما هو وحى من الله تعالى، والضمير في قوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعود إلى ما ينطق به وهو مذكور بالمعنى في قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ و«إن» نافية وتفيد مع «إلا» الحصر، أي ليس ما ينطق به شيئاً خارجاً عن الوحي الإلهي، وورد قوله: ﴿يُوحَىٰ﴾ مبنياً للمجهول تعظيماً للموحي وهو الله تعالى.

وقوله: ﴿مَا يَنْطِقُ﴾ يشمل كل ما ينبئه عن الله تعالى عن طريق الوحي، سواء كان قرآنًا أو حكماً شرعياً أو خبراً غيبياً أو غير ذلك، ويبعد جداً أن يراد به

١. الكهف (١٨): ٣٧.

٢. إبراهيم (١٤): ٣٧.

خصوص القرآن الكريم كما يقال؛ إذ ليس كل ما أخبر به من أحكام الله تعالى وغيرها وارداً في الكتاب العزيز وهناك روايات كثيرة مضمونها أنه ﷺ كان يقول: هذا أخي جبرئيل يخبرني بكذا وكذا، وقد ورد في بعض الروايات التصريح بشمول هذه الآية لما كان يقوله الرسول ﷺ غير القرآن.

فقد روى الكليني عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ» يقول: ما يتكلم بفضل أهل بيته بهواه وهو قول الله عز وجل: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَىٰ»^١. وروى الصدوق في «الأمالي» عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل قوله: «ألم ينسبوه ﷺ إلى أنه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي عليه السلام حتى كذبهم الله عز وجل، فقال سبحانه: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَخْيٌ يُوحَىٰ»^٢.

وروى الصدوق رحمه الله حديثاً طويلاً عن الإمام العسكري عليه السلام عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام وفيه خطاب من الرسول ﷺ لابن مسعود: «يا ابن مسعود إياك أن تجد في نفسك حرجاً مما أقضي فتكفر، فوعزة ربّي ما أنا متكلف ولا ناطق عن الهوى في علي والأئمة من ولده»^٣.

وهذا المعنى روي في بعض كتب العامة أيضاً ففي «الدرّ المشور» في ذيل الآية المباركة: «أخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء وحبّة العرنى قالا: أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تسدّ الأبواب التي في المسجد، فشقّ عليهم، قال حبّة: إني لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه

١. الكافي ٨: ٣٨٠، الحديث ٥٧٤.

٢. الأمالي (الصدوق): ١٦٤، الحديث ٣.

٣. كمال الدين وتمام النعمة: ٢٦٢.

تذرفان وهو يقول: أخرجت عمك وأبا بكر وعمر والعبّاس وأسكنت ابن عمك، فقال رجل يومئذ ما يألوأ برفع ابن عمه، قال: فعلم رسول الله - صلى الله عليه - وسلّم - أنّه قد شقّ عليهم، فدعا الصلاة جامعة، فلمّا اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول الله - صلى الله عليه - وسلّم - خطبة قطّ كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً، فلمّا فرغ، قال: يا أيّها الناس ما أنا سدّدتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته، ثمّ قرأ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ...﴾^١.

ولا تشمل الآية ما يتحدّث به الرسول ﷺ عن نفسه من شؤونه الخاصّة، كما ورد من تفضيله لبعض الطعام أو حبّه للطيب ونحو ذلك على تقدير صحّة الأحاديث، بل لا يشمل ما يحكم به حكماً مولوياً في مورد خاصّ، وذلك بقريّة الحصر في الوحي في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

وأما ما يحكم به كشرع ودين، حتّى لو كان من تشريعه ﷺ فهو بالنهاية وحي من الله ولو من جهة تنفيذه تعالى لأحكامه ﷺ حيث ورد في بعض الروايات أنّ الله تعالى فوّض إلى رسوله التشريع في بعض الشؤون، كإضافة الركعة والركعتين في الفرائض، حيث كانت في الأصل مفروضة من الله تعالى ركعتين ركعتين، وكوضعه ﷺ الزكاة في تسعة أشياء وعفوه عمّا عدا ذلك، مع أنّ الفرض من الله تعالى كان مطلقاً، وغير ذلك من السنن الواجبة التي شرّعها الرسول ﷺ ومع ذلك فإنّه تعالى نفذ تشريع رسوله ﷺ فيكون أيضاً من الوحي. روى الكليني رحمه الله عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن

أذينة، عن فضيل بن يسار قال سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول لبعض أصحاب قيس الماصر: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَدَّبَ نَبِيَّهٖ فَأَحْسَنَ أَدَبَهُ فَلَمَّا اكْمَلَ لَهُ الْأَدَبَ، قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ ثُمَّ فَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَ الدِّينِ وَالْأُمَّةِ لِيَسُوْسَ عِبَادَهُ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ مُسَدِّدًا مُوَفَّقًا مُؤَيَّدًا بِرُوحِ الْقُدْسِ لَا يَزِلُّ وَلَا يَخْطِئُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَسُوْسُ بِهِ الْخَلْقَ، فَتَأَدَّبَ بِأَدَابِ اللَّهِ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ الصَّلَاةَ رَكْعَتَيْنِ وَرَكْعَتَيْنِ عَشْرَ رَكَعَاتٍ فَأَضَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الرَّكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ وَالِى الْمَغْرِبِ رَكْعَةً فَصَارَتْ عِدِيلُ الْفَرِيضَةِ لَا يَجُوزُ تَرْكُوهِنَّ إِلَّا فِي السَّفَرِ، وَأَفْرَدَ الرَّكْعَةَ فِي الْمَغْرِبِ فَتَرَكَهَا قَائِمَةً فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فَاجَاَزَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَصَارَتْ الْفَرِيضَةُ سِتْعَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التَّوَافِلَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ رَكْعَةً مِثْلِي الْفَرِيضَةِ، فَاجَاَزَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ ذَلِكَ وَالْفَرِيضَةُ وَالتَّوَافِلُ إِحْدَى وَخَمْسُونَ رَكْعَةً مِنْهَا رَكْعَتَانِ بَعْدَ الْعَمَةِ جَالِسًا ثَعْدَانِ بِرَكْعَةٍ مَكَانَ الْوُتْرِ، وَفَرَضَ اللَّهُ فِي السَّنَةِ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ وَسَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْمَ سَبْعَانِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِثْلِي الْفَرِيضَةِ، فَاجَاَزَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ ذَلِكَ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَمْرَ بِعَيْنَيْهَا وَحَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْكِرَ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ، فَاجَاَزَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، وَعَافَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشْيَاءَ وَكَرِهَهَا لَمْ يَنْهَ عَنْهَا نَهْيَ حَرَامٍ إِنَّمَا نَهَى عَنْهَا نَهْيَ إِعَافَةٍ وَكَرَاهَةٍ، ثُمَّ رَخَّصَ فِيهَا فَصَارَ الْأَخْذُ بِرُخْصِهِ وَاجِبًا عَلَى الْعِبَادِ، كَوُجُوبِ مَا يَأْخُذُونَ بِتَنْهِيهِ وَعَزَائِمِهِ، وَلَمْ يُرْخَّصْ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ نَهْيَ حَرَامٍ وَلَا فِيمَا أَمَرَ بِهِ أَمْرٌ فَرَضٍ لَازِمٍ، فَكَثُرَ الْمُسْكِرُ مِنَ الْأَشْرَبَةِ نَهَاَهُمْ عَنْهُ نَهْيَ حَرَامٍ لَمْ يُرْخَّصْ فِيهِ لِأَحَدٍ، وَلَمْ يُرْخَّصْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَحَدٍ تَقْصِيرَ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ صَمَّهُمَا إِلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ أَلْزَمَهُمْ ذَلِكَ إِلْزَامًا وَاجِبًا لَمْ يُرْخَّصْ لِأَحَدٍ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُسَافِرِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُرْخَّصَ مَا لَمْ يُرْخَّصْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَافَقَ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَهْيُهُ نَهْيَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَجَبَ عَلَى الْعِبَادِ

التَّسْلِيمَ لَهُ كَالْتَّسْلِيمِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى^١، وسندها صحيح.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ الضمير المفعول في: ﴿عَلَّمَهُ﴾ يعود إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، والفاعل ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾، والمفعول الثاني ضمير مستتر يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿هُوَ﴾، أي ما ينطق به، أي علم شديد القوى الرسول ﷺ ما ينطق به.

والمشهور بين المفسرين أنّ شديد القوى صفة لجبرئيل عليه السلام واستشهد بعضهم بقوله تعالى في وصفه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^٢.

ولكنّ التعبير يختلف، وهناك فرق شاسع بين التوصيف بشديد القوى والتوصيف بأنّه ذي قوّة. ولم يرد شديد القوى في القرآن إلا هنا، وورد شديد المحال في سورة الرعد من صفات الله، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^٣ وفسره بعضهم بالقوّة، وفيه اختلاف.

وورد «شديد القوى» في الأدعية المأثورة من صفاته تعالى، وورد في روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليه السلام أنّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ يصف دنو الرسول ﷺ من الله عزّ وجلّ.

وعليه فالظاهر أنّ المراد بشديد القوى هو الله تعالى وهو الذي علمه القرآن، وجبرئيل عليه السلام كان واسطة في إيصال الوحي والعلم إليه عليه السلام في الدنيا، وأمّا في هذا المورد فقد تلقى العلم من ربه بلا واسطة، وستأتي قرائن أخرى تقتضي ذلك.

والقوى جمع قوّة، والظاهر أنّ المراد بها القدرة، والمصدر لا يجمع، فلا بدّ

١. الكافي ١: ٢٦٦ - ٢٢٧، باب التفويض إلى رسول الله ﷺ، الحديث ٤.

٢. التكوير (٨١): ٢٠.

٣. الرعد (١٣): ١٣.

من حمله على إرادة شدة قدرته تعالى بحسب الموارد، أي هو قوي في علمه وفي إرادته وفي سمعه وبصره وكل أفعاله، ومعنى شدة قواه تعالى كونها شديدة في حد ذاتها لا بالقياس إلى غيرها؛ إذ لا يقاس به أحد في أي شيء من صفاته تعالى، ومعنى الشدة المطلقة أنها غير متناهية وليس لها حد، فلا يمكن أن تتخلف قدرته في أي شيء يريده.

ولعل السر في ذكر هذا الوصف هنا التنبيه على أن الذي علمه شديد في قدرته العلمية، فلا حد لعلمه، وشديد في قدرته على التعليم، فلا يبقى شيء مما أراد تعليمه إياه إلا وصل إليه وأدركه بأقوى وجه، بحيث لا يبقى نقص فيه، وشديد في قدرته على طرد الشياطين، فلا يمكن أن يتدخل أحد منهم بأدنى وجه، وشديد في قدرته على حفظ ما تعلمه الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿سَنُقَرِّئكَ فَلَا تَنْسَى﴾^١ إلى آخر ما يتطلبه هذا التعليم من القدرة.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾. المِرَّة: القوة. ومنه أمر الجبل، أي قتله فصار قوياً، وفي حديث الرسول ﷺ: «لَا تَحُلْ الصدقة لَغْنِي وَلَا لذي مِرَّة سوي»^٢. والمراد بها الزكاة الواجبة. فذو مِرَّة هو القوي. والسوي صحيح الأعضاء.

وفسر المِرَّة بعضهم في هذه الآية خاصة بالحصافة والعقل. والسبب في هذا التفسير أنهم حيث اعتبروه صفة أخرى لجبرئيل عليه السلام فاستوجب التكرار، بل لا يناسب أن يقال عنه أولاً أنه شديد القوى، ثم يوصف بأنه ذي قوة، فجعلوه وصفاً للعقل والحكمة. ولم نجد في النصوص توصيف الملك بذلك، مع أن القوى

١. الأعلى (٨٧): ٦.

٢. تهذيب الأحكام ٤: ٥١.

تشمل العقل أيضاً، فيكون تكراراً لا محالة بل تنزلاً.

ومن فسره بجبرئيل فسّر الاستواء بظهوره على صفته الأصلية ويقال: إن الرسول ﷺ لم يره على تلك الصفة إلا مرتين وأنه ملأ الأفق إلى آخر ما قيل. ولا يوجد دليل معتبر على شيء من ذلك، بل لا بدّ من تأويل ما ورد بهذا المضمون لو صحّت الأخبار، فإنّ الملائكة ليست أجساماً حتّى تملأ الأفق ولا يرى الملك إلا ببصيرة معنوية، نعم ربما يتمثّل الملك بشراً فيتعامل معه الإنسان كبشر، وحينئذ لا يملأ الأفق. ومهما كان فتفسير الاستواء به لا يصحّح فاء التفريع؛ إذ لا تناسب بين ظهوره على تلك الصفة مع كونه ذا قوّة أو ذا حكمة وعقل كما قالوا. وهذه الملاحظة تقوِّض من الأصل تفسير ذو مرّة بجبرئيل ﷺ بل تفسير شديد القوى به أيضاً. وستأتي قرائن أخرى على ذلك. وقال آخرون: أنّه وصف للرسول ﷺ بتقدير الضمير، أي هو ذو مرّة أي قوّة وهو الصحيح.

والاستواء: الاعتدال والاستقامة. والمراد به هنا أنّه كان في حدّ ذاته قوياً بإذن الله تعالى وقابلاً لتلقّي الوحي من الله، فلمّا علّمه ربّه استوى وكمل علماً وروحاً، يقال: استوى الرجل إذا كمل وانتهى شبابه وطيشه، وقد يأتي الاستواء بمعنى الاستيلاء، فيكون المراد أنّه استولى على الوحي والغيب، أي تلقّاه بكماله. ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾. الجملة حالية، أي إنّهُ استوى حال كونه في الأفق الأعلى، أي أعلى الآفاق على الإطلاق.

والأفق هنا ليس بمعناه المتعارف، فإنّه من صفات الأمكنة، ومعناه مبلغ ما يمتدّ إليه البصر من أطراف السماء والأرض، ومورد الكلام هنا خارج عن حدود

المكان، فالمراد به أعلى أفق في الكون الشامل للعوالم الغيبية المجردة، وهو معنى خارج عن حیطة المكان والزمان.

ومهما كان فالجملة حال من فاعل استوى، فيختلف المعنى باختلاف التفسيرين، فإن فسر بجبرئيل عليه السلام فالمعنى أنه استوى على هيئته الأصلية حال كونه في الأفق الأعلى، وإن فسر بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فالمعنى أنه استوى كمالاً أو استولى على الغيب والوحي وهو في عالم آخر وراء عالم الطبيعة وفي أعلى آفاقها، حيث لا يبلغه ولم يبلغه إنسان قبله، وهذا هو المتعين، فإن كون جبرئيل عليه السلام على هيئته الأصلية في الأفق الأعلى ليس أمراً حادثاً ليخبر عنه.

وربما يقال: إن قوله تعالى في سورة التكوين: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ يدل على أن المراد بمن كان في الأفق الأعلى هنا هو جبرئيل عليه السلام؛ إذ لا شك أن

هذه الأوصاف له، وفاعل رآه «صاحبكم» وضمير المفعول يعود إلى جبرئيل.

ولكن لا دليل على أن الأفق المبين هو نفسه الأفق الأعلى، بل اختلاف التعبير يقتضي الفرق، فالأفق المبين هو الأفق الواضح، والأفق الأعلى هو أعلى الآفاق على الإطلاق.

ولعل التعبير بالأفق المبين في سورة التكوين للتأكيد على أنه كان يراه بوضوح، دفعاً لتوهم المشركين من نزول الشياطين عليه صلى الله عليه وآله وسلم واشتباه الأمر عليه.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾. الدنو: الاقتراب. وفي التدلي احتمالان:

أحدهما: أنه أيضاً بمعنى القرب، ومنه الإدلاء أي تقريب الدلو من الماء في

البشر، فيكون المعنى: ثمَّ قرب فقرب، أي ازداد قرباً بالتدرّج.
والاحتمال الآخر أنّه بمعنى التعلّق، وأنّ منه إدلاء الدلو، أي إرساله، فالتدلّي مطاوعة الإدلاء، أي الإرسال والتعليق. والتعلّق هنا كناية عن غاية القرب.
ولعلّ له معنى آخر لا تصل عقولنا إلى كنهه، وورد التعبير بالتعلّق عن نوع الارتباط بين العبد والربّ في بعض الروايات ممّا يؤيّد المعنى الثاني.

منها ما ورد في المناجاة الشعبانية المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك»^١ ومهما كان فعلى كلا التفسيرين تدلّ الآية على التدرّج في القرب.

واختلف هنا أيضاً في فاعل الدنوّ وما دنا منه، فقيل: إنّ جبرئيل عليه السلام وإنّه دنا من الرسول ﷺ مقدّمة للإيحاء إليه إيحاءً مباشراً، فهو يختلف عن الكيفية المتعارفة، حيث كان الملك ينزل عليه ﷺ في عالم الأجسام بصورة إنسان فيبلغ رسالة السماء.

وقيل: إنّ من دنا هو الرسول ﷺ وإنّه دنا من جبرئيل عليه السلام ليتلقّى الوحي مباشرة.

ولكنّ الوارد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام أنّه ﷺ دنا من ربّه، وهو أنسب بالتدرّج في القرب - على ما مرّ - وهو ليس دنوّاً جسمانياً، كما أنّ دنوه من جبرئيل عليه السلام ليس جسمانياً أيضاً إن لم يتمثّل بشراً، بل هو دنوّ معنوي، فالأمر هنا كلّه يتعلّق بالقلب والروح.

وحقيقة الإنسان هي الروح والنفس الإنسانية، والجسم ليس إلا وسيلة للارتباط بالطبيعة وهو بذاته قيد له يمنعه من الارتباط بما لا سبيل إليه في الطبيعة، سواء لبعده المكاني أو الزماني، أو لعدم كونه جسماً وجسمانياً، فإذا تحرّر الإنسان من هذا القيد تمكّن من الارتباط بكل شيء حسبما يليق بقوّته الروحية، فإن كان ذو مرّة كالرسول ﷺ تمكّن من الارتباط بالله تعالى كمال الارتباط، وهو ما تعالجه هذه الآيات وهذا غاية الكمال الإنساني، ويصعب علينا تصوّر هذه الحالة، فضلاً عن البحث فيها، فهذا مقام لم يبلغه بشر قبله ولم يرد في الآيات ولا الروايات ما يدلّ على بلوغ أحد من الرسل ﷺ هذه المرحلة التي توصف بالدنوّ من الله تعالى غاية الدنوّ، خصوصاً إذا فسّر التدلّي بالتعلّق.

ومن الروايات الواردة ما في «الكافي» في حديث عن البطائني: سأل أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر، فقال: جعلت فداك كم عرج برسول الله ﷺ فقال: «مَرَّتَيْنِ فَأَوْفَقَهُ جَبْرَيْلُ مُوقِفًا، فَقَالَ لَهُ: مَكَانَكَ يَا مُحَمَّدُ فَلَقَدْ وَقَفْتَ مُوقِفًا مَا وَقَفَهُ مَلَكٌ قَطُّ وَلَا نَبِيٌّ، إِنَّ رَبَّكَ يُصَلِّي، فَقَالَ: يَا جَبْرَيْلُ وَكَيْفَ يُصَلِّي؟ قَالَ: يَقُولُ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ أَنَا رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، سَبَّحْتَ رَحْمَتِي غَضَبِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللَّهُمَّ عَفِّكَ عَفْوَكَ. قَالَ: وَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ: «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»^١.

وروى الصدوق حديثاً وفيه: «فلما أسري بالنبي ﷺ وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب من حجه»^٢.

وروى الشيخ في «المصباح» عن عاصم بن حميد، عن أبي عبد الله عليه السلام عملاً

١. الكافي ٤: ٤٤٣، الحديث ١٣.

٢. علل الشرائع ٢: ٣٣٢، الحديث ٤.

لقضاء الحاجة ويقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بَنِيَّكَ - إلى أن يقول - فنظر إلى نورك ورأى آياتك وكان منك كقَاب قَوْسِينَ أو أدنى»^١.

وروى في «الأمالى» عن النبي ﷺ: «لما عرج بي إلى السماء دنوت من ربي عز وجل حتى كان بيني وبينه قاب قَوْسِينَ أو أدنى»^٢.

والروايات كثيرة، مع أن مقتضى ظاهر الآيات أيضاً هو هذا المعنى.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى﴾، أي دنا ثم دنا فكان دنوه قاب قَوْسِينَ، أي مقدار قَوْسِينَ. والقاب مقلوب القيب بكسر القاف، والأصل فيهما القاد والقيد بكسر القاف أيضاً وهو المقدار، قال في «معجم المقاييس»: «الكلمة فيها معنيان، إبدال وقلب، فأما الإبدال فالباء مبدلة من دال والألف منقلبة من ياء والأصل: القيد»^٣. ومن هذا الباب قولهم: قيد رمح أو قيد أنملة.

والقوس ما يرمى به، وقيل: هو من القياس، أي ما يقاس به وهو الذراع، فالمعنى أن الفاصل كان بقدر قَوْسِينَ أو ذراعين.

وقيل: القاب ما بين مقبض القوس وسيتها، أي ما بين وسطها وطرفها - يلاحظ أن القوس التي يرمى بها مؤنث - فلكل قوس قابان. وقيل: إن الثنية في الآية من القلب، وأصلها قابي قوس.

و«أو» في قوله: ﴿أو أدنى﴾، ليست للترديد؛ إذ هو مستحيل على الله تعالى، ومثله قوله تعالى في قصة يونس عليه السلام: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدُونَ﴾^٤، بل هي

١. مصباح المتعجب: ٣٢٦.

٢. الأمالى (الطوسي): ٣٥٢.

٣. معجم مقاييس اللغة ٥: ٤٦، الحديث ٦٧.

٤. الصافات (٣٧): ١٤٧.

إِذَا بِمَعْنَى الْوَاوِ أَوْ بِمَعْنَى «بَلْ» أَوْ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَتَرَاءَى لِلنَّازِلِ مُرَدِّدًا وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ تَقَرُّبٌ إِلَى الذَّهْنِ، وَإِلَّا فَالتَّقَرُّبُ هُنَا لَيْسَ بِالْأَجْسَامِ حَتَّى يَقْدَرَ بِذَلِكَ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بَيَانُ أَنَّهُ ﷺ أَصْبَحَ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، الْمَعْنَى وَاضِحٌ بِنَاءً عَلَى تَفْسِيرِ الدُّنُوِّ بِقُرْبِ الرُّسُولِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا قُرْبًا مَعْنَوِيًّا، فَيَكُونُ الْإِيْحَاءُ الْمُبَاشِرُ بَيْنَهُ تَعَالَى وَبَيْنَ عَبْدِهِ.

وَالِإِبْهَامُ فِي: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ لِلتَّفْخِيمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾^١ وَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾، أَيْ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الرُّسُولِ ﷺ عِنْدَ دُنُوِّهِ مِنْ رَبِّهِ مَا لَا يُمْكِنُ تَوْصِيْفُهُ أَوْ إِدْرَاكُهُ.

وَفِي الْعُدُولِ عَنِ الضَّمِيرِ إِلَى الْأَسْمِ الظَّاهِرِ: ﴿عَبْدِهِ﴾ مَعَ الْإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْمَفْرَدِ تَأْكِيدٌ عَلَى مَقَامِ الْعِبَادِيَّةِ الْخَاصَّةِ.

وَأَمَّا بِنَاءً عَلَى تَفْسِيرِ الدُّنُوِّ بِقُرْبِهِ ﷺ مِنْ جِبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقَعُ الْإِشْكَالُ فِي التَّعْبِيرِ بَعْدَهُ، وَأَوَّلُهُ الْقَائِلُونَ بِهِ بِوَجْهِهِ لَعَلَّ أَقْرَبَهَا أَنْ جِبْرِئِيلَ أَوْحَى إِلَى عَبْدِ اللَّهِ مَا أَوْحَى أَوْ أَوْحَى مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ تَكْلُفٌ وَاضِحٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُؤَكِّدُ التَّفْسِيرَ الْآخَرَ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فَاعِلَ أَوْحَى هُنَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ الْقُرْبُ وَالِدُنُوِّ بَيْنَ الرُّسُولِ ﷺ وَجِبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْ أَوْحَى اللَّهُ بَعْدَ تَحَقُّقِ هَذَا التَّدَانِي بَيْنَهُمَا. وَهُوَ أَيْضًا تَكْلُفٌ وَاضِحٌ يَأْبَاهُ الذَّوْقُ السَّلِيمُ.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ الْكَذِبُ إِذَا نَفَى عَنْ حَاسَةِ مِنَ الْحَوَاسِ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا لَمْ

تخطئ في إحساسها، تقول: ما كذبتني عيني، أي ما رأيته كان أمراً واقعياً لم ينشأ من الوهم والخيال.

والفؤاد والقلب والنفس بمعنى واحد، والمراد به هنا قلب الرسول ﷺ وفاعل «رَأَى» ضمير يعود إلى الفؤاد، فالمعنى أن قلبه ﷺ لم يخطئ في رؤيته وإدراكه، فليس ما وصل إليه الرسول ﷺ بقلبه وروحه وهماً أو خيلاً، بل هو وصول وإدراك واقعي.

بل يمكن أن يكون المراد من الآية معنى عامٌ طُبّق على هذا المورد، وهو أن رؤية الفؤاد لا يمكن أن تكون كذباً؛ لأنها إدراك للشيء ووصول إليه وليست علماً حصولياً.

ورؤية القلب أقوى وأوثق الإدراكات الإنسانية، وهناك فرق بين الإدراك والعلم الحصولي، فالعلم هو انكشاف الشيء بالواسطة؛ لأنّ المعلوم المباشر ليس هو ذات الشيء، بل صورته الذهنية، وأمّا الإدراك فهو أن يصل الإنسان إلى نفس المعلوم بذاته وهو العلم الحضورى، وليس لنا من هذا الإدراك إلا علم الإنسان بذاته وبشئونه ومدرّكاته، فكلّ واحد منا يدرك ذاته ويعلم بها لا لأنّه يراها أو يحسّها بها أو يسمع صوتها، بل لأنّه يدركها، أي هو واصل إليها بالذات، ولذلك لا يختلف الحال بافتقار الحواسّ، وهذا هو ما عبّر عنه في الآية برؤية القلب، وهذا لا يمكن أن يخالف الواقع ولا يشتهبه عليه الأمر؛ لأنّه علم حضوري، فالمعلوم بذاته حاضر لدى العالم بنوع من الحضور لا نتعلّقه.

ولكن ما هو الذي رآه الرسول ﷺ بقلبه؟ هل المراد رؤية جبرئيل عليه السلام بصورته الأصلية ورؤية الوحي المباشر منه، ورؤية الدنوّ والتدلّي وغير ذلك من

الآيات بقرينة ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، أم المراد رؤية ربه تعالى، كما أنّ الدنوّ كان منه؟

هناك روايات كثيرة عن طرقنا، بل عن غيرنا أيضاً تدلّ على الثاني، ولكن منها أيضاً ما تدلّ على الأوّل، وتردّ على من زعموا إمكان رؤيته تعالى بالعين، وقد روى القوم عن الرسول ﷺ أحاديث تدلّ على أنّ أهل الجنّة يرونه تعالى بالعين حسب تفسيرهم للأحاديث، وهذا البحث قائم إلى يومنا هذا.

وروايات أهل البيت عليه السلام تردّ على هذا الزعم بقوة، ولكن هذه الروايات لا تمنع كون المراد بالرؤية في هذه الآية رؤيته تعالى؛ لأنّ المفروض أنّها رؤية بالقلب وليس بالعين، وتعايير القرآن تدلّ على تحقّق هذه الرؤية للمؤمنين، بل للجميع يوم القيامة، كالتعبير بقاء الله تعالى. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تُدرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيَانِ وَلَكِنْ تُدرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»^١. ويلاحظ التعبير بالإدراك في كلامه عليه السلام وهو الوصول.

وروى الكليني بسند صحيح عن ابن أبي نصر، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ لما أُسري بي إلى السماء بلغ بي جبرئيل مكاناً لم يطأه قطّ جبرئيل، فكشف له فأراه الله من نور عظمتته ما أحبّ»^٢.

وقوله: «فكشف له» ليس من كلام الرسول ﷺ، بل من كلام الإمام عليه السلام والمراد أنّ الرسول ﷺ كشف له.

وروى الصدوق بسند صحيح عن محمّد بن الفضيل، قال سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول الله ﷺ ربه عزّ وجلّ؟ فقال: «نعم، بقلبه رآه، أما

١. بحار الأنوار ٤: ٥٢.

٢. الكافي ١: ٩٨، الحديث ٨.

سمعت الله عز وجل يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي لم يره بالبصر، لكن رآه بالفؤاد.^١ ولكن ظاهر بعض الروايات ربما ينافي ذلك، فقد روى الكليني أيضاً بسند صحيح عن صفوان بن يحيى قال: سألتني أبو قرّة المحدث أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك، فأذن لي، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرّة: إنّنا رويناه أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبيين، فقسم الكلام لموسى، ولمحمد الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: «فَمَنْ الْمُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ إِلَى الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ: (لَا تُذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ) وَ (لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) وَ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)؟ أَلَيْسَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ بَلَى. قَالَ: «كَيْفَ يَجِيءُ رَجُلٌ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً فَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِ اللَّهِ فَيَقُولُ لَا تُذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَاحْطَطَ بِهِ عِلْمًا وَهُوَ عَلَى صُورَةِ الْبَشَرِ؟! أَمَا تَسْتَحْشِرُونَ؟! مَا قَدَرْتَ الزَّنادِقَةُ أَنْ تَزِمِيَهُ هَذَا أَنْ يَكُونَ يَأْتِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِشَيْءٍ، ثُمَّ يَأْتِي بِخِلَافِهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ».

قَالَ أَبُو قُرَّةَ: فَإِنَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَهُ أُخْرَى﴾ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «إِنَّ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا رَأَى حَيْثُ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ يَقُولُ: مَا كَذَبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ مَا رَأَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا رَأَى، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ فَأَيَّاتِ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ فَإِذَا رَأَتْهُ الْأَبْصَارُ فَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الْعِلْمُ وَوَقَعَتْ الْمَعْرِفَةُ. فَقَالَ أَبُو قُرَّةَ: فَتُكَذِّبُ بِالرُّوَايَاتِ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «إِذَا كَانَتِ الرُّوَايَاتُ مُخَالَفَةً لِلْقُرْآنِ كَذَبْنَاهَا وَمَا جَمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا وَلَا تُذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».^٢

١. التوحيد: ١١٦، الحديث ١٧.

٢. الكافي ١: ٩٦، باب إبطال الرؤية.

فظاهر هذا الحديث أن المراد بالرؤية رؤية العين، ولكن المرئي هو بعض آيات الله. ثم إن ما ورد فيه أيضاً من تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أن قلبه ﷺ لم يكذب ما رآه بعينه، يبتني على قراءة غير مشهورة والموجود في المصحف ﴿مَا كَذَّبَ﴾ وليس من باب التفعيل.

وفيه أيضاً ما يشكل توجيهه، فإن الإحاطة العلمية بالله تعالى ممتنعة حتى لو أمكن الإبصار وإن كان هو مجرد فرض باطل، وليست الرؤية بالبصر وسيلة للإحاطة ولا حاجة إلى هذا الدليل لنفي إمكان الرؤية، ولعل الراوي أخطأ في بعض ما نقل والله العالم، فالأولى بنا ردّ علم ذلك إليهم ﷺ.

﴿أَفْتَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ الممارسة: المجادلة. والاستفهام للاستنكار وأنه لا تمكن مجادلة من يرى شيئاً وإن كنتم لا ترونه. والخطاب للمشركين المكذّبين للرسالة. والرؤية رؤية القلب وهي – كما قلنا – أوثق من رؤية العين، فلا مجال للممارسة.

والتعبير بفعل المضارع يدلّ على استمرار الرؤية، ولو صحّ أن ما ورد في الآيات يراد به رؤيته ﷺ بالعين للصورة الأصلية لجبرئيل عليه السلام لم يبق مبرّر لهذا التعبير لعدم استمراره.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، النزلة: المرّة من النزول، فالمعنى أن الرسول ﷺ كما رآه سابقاً في نزول له رآه أيضاً في نزول آخر.

والمشهور – تبعاً لما مرّ – أن المرئي هو جبرئيل عليه السلام على صورته الأصلية وأن المراد بالنزول نزوله إلى الأرض ليعرج به إلى السماء، فلمّا بلغ سدرة المنتهى تراءى له على صورته الأصلية.

وهذا خلاف ظاهر الآية حيث تدلّ على أنّه رآه في نزلة أخرى، فلا بدّ من أن تكون النزلة عند سدرة المنتهى، والظاهر أنّها غاية ما يصعد إليه فلا يصحّ التعبير بالنزول.

والتفسير الآخر لعلّه أقرب خصوصاً في هذه المجموعة من الآيات وهو أنّه ﷺ رأى ربه رؤية قلبية في نزلة أخرى، بمعنى أنّ الله تعالى نزل له نزولاً معنوياً، أي تجلّى له حتّى يتمكّن من الوصول إليه.

وفي «الميزان» أنّ الرسول ﷺ نزل مرّة أخرى إلى السماء^١ وهو بعيد؛ إذ التعبير المناسب هو الصعود لا النزول، ولعلّه أوّل ذلك لاعتباره أحد منازل في صعوده، ولكنّ التعبير بـ «النزلة» لا يناسب.

فالظاهر أنّ هذه الآية قرينة على أنّ الرؤية في المرّة السابقة كانت في نزلة أيضاً منه تعالى، ويبعد جداً ما قيل: إنّ المعنى أنّه رآه مرّة أخرى، لكنّه في هذه المرّة كان مع النزول، كما أنّه لا وجه لما يظهر من بعضهم أنّ النزلة بمعنى المرّة. ولعلّ النزلة تعبير آخر عن التجلّي، ومهما كان فالجزم بفهم المعنى صعب جداً، والتعبير بالنزول ليس معهوداً في حقّه تعالى ولذلك تجد الارتباك والاضطراب باديين على كلّ التفاسير والآيات معقّدة غاية التعقيد، والله العالم بحقيقة الحال.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾. السدرة واحدة السدر وهو شجر معروف ثمره النبق، ولا شكّ أنّ المراد بها هنا معنى آخر لا تتعلّقه، وإنّما عبّر عنه بالسدرة لضيق التعبير، فكلّ ما ورد في هذه الآيات كنايات ورموز.

ولعلّ الوجه في التعبير بالسدره أنّه ليس موضعاً للسكنى والإقامة، بل هو كشجرة يأوي إليها المسافرون. وإضافتها إلى المنتهى إمّا بيانية، أي السدره التي هي المنتهى بناءً على أنّ المنتهى مصدر، أو من إضافة الشيء إلى محلّه إذا اعتبر المنتهى اسم مكان ولو مجازاً.

ولعلّ التعبير بالمنتهى لبيان أنّها غاية ما يصل إليه الخلائق مطلقاً حتّى الملائكة الكرام، وليست هي غاية مكانية.

ويظهر من بعض الروايات أنّ جبرئيل عليه السلام لم يبلغها، بل طلب من الرسول ﷺ أن يتقدّم وقال: «إنّك بلغت ما لم يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل»^١. وفي بعضها أنّه ﷺ اجتاز السدره. والروايات في هذا الباب كثيرة ننقل بعضها.

روى الشيخ الصدوق رحمته الله بسنده عن يونس بن عبد الرحمن قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: لأيّ علّة عرج الله بنبيه ﷺ إلى السماء ومنها إلى سدره المنتهى ومنها إلى حجب النور، وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان، ولكنه عزّ وجلّ أراد أن يشرف به ملائكته وسكّان سماواته ويكرّمهم بمشاهدته ويُرّيه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه وليس ذلك على ما يقول به المشبّهون سبحانه الله وتعالى عما يشركون»^٢.

وروى عن حبيب السجستاني - في حديث طويل - وفيه: قال أبو جعفر عليه السلام: «يا حبيب ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ يعني عندها وفي

١. راجع: إرشاد القلوب ٢: ٣٠٥؛ بحار الأنوار ٣٠: ٦٤ وتفسير القمي ١: ٢٤٩.

٢. التوحيد: ١٧٥.

به جبرئيل حين صعد إلى السماء، قال: فلما انتهى إلى محل السدرة وقف جبرئيل دونها وقال: يا محمد إنّ هذا موقعي الذي وضعني الله عزّ وجلّ فيه ولن أقدر على أن أتقلّعه، ولكن امض أنت أمامك إلى السدرة، فقف عندها، قال: فتقدّم رسول الله ﷺ وتخلّف جبرئيل عليه السلام.^١

وفي بصائر الدرجات عن محمد بن عيسى، عن عبدالصمد بن بشير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «انتهى النبي ﷺ إلى السماء السابعة، وانتهى إلى سدرة المنتهى، قال: فقالت: السدرة ما جاوزي مخلوق قبلك، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾»^٢ الحديث.

وقد مرّ في صحيح ابن أبي نصر قوله ﷺ: «بلغ بي جبرئيل مكاناً لم يطأه قطّ جبرئيل».^٣

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ المأوى اسم مكان أو مصدر من أوى يأوي إذا انضمّ إلى مجمع أو إلى مكان يأمن فيه ويستريح، والإضافة بيانية إذا كان اسم مكان، أي جنة هي المأوى، أو بتقدير اللام إن كان مصدراً، ومثله دار الخلد وقد ورد هذا التعبير في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾،^٤ وربما يستفاد منه أنّ جنة المأوى في اصطلاح القرآن خاصّ بالمقربين، فإنّهم الذين يخافون مقام الربّ، وعامة الأبرار يخافون عذابه، ولذلك فرّق بينهم وبين غيرهم في سورة الرحمن، فقال: ﴿وَلَكِنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^٥ وخصّ جنّتهم بأوصاف، ثمّ ذكر أنّ من دونهما جنّتين وهما دونهما في الأوصاف أيضاً، فلا يبعد أن يقال: إنّ جنة المقربين عند سدرة المنتهى وهي

١. علل الشرائع ١: ٢٧٧، الحديث ١.

٢. بصائر الدرجات: ٢١٢.

٣. الكافي ١: ٩٨.

٤. النازعات (٧٩): ٤٠ - ٤١.

٥. الرحمن (٥٥): ٤٦.

مقام غاية الكمال البشري.

وأما قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلفعل الجنّات تختلف في مصطلح القرآن عن جنّة المأوى. ويمكن أن يكون المراد بالذين آمنوا قسماً خاصاً منهم، كما تقتضيه الآيات السابقة.

وعلى كلّ حال فما ذكرناه مجرد احتمال ومحاولة، والذي يدفعا إلى ذلك الاهتمام في الآية بتعريف سدرّة المنتهى بأنّ جنّة المأوى عندها، فهذا التعريف مع كون هذه السدرّة رمزاً لأعلى درجات القرب، يقتضي أن تكون جنّة المأوى مصطلحاً لمقام المقرّبين.

﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾. الغشيان: الستر والتغطية. والظرف متعلّق بقوله: ﴿رَأَاهُ﴾ فبناءً على ما هو الأقرب في تفسير الآيات رأى الرسول ﷺ بقلبه ربّه عند سدرّة المنتهى، أي عندما بلغ أعلى مراتب القرب والكمال البشري رآه تعالى حينما كان يغشى السدرّة ما يغشاها من آيات الجمال الربوبي، وقد مرّ في صحيح ابن نصر عن الكافي قوله عليه السلام: «فأراه الله من نور عظمته ما أحبّ»^١.

ولعلّ الإبهام في قوله: ﴿مَا يَغْشَى﴾ مقصود بذاته لبيان أنّ ما غشيه ممّا لا يمكن توصيفه ولا يتحدّد بالبيان أو أنّه من الأسرار التي لا يمكن لعامة الناس فهمها، بل حتّى لخاصّتهم. والتعبير بفعل المضارع يدلّ على أنّ التجلّي الربوبي على السدرّة أمر مستمرّ.

الله اكبر!! ما أعظم شأن الرسول الكريم ﷺ وما أشرفه وأكرمته من بشر، بل

١. السجدة (٣٢): ١٩.

٢. الكافي ١: ٩٥.

ومن موجود فهو أكرم الموجودات وأشرفها!

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ الزيف: هو الميل والانحراف عن الحق والواقع. والطغيان هو التجاوز، ولا يبعد أن يكون المراد بالأوّل - كما في «الميزان»^١ - رؤية الشيء على غير ما هو عليه، وبالتالي رؤية ما لا حقيقة له.

واللام في «الْبَصَرُ» بدل عن المضاف إليه، أي ما زاغ بصره وما طغى. والمراد به بصر الرسول ﷺ. ولعلّ المراد به الإبصار بالقلب إذا كان المبصر نفس ما أريد بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، كما هو الظاهر.

والبصر يطلق على ذلك قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾^٢، واحتمال إرادة الإبصار بالعين يتوقف على ثبوت المعراج الجسماني وأن يكون المرئي آيات الله تعالى. وهذه الجملة مقدّمة للتأكيد على الجملة التالية.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ اللام في قوله: ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، فهنا قسم مقدّر و«من» تبعيضية، أي والله قد رأى الكبرى من آيات ربّه، ومعناه أنّه رأى أكبر آية من آيات الله تعالى على الإطلاق.

والإبهام هو السائد على الموضوع تماماً، ولا شكّ في أنّ أعظم آيات الله تعالى لا يحيط به بيان، ولعلّ الكبرى من آيات الله تعالى هو ما ورد في صحيحة ابن أبي نصر من قوله ﷺ: «فأراه الله من نور عظمته ما أحب»^٣.

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٣٢.

٢. الأنعام (٦): ١٠٤.

٣. الكافي ١: ٩٥.

وقيل: إنَّ المعنى رأى بعض آيات ربِّه الكبرى، وقال بعضهم: إنَّ التفسير الأوَّل غير صحيح، لأنَّ آياته تعالى لا تحصر ولا يحيط بها أحد. وهذا خطأ؛ لأنَّ المفروض أنَّه ﷺ إنَّما رأى الكبرى من الآيات لا كُلَّها، ولعلَّ الكبرى منها آية واحدة لا يعادلها شيء.

وفي بعض رواياتنا أنَّ هذه الآية تردُّ على من يقول بأنَّه ﷺ رأى ربِّه، والمراد نفى الرؤية بالبصر، ومهما كان فهذه الآية لا تنفي تعلق الرؤية القلبية بالله تعالى، وأمَّا رؤية الكبرى من الآيات أو بعض الآيات الكبرى فيمكن أن تكون بالعين أو بالقلب.

والحاصل أنَّ هذه الآيات تدلُّ على حدوث أمر عظيم في حياة الرسول ﷺ والحادثة هي ما اشتهرت بالمعراج، وظاهر هذه الآيات أنَّها تحقَّقت مرَّتين إلا أنَّ الثانية أعظم لبلوغه ﷺ فيها إلى أعظم مقام يمكن الوصول إليه، ومن الناس من اعتبر المجموعة الثانية من الآيات متعلِّقة بالمعراج دون الأولى.

وهناك من يشتهه لديه الأمر بين الإسراء والمعراج، والأوَّل هو ما ورد ذكره في مطلع سورة الإسراء حيث أُسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو من معجزاته الواضحة ﷺ.

وقد وقع الكلام في أنَّ المعراج هل كان بالروح أو بالجسم؟ ويقال: إنَّ الشيعة مجمعة على أنَّه بالجسم، وهذا غير واضح.

والذي يبدو أنَّ ما يقابل رأي الشيعة هو ما تبنته بنو أمية وتبعوا في ذلك شيخهم معاوية، حيث قال: إنَّه كان مناماً رآه الرسول ﷺ، وهو باطل قطعاً ومنافٍ لصريح الآيات المباركة.

ولكنّ القول بكونه روحانياً لا يلزم هذا القول السخيف، وقد ذكرنا في تفسير سورة الإسراء تبعاً للعلامة رحمته الله أنّ الصحيح هو أنّ الإسراء بالجسم ولا يبعد أن يكون المعراج أمراً روحانياً، بل يصعب تعقّل كونه جسمانياً إلا ما يتوهم من أنّه كان في الواقع سفراً إلى الأجرام الفلكية وهذا إنكار لعظمة المعراج والله العالم.

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٥﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٦﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٧﴾ * وَكَرَّمْنَا مَلَكِي فِي السَّمَاءَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُوعُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ ﴿٩﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿١٠﴾

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ بعد أن أكد على أن الرسول ﷺ ماضٍ في طريقه على بصيرة وعلم وإدراك ورؤية لا مجال فيه للمماراة والجدال، وجه الخطاب إلى مناوئيه ليعلم لهم أنهم لا يستندون إلى علم وبصيرة في أمرهم، بل يستندون إلى الظنون والأوهام ويعبدون أسماء ليست لها مسميات في الواقع.

فالفاء في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ﴾ لتفريع بيان حال الأصنام وعبدتها على ما مر من المقام المنيع للرسول ﷺ الذي لا يقارن بأحد.

واللات والعزى ومناة ثلاثة أصنام كانت العرب تهتم بها وتعتبرها أعظم آلهتها شأنًا. والتاريخ يذكر لنا قصصاً مختلفة حول نشأة هذا الفكر الخاطئ المضحك، وكذلك الاختلاف في أماكن الاحتفاظ بها، ولم يثبت شيء منها بسند واضح إلا أن المتيقن منها أنهم كانوا يعتقدون أن تدبير العالم بيد مجموعة من الموجودات الغيبية أو الملائكة، زعماء منهم أنه لا يمكن أن يدبر الله تعالى،

وهو خالق الخلق هذه الأمور المختلفة المتباينة، ثم صنعوا تماثيل من الخشب والحجر وغيرهما تمثل هذه الملائكة، وأخذوا يعبدونها خوفاً وطمعاً، وحيث كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى سمّوا هذه الأصنام بأسماء مؤنثة، فاللات لعلّه تأنيث للاله والعزى للأعز، ويقال: إنهم سمّوا الثالث مناة، لأنّ دماء الذبائح تمنى عندها، أي تراق.

وقوله: ﴿الثَّالِثَةَ﴾ صفة لها، وكذلك قوله: ﴿الْأُخْرَى﴾ والمراد الأخيرة في الذكر، قيل: وفي ذلك تحقير لها مع أنّها كانت أعظم عندهم.

قيل المفعول الثاني لقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ محذوف يدلّ عليه ما بعده من الآيات، أي أرايتم هذه الأصنام بنات لله سبحانه؟ والاستفهام للاستنكار.

والمعروف في تفسير هذا التركيب أنّه بمعنى «أخبروني»، والأولى أن يكون بمنزلة فرض موضوع ليحكم عليه بحكم، كما تقول لأحد أرايت فلاناً الذي فعل كذا - تريد أن تذكره بعلامة ليتذكّره السامع - ثمّ تحكم عليه بما تراه، ومثله كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾^١.

﴿الْكُفُّمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾. الهمة للاستنكار ومناسبتة لما سبق أنّهم كانوا يرون الأصنام إناثاً؛ لأنّها تمثل الملائكة عندهم، ويعتقدون أنّ الملائكة بنات الله جلّ وعلا. وقد تكرّر هذا الاستنكار في القرآن الكريم، ومنها ما مرّ في سورة الطور: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾^٢ ويستند هذا الاستنكار - كما قلنا هناك - على الجدل، فهو يعترض عليهم بمقتضى أفكارهم من ترجيح الذكور على الإناث، ومن

١. الكهف (١٨): ٦٣.

٢. الطور (٥٢): ٣٩.

شعورهم بالاحتقار إذا رزقوا بالبنات، بحيث يظلّ الوجه مسوداً وهو حائر أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؟! يقال لهم: كيف تنسبون البنات إلى الله تعالى ولا ترضون لأنفسكم إلا بالبنين؟! والمفروض أنّه تعالى بيده كلّ شيء، فلماذا اختار لنفسه البنات؟! وهذا تسفيه لمعتقدهم حسب أصولهم.

﴿يُنْكَ إِذَا قُسِمَةٌ ضَيْرَى﴾ أي جائزة، من الضير - بالفتح - وهو الضيم والجور، أي إنّ هذه القسمة بينكم وبين ربكم قسمة جائزة، وقوله: ﴿إِذَا﴾ أي على مبناكم واعتقادكم، وكلّ ذلك باطل في باطل، فالله تعالى لا يمكن أن يكون له ولد ولا يحتاج إلى مساعد ليتخذ من عباده أولاداً، والملائكة ليسوا كالبشر والحيوانات، فيوصفوا بالأنوثة أو الذكورة، ولكن لو فرض كلّ ذلك فإنّ هذا التقسيم جائر.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ضمير «هي» يعود إلى الأصنام المذكورة أو إلى مطلق الأصنام، والمعنى أنّ هذه أسماء ليست لها مسميات واقعية، فكلّ ما تعبدونه ليس إلا خشباً أو حجراً أو شجراً أو كوكباً أو غير ذلك، وأمّا هذه العناوين «اللات»، «العزى»، «مناة» وغير ذلك فهي أسماء لا يعادلها مسمّى خاصّ له خصوصية، وليس معنى ذلك أنّها ليست أسماء لأشياء خاصّة بعينها، فإنّه خلاف الواقع، بل المراد أنّها لا خصوصية لها من بين سائر الأحجار والأخشاب، فالتسمية الموروثة من الآباء ليست على أساس أمر واقعيّ، بل وهميّ.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الْمُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، فقد عبّر هنا عن نفس الأصنام بالأسماء بمعنى أنّها لا تحكي عن

مسميات واقعية. وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾^١.

﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. السلطان مصدر بمعنى السلطة، والمراد به ما يوجب الغلبة على الخصم وهو الحجّة والبرهان والدليل القاطع، فيمكن أن يكون المنفي الإنزال التشريعي، فهو بمعنى أنّ الله تعالى لم ينزل آية من السماء تجيز عبادة الأصنام أو تدلّ على أنّ لها تأثيراً في الكون.

ويمكن أن يكون تكوينياً، بمعنى أنّه ليس هناك في الواقع ما يقتضي خصوصية لهذه الأخشاب والأحجار، فما تدعونه لها ليس إلا من صنع الوهم ومتابعة الأهواء. والثاني أظهر.

و«من» زائدة لتأكيد نفي أدنى شيء من الحجّة.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾. ليس معنى الظنّ الاحتمال الراجح، كما قيل، بل الاعتقاد الحاصل من بعض الشواهد من دون استناد إلى حسّ أو دليل قطعي وإن أوجب الاطمئنان. ويقابله العلم المستند إلى الحسّ أو الدليل القطعي، فهذه الجملة تكمل الجملة السابقة، أي إنّهم لا يتبعون سلطاناً وبرهاناً، بل يتبعون أوهاماً وخرافات موروثة حتّى لو حصل لهم اعتقاد راجح، كما هو الحال في الغالب.

والهوى الميل إلى الشيء مأخوذ من الهويّ وهو بمعنى السقوط، ولعلّ الوجه فيه أنّ ميل النفس تهوي بالإنسان إلى المهالك، ومعنى الآية أنّهم بعبادتهم للأصنام يتبعون ما تميل إليه أنفسهم.

ولعلّ المراد به أنّهم يَمْنُون أنفسهم بشفاعة الأصنام ليتسنى لهم العمل بما يحبّون ممّا يعلمون بضمائرهم أنّها أعمال خاطئة.

وهكذا الإنسان يحاول بشتى الطرق تبرير موقفه بالأمانى الكاذبة، ومنها شفاعة الشفعاء، وينبغي أن نكون نحن أيضاً على حذر من أمرنا حتّى لا نفع في فخّ الشيطان ولا في خداع النفس، فنخدع أنفسنا بالأمانى، شفاعة الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام وإن كانت قطعية إلا أنّ لها شروطاً لعلنا نفقدها، فلا يغرّبنا الشيطان بهذه الأمانى، كما غرّ أولئك بشفاعة ما لا شفاعة له.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ جملة حالية، أي إنّهم يتبعون الظنّ والأهواء مع أنّهم قد جاءهم الهدى من الله تعالى، فاتّباعهم للهوى قبل الرسالة ليس مستغرباً، ولكنهم يتبعون الأهواء بعد أن جاءهم الهدى من ربّهم الذي أرسله لتربيّتهم، ولذلك أتى بفعل المضارع: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ للدلالة على استمرار غوايتهم، والمراد بالهدى القرآن الكريم والرسالة التي جاءهم بها الرسول ﷺ.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا يَمْتَنِي * فَلِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾، وهذا تعقيب للأمنية الكاذبة التي جعلتهم يلجأون إلى الاستشفاع بالأصنام ليهنأوا بمتابعة الأهواء، وهو استفهام إنكاري، أي لا يتمكّن الإنسان من بلوغ كلّ ما يتمنّى ولا أحد يلجأ إلى أحلام اليقظة إلا الأطفال والأغبياء من الناس.

والجملة التالية تعليل للنفي المستفاد من الاستفهام، فالإنسان لا يبلغ ما يتمناه؛ لأنّه ليس بيده شيء، بل الأمر كلّ الله.

والمراد بالأولى الحياة الدنيا، وحاصل المعنى أنّه لا فرق بين العوالم من حيث الاستناد إلى الله تعالى وأنّ كلّ شيء ملك له لا يتحكّم فيه إلا هو. والسبب في

هذا التنبيه أن البشر كثيراً ما يتوهم أن الله تعالى هو الحاكم في الآخرة، وأما عالم الطبيعة فالأمور فيه تجري وفق القوانين والنظم الطبيعية، ولا دخل لإرادة الله فيها، والقرآن يصّر على تنبيه الإنسان على خطئه في معرفة الله تعالى.

والنتيجة أن الإنسان يجب أن يلجأ إلى ربه ويطلب منه العون حتى في دنياه، فلا يغرنّ البشر ما توصل إليه بعلمه، فإن ذلك لا يوصله إلى كل أمانيه، بل يلاحظ أن العلم اليوم هو أساس الشقاء والبؤس لمستقبل البشرية بما تسبب فيه من الكوارث البيئية وغيرها.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ تعقيب أيضاً على تصوّرهم الخاطئ في الاستشفاع بالأصنام على أنها تماثيل للملائكة، مع أن ذلك لا أساس له، وهي ليست إلا أسماء لا تعبر عن أمور واقعية إلا أنه حتى لو فرض كونها معبرة عن الملائكة، فالملائكة أيضاً لا تجوز عبادتهم على أساس أنهم هم المدبرون للكون وأنهم شفعاء ووسطاء بين الله وخلقه؛ لأنّ الشفاعة لا تكون إلا بإذنه تعالى، فالعبادة والدعاء وطلب الحاجة استقلالاً إنما يصحّ منه تعالى، لأنّه هو المؤثر في الكون لا غيره، والملائكة مع أنّهم وسطاء وشفعاء في التدبير ولكنهم حتى في شفاعتهم لا يستقلّون، بل بأمره يعملون ويشفعون، فالمرجع الأول والأخير هو الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ للتنبيه على علوّ مقام الملائكة، وأنّه لا معنى للمقارنة بينهم وبين الأصنام، فالملائكة في السماوات العلى، أي في مقام رفيع بعيد عن ملابسات المادّة، ومع ذلك فإنّ شفاعتهم لا تغني شيئاً إلا بإذنه تعالى. والإغناء بمعنى الكفاية، أي لا تنفع شفاعتهم شيئاً ولا يعني ذلك أنّهم

يشفعون، ولكن شفاعتهم لا تنفع، فإنهم لا يشفعون قبل إذنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^١.

والشفاعة من الشفع، والأصل فيه الزيادة، ومنه ضم شيء إلى شيء، فمن تجعله شفعاً عند من بيده الأمر لتصل إلى بغيتك، كأنك تضمّ قربه لدى الرجل إلى حاجتك وتشفعه بها ليلبي طلبك.

وشفاعة الملائكة ليست من هذا القبيل، بل هم شفعاء ووسطاء بين الله وخلقه بمعنى أن التدبير الإلهي ينتقل إلى كل أجزاء الكون بوساطتهم، ولكنهم لا يتوسطون ولا يطلبون شيئاً من الله تعالى ابتداءً، وإنما ينتظرون أوامره لينفذوها، فشفاعتهم لا تغني، أي لا تنفع إلا بعد إذنه تعالى.

ولعل أوضح آية تبين عدم استقلالهم في الشفاعة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^٢ على ما فسره به العلامة الطباطبائي^٣ وهو الصحيح كما مرّ في موضعه. وحاصله أن الملائكة لا يبدأون بشيء وإنما ينتظرون أمر الله تعالى في التكوين وهم في حالة فزع ورهبة وخوف من الله تعالى، حتى إذا أزيل الفزع عنهم بورود الأمر منه تعالى قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقّ، وباشروا بامثال الأمر.

و«كم» للتكثير، أي هناك كثير من الملائكة شفعاء بين الله تعالى وخلقهم في التكوين، ولكن لا يشفعون إلا بعد إذنه تعالى.

١. الأنبياء (٢١): ٢٨.

٢. سبأ (٣٤): ٢٣.

٣. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٦: ٣٧١.

و﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ صفة للملائكة و﴿لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ خبر عنهم.

وتوهم بعض المفسرين أن مقتضى منطوق الجملة أن هناك كثيراً منهم لا تغني شفاعتهم إلا بإذنه تعالى، ويفهم منه أن هناك قليلاً منهم لا تتوقف شفاعته على إذنه وهو باطل قطعاً، فاضطرّ إلى القول بأن «كم» هنا للتعميم لا للتكثير. وهذا التوهم لا أساس له، بل التكثير للملائكة الشفعاء وهم بأجمعهم لا تنفع ولا تغني شفاعتهم إلا بعد الإذن والرضا من الله تعالى، فلا حاجة إلى تأويل.

والإذن والرضا وإن اختلفا فقد يأذن الإنسان استجابة لضغوط من دون رضا النفس، وقد يرضى بأمر قلباً ولا يأذن به لمصلحة، ولكنهما إذا أسندا إلى الله تعالى يُعبران عن أمر واحد، كما هو واضح؛ إذ لا يتصور في حقّه تعالى حالة نفسية تعبّر عنه بالرضا، فكلّ ما يعبر عنه بالرضا ليس إلا ما أذن فيه، وإنما عبر بهما لتوازن اللفظ وتعادل أواخر الآيات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ عود إلى خرافة الاعتقاد بأنوثه الملائكة للردّ عليهم من جهة عدم الاستناد إلى حجة بعد ما ورد من النقض عليهم بأنّه تقسيم جائر.

والمراد بـ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المشركون في الجزيرة العربية، وقد تكرّر التعبير عنهم بذلك في الكتاب العزيز كما في سورة الأنعام: الآية ١٥٠ والنحل: الآية ٢٢ والآية ٦٠، والإسراء: الآية ١٠ والآية ٤٥ وغيرها. وإنما عبر عنهم بذلك تنديداً بهذه الصفة؛ لأنّ إنكارهم للآخرة وكفرهم بها مع أنّهم يعترفون بالله تعالى وبأنّه خالق السماوات والأرض أمر مستغرب ومستنكر جداً؛ إذ يستلزم عدم الحكمة في الخلق.

وقيل: إن التعبير به هنا للإشارة إلى أن الاعتقاد بأنوثه الملائكة من الفطاعة والشناعة بمنزلة إنكار الآخرة أو أنه معلول له؛ لأن من يعتقد بها يستعظم الحكم على الأمور الغيبية التي لا سبيل إلى معرفتها خوفاً من العقاب، فمن يسميهم بذلك لا يؤمن بالآخرة ولا تنافي بين الوجهين.

وقوله: «تسمية الأنثى» مفعول مطلق مبين للنوع لقوله: «لَيَسْمُون» والتسمية بمعنى جعل العلامة والسمة، أي يعبرون عن الملائكة تعابير تنبئ عن اعتقادهم بأنوثه الملائكة، ومن ذلك تسميتهم للأصنام التي يعتقدون أنها تمثل الملائكة بأسام أنثوية كما مر.

وأتى بكلمة الأنثى مفردة مع أن الملائكة جمع؛ لأن المعنى يسمون كل ملك منهم تسمية الأنثى، كما في «الكشاف»^١ ولعل الأولى أن يقال: إن «الأنثى» اسم جنس، فيكون المعنى يسمونهم تسمية الإناث.

ولعل بعض الناس يستغرب من اهتمام القرآن بهذا الأمر وتكراره له، وكذلك اهتمام الأنبياء ورسالات السماء طيلة القرون بذلك، ولكن السبب أن من أولويات الدين تثقيف الناس وتعليمهم حقائق الغيب نوعاً ما، فمن الأمور المغيبة عنهم حقيقة الملائكة وهم يسمعون عنهم كثيراً دون أن يعرفوا عنهم شيئاً، ونجد التعرض لهم في الكلمات المنقولة عن الأمم السالفة، كما قال تعالى في حكاية كلام قوم نوح عليه السلام: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى»^٢ ونقلاً عن نساء مصر: «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»^٣ وجاء عن لسان فرعون تعريضاً

١. الكشاف ٤: ٤٢٤.

٢. المؤمنون (٢٣): ٢٤.

٣. يوسف (١٢): ٣١.

بِسَيِّدِنَا مُوسَى عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾^١
ورسالة السماء تبين للناس أنَّ الملائكة عليهم السلام ليسوا كالبشر والحيوانات حتَّى يكون
فيهم ذكر وأنثى، وتحاول حسب أفهام الناس القاصرة تعريفهم بهذه الحقائق
البعيدة عن أذهانهم وتنبيههم على عدم محاولة تطبيق ما يجدونه في الطبيعة على
حقائق الغيب.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود إلى كون الملائكة
إناثاً المفهوم من قوله في الآية السابقة: ﴿يُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ و«من»
للتأكيد على أنَّهم ليس لهم علم بذلك ولو جزئياً.

ومن أين لهم العلم به وحقيقة الملك أمر غيبي؟! مضافاً إلى أنَّ العقل والمنطق
يرفضان هذا التفكير الساذج؛ إذ لا يمكن أن يكون لله ولد - تعالى الله عن ذلك -
ولا يتخذ ولداً لعدم حاجته، والملائكة ليسوا ممّا فيه المذكّر والمؤنث، مع أنّه لا
وجه لترجيح الأنوثة لو فرض الاتخاذ.

والمراد بالظنّ كما قلنا هو الاعتقاد المستند إلى الأوهام والخرافات، وليس
بمعنى الاعتقاد الراجح، كما اصطلاح عليه في المنطق. وهذا من موارد حمل اللغة
على الاصطلاح العلمي وهو من موارد ابتلاء العلماء في حقول شتى.

﴿وَلِإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾. الحقّ هو الواقع الثابت في الكون ولا يمكن
الوصول إليه إلا عن طريق المعرفة والعلم، ولا شكّ أنَّ الخرافات والعقائد
الساذجة غير المستندة إلى دراسة وبحث لا يمكن أن تكشف عن الواقع، بل
تُضِلُّ الإنسان وتغويه، سواء في ما يتعلّق بالحياة الدنيا أم الآخرة، بل هي بالنسبة

لما وراء ظواهر الحياة الدنيا من حقائق الكون أبعد عن الواقع؛ لأنها من الغيب الذي لا يصل إليه الإنسان بالطرق المتعارفة للدراسة والبحث، فكيف بالأوهام والخرافات، فلا بدّ فيها من الاستضاءة بما بعثه الله تعالى من الهدايات، بل لا بدّ فيها أيضاً من تجلية النفس وتصفيتها من الرذائل لتتمكّن من استيعاب تلك الحقائق.

فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَهْتِكُمْ ۚ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الفاء للتفريع، فتدلّ على أنّ هذا الحكم متفرّع على ما قبله وهو قوّة برهان الرسول ﷺ ووضوح حجّته ورؤيته ونفاذ بصيرته حيث إنّه لا ينطق عن الهوى، بل عن الوحي، ولا يخبر إلا عمّا يراه ويدركه بأقوى وسائل الإدراك، ومن جهة أخرى، فإنّ مناويله لا يستندون في دعاواهم إلا إلى العقائد الموروثة الخرافية والأوهام، فالذي يتحصّل من ذلك هو لزوم الإعراض عن هؤلاء، ولكنّه لم يذكرهم بالضمير، بل بالصفة ليتبيّن السبب وليحدّد الموضوع ويعمّمه أيضاً، فإنّه لا يختصّ بالمشرّكين كما يتوهّم.

والمطلوب في هذه الآية هو الإعراض عن من يجتمع فيه أمران: التولّي والإعراض عن ذكر الله تعالى، والإخلاق إلى الدنيا وعدم التجاوز عن حدودها الضيقة، بحيث لا يقصد بأيّ عمل رضا الله تعالى والنجاة في الآخرة، فهذا هو السبب في لزوم الإعراض.

وهذا الحكم يخصّ من كان من المشرّكين بهذه الصفة، وربما يكون فيهم

من لا يعرض عن ذكر الله تعالى إذا ذُكِرَ به ويعمّ غيرهم إن وجدت فيه الخصلتان حتّى لو كان من المؤمنين بحسب الظاهر، فكم من منافق بينهم؟! وكم من ضعيف الإيمان؟! وكم من مريض القلب؟! وكم من معجب بالدنيا يهتمّ بها أكثر من الآخرة؟!^١

والإعراض عن الشيء بمعنى صرف الوجه عنه. والمراد به عدم الاهتمام بشأنهم بعد أن رفضوا قبول الهداية الإلهية.

ولا يعني الإعراض ترك مواجهتهم ومقابلتهم أو محاربتهم في ظروف خاصّة تستدعي ذلك ليقال: إنّه منسوخ بآيات القتال.

وأما التوكّي عن الذكر، فالتوكّي هو الإعراض أيضاً، وأصله ولي يلي، أي قرب، فإذا عدّي بنفسه أفاد معنى الإقبال، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾^٢ وإذا عدّي بـ (عن) انعكس وأفاد معنى الإعراض.

واختلفوا في المراد بالذكر فقيل: إنّه القرآن، وقيل: إنّه الرسول ﷺ والظاهر أنّه لا حاجة إلى تأويل، فالذكر مضاف إلى الله تعالى، والإعراض عن ذكره معناه أنّه لا يذكر الله تعالى ولا يجب أن يذكر عنده، بل ربما تشمّرّ نفسه إذا دعي الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾^٣ ولا يختصّ بالإعراض عن ذكره تعالى باللفظ، بل ربما يجتمع مع ذكره لفظاً، فقد يكون الإنسان مؤمناً في الظاهر ويذكر الله تعالى بلسانه وهو معرض عنه بقلبه، فهو منافق وهو شرّ من المشرك.

١. المائدة (٥): ٥١.

٢. الزمر (٣٩): ٤٥.

وقد فسّر جمع من المفسّرين الإعراض هنا بعدم إهلاك النفس من أجل هدايتهم، فتكون الآية من قبيل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^١ وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^٢ والبخع قتل النفس غمًّا، كما في «المفردات»^٣، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾^٤ ونحوها ممّا يدلّ على أنّه ﷺ كان يتأسّف كثيراً من عدم هدايتهم، ويؤثر ذلك على قلبه الشريف والله سبحانه وتعالى يسلي خاطره بهذه الآيات.

ويبدو أنّ القوم اعتبروا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ قرينة على ذلك على أساس أنّ هذه الجملة كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^٥ ولكنّ الصحيح أنّها لا تفيد هذا المعنى، وإنّما تدلّ على أنّ الضلال والهداية أمران نسيان، ولذلك ربما تخفى الحقيقة على كثير من الناس - كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - ولا تعني أنّ الهداية والضلال بيد الله تعالى وأنّ الرسول ﷺ شأنه التبليغ والإرشاد فحسب، فهذا أمر آخر مذكور في موارد من الكتاب العزيز.

ثم إنّ ما ذكره متفرّع على افتراض أنّ الإعراض هنا يخصّ المشركين والكفار وأنّهم هم الذين تولّوا عن ذكر الله تعالى وانحصرت إرادتهم في الحياة

١. الكهف (١٨): ٦.

٢. الشعراء (٢٦): ٣.

٣. مفردات ألفاظ القرآن: ١١٠.

٤. فاطر (٣٥): ٨.

٥. القصص (٢٨): ٥٦.

الدنيا، ولكن تبين بما ذكرنا أن الحكم عام، فهناك من الناس من يعتقد ولو في الظاهر بالآخرة ومع ذلك فهو لا يريد إلا الحياة الدنيا وما أكثرهم بيننا حتى من الذين يدعون الإيمان فتجد كثيراً منهم لا يهتمون بالآخرة أصلاً وكل همهم جمع المال وصرفه في تحسين ظروف الحياة، والله تعالى ينقل عنهم الدعاء من ربهم أن يزيدهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ والغريب أنه تعالى يذكر هذا التصنيف في المخاطبين المؤمنين وهم في حال حج بيت الله الحرام، مما يدل على أن من الناس من يدعو ربه هناك أيضاً لخير الدنيا ولا يهتم بشأن الآخرة.

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المبلغ اسم مكان، أي الموضع الذي بلغوه ولم يتجاوزوه، فالمعنى أن الحياة الدنيا هي غاية ما يبلغون إليه من العلم، فهم لا يعلمون شيئاً عما وراءها، ومنهم من يُعتبر من العلماء، بل ربما تأبى الثقافة البشرية عن إطلاق لفظ العلماء إلا عليهم، ومن المؤسف أننا نجد بعض من يدعون الإسلام، بل يدعون التحقيق في المسائل الدينية والمعرفة الإلهية نجدهم ينكرون بصراحة أن يطلق العلم على المعارف الدينية، خلافاً لكتاب الله تعالى ويرون أن العلم الحقيقي هو ما وصل إليه الغرب المنكر لوجود الله تعالى والذي أدخل إلى الأرض وانحصرت ثقافته بالحياة الدنيا. وقد ورد في الدعاء المروي عن

الرسول ﷺ: «ولا تجعل الدنيا أكبر همًّا ولا مبلغ علمنا»^١

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾. شرحه بعض المفسرين باختصار ولم يذكر أي علاقة بينه وبين ما قبله، وبعضهم اعتبره تأكيداً للمضمون السابق كما في «الميزان»^٢ من دون بيان لوجه التأكيد، وبعضهم اعتبره تعليلاً للإعراض كالزمخشري والآلوسي^٣ بناءً على أنَّ الإعراض بمعنى عدم الاهتمام بهدايتهم؛ لأنك لا تعلم من يهتدي ومن يضلّ وإنما يعلم بهما الله تعالى، فلا تتعب نفسك وإنما عليك التبليغ.

والذي يخطر بالبال أنَّ هذه الجملة تنبّه على التعميم الذي أشرنا إليه وأنَّ الأمر لا يختصّ بالمشرّكين، فلا يعجبنَّ الإنسان تصنيفه في عداد المؤمنين فقد يكون مصداقاً لمن أعرض عن ذكر ربّه إذا كان لا يذكر ربّه حين اشتداد الغضب أو الشهوة أو حبّ المال والجاه، وقد يكون ممّن لا يريد إلا الحياة الدنيا، فكمن من مؤمن لا يهتمّ في دعائه إلا بطلب المال وطول العمر والشفاء ونحو ذلك ممّا يعود إلى الدنيا. ومفاد هذه الجملة أنَّ الله تعالى هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله، أي سبيل الله ومن اهتدى إليه، فليس ذلك بمجرد الدعوى أو الدخول ضمن أحد الصنفين أو الأصناف.

ونظيره ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ والإتيان بالضمير في قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ وتكراره في الموردين للتأكيد على الحصر، ولكنه حصر للأعلمية، لا لأصل العلم، فربما يعلم الإنسان بدخيلة نفسه، كما قال تعالى:

١. مصباح المتجهّد: ٥٦٨.

٢. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٤١.

٣. الكشاف ٤: ٤٢٥؛ روح المعاني ٢٧: ٦٠.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^١ إلا أنه في الغالب يخدع نفسه بالأمني، كما مر في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْتَنِي﴾ وما قبله. هذا ما أراه أولى وأنسب، والله العالم وله الحمد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ عبارة عن كل ما في الكون من الموجودات وكونها لله تعالى، بمعنى تقومها بإرادته تعالى في كينونها وبقائها، وذلك لأن اللام يدل على نوع من التعلق والارتباط، سواء كان ملكية اعتبارية، كمالكية الإنسان لما تحت يده من أموال أو ارتباطاً آخر كتعلق الأعضاء بالإنسان، ولكن تقديم قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ يدل على الحصر. والتعلق الذي ينحصر فيه تعالى هو ما أشرنا إليه، فالكون كله متعلق بإرادته تعالى خلقاً وبقاءً وتديراً.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾. اختلفوا في أن هذه الجملة تعليل لأي جملة مما سبق، ف قيل: إنها تعليل لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى﴾ والمعنى أن الأمر بالإعراض ليس للإهمال، بل مفاده أعرض عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى ليجزي كلاً بعمله، فتكون هذه الجملة مكملة للتهديد المقصود من تلك الجملة. وعليه فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يمكن أن تكون جملة حالية والمعنى أنه كيف لا يكون أعلم بحالهم وهو مالكمهم، كما في «الميزان»^٢ ويمكن أن تكون جملة معترضة للتأكيد على عموم قدرته تعالى مقدّمة لذكر الجزاء.

١. القيامة (٧٥): ١٤.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٤١.

ويظهر من العلامة الطباطبائي رحمه الله أن هذا الوجه محتمل،^١ ولكنه بعيد؛ لأن تقدير الأمر بايكال أمرهم إلى الله تعالى وإن لم يكن بعيداً إلا أن المناسب حينئذ أن يؤكد على عذاب المشركين خاصة، لا على عموم الجزاء خصوصاً التعرض لجزاء المحسنين.

وقيل: إنها متعلقة بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ﴾ والمعنى أنه يعلم الضال من المهتدي ليجزي كلاً بعمله.

ومن الواضح أن كونه تعالى عالماً بذلك أو مطلقاً لا يمكن أن يقيد بشيء أصلاً، وإنما يترتب الجزاء على نفس الضلال والهداية أو على تسجيل أعمالهم وحفظها لا على علمه تعالى، وخصوصاً على كونه أعلم الذي يراد به - كما مر - كونه أمراً مخفياً على غالب الناس، ولذلك أول هذا الوجه بعضهم بتقدير الحفظ، فقال: «إنّ المعنى أنه تعالى ميّز الضال عن المهتدي وحفظها عليهم ليجزيهم...»، وهو تأويل بعيد جداً. وهناك أقوال آخر أضعف ممّا ذكر.

ولعل أقرب الوجوه ما ذكره العلامة أيضاً أنه لبيان الغاية من خلق السماوات والأرض، كما هو مضمون الجملة السابقة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾. وهو كونه مالك أمرهم وربهم، وأنه خلقهم ورباهم ليجزي كلاً بعمله، فالحياة الآخرة غاية هذا الكون والهدف النهائي من الخلق، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.^٢ ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٤٢.

٢. الدخان (٤٤): ٣٨ - ٤٠.

عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ^١.

وقد مرّ في تفسيرها أنّ الأولى أن تكون تعليلاً لمضمون الجملة السابقة: ﴿وَلِلَّهِ
جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حيث إنّ المراد بها التنبيه على أنّ العوامل المؤثرة في
السموات والأرض كلّها جنوده، وأنها تؤثر بإرادته تعالى، فهذا التعليل يدلّ على
أنّ خلقه تعالى لهذا الكون وتدير أموره إنّما هو من أجل حياة أخرى يجازى
فيها الإنسان بأعماله.

ومن الغريب أنّ العلامة الطباطبائي^٢ رفض هذا التفسير في سورة الفتح مع
أنّه قال في تفسير هذه الآية: «وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى
ملكه تعالى للكلّ، ومعناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم،
فالملك ناشئ من الخلق وهو مع ذلك منشأ للتدبير، فالجملة دالة على الخلق
والتدبير، كأنّه قيل: ولله الخلق والتدبير، وبهذا المعنى يتعلّق قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ واللام
للغاية، والمعنى: له الخلق والتدبير وغاية ذلك، والغرض منه أن يجزي الذين
أساءوا...»^٣ إلى آخره.

وهذا هو نفس ما مرّ في تفسير سورة الفتح، وهما من باب واحد بل مثلهما
أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^٤ فإنّ الجزاء ورد في
الآية علّة لبدء الخلق وإعادته لا للإعادة فقط.

١. الفتح (٤٨): ٤-٦.

٢. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٤٢.

٣. يونس (١٠): ٤.

وقوله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ يفيد أنّ جزاء السيئة هو السيئة نفسها يجدها الإنسان حاضرة بصورتها الواقعية، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^١ هذا هو ظاهر هذه الآية وآيات أخرى وإن أمكن أن يحمل بعضها على أنّ الجزاء بمقدار السيئة لا يزيد عليها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾^٢ ومعنى أساءوا أتوا بالسيئات أو أساءوا أعمالهم، أي جعلوها سيئة، وكذلك الذين أحسنوا، أي أتوا بالحسنات أو أحسنوا أعمالهم، فيجزئهم بالحسنى. والحسنى مؤنث أحسن، فإذا أتى مبدوءاً باللام فمعناه أحسن الجزاء بقول مطلق، فلا يتصور جزاء أحسن منه.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ توصيف للذين أحسنوا، ولعلّه قيد أيضاً، فيكون المعنى أنّ الإحسان أو إتيان الأعمال الحسنة غير كافٍ في تحصيل أحسن الجزاء، بل لا بدّ من اجتناب الآثام، ولكنّه لم يقيدّه باجتناب كلّ إثم، فإنّه لا يحصل إلا للأوحد من الناس كالمعصوم، بل قيده باجتناب الكبائر.

والإثم: الذنب، وهو في الأصل البطء والتأخّر، ولعلّه يطلق على الإثم؛ لأنّه يبطئ الخير أو يؤخّر الإنسان عن الركب السائر في الطريق الصحيح المؤدّي إلى رضا الله سبحانه.

وربما يتوقّف بعضهم في ثبوت الكبائر باعتبار أنّ كلّ معصية لأمر الله تعالى ونهيه كبيرة، أو أنّ كلّ ما استصغره الإنسان من معاصيه كبيرة، أو أنّ الكبير

١. الكهف (١٨): ٤٩.

٢. يونس (١٠): ٢٧.

والصغر أمران نسيان فليس هناك تحديد لمجموعتين من الآثام.

وكلّ ما ذكر صحيح إلا أنّه لا يبرّر إنكار وجود الكبائر؛ لأنّ التعبير وارد في الكتاب العزيز، كما في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجَتَّيْتُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^١ ولكن وقع الكلام في مناط الكبائر. وورد في روايات عديدة عن طريق أهل البيت عليهم السلام أنّ الكبيرة ما وعد الله تعالى عليه النار. وفي عدّة من الروايات عدّ الكبائر خمساً أو سبعاً أو تسعاً أو أكثر من ذلك، والظاهر أنّه اقتصار على ذكر بعضها، ولعلّها ممّا يستعظم منها بالخصوص، ولذلك وصفت في بعض الروايات بالموبقات، أي المهلكات.

ونذكر هنا رواية واحدة صحيحة ممّا عدّ فيه الكبائر تيمناً وتذكراً وتذكيراً:

عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن محمد بن خالد، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني، قال حدثني أبو جعفر عليه السلام - أي الإمام الجواد عليه السلام - قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «دَخَلَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَلَمَّا سَلَّمَ وَجَلَسَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ» ثُمَّ أَمْسَكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: مَا أَسْكَكَ؟ قَالَ: أُحِبُّ أَنْ أَعْرِفَ الْكِبَائِرَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ: نَعَمْ يَا عَمْرُو أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ يَقُولُ اللَّهُ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، وَبَعْدَهُ الْإِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَا يَنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ»، ثُمَّ الْأَمْنُ بِالْكَرِّ لِلَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَافِرُونَ»، وَمِنْهَا عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الْعَاقَ جَبَّاراً شَقِيّاً، وَقَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَقَذَفَ الْمُنْخَصَصَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»،
وَأَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا»،
وَالْفِرَارِ مِنَ الرَّخْفِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «وَمَنْ يُؤْمِدْ ذُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ
مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» وَأَكْلَ الرَّبَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ يَقُولُ: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ»،
وَالسَّحَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ»،
وَالرَّنَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا»، وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ الْفَاجِرَةُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ
اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ»، وَالْغُلُولِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:
«وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَمَنْعَ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:
«فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ»، وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتَابَ الشَّهَادَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
يَقُولُ: «وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ»، وَشَرْبَ الْخَمْرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمْنَعُ عَنْهَا كَمَا يَمْنَعُ عَنْ
عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَتَرْكَ الصَّلَاةِ مُتَعَمِّدًا أَوْ شَيْئًا بِمَا فَرَضَ اللَّهُ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ تَرَكَ
الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِيَ مِنْ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَنَقْضُ الْعَهْدِ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «أُولَئِكَ هُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ». قَالَ: فَخَرَجَ عَمْرُو وَلَهُ صُرَاخٌ مِنْ
بُكَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ هَلْكَ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَنَارَ عَمَّكَ فِي الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ»^١

واليمين الغموس، أي الحلف بالله كاذبًا، سميت بذلك؛ لأنها تغمس صاحبها
في الإثم. والغلول: السرقة والخيانة.

والفواحش جمع فاحشة، أي ما عظم قبحه من قول أو فعل، وهذا العنوان

يختلف عن كبائر الإثم، فلا وجه لاستظهار الاتحاد من الآية، كما في «الميزان»، وذلك؛ لأنّ الفاحشة تطلق على ما يستعظم قبحه في عرف المتشريعة أو العرف العامّ، وهو أخصّ من الكبائر، ويدلّ على ذلك ما سيأتي في رواية «الكافي» من التمثيل للفواحش بالزنا والسرقة دون الشرك ونحوه من الكبائر الواضحة، مع أنّ بعض الروايات التي تعدّ الكبائر لم يذكر فيها الزنا والسرقة وإن ذكرتا في الرواية السابقة، وهذا يدلّ على أنّ المناط في صدق الفاحشة الاستنكار العرفي.

وأما اللطم فهو في الأصل بمعنى المقاربة، ويطلق على اجتماع الناس في مكان لتقاربهم. ولذلك فسّر اللطم في الآية بمقاربة الذنب من دون مواقعة، واعترض بعضهم على هذا التفسير بأنّ مثل هذا لا يستحقّ العقاب؛ لأنّه لم يرتكب الإثم، ومجرد النية لا يوجب استحقاقاً، فلا وجه لتعليله بسعة المغفرة. وهذا غير صحيح، فإنّ المقاربة تختلف عن القصد والنية المجردة حيث إنّه يعمل عملاً في طريق الوصول إلى الذنب حتّى يقترب منه فيستحقّ العقاب، ولكنه مغفور له، مضافاً إلى أنّ نفس النية أيضاً ممّا يوجب استحقاق العقاب، خصوصاً إذا كان الترك من دون اختيار إلا أنّنا نعلم من الأدلّة أنّ الله تعالى لا يعاقب على النية المجردة.

والحاصل أنّ تفسير اللطم بمقاربة الذنب تفسير وجيه في حدّ ذاته مع قطع النظر عن الروايات الآتية، والاستثناء على هذا منقطع؛ لأنّ المفروض أنّه لم يرتكب الكبيرة.

وفسر أيضاً بصغائر الذنوب وهو المشهور بين المفسرين. وفي «الكشاف»:
«واللمم ما قلّ وصغر، ومنه اللمم المس من الجنون واللوثة منه وألمّ بالمكان إذا
قلّ فيه لثته وألمّ بالطعام قلّ منه أكله»^١. والاستثناء على هذا التفسير منقطع أيضاً.
ولكنّ الوارد في عدة روايات عن أهل البيت عليهم السلام وغيرهم أنّ المراد به
ارتكاب الإثم مع التوبة، وفي أزمنة متباعدة من دون إصرار وتكرار، ففي «أصول
الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: «الفواحش الزنا والسرقة. واللمم الرجل يلثم بالذنوب فيستغفر
الله منه»^٢.

وفيه أيضاً عن محمد بن مسلم، عنه عليه السلام قال: قلت له: أرايت قول الله عزّ وجلّ:
﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: «هو الذنب يلثم به الرجل فيمكث ما
شاء الله ثمّ يلثم به بعد»^٣.

وفيه أيضاً عنه عليه السلام قال: «ما من ذنب إلا وقد طبع عليه عبد مؤمن يهجره الزمان، ثمّ
يلثم به وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾». قال:
«اللّام العبد الذي يلثم بالذنوب بعد الذنب، ليس من سليقته أي من طبعه»^٤. وغير ذلك من
الروايات وبعضها معتبرة سنداً.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^٥ وبناءً

١. الكشاف ٤: ٤٢٥.

٢. الكافي ٢: ٢٧٨، باب الكبائر، الحديث ٧.

٣. الكافي ٢: ٤٤١، باب اللمم، الحديث ١.

٤. الكافي ٢: ٤٤٢، باب اللمم، الحديث ٥.

٥. آل عمران (٣): ١٣٥.

على هذا، فمعنى الإلمام الإتيان بالفعل، وليس بمعنى المقاربة، فإنّ الحديث يقول: يُلَمُّ بالذنب بعد الذنب، وذلك إمّا من ألمّ بالمكان إذا نزل به أو من الإلمام في الزيارة بمعنى أنّه زاره غيباً، قال الخليل: «واللمم الإلمام بالذنب الفينة بعد الفينة». ^١ والاستثناء على هذا متصل، لأنّه استثناء من الإتيان بالكبائر، وهو ممّا يؤيد هذا المعنى أيضاً؛ لأنّ الأصل في الاستثناء أن يكون متصلاً.

وقد مرّ بعض الكلام عن ذلك في تفسير سورة الشورى الآية: ٣٧.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فيه إشارة إلى أنّ اللّم بأيّ معنى فسّرناه ذنب أيضاً يجب أن يجتنّب، وأنّ من يرتكبه يستحقّ العقاب، ولكنّ الله تعالى لسعة مغفرته يغفر للمؤمن ذلك.

ولم يقل: إنّ الله واسع المغفرة، ولم يصف الربّ إلى ضمير الجمع مع أنّ الخطاب للناس جميعاً، بل أضاف الربّ إلى الرسول ﷺ امتناناً عليه، ولعلّ فيه تنبيهاً على أنّ بعض هذه المغفرة والرحمة خاصّ بهذه الأمة إكراماً للرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ ^٢ وهذا باب واسع في الكتاب والسنة.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، (إذ) ظرفية، أي هو أعلم بكم من أنفسكم حينما أنشأكم من الأرض وحينما كنتم أجنة في بطون أمهاتكم. وتخصيص هاتين الحالتين بالذكر لعلّه لبيان السبب في أنّ الإنسان لا يقدر عادة على كمال التقوى والنزاهة، والله تعالى أعلم به حيث لا

١. كتاب العين ٨: ٣٢٢.

٢. البقرة (٢): ٢٨٦.

يتوقع منه ذلك، والمعنى أنه تعالى يعلم منشأكم وأنتم لا تعلمون، فهو يعلم من أي شيء أنشأكم وهي مواد أرضية، وهو يعلم قابليتها ويعلم تأثيرها وتأثرها، كما أنه يعلم ما طرأ عليكم في طور الجنينية من العوامل الوراثية والبيئية التي أثرت في تكوين شخصيتكم وأنتم لا تعلمون ذلك، ولذلك فهو يعلم أنكم لا تستطيعون مقاومة الغرائز تمام المقاومة، بل تضعفون في موارد كثيرة؛ لأنه عالم بالعوامل التي تؤثر فيكم وتدفعكم إلى متابعة الأهواء، فهو لا يتوقع منكم كمال التقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^١.

وهكذا تبدو لي الآية واضحة في أن هذا هو المراد، وهكذا كنت أفهم الآية قبل أن أراجع التفاسير، ولكن المفسرين قالوا: إن المعنى أنه تعالى أعلم بكم حينما أنشأكم من الأرض، إماماً بمعنى خلق النطفة التي هي أصل الإنسان من مواد في الأرض، أو بمعنى خلق آدم من التراب وهو أصل البشر، فكان الله تعالى عالماً بكم حينما لم تكونوا إلا مواد أولية، وكذلك حينما كنتم في بطون أمهاتكم غائبين عن الأنظار في ظلمات ثلاث، فكيف لا يعلم بكم وقد خرجتم إلى هذه الدنيا وأعمالكم ونفسياتكم واضحة معلومة للجميع؟! فذكر هاتين الحالتين من جهة عدم وضوح معالم شخصية الإنسان فيهما.

وما ذكرناه هو الصحيح، فإن الله سبحانه يعلم بما يؤول إليه أمر الإنسان وغير الإنسان قبل كل ذلك، أي قبل خلق السماوات والأرض، فلا وجه للتخصيص بالحالتين.

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾. التزكية بمعنى التطهير، وزكاة المال

تطهيره أو تنميته وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^١ أي طهرها، فالتركية بهذا المعنى أمر مطلوب ومأمور به وموجب للفلاح، ولا ينافي ذلك النهي الوارد هنا وكذلك التنديد الوارد في قوله تعالى بشأن اليهود: ﴿الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^٢ فالتركية المنهية عنها أن يعتبر الإنسان نفسه طاهرة زكية ويشهد لنفسه بالتقوى، والمأمور بها هي نفس إحداث الطهارة والتقوى. وغريب أمر هذا الإنسان، فهو يعلم عن نفسه كم ارتكب المعاصي طول حياته ويعلم بهشاشة تقواه، بل ضعف إيمانه، ومع ذلك فهو يزكي نفسه لا أمام المجتمع فحسب، بل حتى بينه وبين نفسه، فهو يخادع نفسه وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ يفيد أن هناك من يعلم أيضاً، ولعل المراد به الإنسان نفسه، كما قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^٣ ولكنّه تعالى أعلم به من نفسه.

١. الشمس (٩١): ٩.

٢. النساء (٤): ٤٩.

٣. القيامة (٧٥): ١٤.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٢٠٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٢٠٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٢٠٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٢٠٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٢٠٧﴾ أَلَا تَرَى زُرَّةً وَازِرَةً وَزَرَ ﴿٢٠٨﴾ أُخْرَى ﴿٢٠٩﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٢١٠﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٢١١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٢١٢﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٢١٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٢١٤﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٢١٥﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢١٦﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٢١٧﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَىٰ ﴿٢١٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٢١٩﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَىٰ ﴿٢٢٠﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٢٢١﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٢٢٢﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٢٢٣﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٢٢٤﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٢٢٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٢٢٦﴾

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾، ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي أخبرني عن الذي تولى أعنده علم الغيب؟ والاستفهام في قوله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ للتعجب أو لإنشاء التعجب، بمعنى أن هذا أمر عجيب، والفاء في ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ لترتب هذا السؤال والاستغراب على ما سبق من الكلام.

و«التولي» كما مرّ - هو الإعراض، والظاهر أن المراد به هنا هو نفس التولي في قوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾^١ وإعطاؤه القليل هنا ينبع من نفس ما مرّ هناك من أنه لا يريد إلا الحياة الدنيا، ولا يختص الأمر بالكفار والمشركين وإن كانوا هم المصداق الأوضح لهذا العنوان.

والحاصل أن التولي يشمل الإعراض عن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر،

وعَمَّا يُؤْمَرُ بِهِ مِنْ رَبِّهِ، فَيَشْمَلُ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ حَسَبَ الظَّاهِرِ أَيْضاً.

وقوله: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً﴾، أي قليلاً من المال، والإكداء المنع والقطع. والأصل في الكدي الصلابة. والكدية: الأرض الصلبة. يقال: حفر فأكدى إذا وصل إلى ما لا يمكن حفره. وهذا العنوان أقرب إلى المسلم من الكافر؛ لأنه لا يطلب منه الإعطاء ولا يقبل منه، سواء كان قليلاً أم كثيراً، بل المطلوب منه أولاً الإيمان.

وقوله ﴿أَعْنَدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾، أي يرى المستقبل. ومن هنا يبدأ الاستغراب، فإن تركه للإنفاق ليس إلا من أجل مستقبله في الدنيا، مع أنه لا يعلم الغيب، فلا يعلم إلى متى سيعمر. وهذا أمر غريب حقاً، وهو أغرب إذا صدر من الذين يؤمنون بالآخرة حيث نجد أكثر همهم في الدنيا، وكلما طال بهم العمر واقتربوا من الموت زادوا بخلًا وطمعاً، وكأنهم يطمعون في الخلود، حتى أن بعضهم ليس له ذرية أو ليست الذرية بحاجة إلى ماله، ومع ذلك تجده على حافة الموت يمتنع من الإنفاق في سبيل الله تعالى، وغاية ما يفعل أن يوصي بثلاث أمواله تصرف في ما بعده. وقلّ من يُعمل بوصيته.

وقيل: إن المراد بعلم الغيب علمه بالآخرة، وأن العذاب هناك هل يمكن أن يتحمّله أحد بإعطاء المال أم لا؟ بناءً على صحّة ما ورد من القصص في شأن نزول الآيات. والصحيح كما في «الميزان» أن هذا الأمر مذكور في قوله تعالى: ﴿الَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فالأولى تفسير هذه الجملة بما مرّ.

وقد وقع البحث في شأن نزول الآيات، ففي «الكشاف»: «أن عثمان كان يعطي ماله في الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاة: يوشك أن لا يبقى لك شيء، فقال عثمان: إن لي ذنباً وخطايا، وإنّي

أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء، فنزلت. ومعنى ﴿تَوَلَّى﴾ ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل.^١ ونسبه في «مجمع البيان»^٢ إلى ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين.

واعترض عليه بعضهم بأن عثمان منزّه عن ذلك وعن هذه النظرة إلى يوم القيامة، وأنه كان يتبرّع بماله ولا يمنعه شيء عن ذلك. ولا وجه للاعتراض بناءً على أن السورة مكية. فمثل هذه المفاهيم لم يعلم بها الأصحاب إلا عن طريق الآيات القرآنية. نعم يبعد ذلك من جهة أن ترك عثمان لمركزه يوم أحد في المدينة والسورة مكية.

وفي «المجمع» وغيره أيضاً أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه، فعيره بعض المشركين وقالوا: تركت دين الأسياف وضللتهم وزعمت أنهم في النار. قال: إنني خشيت عذاب الله، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ففعل، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه تمام ما ضمن له فنزلت.^٣ ولكن لم ينقل في التاريخ أن الوليد آمن بالرسول ﷺ طرفه عين!

وقيل: نزلت في العاص بن وائل في قصّة مشابهة، وقيل: في أبي جهل، وقيل: غير ذلك، كلّ ذلك في قصص يبدو عليها بأجمعها الاختلاق والضعف، مضافاً

١. الكشاف ٤: ٢٧.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٢٧١.

٣. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٢٧١؛ الدر المنثور ٦: ١٢٩.

إلى أن أصل فكرة دفع المال لتحمل عذاب الآخرة ليس ممّا يمكن إسناده إلى عاقل خصوصاً إذا كان ذلك باقتراح من الشخص نفسه، فالظاهر أن بعضهم لم يظهر له معنى الآيات واضحاً ومتناسقاً، خصوصاً في قوله تعالى: ﴿الَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، فاضطرّ إلى اختلاق هذه القصص.

ثم إن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْثَى﴾ تأنيبه على الإكداء والمنع وعلى قلة العطاء، مع أن مقتضى هذه القصص أن يؤنب على أصل الإعطاء. بل يعتبر هذه الجملة على هذه القصص زائدة لا دخل لها في الذم، وإنما الذم على تصوّر أن أحداً يمكنه تحمّل العذاب من غيره.

والصحيح أن الآيات لا تختصّ بمورد، وأن المراد بها إمّا هو من أعرض عن الإيمان بالله، فيكون خاصّاً بالمشرّكين، أو عن امتثال أوامره تعالى وترك الإنفاق إلا قليلاً فلا يختصّ بهم، بل يشمل من كان كذلك من المؤمنين، وهو الأولى، كما أنّه لا يختصّ التّنديد والاستغراب بمن يبخل نهائياً ولا ينفق في سبيل الله شيئاً، بل يشمل من يقلّ منه الإنفاق، وسيأتي البحث عن تناسق الآيات وتناسبها.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾. الغرض من هذه المقدّمة التّنبية على أن الحقائق المتعلّقة باليوم الآخر ليست غريبة على أفكار القوم، فهي مذكورة في الصحف السماوية السابقة، وهم قد سمعوا بها وتناولتها ثقافة البشر وتداولتها الحكماء والعلماء من كلّ قوم، والمراد بصحف موسى ﷺ التوراة، وإنّما عبّر عنها بالصحف؛ لأنّها كانت بصورة مجموعات مدوّنة على الألواح، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^١.

ولعلّ تقديم ذكر موسى ﷺ من جهة أنّ كتابه كان موجوداً بين ظهرانيهم ويقال: إنّ في أحد أسفارها ورد أنّ الابن لا يتحمّل وزر أبيه وكذلك العكس. ولعلّ ذكر إبراهيم ﷺ من بين الرسل من جهة أنّهم كانوا يتباهون بأنهم من ذريّته، بل يدعون أنّهم على سنّته ومن أتباعه.

ولعلّ توصيفه بالتوفية - مضافاً إلى رعاية قوافي الآيات - للتنبيه على أنّه ﷺ كان يبالغ في أداء الحقّ فيوفّي كلّ شيء حقّه كاملاً، ومن ذلك بذله للمال وإنفاقه في سبيل الله. وللمفسّرين في ذلك أقوال غريبة.

﴿أَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾. «أن» مخفّفة من مثقّلة، واسمه ضمير الشأن المقدّر، والوازة صفة للنفس وهي مقدرة أيضاً، أي لا تزر نفس وازرة وزر نفس أخرى، والوزر الثقل وهو كناية عمّا يرتكبه الإنسان من آثام، ولا يقصد بالوازة خصوص النفس الآثمة، بل المراد النفس بقول مطلق، وإنّما أطلق عليها الآثمة باعتبار أنّها تتحمّل المسؤولية. فبناءً على ما أوردوه من قصص في شأن النزول - كما مرّ - يكون المعنى واضحاً، حيث إنّ الإنسان المذكور توهّم أنّ بإمكانه التخلّص من آثامه بدفع المال، والآية تردّ عليه بأنّ إثم كلّ إنسان يحمله عليه ولا يحمله غيره.

ومن هنا يتبيّن أنّ السبب في جعل هذه القصص هو توهّم أنّ هذه الآية لا تناسب الموضوع المذكور فيها، وهو، ﴿الَّذِي تَوَلَّى * وَاعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ حيث إنّه لم يرد في قيوده ما يدلّ على أنّه توهّم أنّ وزره يتحمّله غيره، فاضطرّوا إلى اختلاق هذه القصص ليقولوا: إنّها واردة في قضية خاصّة كان شأنها ذلك. ومثل هذا الجعل كثير في الروايات الواردة في شأن نزول الآيات.

وأما بناءً على ما ذكرناه، فالمراد تنبيه الإنسان بوجه عام أن اثمه لا يتحمّله غيره دفعاً لتوهم أكثر الناس أن إثم الأتباع على المتبوعين والأسياذ والأئمة والمشايخ والملوك والعظماء، بل والآباء والأسلاف، فهذه طبيعة الإنسان يبحث عن من يمكنه أن يلقي عليه إثمه، بل هو في الواقع يبحث عن أيّ عذر يبرّر له الوصول إلى أهوائه، فيحاول بشتى الوجوه الضعيفة والسخيفة أن يوجّه ما يرتكبه من إثم، حتّى لو كانت جريمة واضحة، كما قال: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ* وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾^١.

والوزر المذكور في موضوع الآيات هو التوليّ والإعراض عن الإيمان بالله تعالى أو امتثال أوامره، كما مرّ.

فالآية الكريمة تنبّه على أنّ كلّ إنسان يتحمّل وزره ولا يمكنه أن يلقي وزره على غيره. وكانت فكرة تحمّل الخطايا موجودة في أوهامهم، كما هي موجودة في أوهام غيرهم حتّى العامّة من المسلمين، وكما يعتقد النصارى أنّ الله تعالى بعث المسيح عليه السلام ليقتل ويصلب ليغفر الله تعالى به آثام أتباعه، وبذلك فهم لا يؤاخذون بما يرتكبونه. تبنّا لها من عقيدة زائفة! ومن المسلمين أيضاً من يعتقد جواز أن يتّبع رجل الدين متابعة عمياء وأنّ عليه الوزر في كلّ ما يعملون وهو أيضاً معتقد خاطئ.

ويلاحظ بالمناسبة أنّ هناك روايات تدلّ على أنّ الإنسان إذا وقع عليه ظلم من أحد ولو من جهة اغتيابه، فإنّ الله تعالى يسجّل في صحيفة أعمال المظلوم بعض أعمال الظالم إن كانت له حسنات، وإن لم تكن له حسنة سجّل بعض

معاصي المظلوم في صحيفة الظالم، فيستغرب الظالم يوم القيامة ممّا يجده في صحيفته ولم يعمل، فيخبره الله تعالى أنّه من فلان الذي ظلمته كتب في صحيفتك ومحي عن صحيفته. ولعلّه يظهر من هذه الآية ما ينافي صحّة هذه الروايات إن لم يكن لها تأويل، والله العالم.

وينبغي أن يعلم أنّ هذا لا ينافي ما ورد في الكتاب العزيز والروايات الكثيرة أنّ من سنّ سنة سيّئة فعليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^١، فإنّ الأثقال التي يحملها الذين كفروا مع أثقالهم هو أثقال الذين يتبعونهم ويضلّون بسببهم، وإن كان العمل منهم إلا أنّ تضليل الآخرين يسبّب أن يكون أعماله وزراً على عاتق المضلّ أيضاً، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾^٢.

والروايات في ذلك عن طرق الفريقين كثيرة، نكتفي بواحدة منها، فقد روى الصدوق بسند معتبر عن الإمام الباقر عليه السلام: «أيما عبد من عباد الله سنّ سنة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأيما عبد من عباد الله سنّ سنة ضلال كان عليه وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^٣.

١. العنكبوت (٢٩): ١٢ - ١٣.

٢. النحل (١٦): ٢٥.

٣. ثواب الأعمال: ١٣٢.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾. السعي: المشي السريع. وهو هنا كناية عن بذل الجهد للوصول إلى هدف. وهذا هو الأمر الثاني ممّا تبّهت عليه الكتب السماوية من الأصول الثابتة. وهو أنّ الإنسان لا يكسب شيئاً يوم القيامة إلا ما كان له فيه سعي وجهد.

و«ما» بناءً على هذا موصولة، أي ما سعى فيه وهو ذات العمل. ويحتمل أن تكون «ما» مصدرية، أي ليس له إلا سعيه، فالمعنى أنّ الذي يجده الإنسان يوم القيامة هو نفس الجهد الذي بذله، لا نتيجته - وهي العمل -، فربما يسعى الإنسان للوصول إلى خير أو شرّ ولا يصل إليه، فهو يجد هناك سعيه وجهده.

ومهما كان فهذه الآية أيضاً تنافي ما ورد في الروايات المذكورة آنفاً من تسجيل أعمال الظالم في صحيفة المظلوم، كما تنفي أيضاً ما يمّني الإنسان نفسه من الفوز يوم القيامة لانتسابه إلى الرسول ﷺ بولادة أو مصاهرة أو إلى سائر الأنبياء ﷺ كما توهّم بنو إسرائيل، بل ربما يتوهّم أنّ صحبة الرسول ﷺ كافية للفوز، بل يكفي أن يكون الإنسان من أمة محمّد ﷺ أو غيره من الرسل ﷺ، كما ادعى بنو إسرائيل أنّهم شعب الله المختار، إلى غير ذلك من الأمانى والأوهام، فإنّ هذا الأصل الذي ورد في كتب السماء تنفي كلّ ذلك وتقرّر أنّ الإنسان لا يكتسب يوم القيامة إلا ما سعى فيه.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾ يفيد نوعاً من التعلّق، والمراد به هنا ما يملكه الإنسان ملكية حقيقية لا ترتبط بالاعتبارات من قبيل الملكية المتعارفة في هذه الحياة، فإنّ هذه الاعتبارات خاصّة بالحياة الاجتماعية في الدنيا، ولكنّ العمل يعتبر كجزء للإنسان لا ينفصل عنه أينما ذهب.

ولكن هناك إشكال على مفاد هذه الآية، فقد ثبت في الشرع في عدة موارد أن الإنسان يثاب بعمل غيره، كمن يستتاب له في الحجّ والصلاة وسائر العبادات، أو يستغفر له، أو يتلى له القرآن، ومن يكون له من بعده ولد صالح يعبد الله تعالى، فيثاب الأب بعمل ولده، ومن يبقى بعده ما يكون صدقة جارية، ومن يسنّ سنة حسنة، حيث إنّ له أجر من عمل بها. وكذا ما ثبت بالكتاب والسنة من أن الإنسان تنفعه الشفاعة. وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾^١ أن الله تعالى يدخل الجنة إكراً للمؤمن والديه وزوجه وأولاده المؤمنين، وكلّ هذا من موارد الثواب من دون عمل.

والجواب أن مقتضى هذه الآية أن الإنسان لا يملك شيئاً إلا عمله، فلا يستحقّ ثواباً من غير عمل، وهذا لا ينافي أن الله تعالى بفضله يمنّ على بعض عباده بما لا يستحقّه بالعمل، بل الآيات صريحة في أن المحسن لا يجزى بمقدار عمله، بل يجزى أضعافاً مضاعفة: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^٢. كلّ ذلك بفضله ومنّه تعالى، بل الواقع أن ما يعبر عنه بالاستحقاق ليس إلا ما جعله الله تعالى جزاءً للإنسان بفضله وكرمه، والعبد لا يستحقّ على الله شيئاً.

وأجاب عنه في «الميزان» بأنّ ما يحصل للإنسان في هذه الموارد نتيجة عمله أيضاً قال الله: ﴿وَأَمَّا الْإِنْتِفَاعُ مِنْ شَفَاعَةِ الشُّفَعَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ سَعْيٌ جَمِيلٌ حَيْثُ دَخَلُوا فِي حَضِيرَةِ الْإِيمَانِ بِاللّهِ وَآيَاتِهِ، وَكَذَا اسْتِفَادَةُ

١. الطور (٥٢): ٢١.

٢. البقرة (٢): ٢٦١.

المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له، والأعمال الصالحة التي تهدي إليه مثوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة، وكذا من سنّ سنة حسنة، فله ثوابها وثواب من عمل بها»^١.

وهذا لا بأس به بالنسبة لمن سنّ سنة حسنة؛ لأنّ لتسنيته السنة الحسنة تأثيراً في عمل من بعده، وكذا في الصدقة الجارية، وأمّا استغفار المؤمنين والأعمال التي تهدي له فيبعد استثناؤها بمجرد دخوله في زمرة المؤمنين، فإنّ ذلك لا يوجب استناد العمل إليه، وكذلك الشفاعة، فإنّ الثواب الذي يحصل للإنسان بالشفاعة لا علاقة له بدخوله في زمرة المؤمنين وإن كان ذلك شرطاً في شمول الشفاعة له، بل حتّى في المورد الأوّل أيضاً ليس له إلا ثواب التسنين بالذات، وأمّا ثواب من عمل بها فلا يستحقّه، وإنّما يؤتاه بفضل من الله تعالى، وفي الصدقة الجارية ليس له إلا ثواب بناء المسجد مثلاً، وأمّا استخدامه بعد موته فلا يستند إليه.

وهناك أجوبة أخرى ضعيفة، بل بعضها سخيفة فذهب بعضهم إلى أنّ الآية منسوخة بالأخبار الواردة في هذا الباب، وبعضهم إلى تخصيصها بالأخبار المذكورة مع أنّ سياق الآية يقتضي أنّ هذا الحكم من الأصول الثابتة في الشرائع ممّا لا يمكن تخصيصه، فكيف بالنسخ. وذهب بعضهم إلى أنّ ذلك من خصائص الأئمّ السابقة، ولا يشمل الامة المرحومة مع أنّ الآية تخاطب هذه الائمة وتنبّه على أنّ هذا أصل في شرع الله تعالى وأنّ الحكم عامّ للإنسان، وقال بعضهم: إنّ المراد بالإنسان الكافر، وبعضهم قال: إنّ اللام بمعنى على!

﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾، أي سوف يشاهد ما سعى فيه وهو عمله يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُحَدِّثُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^١ وظاهر التعبير، أي البناء للمجهول يفيد أن هناك من يراه غيره أيضاً، فربما يراد به الملائكة أو شهداء الأعمال أو غيرهم من عامة الناس أيضاً، والمقصود أن سعيه لن يذهب سدى ولن يغيب عن الأنظار حتى لو أتى به في خفاء.

والسعي يعمّ العمل الصالح والسيئ، والآيات تصرّح أن كلّ أعمال الإنسان تحضر وتشاهد، وأنه يجزى بكلّها، ولكن لا يبعد بمقتضى السياق أن يكون المراد هنا خصوص العمل الصالح لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، فالذي له هو العمل الصالح، وأمّا السيئات فهي عليه.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾، «ثمّ» للتراخي، ويدلّ على تأخّر مرحلة الجزاء عن مرحلة عرض الأعمال والمحاسبة، و﴿يُجْزَاهُ﴾ إمّا أن يكون بمعنى يجزى به، فالجزء الأوفى مفعول ثانٍ، والمفعول الأوّل الضمير العائد إلى الإنسان نفسه، أي يجزى الإنسان بعمله الجزاء الأوفى، أو يكون المفعول الثاني هو الضمير المتّصل في ﴿يُجْزَاهُ﴾ العائد إلى السعي، أي يجزى الإنسان نفس السعي والعمل، والجزء الأوفى مفعول مطلق مبين لنوع الجزاء، فهو كقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾^٢.

والأوفى بمعنى الأتمّ والأكمل، فلا ينقص من عمله شيء. وهذا بالنسبة للعمل السيئ واضح لو شملته الآية، وأمّا العمل الصالح فلعلّ المراد بالأوفى فيه الأكمل

١. آل عمران (٣): ٣٠.

٢. آل عمران (٣): ٢٥.

بالنظر إلى سعة فضله تعالى ولطفه، لا بالنسبة إلى ذات العمل، فإنّ جزاء الإحسان أضعاف العمل بفضله تعالى.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ وهذا أيضاً ممّا ورد في الصحف السماوية، والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء، وتقدير الجارّ والمجرور يفيد الحصر، وقد فسّر المنتهى بثلاث وجوه:

الأول: أنّ المراد نهاية أمر الإنس والجنّ، حيث يحشرون إليه تعالى ويحاسبون، فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلِإِلَهِ الْمَصِيرُ﴾^١، فيكون ذكر هذه الجملة بعد التأكيد على أنّ الإنسان مجزيّ بعمله لبيان موضع الجزاء، وأنّه يتحقّق بعد رجوعهم إلى الله تعالى.

ولعلّ في التعبير بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ مع أنّ الجملة منقولة عن الصحف السابقة تهديداً للمناوئين للرسول ﷺ حيث إنّ الآيات موجّهة إليهم، وفي ذلك تسليّة للرسول ﷺ وللمؤمنين.

الثاني: ما ذكره العلامة الطباطبائي رحمه الله من أنّ المراد انتهاء كلّ الأمور في كينونتها وبقائها وتدير أمورها إليه تعالى، فهو الموجد لكلّ شيء والمبقي له ومدبّر جميع أموره، فالإله ينتهي كلّ شيء^٢. وهذا هو الظاهر من الآية بقرينة سياق الآيات التي بعدها حيث تتعرّض لتدبير الأمور لا لما يحصل في الآخرة فحسب، وهذا المعنى يشمل المعنى الأوّل فإنّ من الأمور التي تنتهي إليه تعالى مصير العباد، والآية تشبه في المعنى قوله تعالى: ﴿وَلِإِيَّاهُ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا﴾^٣ وقوله تعالى:

١. فاطر (٣٥): ١٨.

٢. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٤٧.

٣. هود (١١): ١٢٣.

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^١

الثالث: ما ورد في عدة من الروايات، منها ما هو معتبر عند كثير من العلماء كرواية سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ قال: «إذا انتهى الكلام إلى الله عز وجل فأمسكوا»^٢.

ولا شك في صحة هذا المعنى في حد ذاته إلا أنه بعيد عن ظاهر الآية، ولكن لا يبعد أن يكون من باطن القرآن وكثيراً ما نجد في الروايات الاستدلال بمثل ذلك من القرآن الكريم مما لا نفهمه من ظاهر اللفظ. والله العالم.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾. من هنا يبدأ السياق ببيان بعض ما ينتهي أمره إليه تعالى من باب ذكر الأمثلة، وكل ذلك مما ورد في الصحف. واختلف في تكرار الضمير، أي قوله: ﴿هُوَ﴾ وأنه هل هو تأكيد لاسم أن أو هو ضمير الفصل، ومهما كان، فالإتيان بهذا الضمير يفيد الحصر وأن ليس غيره من يضحك ويبكي، ولا ينافي ذلك وجود عوامل طبيعية أو غير طبيعية لكل حادث في الكون، فإن المراد أن الفاعل الحقيقي الذي بإذنه يتحقق كل شيء، وما من حركة ولا سكون إلا بإرادته هو الله تعالى، وهذا المعنى من شؤون الربوبية وليس فيها توسّط، ولا ينسب إلى غيره وإن نسب ذات الفعل إلى غيره بمعنى آخر، كما ينسب الخلق والإيجاد أيضاً. وإنما أتى بفعل الماضي مع أن الأمر مستمر؛ لأن المراد به أصل وجود الضحك والبكاء وما يثيرهما، وهذا الأمر مما سبق تكوينه.

ولعلّ البدء بذكر الضحك والبكاء واستنادهما إلى الله تعالى؛ لأنهما من الأمور

١. الشورى (٤٢): ٥٣.

٢. التوحيد (الصدوق): ٤٥٦، الحديث ٩.

الاعتيادية التي يغفل عادة من استنادها إليه تعالى، وإنما يبحث فيهما عن الدوافع الذاتية والخارجية، فالآية تنبّه على أنّ مثل ذلك أيضاً ينتهي إلى الله تعالى، فكيف بالخلق والإحياء والإماتة؟! أو المراد أنّ كلّ الحوادث المضحكة والمبكية تتحقّق بتقديره تعالى، فيكون التعبير كناية عن كلّ ما يحدث للإنسان في الحياة الدنيا من الحوادث، وأنّه تعالى هو الذي يسعد الإنسان ويفرحه بما يبعث فيه البهجة والسرور والضحك، وهو الذي يتليه بالمصائب والمصائب ممّا يحزنه ويبكيه.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾. الكلام في هذه الآية كسابقتهما، ولكن استناد الإحياء والإماتة إليه تعالى أوضح، فلا يدعيهما أحد إلا غبي كمنرود.

والمراد ليس خصوص الإحياء بعد الموت وإن ذكر بعده، فإنّ ذلك مذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾، بل المراد كلّ إماتة وإحياء، سواء في الإنسان أو غيره من الحيوان أو النبات.

ومسلسل الإحياء والإماتة لا ينتهي ولا يتوقّف في الطبيعة، كما هو واضح. والإحياء هو السابق في جميع الموارد؛ لأنّ الموجودات الحيّة قبل أن يهبها الله الحياة أجسام لا حياة فيها وإن لم يطلق عليها أنّها أموات، ولعلّه إنّما أخر هنا في الذكر لرعاية أواخر الآيات أو لأنّ الموت في الغالب مقدّمة لحياة أخرى، والأحياء غالباً يشغلون موضع أحياء سابقين. والإماتة مستندة إلى الله تعالى حتّى لو تسبّب في مقدّماتها سبب خارجي من قتل ونحوه، مع أنّ تلك الأسباب أيضاً تستند إليه تعالى.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ وهذا أيضاً من شؤون الخلق

والربوبية وصحف السماء تنبّه على ذلك، وإنّه لأمر بدیع وعجيب أنّ الله تعالى خلق الإنسان وأصناف الحيوان وبثّ فيها الحياة، وجعلها بأجمعها قسمين، ذكراً وأنثى لبقاء النسل. ومن العجيب تناسب القسمين. ولو كان ذلك عشوائياً كما يدّعي المبطلون لأمكن أن يبقى في صنف من الحيوان قسم واحد أو يندر القسم الآخر فيفنى الصنف كله أو لا يبقى منه إلا القليل فمن حكمته وتديره تعالى جعل الزوجين من كل صنف متناسقين ابقاءً على النسل.

والنطفة: القليل من الماء. وتُمنى أي تُراق. ومنه تسمية وادي «منى» حيث تراق فيه دماء الذبائح، وقيل: «تمنى» أي تُقدّر، فالمعنى إذا قدر للنطفة أن يخلق منها الإنسان أو الحيوان في إشارة إلى أن تكون الجنين من النطفة بحاجة إلى عوامل أخرى وإلى بيئة مناسبة. ولعلّ في ذكر النطفة إشارة إلى أنّ خلق الزوجين على اختلافهما واختلاف أفرادهما يتمّ من نطفة وماء قليل تأكيداً على عظمة الخالق حيث أودع كلّ هذه الاختلافات في هذه القطرة والنطفة القليلة، بل في جزء صغير منها، وجعلها بحيث تتناقلها الأجيال وتتوارثها نسلًا بعد نسل.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخَرَى﴾. وممّا تضافرت على تنبيهه كتب السماء الحياة الأخرى، ولعلّ في ذكر إعادة الحياة بعد ذكر الخلق من النطفة إشارة إلى أنّ من أودع كلّ هذه الأسرار في جزء غير محسوس من النطفة قادر على إنشائه النشأة الأخرى بعد موته، فهو أهون من هذا الخلق.

والنشأة في الأصل بمعنى الارتفاع والعلو، ولذلك يعبر بها عن التربية ويقال للشابّ النشء أو الناشئ، وفي هذا التعبير إشارة إلى أنّ تلك الحياة ليست وجوداً بعد عدم، بل هي مرحلة أكمل من المرحلة السابقة تحصل بتربية الإنسان حتّى

يلبغها. والتعبير بأن ذلك عليه تعالى لإفادة أن ذلك مقدور له فهو الذي يتعهد به وهو القادر على كل شيء، وليس بمعنى أن ذلك واجب عليه، كما توهم مع أن الوجوب أيضاً ليس بمعنى أنه تعالى مكلف به، فليس هناك عليه تعالى فرض وليس مسؤولاً عن شيء؛ «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»، بل بمعنى أنه تعهد بذلك ووعد، وحيث إنه لا يمكن أن يتخلف عن عهده ووعدته؛ إذ لا يتخلف عن العهد إلا الجاهل أو العاجز، فكأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أغناه الله أي جعل له الغنى. وأقناه أي جعل له القنية بكسر القاف وضمها.

والغنى: هو ما يخرج الإنسان عن الفقر والحاجة إلى الناس، والقنية في الأصل بمعنى الملازمة والمخالطة، وتطلق على ما يتخذها الإنسان لنفسه من الأموال كالدار والحيوان ونحوهما مما يستأثر بها لنفسه ويلازمها، فلا يبيعها ولا يؤجرها، وعليه فالفرق بين الإغناء والإقناء أن الأول يحصل بإعطاء ما يكفيه، بل ربما يحصل بغنى النفس وهو أعظم من غنى المال، ونحن نلاحظ أن من البشر من يحتاج إلى مساعدة الغير ليحصل على ما يناسب شأنه من المال والأثاث، ولكنه يقنع بما لديه ويرتفع عن إظهار الفقر ويلبس من الثياب ما يظهر للآخرين غناه، فضلاً عن عدم السؤال، وذلك غنى النفس وفي «نهج البلاغة»: «القناعة مال لا ينفد»^٢ وفيه أيضاً: «لا كثر أغنى من القناعة ولا مال أذهب للفاقة من الرضى بالقوت»^٣

١. الأنبياء (٢١): ٢٣.

٢. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٧٠٢، الحكمة ٤٦٥.

٣. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٦٨١، الحكمة ٣٦٠.

وفيه أيضاً: وسئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾، فقال: «هي القناعة»^١. وأما القنية فتتحقق بجمع المال والاستئثار بالنفائس. وقيل: إنَّ القنى بمعنى الرضى، فإن كان كذلك فيمكن أن يكون المراد بالأوّل غنى المال، وبالثاني غنى النفس، فيكون معاكساً للتأويل الأوّل.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾. قيل: إنَّ هذه الجملة لا يمكن أن تكون معطوفة على ما سبق؛ إذ لم يرد ذكر الشعرى في الكتب السابقة؛ لأنَّ الداعي إلى ذكرها عبادة العرب لها ولم تكن الأقوام السابقة تعبدوها. وهذا غير صحيح؛ لأنَّ كتب السماء بأجمعها تصرّح وتؤكد على أنّه تعالى ربّ الكون بما فيه الشعرى وغيرها، فهذا المعنى موجود في جميع الكتب.

والشعرى نجم مضيء جداً، ويقال: إنّها أكثر النجوم ضياءً في ما نراه ونحسّ به، وهي أقرب النجوم المضيئة إلينا بعد الشمس، ومع ذلك فإنَّ نورها يصل إلينا بعد حوالي تسع سنين من اشعاعه. ولمعانها ضعف لمعان الشمس ٢٥ مرة. وكان بعض العرب يعبدونها ويعتقدون أنّ ما في الكون متأثر بها، كما يعتقد كثير من البشر بشأن النجوم المختلفة، ويقال: إنّ المصريين القدماء أيضاً كانوا يهتمّون بها ويعتقدون فيها عقائد خرافية حول فيضان النيل وغير ذلك، فالاهتمام بذكرها هنا للتنديد بمن يعبد المخلوق المربوب ويغفل عن ربّ الكون تعالى شأنه الذي هو ربّ الشعرى وكلّ ما في الكون ممّا تعلمون وما لا تعلمون.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ وممّا نبّهت عليه الصحف هو الاعتبار بما جرى على الأقوام السالفة، كعاد وهم قوم هود عليه السلام والعرب كانوا يعرفونهم

ويرون آثارهم ويتناقلون قصصهم. وتوصيف القوم بالأولى يمكن أن يكون باعتبار قدمهم أو باعتبار أن هناك قوماً آخرين يسمون بعاد ممن تأخر عنهم. وقد ورد ذكر قصة عاد وما جرى عليهم في عدة مواضع من القرآن الكريم. وأهلك الله بعدهم قوم ثمود وكانوا أيضاً في الجزيرة العربية وهم قوم صالح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَبْقَى﴾، أي ما أبقى منهم أحداً، والمراد الطاغون الكفرة منهم، وأما المؤمنون من عاد وثمود، فقد نجاهم الله تعالى من العذاب، كما قال في قصة قوم عاد: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾^١ وفي قصة ثمود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾^٢.

﴿وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ عطف على عاد، وقوم نوح عليه السلام من أقدم الأقسام البشرية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. واختلف في قوله: ﴿إِيَّهِمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾، فقيل: إن الضمير يعود إلى قوم نوح عليه السلام وإن المراد أنهم أظلم وأطغى من عاد وثمود، وأن الوجه في ذلك أن نوحاً عليه السلام بقي فيهم مدة طويلة جداً وهي تسعمائة وخمسون عاماً، فلم يؤمن منهم إلا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^٣ وهذا يدل على غاية طغيانهم واستكبارهم، كما ورد صريحاً في ما بثه عليه السلام من الشكوى في سورة نوح.

وقيل: إن الضمير يعود إلى الأقسام الثلاثة وهو الصحيح، فإن الجملة المبدوءة بـ «إن» في مقام التعليل، ولا وجه لتخصيصه بقوم نوح.

١. هود (١١): ٥٨.

٢. هود (١١): ٦٦.

٣. هود (١١): ٤٠.

وأما توصيفهم بكونهم أظلم وأطغى فقد قيل: إنَّهم كذلك بالنسبة إلى المخاطبين وهم كفَّار قريش وهو غريب، فإنَّ ذلك ينافي الحكمة من ذكرهم، وهي التحذير من الابتلاء بما نزل عليهم، فإنَّه إذا ثبت أنَّ العذاب إنَّما استحقَّوه، لكونهم أظلم وأطغى، فلا موجب لخوف المخاطبين؛ لأنَّهم لم يبلغوا تلك المرتبة من الظلم والطغيان، والمفروض أنَّ الجملة في الآية في مقام التعليل، فالظاهر أنَّ الصيغة جرَّدت عن معنى التفضيل وليست في ذلك مقايضة بينهم وبين غيرهم، بل المراد أنَّهم بلغوا الغاية في الظلم والطغيان، فاستحقَّوا العذاب، والغرض إيهام الحدَّ الموجب للعذاب، وفي ذلك أيضاً حكمة، فإنَّه إذا بيَّن الحدَّ الموجب له لم يحاول المخاطب إلا تجنُّب الوصول إلى ذلك الحدَّ.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾. الإفك هو الصرف والقلب، والمؤتفكة أي المنقلبة، والمراد بها القرية المؤتفكة. وقد ورد التعبير به بصورة الجمع في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾^١ وقوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ بِالْخَاطِئَةِ﴾^٢ وفسرت بقرى قوم لوط عليه السلام، حيث قلَّبت وهو كناية عن التدمير الكامل. ويقال: إنَّها كانت ثلاث قرى متقاربة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ﴾^٣ ولعلَّ الأفراد هنا باعتبار الجنس، وقوله ﴿أَهْوَى﴾، أي أسقطها بعد قلبها كما قيل، ويمكن أن يكون بمعنى الإهلاك.

١. التوبة (٩): ٧٠.

٢. الحاقة (٦٩): ٩.

٣. هود (١١): ٨٢.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ أي غطاها وشملها بحيث لم يفلت منهم أحد، والجملة توحى بهويل عظيم، فعبّر أولاً عن شمول العذاب بالتغشية، كأنّ العذاب ألقي على القرية كغطاء جامع، ثمّ أبهم العذاب ولم يصرّح به، نظير قوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَغَشَّيْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشَّيَهُمْ﴾^١.

وقوله: ﴿مَا غَشَّى﴾ مفعول ثانٍ لقوله: ﴿فَغَشَّاهَا﴾ والفاعل هو الله تعالى. وقد ورد ذكر هذا العذاب في الآية الآتية الذكر وفي غيرها من الآيات.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾. المرء هو الجدال والشك. والتماري - على ما قيل - ينبغي أن يكون بين اثنين، مع أنّ الآية خطاب للواحد، ولكنه نزع عن هذا المعنى فصار بمعنى التشكيك، ولكن لا يبعد أن يكون التفاعل هنا بمعنى التظاهر بالشك والجدال، فإنّ كثيراً من البشر يظهر الشك وهو متيقّن بالحقّ، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾^٢. والخطاب موجه للإنسان أو لكلّ من يسمع أو يتلو الآية. وقيل: إنّ خطاب للرسول ﷺ من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، وهو بعيد لا يناسب مقام الرسالة.

والآلاء جمع «إلى» بمعنى النعمة وربما يتساءل: أنّ الذي سبق في الآيات ذكر ما نزل على الأمم السالفة من العذاب، فكيف اعتبر نعمة؟! قال المفسّرون: إنّهُ يعتبر نعمة بلحاظ أنّه يوجب الاعتبار لمن تأخّر عنهم، ولكن لا يبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى النعم الإلهية التي نشعر بالنعم بها، والمراد بالآية تهديد الإنسان بعد نزول العذاب على من كفر بالنعم فيخطبه: بأيّ آلائه تجحد وتكفر؟! ألا تخشى أن يصيبك ما أصابهم؟!

١. طه (٢٠): ٧٨.

٢. النمل (٢٧): ١٤.

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّبِعُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ﴾ قيل: إنَّ ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى الرسول ﷺ، وقيل: إلى القرآن الكريم، وهو أولى لتوصيف النذر بالأولى، ولو كان المراد الرسول ﷺ لقال الأولين، فيحتاج إلى تأويله بالجماعة.

والنذر جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار، وهو على الثاني اسم للمصدر، أي الإنذار بمعنى الإعلام والإبلاغ في خصوص ما يشتمل على تخوف، فهو بمعنى التخويف.

والغرض من هذه الآية التنبيه على أنَّ هذا الإنذار استمرار للرسالات السابقة التي قد سمعتم بها ورأيتم آثارها، فليس أمراً جديداً مستغرباً، وقد تكرر في القرآن التنبيه على ذلك.

﴿أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ﴾. أزِفَ أي قَرُبَ من الأزف بفتح الأولين، أي القرب، فالمعنى أنَّ الأزفة أي القيامة قد قربت، كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾^١ والسّر في اعتبارها قريبة أنَّها بالقياس إلى عمر الطبيعة قريبة وإن تأخرت قروناً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَتَرَاهُ قَرِيْباً﴾^٢. ويحتمل أن يكون القرب باعتبار قرب الموت من كلِّ أحد. فالمجال ضيق للإنسان والوقت قريب؛ إذ لا يمكنه تلافي

١. القمر (٥٤): ١.

٢. المعارج (٧٠): ٦ - ٧.

ما فاتته طيلة حياته بعد الموت حتى لو تأخرت القيامة، ويحتمل أن يكون القرب باعتبار أن البعد الزمني إنما هو بملاحظة إطار الطبيعة التي نعيشها، وأما إذا خرجنا عن هذا الإطار فكلّ الحوادث مجتمعة أو متقاربة، ولذلك يجيب البشر إذا سئلوا بعد البعث عن عدد السنين التي عاشوها بعد الموت: ﴿لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾^١.

وأما التعبير عن يوم القيامة بالآزفة، فيحتمل أن يكون بلحاظ قربه كما مرّ، ويحتمل أن يكون بمعنى آخر ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾^٢ وهو أن الآزفة مصدر كالعاقبة والعافية، فهو مثل التعبير عنه بيوم الحسرة، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم التغابن، ويوم الجمع، ويوم الفصل، ويوم الدين؛ فعمل المراد هنا أنه يوم القرب بمعنى تقارب الناس واجتماعهم أو بمعنى الضيق، فإنه أيضاً من معاني الأزوف، وأصله واحد؛ لأنّ الضيق ملازم للتقارب.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^٣. قيل: إنَّ «كَاشِفَةٌ» وصف لمحدوف، أي نفس كاشفة، ولا يبعد أن يكون مصدراً بمعنى الكشف، أي لا يكشفها إلا هو.

وقوله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي غيره تعالى، والمراد بالكشف إبعادها ومنع وقوعها، فلا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى وهو لا يفعل، وعلى هذا فالآية تمنع كل أمل في عدم وقوعها يأمله المجرمون. ويحتمل أن يكون الكشف بمعنى تبين موعدها، فيكون كناية عن أنها مجهولة للجميع، كما قال تعالى: ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ﴾^٣.

١. المؤمنون (٢٣): ١١٣.

٢. غافر (٤٠): ١٨.

٣. الأعراف (٧): ١٨٧.

وقيل: إنَّ المراد أنَّه لا يكشف الكرب ذلك اليوم إلا الله تعالى وهو بعيد.
 ﴿أَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجِبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾. الظاهر أنَّه إشارة إلى الحديث عن يوم القيامة، وقد تكرَّر في القرآن نقل تعجَّبهم من إحياء العظام بعد الموت، وقيل: إشارة إلى القرآن، ومهما كان، فالمراد من تعجَّبهم استبعادهم وتكذيبهم.

والاستفهام لاستنكار هذا الاستبعاد والتعجب منه، والفاء للتفريع على ما سبق، أي كيف تستغربون وتستبعدون هذا الحديث وتضحكون ولا تبكون مع أنَّ النذر جاءت في الصحف الأولى، وجاءكم النذير. والأمر من الله تعالى وهو القادر على كلِّ شيء والموعِد قريب؟!!

ولاشكَّ أنَّ هذا أمر غريب أن ينذر الإنسان بمستقبل مجهول خطير، وهو لا طريق له إلى معرفة صحَّة الخبر عن عدمها ولا سبيل له إلى الكشف عن هذا الغيب المكنون، والشواهد تساعد على وقوعه فيستهزئ ويضحك، مع أنَّ من حقِّه أن يبكي للخطر المحدق به وهو محتمل على الأقلِّ وهو لم يعدْ لذلك اليوم عدَّتْه.

﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾، الجملة حالية، أي تضحكون حال كونكم سامدين، وللسمود معنيان يناسبان المقام؛ أحدهما التكبر ورفع الرأس غروراً وامتناعاً، من سمد البعير إذا رفع رأسه في سيره. والآخر اللهو والسهو والغفلة.

وقيل السمود: الغناء، أي لاهين خائضين في الطرب والملاهي غافلين عن ما ينتظرهم من الأهوال.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾. الفاء للتفريع، أي مادام الشَّأن كذلك فاغتنموا الفرصة

قبل الضياع واسجدوا لله واعبدوه لعلّه يتوب عليكم ويغفر لما مضى منكم. وفي الروايات أنّ الرسول ﷺ حين تلا هذه السورة على الناس وانتهى منها سجد وسجد المسلمون والمشركون جميعاً إلا الوليد بن المغيرة، فاكتفى بأن رفع كفاً من التراب، فوضع جبهته عليه.

واستغرب المسلمون ذلك اليوم عمل المشركين، كما استغربه المفسرون، وأولّه بعضهم بما روه كذباً وافتراءً أنّ الرسول ﷺ حين تلاوته لقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ذكر جملتين أو أكثر في مدح الأصنام، قالوا: إنّ الشيطان أوقعها على لسانه - والعياذ بالله - فأعجب المشركون بذلك، ومن هنا سجدوا في نهايتها. وهو كلام باطل ويبتني على أساس باطل ينتهي بقائله إلى الكفر.

والصحيح - كما هو واضح - أنّه لو صحّ خبر السجود، فإن السبب فيه تأثر المشركين في تلك اللحظة من الآيات القوية النافذة ومن تلاوة الرسول الأكرم ﷺ فلم يتمالكوا أنفسهم وسقطوا خاشعين، وكم له من نظير، فإنّ ضمير الإنسان مهما كان فاسداً ربما ينبهه ويبعثه على الاعتراف والإقرار بما لا يقرّ به رسمياً، وليس عدم إقراره لعدم وضوح الأمر له، بل لأغراض فاسدة، وهذا كان شأنهم في مواجهة الرسالة.

والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على رسوله الأمين وآله الميامين.

تفسير سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا
فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ التَّنْذِرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى
شَيْءٍ نَكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

سورة القمر مكية كما هو واضح من مضامينها، وفيها إشارة إلى معجزة شق القمر وتنديد بتكذيب المشركين للرسول ﷺ وتحذير من نزول العذاب عليهم، كما نزل على الأقوام السابقة مع إشارة سريعة إلى قصصهم، ثم المقارنة بينهم وبين هؤلاء وأنهم ليسوا خيراً من الأقوام السابقة.

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ الجملة الأولى من الآية إخبار عن اقتراب موعد القيامة وقد مرّ قريباً البحث عن ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِزِفَتِ الْأَرْزَاقُ﴾^١

والساعة الجزء الصغير من الزمان واللام للعهد، فالمراد اللحظة المعهودة وهي لحظة فناء هذا الكون، سميت بذلك لسرعة حدوث الفناء. وأما الجملة الثانية فظاهرها الإخبار عن حادث وقع في عصر نزول الآية وهو انشقاق القمر، ويبدو من التعبير أنّ له علاقة باقتراب الساعة، فلعلّه يعدّ من أشراتها وعلاماتها ولا يمنع هذا الاحتمال البعد الزمني بينهما، لما مرّ في تفسير الآية المذكورة من أنّ هذا القرب يمكن أن يكون بملاحظة عمر الطبيعة. ولكن ما هي هذه الحادثة؟

ورد في روايات عديدة — قيل: إنّها بلغت حدّ التواتر، وقال العلامة الطباطبائي: إنّها مستفيضة^١ — أنّ القمر انشقّ في عهد الرسول ﷺ كمعجزة كونية تدلّ على نبوّته.

قال الشيخ في «التيان»: «ومن أنكر انشقاق القمر وأنّه كان، وحمل الآية على كونه في ما بعد — كالحسن البصري وغيره واختاره البلخي — فقد ترك ظاهر القرآن؛ لأنّ قوله: «انْشَقَّ» يفيد الماضي وحمله على الاستقبال مجاز. وقد روى انشقاق القمر عبدالله بن مسعود وأنس بن مالك وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم ومجاهد وإبراهيم، وقد أجمع المسلمون عليه ولا يعتدّ بخلاف من خالف فيه لشذوذه؛ لأنّ القول به اشتهر بين الصحابة، فلم ينكره أحد، فدلّ على صحّته وأنّهم أجمعوا عليه، فخالف من خالف في ما بعد لا يلتفت إليه»^٢. وفي «تفسير القمي»: «وقوله: «وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» فَإِنَّ قَرِيصًا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٥٥.

٢. التبيان في تفسير القرآن ٩: ٤٤٣.

أن يريهم آية، فدعا الله فانشق القمر بنصفين حتى نظروا إليه، ثم التأم فقالوا هذا سحر مستمر أي صحيح»^١.

وفيه أيضاً: حدثنا حبيب بن الحسن بن أبان الآجري قال: حدثني محمد بن هشام، عن محمد، قال حدثني يونس قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «اجتمعوا أربعة عشر رجلاً أصحاب العقبة ليلة أربع عشرة من ذي الحجة، فقالوا للنبي ﷺ: ما من نبي إلا وله آية فما آيتك في ليلتك هذه؟ فقال النبي ﷺ: ما الذي تريدون؟ فقالوا: إن يكن لك عند ربك قدر فأمر القمر أن ينقطع قطعتين، فهبط جبرئيل عليه السلام وقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: إني قد أمرت كل شيء بطاعتك، فرفع رأسه فأمر القمر أن ينقطع قطعتين، فانقطع قطعتين، فسجد النبي ﷺ شكراً لله وسجد شيعتنا، ثم رفع النبي ﷺ رأسه ورفعوا رؤوسهم، ثم قالوا يعود كما كان فعاد كما كان، ثم قالوا ينشق رأسه فأمره فانشق فسجد النبي ﷺ شكراً لله وسجد شيعتنا، فقالوا يا محمد حين تقدم سفارنا من الشام واليمن فنسألك ما رأوا في هذه الليلة، فإن يكونوا رأوا مثل ما رأينا علمنا أنه من ربك وإن لم يروا مثل ما رأينا علمنا أنه سحر سحرتنا به، فأنزل الله **﴿اَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾** إلى آخر السورة»^٢.

وروى الشيخ الطوسي رحمته الله في «الأمالي» بسنده عن علي عليه السلام قال: «انشق القمر بمكة فلقطين، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا، اشهدوا بهذا»^٣.

وفي «مجمع البيان»: «قال ابن عباس اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم. وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا،

١. تفسير القمي ٢: ٣٤٠.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٤١.

٣. الأمالي (الطوسي): ٣٤١.

فانشق القمر فرقتين ورسول الله ينادي: يا فلان يا فلان اشهدوا.

وقال ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال لنا رسول الله ﷺ اشهدوا اشهدوا.

وروي أيضاً عن ابن مسعود أنه قال: والذي نفسي بيده لقد رأيت حراء بين فلقي القمر.

وعن جبير بن مطعم، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقال ناس: سحرنا محمد فقال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم.

وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود وأنس بن مالك وحذيفة بن اليمان وابن عمر وابن عباس وجبير بن مطعم وعبدالله بن عمر وعليه جماعة المفسرين إلا ما روي عن عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال معناه وسينشق القمر، وروي ذلك عن الحسن وأنكره أيضاً البلخي. وهذا لا يصح؛ لأن المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه ولأن شهرته بين الصحابة يمنع من القول بخلافه»^١.

وفي «مناقب ابن شهر آشوب»: «أجمع المفسرون والمحدثون سوى عطاء والحسن والبلخي، في قوله تعالى: ﴿افْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أنه اجتمع المشركون ليلة بدر إلى النبي ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين. فقال ﷺ: إن فعلت تؤمنون؟ قالوا: نعم. فأشار إليه بإصبعه، فانشق شقتين رئي حراء بين فلقيه، وفي رواية: نصفاً على أبي قبيس، ونصفاً على قعقعان، وفي

رواية: نصفاً على الصفا، ونصفاً على المروة.

فقال ﷺ: اشهدوا اشهدوا. فقال ناس: سحرنا محمد. فقال رجل: إن كان سحر كم فلم يسحر الناس كلهم وكان ذلك قبل الهجرة، وبقي قدر ما بين العصر إلى الليل وهم ينظرون إليه، ويقولون: هذا سحر مستمر. فنزل ﴿وإن يروا آية يَعْزُبُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ الآيات.

وفي رواية: أنه قدم السفار من كل وجه، فما من أحد قدم إلا أخبرهم أنهم رأوا مثل ما رأوا.^١

هذا كل ما ورد من روايات الشيعة وروى الحضيبي أو الخصبي رواية مطولة فيها غرائب كثيرة لم أنقلها لعدم الوثوق بمذهب الرجل ولم أجد رواية في الكتب الحديثية المعتبرة حول ذلك، وهذه الروايات ضعيفة ومرسلة ويظهر من عبارة الشيخ الطوسي والطبرسي أنهما استندا إلى روايات العامة.

ومن الغريب بعد ذلك ما ورد في «الميزان» حيث قال: «أقول: ورد انشقاق القمر لرسول الله ﷺ في روايات الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام كثيراً وقد تسلمه محدثوهم والعلماء من غير توقف».^٢

نعم روت العامة في ذلك روايات كثيرة في صحاحهم وتفاسيرهم. ولم يختلف المفسرون القدامى منهم في ذلك إلا ما تقدّم نقله من «التبيان» و«مجمع البيان» وغيرهما، كما أنّ بعض المتأخرين منهم شككوا في الأمر مع أنّ القصة منقولة في الصحاح، وقيل: إنّ الروايات فيه متواترة وإن كان التواتر في جميع

١. مناقب آل أبي طالب ١: ١٠٦.

٢. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٥٩.

الطبقات غير ثابت، بل الثابت خلافه خصوصاً في طبقة الصحابة ولكن يكفيهم وروده في الصحاح.

ومهما كان، فالصحيح أن القضية ثابتة وهي من معجزات الرسول ﷺ والدليل عليه هذه الآية الكريمة - على ما نوضحه إن شاء الله تعالى - وقد استند النافون إلى وجوه من الاعتراض نعرض لها في ما يلي ونقتصر على المهم منها: الاعتراض الأول: أن هناك آيات تدل على أن الله تعالى لا يرسل آية معجزة لتأييد رسالة الرسول ﷺ خلافاً لمن سبق من الرسل.

وهذا الأمر مما يصر عليه جمع من الكتاب الإسلاميين الجدد وينكرون على أساسه كل ما يروى من معجزات صدرت على يد الرسول ﷺ. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾^١ وبقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِهَاً تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَاباً تُفَرِّقُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً﴾^٢.

والصحيح أنه لا يمكن إنكار معجزات الرسول ﷺ فإن بعضها ورد في القرآن الكريم بصراحة كالإسراء حيث أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والقصّة معروفة، ومنها إخباره عن المغيّبات وموارده كثيرة جداً

١. الإسراء (١٧): ٥٩.

٢. الإسراء (١٧): ٩٠ - ٩٣.

وقد جمعت في كتاب «الأحاديث الغيبية» الجزء الأول.

ومنها استجابة دعواته وهو ممّا اعترف به المشركون أيضاً وكانوا يخافون من ذلك وقد مرّ في تفسير سورة النجم قصّة عتبة بن أبي لهب ودعاء الرسول ﷺ عليه بأن يرسل الله عليه كلباً من كلابه وخوف أبيه عليه وافتراس الأسد له. ومنها شفاء المرضى على يده وهو أيضاً كثير وممّا اشتهر منه شفاء أمير المؤمنين عليه السلام عن رمد في عينه يوم خيبر وأنه لم يجد ألماً في عينه بعد ذلك أبداً.

ومنها الاستسقاء به في الإسلام والجاهلية وشعر أبي طالب عليه السلام في ذلك معروف.

ومنها أنّ الأرضة أكلت صحيفة قريش في الكعبة إلا جملة «باسمك اللهم». ومنها ما ظهر في اختفائه في الغار من نسيج العنكبوت وبيض الحمام. ومنها إشباع الناس وإرواؤهم بطعام قليل وماء قليل وذلك في الحروب وغيرها، وممّا اشتهر من ذلك إشباعه المشركين يوم الإنذار من طعام قليل وإرواؤهم من ماء قليل، وكذلك قصّة ضيافة جابر لأصحاب الخندق.

ومنها الخبر المذكور في «نهج البلاغة» حيث قال عليه السلام:

«وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ لَمَّا آتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ أَبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِيكَ وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ: وَمَا تَسْأَلُون؟ قَالُوا: تَدْعُونَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْفَلِحَ بِمُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ أَنْتُمْ مُنُونٌ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ

أَتُكْم لَا تَقِيْتُونَ إِلَى خَيْرٍ وَإِنْ فِىكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِى الْقَلْبِ وَمَنْ يُجْزَبِ الْأَخْرَابِ. ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّ رَسُولُ اللَّهِ فَانْقَلِعِي بِعُرْوِكِ حَتَّى تَقْفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَوَالَّذِى بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَا نَقْلَعَتْ بِعُرْوَقِهَا وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ وَقَصَفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ حَتَّى وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ مُرْفَرَفَةً وَأَلْقَتْ بِغُضُنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عُلُوءًا وَاسْتِكْبَارًا: فَمَرَهَا فَلْيَاثُكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدُّ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ. فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُوًّا: فَمَرَّ هَذَا النِّصْفَ فَلَيَزْجِعَ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ فَرَجَعَ. فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنِّ أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوَّلُ مَنْ أَقْرَبَ بَانَ الشَّجَرَةَ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقًا بِنُبُوءِكَ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السَّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ وَهْلٌ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلَ هَذَا؟ يَعْتُونَنِي»^١.

وغير ذلك وهو كثير. وقد ألفت في ذلك الكتب.

وهذه القصة منقولة في مصادر أخرى أيضاً بوجه آخر على ما أشار إليه بعض الشراح. قال ابن أبي الحديد في الشرح: «وأما أمر الشجرة التي دعاها رسول الله ﷺ فالحديث الوارد فيها كثير مستفيض قد ذكره المحدثون في كتبهم وذكره المتكلمون في معجزات الرسول ﷺ والأكثر من رواها الخبر فيها على الوضع الذي جاء في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام ومنهم من يروي ذلك مختصراً أنه دعا شجرة، فأقبلت تحداً إليه الأرض خدلاً، وقد ذكر البيهقي في «دلائل النبوة» حديث الشجرة ورواه أيضاً محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب

١. نهج البلاغة (صحي الصالح): ٣٧٧، الخطبة ١٩٢، المعروفة بالقاعدة.

«السيرة والمغازي» على وجه آخر.^١

وأما الآيات المشار إليها في كلام النافين لمعجزات الرسول ﷺ وغيرها مما يتوهم منه ذلك فإن بعضها يدل على أن الآيات إنما تنزل من الله تعالى وأن الرسول ﷺ بذاته لا يمكنه أن يأتي بآية كغيره من الرسل وإنما دورهم هو التبليغ والإنذار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^٢ وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^٣ وهذا حكم عام لجميع الرسل وهو واضح، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^٤ كما هو الحال في سائر الأمور.

وبعضها يدل على أن الله تعالى لا يرسل الآيات حسب اقتراح الناس رغبة بهم؛ لأن سنته تعالى في خلقه - على ما يبدو من بعض الآيات - أنه إذا أرسل الآية المقترحة ولم يؤمن الناس فإنه يعذبهم عذاباً شديداً، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^٥ وذلك بعد طلب عيسى عليه السلام المائدة بطلب من الحواريين، ولعل من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾^٦ إلى غير ذلك من الآيات.

١. شرح ابن أبي الحديد ١٣: ٢١٤.

٢. العنكبوت (٢٩): ٥٠.

٣. الأنعام (٦): ٣٥.

٤. الرعد (١٣): ٣٨.

٥. المائدة (٥): ١١٥.

٦. الأنعام (٦): ٨.

وبعضها يدل على أن الله تعالى لا يرسل الآيات؛ لأنهم لا يؤمنون بها فلا أثر لها، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^١ وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِالْبَيِّنَاتِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يُؤْمِنُونَ﴾^٢ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْبَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾^٣ ونحوها من الآيات.

ومن هنا يتبين الجواب عن ما استندوا إليه من آيات سورة الإسراء التي تتضمن طلبات خاصة من المشركين، فإنها من قبيل الآيات التي تدل على أن إرسال الآية لا يكون إلا من قبله تعالى حيث يأتيهم الرد في نهايتها: ﴿قُلْ شُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ فليس المراد بالآية أن الله تعالى لا يبعث بآية على يد الرسول الأكرم ﷺ بل المراد أن ذلك منوط بإذنه تعالى. ومن الواضح أنه لا يستجيب لكل طلب ويستحيل أن يستجيب الله تعالى لكل طلب من البشر حتى المؤمنين الصالحين، فكيف بالكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾^٤ بل إن طلبات الناس تتناقض غالباً أو دائماً، فيستحيل الجمع ذاتاً.

وأما الآية الأولى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، فالظاهر أن المراد بالآيات فيها

١. الأنعام (٦): ٧.

٢. الأنبياء (٢١): ٥ - ٦.

٣. الحجر (١٥): ١٤ - ١٥.

٤. المؤمنون (٢٣): ٧١.

هو الآيات المقترحة بقرينة وجود آيات كثيرة وأهمها القرآن، فلا يمكن أن يقصد بها في الآية مطلق الآيات.

والمراد بالمنع ما يمنع من اقتضاء الحكمة، فإنها تقتضي بالذات إرسال الآيات إلا أن تكذيب الأولين يمنع من تأثير هذا الاقتضاء، فما تقتضيه الحكمة في النهاية عدم الإرسال.

ولعل السبب أن القلوب متشابهة والآخرين يتبعونهم في ذلك، كما دلت عليه آيات كثيرة، فإذا كان المراد الآيات المقترحة فإن تكذيبها ربما يستوجب نزول عذاب الاستئصال، والله تعالى يريد أن يمهل الناس.

ويؤيد هذا الاحتمال الاستشهاد بتكذيب ثمود للناقة وهي كانت آية مقترحة على ما في الروايات وإن لم يثبت ذلك، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وعليه فقله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ بمعنى أن الآيات إذا استوجبت نزول الهلاك فلا يبقى مورد للتخويف، فالحكمة تنافي ذلك.

ويمكن أن يكون المراد بهذه الآية نفي الإرسال لعدم ترتب الفائدة المرجوة منه، كما مرّ وهذا الأمر لا يقتضي عدم الإرسال مطلقاً وإنما هو حجة في مورد المطالبة بإرسال الآية، فيقال لهم إنكم لا تؤمنون كما لم يؤمن من قبلكم، ولا ينافي ذلك أن يرسل الله تعالى آيات لإتمام الحجة وليؤمن من ليس معانداً وهذا هو الجواب الفصل.

وعلى كل حال فالآية لا تنفي نزول الآيات بقول مطلق كما هو واضح؛ إذ القرآن بنفسه أعظم آية.

وربما يقال: إن هذه الآية، أي شق القمر من الآيات المقترحة حسب ما ورد

في الروايات، فإن كان المستفاد من الآيات أن الله تعالى لا يرسل الآيات المقترحة، فالحكم يشمل هذا المورد فيعود الإشكال.

ومن هنا اضطر بعض المفسرين إلى قبول الروايات لتواترها وعدم قبول ما تضمنته من الاقتراح، فقال: إن الآية وقعت ولكن لم يكن باقتراح المشركين ويمكن أن يقال: إنهم طلبوا آية فاختار الرسول ﷺ ذلك ليكون أعظم وقعاً في نفوسهم.

ولكن الظاهر أن هذا الحكم أيضاً ليس مطلقاً وليس كل آية مقترحة يستوجب إرسالها وتكذيب المقترحين لها نزول عذاب الاستئصال؛ إذ ليس هناك دليل يدل على هذا الحكم بقول مطلق، وإنما يستفاد ذلك من موارد خاصة فلعل هناك خصوصية في بعض الآيات تستوجب ذلك، بل ربما لا يختص الحكم بالمقترحات وإنما ينزل العذاب بنزول بعض الآيات وتكذيب الناس بعدها حتى لو لم تكن مقترحة، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾^١ فإن الأمم السالفة لم يكن هلاكها بأجمعها بسبب الآيات المقترحة، كما هو واضح.

ويدل على ذلك أن هناك في الروايات موارد عديدة من الآيات المقترحة جاء بها الرسول ﷺ ومنها ما ورد في الخطبة القاصعة في «نهج البلاغة» كما مر. الاعتراض الثاني: أن الحدث باعتبار كونه حدثاً غريباً ومهماً وكونه في السماء يتيح الفرصة لجمع كثير من الناس في الجزيرة العربية على الأقل أن يشاهدوه وبالنتيجة أن يتناقلوه فلا بد من أن يكون من المتواترات القطعيات التي

تسجّل في التواريخ، بل يعتبر تاريخاً بنفسه فيقال مثلاً سنة شقّ القمر كسائر الحوادث التي تعتبر تاريخاً كعام الفيل، بل هو أولى من هذا الحادث وغيره. بل كونه في السماء يستدعي أن يسجّل في المراصد العالمية وفي كتب التاريخ حتّى في خارج الجزيرة العربية.

ويمكن الجواب باحتمال قلة الحاضرين وغفلة الغالب من الناس عن ذلك، ومجرّد كونه في السماء لا يستدعي توجه عامّة الناس، فهو ليس له صوت يجلب الانتباه، والحادث لم يستمر طويلاً، بل عاد القمر إلى حالته الأصلية في وقت قصير، فغفلة عامّة الناس حتّى في نفس المكان ليس أمراً مستبعداً، كما أنّ غالب الناس لا ينتبهون للخسوف وبذلك يتبين الجواب عن سرّ عدم التسجيل في المراصد فإنّ الحدث لم يكن ظاهراً في مراكز وجود المراصد لاختلاف الأفق وقصر الوقت لو فرضت هناك مراصد في ذلك العهد.

الاعتراض الثالث: أنّه لو وقع ذلك لكان الأولى في جواب تحدي المشركين ومطالبتهم لآية أن يقال لهم قد جاءكم أعظم آية فكذبتم بها، وليس من المناسب حينئذ أن يجابوا بأنّ الآيات عند الله أو أنّ الرسول ﷺ بشر وليست الآيات تحت سلطته وقدرته أو أنّ الأولين كذبوا بالآيات فلا نستمرّ في إرسالها ونحو ذلك، ولم نجد في القرآن مورداً واحداً يقابلون فيه بالتنبيه على ذلك مع وضوح أنّه نقد وارد.

وليست هذه الآية كسائر المعجزات التي يمكن أن لا يراها إلا الجمع الحاضر كانتقال الشجرة، بل هذه آية يراها أكثر الناس فتتمّ بها الحجّة على الجميع. والجواب عن ذلك أولاً: أنّ هذه الآية والآية التالية معاً بصدد النقد والردّ

عليهم بهذا التحدي وبأنهم أعرضوا عن هذه الآية، فهذا هو المورد الواحد الذي تبحثون عنه.

وثانياً: بأن تاريخ نزول الآيات والسور غير قطعي، ولعلّ هذه الآية حدثت في أواخر العصر المكيّ للرسالة، كما ورد ذلك في بعض الروايات التي مرّ ذكرها وعليه فكلّ ما ورد من الآيات المذكورة تكون قبلها.

وثالثاً: بأنّ هذا الحدث ربّما لم يره كثير من الناس ولم يصدقوا ما حكى لهم أو تظاهروا بعدم التصديق - كما هو دأبهم - فطالبوا بآية أخرى. وهناك وجوه أخرى من الاعتراض ذكرها بعضهم وهي ضعيفة جداً لا يعتنى بها.

هذا كلّه في مقام الثبوت، وأمّا في مقام الإثبات فقد اتضح ممّا ذكرناه أنّ الروايات عند أهل السنّة صحيحة مستفيضة، فمن الغريب ما ينقل من بعضهم من النفي أو التردد، وأمّا عن طرقنا فلا يثبت بالروايات ولكن يكفي في إثبات ذلك الآية الكريمة، فإنّها ظاهرة كما قلنا في حكاية وقوع الحادث في الماضي، كما مرّ عن شيخ الطائفة رحمته الله

والنافون يقولون: إنّ المراد شقّ القمر يوم القيامة أو قبيله، فيكون من أشرار الساعة وأنّ الإتيان بفعل الماضي من جهة أنّه أمر مؤكد أو من جهة حكاية حال المستقبل، نظير قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^١ وكذلك ما قبلها وما بعدها من الآيات، ومثله كثير ممّا ينقل فيه حوادث يوم القيامة بصيغة الماضي.

ويمكن الجواب عن ذلك بوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن هذه الآية تختلف عن تلك الآيات، فالمقام هناك مقام ذكر حوادث يوم القيامة كآية سورة الزمر، لقوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم يأتي بعد ذلك التعبير بالماضي عما سيحدث في تلك المرحلة من مراحل الكون: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، ﴿وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ﴾، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر السورة ولكنه هنا يبدأ القول باقتراب الساعة وهو أي الاقتراب أمر حاضر وليس حكاية عن أمر مستقبل، فعطف انشقاق القمر بصيغة الماضي لا يناسب أن يكون من حوادث الساعة، بل من علاماتها التي تحققت بالفعل إيداناً باقترابها.

الوجه الثاني: أن المذكور في القرآن الكريم من تبدل حالة القمر عند تحقق الساعة هو الخسف، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾^١ وهو زوال نوره ويعلم من الآيات الكثيرة أن السماوات تتبدل، ومعناه أن هذا الكون الذي نجده بشموسه وأقماره وكواكبه يزول من أساسه، وهذا غير الانشقاق الذي يتحقق بانتصاف الكرة إلى فلقتين وهذه نقطة مهمّة وواضحة غفل عنها النافون والمثبتون.

الوجه الثالث: ما في «مجمع البيان» واختاره العلامة رحمته الله من الاستشهاد بالآية التالية: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ فإن تعقيب الآية بذلك يشهد على أنهم رأوا آية فأعرضوا وقالوا سحرٌ مستمر، ولا يمكن حمل ذلك على ما سيكون من حوادث يوم القيامة، فإنهم في ذلك اليوم لا ينكرون، بل يتبين الأمر

الواقع للجميع من دون خفاء. كما أنه لا يمكن حمل الآية في هذه الآية على آيات القرآن، فإنها آيات مسموعة وليست مرئية، فالتعبير يدل على أن هناك آية، بل آيات رأوها وأعرضوا عنها ومنها آية انشقاق القمر لتناسب التعقيب.

والنافون يقولون: إن الآية التالية لا تنظر إلى ما تضمنته الآية الأولى وإنما تنظر إلى موقف المشركين تجاه أي آية من آيات الله في الكون ويقولون: إنها لا تنظر إلى آيات فعلية حدثت وقوبلت بإعراضهم، بل المراد أن ذلك هو موقفهم تجاه أي آية يفرض أنهم رأوها.

أما موقفهم تجاه آيات الله تعالى في الكون فلا يمكن أن يكون هو المقصود بالآية الكريمة، لأنهم وإن أعرضوا عنها إلا أنهم لا يقولون فيها: إنه من السحر كما هو واضح.

وأما حمل الآية على أي آية تفرض فغريب جداً، فإن الله تعالى لا يوجه إليهم تهمة الإعراض. والقول بأنه سحر لمجرد افتراض أن يرسل إليهم آية ويعتبر ذلك عذراً لعدم الإرسال لولا أن ذلك صدر منهم كراراً وأنهم شاهدوا من الرسول ﷺ آيات عديدة خصوصاً بملاحظة التعبير بأنه سحر مستمر مما يدل على كثرة الآيات التي شاهدوها، فهذه الآية تدلّ بوضوح على ردّ ما زعموه من عدم إرسال الآية، كما تدلّ بوضوح على أن المراد بالانشقاق آية كونية شاهدوها وأعرضوا عنها.

ونحن بالنتيجة نكتفي في مقام الإثبات على ما تدلّ عليه الآيتان الكريمتان ويعتضد ذلك بالروايات المذكورة وليست هي المستند الأساس. والسبب في قلة نقل الحديث في كتبنا عدم اهتمام محدثينا بنقل روايات التفسير والتاريخ

والأدعية والزيارات، وعكوفهم على الاهتمام بالأحكام الشرعية، ولذلك نجد الاختلاف والغموض في كثير من شؤون تاريخ المعصومين عليه السلام حتى في مواليدهم ووفياتهم ويمكن أن يسند ذلك إلى تلف كثير من كتب أصحابنا بسبب الظلم الذي لحقهم من المتسلطين ومن عامة الجهلة والسفهاء وفي ذلك تاريخ حافل بالآسي.

﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، الآية: العلامة والمراد بها هنا علامة النبوة التي تدلّ على صدق دعوى الرسول ﷺ وقوله: ﴿آيَةً﴾ نكرة وظاهر التنكير أنهم يعرضون عند رؤية كل آية ويدلّ أيضاً على أنهم قد رأوا آيات عديدة في صحة دعوى الرسالة وأعرضوا عن كلها وادّعوا أنها من السحر.

والإتيان بالفعل المضارع يدلّ على أنهم مستمرّون في ذلك مهما طال الزمان وأنهم لا يتنبهون أبداً، فهم معاندون مستمرّون في عنادهم والسبب أنهم يعرفون الحق وقد عرفوه من أوّل بزوغه، لأنهم كانوا يعرفون الرسول ﷺ ويتقنون بصدق حديثه وأمانته، ولكنهم لم يؤمنوا برسالته عناداً واستكباراً، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلُوبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^١.

وقولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذا سحر مستمرّ بمعنى أن كلّ ما شاهدوه من آياته وعجائبه فهو من السحر، فالاستمرار بمعنى الدوام والاتصال، وهذا التعبير أيضاً يدلّ على أنهم رأوا آيات عديدة منه ﷺ.

وقيل: إن الاستمرار من مرّ الجبل إذا قتلته، فهو بمعنى الاستحكام والقوّة وسحر مستمرّ أي قويّ.

وقيل: إنه من مر الشيء إذا ذهب وزال فهم يقصدون أنه زائل وقيل غير ذلك. وقد مر الكلام في الاستشهاد بهذه الآية على أن المراد بانشقاق القمر ما تحقق في ذلك الزمان لا ما يتحقق عند الساعة.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾، أي كذبوا الرسول ﷺ أو كذبوا بالآيات والمعجزات واعتبروها سحراً، ولكن لم يكن تكذيبهم عن عدم اقتناع أو عدم تمامية الحجة والدليل، وإنما اتبعوا في ذلك أهواءهم ونحن نجد حولنا كثيراً من الناس ينكرون الحقّ عناداً واستكباراً في مواضع مختلفة وليس كلّها من العقائد الأساسية، بل حتى في معرفة الرجال سواء في عالم الدين أو السياسة أو غير ذلك.

والاستقرار بمعنى الثبات والأمر بمعنى الشيء، فالمعنى واضح وهو أن كل شيء له استقرار وثبات، ولكن ما هو المراد بهذه الجملة في هذا الموضع؟ الظاهر أن المراد بها أن كل شيء ثابت في موضعه الحقيقي ولا يضره التكذيب وسيظهر الحقّ للجميع يوماً ما ويندحر الباطل ويزول، ففي هذه الجملة تهديد لمن يتبع هواه وينكر الحقّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾^١. وقيل: إن المراد أن نبوته ﷺ وكل أمر يتعلق به مستقر ثابت لا يزول، والغرض من ذلك أن يئأس المشركون من أن ينالوا من أمره شيئاً.

وقيل: إن كل شيء في الكون ثابت في محله وموضعه إلا البشر الذي لا يؤمن بالله تعالى، فإنه يتخط ويتبع هواه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وهذا تهديد صريح وهو يؤيد القول

الأول من الأقوال في الآية السابقة.

والأنباء أي الأخبار، كما في كتب اللغة ولكنّ العسكري في «الفروق» خصّه بخبر لا يعلم به السامع. والمراد أخبار الأمم السالفة.

والمزدرج مصدر ميمي من الازدجار، والأصل فيه الازتجار افتعال من الزجر أبذل التاء دالاً لتناسب الزاي. والافتعال هنا بمعنى المجرد، أي الزجر وهو المنع، أي قد جاءهم ما يكفي للمنع من متابعة الأهواء من أخبار الأمم السالفة في القرآن وفي ما قبله من الكتب وفي ما سمعوه من أحاديث الماضين، بل شاهدوا آثارهم، بل كان فيهم من شهد بعضها كقصّة أصحاب الفيل. ويمكن أن يراد بالأنباء ما يشمل أنباء يوم القيامة.

﴿حِكْمَةٌ بِاللِّغَةِ﴾، ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدل عن ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُذَجَّرٌ﴾ فالذي جاءهم حكمة بالغة، والحكمة في الأصل المنع، والحكيم من يمتنع من فعل كلّ ما لا يليق به، والمراد بها هنا الكلام الذي يمنع الإنسان من متابعة الهوى.

والبلوغ الوصول وهو في كلّ موضع بمعنى الوصول إلى حدّ خاصّ وهنا كناية عن وصول الحكمة غاية كمالها في التأثير، فهو كلام الله سبحانه وهو الخبير بما يناسب المخاطب، فإذا أتى بحكمة لثمنعه من عمل فما يقوله غاية ما يمكن أن يقال ولا يمكن أن يزداد عليه أو ينقص منه.

﴿فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ﴾ الإغناء: الكفاية أي ما تكفيهم النذر و«ما» يمكن أن تكون نافية أو استفهامية للإنكار، أي ما الذي تكفيه النذر؟!

والنذر: جمع نذير بمعنى المنذر أو بمعنى الإنذار وهو على الثاني اسم للمصدر، أي الإنذار بمعنى الإعلام والإبلاغ في خصوص ما يشتمل على تخوف

فهو بمعنى التخويف.

والفاء في صدر الجملة للترتيب، أي إذا لم تؤثر فيهم الحكمة البالغة التي أتتهم من الله تعالى فكيف يكفيهم المندرون، أي الرسل أو لا يكفونهم شيئاً أو لا يكفيهم غير القرآن أي شيء يشتمل على الإنذار.

والغرض من هذه الآية أن يأس الرسول ﷺ من هداية القوم ويناسب ذلك ما مر من أن السورة من أواخر ما نزل في العهد المكي.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾. الفاء للترتيب أيضاً، أي أعرض عنهم بعد أن تبين أنهم لا يهتدون ولا تؤثر فيهم الحكمة البالغة التي أنزلها الله تعالى، فانت لا تغني عنهم شيئاً ولا تؤثر فيهم أبداً. وفي هذا التعبير تهديد ووعد واضح ويقتضي انتظار ما يبين موعد هذا التهديد.

وجملة ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ مستأنفة بتقدير اذكر أو انتظر ذلك اليوم، وهذه الجملة تشير إلى ذلك الموعد ولا يمكن أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفاً لقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ كما هو واضح.

والمراد بالداعي، قيل: هو الملك الذي يدعوهم إلى القيام بإذن الله وهو المراد بالمانادي في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾^١ فقيل: هو جبرئيل عليه السلام وقيل: هو اسرافيل عليه السلام.

والصحيح أن المراد بالداعي هو الله سبحانه لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٢ وأيضاً قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ

١. ق (٥٠): ٤١.

٢. الإسراء (١٧): ٥٢.

الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ^١.

والنُّكْرُ وصف لقوله: ﴿مَيِّءٌ﴾ وهو مبهم، وقُلْتُ في الأوصاف هذه الصيغة ومعناه الأمر الفظيع الذي تنكره النفوس، أي لم تعهد مثله، فالأهوال يوم القيامة لا تشبه ما نجده في الدنيا. ولعلَّ ما نراه أو نسمع به في الدنيا من الزلازل وفوران البراكين والصواعق ونحوها أحدثها الله تعالى في الطبيعة لتقريب ذلك الأمر المنكر إلى الأذهان تخويفاً وانذاراً ولذلك سميت بالآيات، أي علامات يوم القيامة وليست شبيهة لها تماماً، قال تعالى: ﴿إِنَّ زُلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ^٢﴾.

﴿خُشْعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَشِيرٌ﴾. خَشَع: جمع خاشع وهو حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ و﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ فاعله، أي يخرجون من الأجداث خاشعة أبصارهم.

والخشوع بمعنى الذلّ وهو صفة للنفس ولكنه يظهر بوضوح في العين إذا تعمق في الإنسان الإحساس بالمدلّة والحقارة.

والأجداث جمع جدث بفتحيتين أي القبر. وتشبيههم بالجراد المنتشر بلحاظ كثرتهم وتموجهم أو بلحاظ عدم اتزانهم في الحركة، فإنَّ أسراب الجراد تتحرك باختلال لا تتجه إلى جهة محدّدة وأكّد على هذه الحالة بتوصيفها بالانتشار.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، ﴿مُهْطِعِينَ﴾ حال آخر من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ وهو بمعنى مسرعين أو ماذنين أعناقهم أو مسمرين أحداقهم، وبكلّ

١. الروم (٣٠): ٢٥.

٢. الحج (٢٢): ١.

ذلك فسّرت الكلمة في اللغة، وكلّ ذلك من علامات المذلّة والخشوع، ولكن قوله: ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ يناسب الإسراع. وقد مرّ أن الداعي هو الله تعالى. وجملة: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ استينافية تبين حالهم أيضاً.

ولعلّ التصريح بالفاعل من دون ذكر الضمير مع أنّ الكلام خاصّ بهم للتأكيد على إبعاد المؤمنين عن هذه الحالات، ولكن عنوان الكافر يوم القيامة ربما يشمل كثيراً ممّن يدعون مسلمين أو مؤمنين، كمن ترك الصلاة أو الحجّ وغير ذلك.

والتوصيف بالعسر خاصّ بيوم السؤال والمحاسبة، وأمّا العذاب فلا يعبر عنه بالعسر، فإنّ العسر بمعنى المشقّة. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^١.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ فَقَدَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرَ ﴿٢﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ ﴿٣﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿٤﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ ﴿٥﴾ فَخَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٩﴾ ﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ من هنا يبدأ ذكر نماذج من الأمم السالفة تفصيلاً لما أجمل سابقاً بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وأولهم في من ذكرهم القرآن قوم نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، أي قبل كفار مكة لتطبيق المثل عليهم، فيكون تهديداً لهم وتسلياً للرسول ﷺ وللمؤمنين عامة.

والظاهر أن المراد بالكذب الأول تكذيبهم لآيات الله ولرسالات السماء ليوافق تكذيب مشركي مكة، فإنهم لم يكذبوا نوحاً عليه السلام بصراحة.

ولا يتوقف تكذيب قوم نوح لرسالات السماء على وجود رسالات سابقة، بل هو نتيجة تكذيبهم لرسالة نوح عليه السلام؛ لأن الرسالات كلها واحدة.

إنما الكلام في أنه تعالى فرّع تكذيبهم لنوح على تكذيبهم لآيات الله ورسالاته مع أن تكذيبهم لنوح متقدم زماناً على تكذيب الآيات. والسبب في ذلك أن تكذيب الرسل ناشئ من تكذيب آيات الله من حيث مبادئ التكذيب والكفر في نفوس القوم ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا

يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ^١.

والتعبير عنه ﷺ بعدنا لتكريمه وتعظيمه واختصاصه بالله تعالى وللإشارة إلى أن تكذيبهم لم يكن لجهة شخصية، بل كان الرسل قبل أداء الرسالة موضع تقدير واحترام في مجتمعهم لما كانوا يرونه فيهم من صدق الحديث والأمانة والتواضع والعطف على عامة الناس، فالتكذيب إنما كان لجهة عبوديته لله تعالى وأداء رسالته، كما هو واضح من سيرة الرسول ﷺ وموقف المشركين منه.

﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾، أي لم يكتفوا بتكذيبهم إياه، بل سخروا به واستضعفوه واتهموه بالجنون وهم بالطبع يعلمون أنه في غاية الحكمة وأن عقله يفوق العقول، وإنما كان كبراء القوم في كل الأدوار يتهمون الرسل بذلك ليعبدوا عنهم الشباب الناشئ وعامة الناس إبقاءً لسلطتهم ونفوذهم.

والازدجار افتعال من الزجر أي المنع وهنا بمعنى المنع نفسه وكثيراً ما تأتي صيغة الافتعال بمعنى المجرد.

ومهما كان فالظاهر أنه عطف على ﴿وَقَالُوا﴾، أي إنهم كذبوه واتهموه بالجنون وازدجروه، أي منعه من إبلاغ رسالته حيث هدّوه بالرجم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ^٢﴾.

ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله: ﴿مَجْنُونٌ﴾ ومقولاً للكفار، فمعناه على ما قيل: إن نوحاً مزدجر من قبل الجن حيث كانوا يعتقدون أن الجن يتسلط على الإنسان ويدير شؤونه ويمنعه من أمور ويبعثه إلى أمور دون أن يشعر بهم

١. الأنعام (٦): ٣٣.

٢. الشعراء (٢٦): ١١٦.

وبتأثيرهم. والغرض من هذه التهمة أنّ ما يقوله ليس من الوحي الإلهي، بل هو بزجر وبعث من الشياطين.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ لاشكّ أنّه ﷺ لم يبادر إلى الدعاء عليهم بمجرد التكذيب والاتهام والمنع، بل استمرّ في تبليغه تسعمائة وخمسين عاماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^١ وتحمل منهم كلّ أذى إلى أن ينس منهم، بل أتاه الوحي يؤيسه. قال تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^٢ وحينئذ توجه إلى ربه بالدعاء عليهم، وتفصيله مذكور في سورة نوح وأجمله السياق هنا فعّل الدعاء بأنّه مغلوب مع أنّه ﷺ قاهر في حجّته إلا أنّهم غلبوه في عنادهم ومكرهم ومنعهم لاستمرار رسالته، ثمّ طلب من الله الانتصار.

وقد وقع الكلام في أنّه لماذا عبّر بالانتصار وهو بمعنى طلب النصر والمفروض أن يطلب النصر من الله تعالى لا أن يطلب منه طلب النصر وهو تعالى لا يطلب النصر من أحد إلا على سبيل المجاز، فقال بعضهم كالراغب بأنّ الوجه فيه أنّه اعتبر اعتدائهم عليه اعتداءً على دين الله تعالى، فطلب منه تعالى أن ينتصر لنفسه. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ائْتَصَرَ بِغَدِ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾^٣ ولكن هذا الوجه لا يرفع الإشكال، إذ أنّه يبقى معنى الانتصار طلب النصر والله تعالى لا يطلب النصر من أحد في الانتقام من الأعداء.

١. العنكبوت (٢٩): ١٤.

٢. هود (١١): ٣٦.

٣. الشورى (٤٢): ٤١.

وقال بعضهم: إن معناه فانتقم، وأن الآية المذكورة أيضاً بهذا المعنى وهذا جيد.

ولعل الوجه في التعبير عن الانتقام بالانتصار، لأنه غالباً لا يتم إلا مع الانتصار من الناس أو القانون أو الشرع أو العشيرة حسبما يقتضيه الوضع الاجتماعي، فيكون بذلك قد اكتسب اللفظ معنى الانتقام وإن لم يكن في بعض الموارد متوقفاً على الانتصار عملياً، كما في انتقام الله سبحانه. ومن أمثال العرب «حرّ انتصر لنفسه».

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾. الانهمار: هو الانصباب بغزارة وهذا تعبير بليغ عن شدة المطر، فهو يصور السماء كسدّ توقّف خلفه ماء كثير، ففتح الله أبوابها وانصب الماء كالسيل.

والباء للסיببية وكأنّ الماء سبب لفتح السماء وهذا التعبير أيضاً يقرب المعنى المذكور، أي كون الماء متجمعا مجبوساً خلف السدّ.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. الأصل في الجملة وفجّرنا عيون الأرض ولكنّ التعبير يصور الأرض كلّها عيوناً حيث أتى بكلمة: «عُيُونًا» على وجه التمييز ليكون المعنى: وفجّرنا الأرض وجعلناها أي الأرض عيوناً وكأنّه ليس على وجه البسيطة إلا عيون الماء الفوّارة المتفجّرة، فالتقى ماء السماء بماء الأرض وكأنّهما على ميعاد لقاء ليغطي كلّ وجه الأرض بما فيها الجبال.

وحيث كان الماء جنساً واحداً لم يقل «الماءان» وإن قرئ ذلك في بعض ما يحكى من القراءات.

والتقيا على أمر قد قدر، أي قدر وحوسبت كلّ جوانبه وهو العذاب العامّ

الشامل، فلم يبق على وجه الأرض أحد إلا من شملته سفينة الرحمة.
والتقاء الماءين على هذا الأمر المقدّر يعني أنّهما متفقان على تنفيذ ما أمرا به
وقدّرا له وهو إغراق الظالمين.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾، المراد بها السفينة وقد حمل فيها سيّدنا نوح عليه السلام
ومن آمن معه ومن كلّ حيوان زوجين اثنين، والظاهر أنّ المراد به كلّ حيوان
اليف يحتاج إليه الإنسان على ما سنذكره إن شاء الله تعالى في تفسير سورة نوح.
ولكنّه هنا لم يذكر ذلك وإنّما ذكر حمل نوح فيها فحسب، والسبب أنّه هو
المقصود بالذات؛ لأنّه هو الداعي بأنّه مقهور مغلوب وهو المستنصر، فكلّ هذا
الغضب العارم والأمر الصارم الذي هيّج الطبيعة فوقاً وتحتاً إنّما كان من أجله عليه السلام
كما صرّح به في الآية التالية.

والدسر فيه احتمالان: الأول: أن يكون بمعنى المسامير وهو جمع دسار بكسر
الدال، والأصل فيه الدفع بقوة وبهذا الاعتبار أطلق على المسمار، لأنّه يدفع في
الخشب ونحوه بقوة.

والثاني: أن يكون بمعنى الحبال التي يوثق بها مقدّم السفينة.
وعلى كلّ حال فالظاهر أنّ الآية تنبّه على أنّ الله تعالى حيث شاء إنقاذهم من
هذا العذاب العظيم حملهم في سفينة خشبية في غاية البساطة مصنوعة من ألواح
ومسامير أو حبال ودفع بهم في خضمّ هذه الأمواج الهائلة إلا أنّهم نجوا، لأنّها
كانت تجري بعين الله تعالى، كما ورد في الآية الكريمة.

والحاصل أنّ الآية في مقام التقليل من شأن السفينة في حدّ ذاتها بالنظر إلى
الوضع السائد على الأرض آنذاك بسبب الطوفان الهائل والسيل العارم، وأنّ الذي

حفظ السفينة وأهلها هو الله تعالى بلطفه وعنايته.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ لاشك أن كل شيء تجري وتحرك بأمر الله تعالى وإذنه وتحت إشرافه وإدارته، فهو رب كل شيء ولكن المراد هنا بيان عناية خاصة شملت هذه السفينة، كما أن صنعها أيضاً كان تحت عنايته وبوحيه، قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ولعلّ الإتيان بصيغة الجمع أي قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ للتأكيد على مزيد من العناية أو من جهة أنها كانت محفوظة من كل خطر فتعدّد العين بلحاظ تعدد الخطر.

وقوله: ﴿جَزَاءً﴾ مفعول لأجله، أي إن الحمل والإنقاذ كان من أجل أن نجازي نوحاً ﷺ وهذا تعليل لكون الهدف إنقاذه خاصة المستفاد من قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ وأن غيره ممن نجا إنما كان ببركته ﷺ وذلك لأنه كان كُفراً أي أنكرت رسالته وستر فضله ولم يعرف الناس قدره طيلة القرون المتמادية التي ظلّ بينهم.

ويظهر منه أهمية هذا الأمر في حدّ ذاته حتّى لو لم يتحمّل الرسول أو الولي أذى جسمياً، فإنّ عدم معرفة الناس بقدره وجلالته وقربه لدى الله تعالى وأنه مصدر البركات لقومه من أعظم المصائب التي ابتلي بها الأنبياء والأئمة المعصومون ﷺ وأنه من أعظم ما يستوجب غضب الله تعالى.

ولعلّ ما روي عن الرسول ﷺ من قوله: «ما أُوذي نبي مثل ما أُوذي»^١ يشير إلى أنّه أُوذي من هذه الجهة حتّى من قبل أصحابه والمؤمنين به، فكانوا غالباً لا يعرفون قدره ولا يكرمونه كما هو حقّه، كما صرح بذلك في آيات سورة

١. هود (١١): ٣٧.

٢. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة ٢: ٥٣٧.

الحجرات والأحزاب، بل أُوذِيَ حَتَّى مِنْ أُسْرَتِهِ، كما ورد في الروايات وأُشْرِنَا إليه في تفسير سورة الأحزاب، وكما ورد في سورة التحريم.

ووصل بهم الأمر إلى أَنَّهُمْ لم يراعوا مرضه الذي توفِّي به وهم يرون أَنَّهُ مفارقهم، فاتَّهَمُوهُ بالهجر، ثُمَّ اختلفوا في ما بينهم حَتَّى ضاقَ بِهِمْ ذرعاً وأخرجهم. وبإلها من مصيبة!!! فلولا أَنَّهُ ﷺ كان رحمة للعالمين لدعا عليهم كما دعا نوح ﷺ ولأصابهم مثل ما أصاب الأمم السالفة من العذاب.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾. ظاهر العبارة أَن السفينة تركت لسائر الأمم آية وعلاية على ما مرَّ على تلك الأمة من العذاب الإلهي وَأَنَّ الله تعالى أنقذ رسوله والمؤمنين بتلك السفينة، وقيل: إِنَّ بقاياها كانت مشهودة إلى عهد الرسول ﷺ أو ما يقاربه، فالقوم إمَّا رأوها أو سمعوا بمن رآها، بل يقال: إِنَّ آثاراً منها باقية حَتَّى الْآنَ ويسمع بين الفينة والأخرى بما يدعى أَنَّهُ من آثارها، ولكن شيئاً من ذلك لم يثبت وإن لم يثبت أيضاً خلافه، فحمل الآية على ظاهرها لا مانع منه.

ولكنَّ المفسرين حيث استبعدوا ذلك أو لم يجدوا في كتب التاريخ ما يدلُّ على بقاء آثارها أو لولا الآية بأنَّ الضمير يعود إلى القصة أو الحادثة. وهو بعيد جداً من التعبير بالترك وإسناده إلى الله تعالى كما هو واضح.

وقيل: إِنَّ المراد بذلك خلق مشابهاة ليتنفع بها الناس وتكون آية لهم تذكُّرهم بأوَّل سفينة صنعت على وجه الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ هُمْ أَنَا حَمَلْنَا دُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا هُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾^١ وقد ذكرنا في تفسيرها

أنّ الصحيح ما ذكره بعض الأقدمين من أنّ المراد بالفلك المشحون سفينة نوح عليه السلام. ولكنّ التعبير عن خلق المماثل بالترك بعيد أيضاً.

والمذكّر أي المتذكّر، أبدلت التاء والذال دالاً وادغمتا في بعض والاستفهام للتخفيض والحثّ والدعوة إلى التذكّر والاتعاظ.

ويمكن أن يكون إنكارياً وعليه فتكير اللفظ يدلّ على أنّه ليس في الناس من يتذكّر ويتعظّ بآيات الله البيّنات حتّى واحداً. والمراد أنّهم قليل جداً بالنسبة إلى الطائشين، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين بحيث يصحّ النفي، بل إنّ المتذكّرين كمال التذكّر نادر جداً بين المؤمنين أيضاً بحيث يلحق بالمعدوم، فإنّ أكثر المؤمنين المتأثرين بآيات الله تعالى إنّما يعملون الصالحات رجاء نيل الثواب لا للتقرّب إليه وتحصيل رضاه، بل أكثرهم يكتفي برجاء البعد عن العقاب المحتمل وليس متيقناً، بل ما يشاهد من عامّة الناس هو توقّع المصالح الدنيويّة فقط، فتجد أكثر الناس يتصدّق ويزكّي ويدفع الخمس رجاء البركة في ماله أو دفع البلاء عنه.

ولذلك أيضاً نجد أنّ أكثر الناس، بل الغالب القريب من الشامل إذا ابتلي ببلاء الدنيا مع أنّه يعمل الصالحات كفر، إمّا بالقول وإمّا بالعمل؛ لأنّه لم يصل إلى هدفه المنشود، فهو لا يقصد إلا ثواب الدنيا ولا يقصد ثواب الآخرة فضلاً عن نيل رضا الله تعالى والتقرّب إليه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ تكرر في هذه السورة هذا التنبيه والآية التالية بعد الإشارة إلى كلّ أمة من الأمم السالفة التي جرى ذكرها ليتبيّن بذلك الغرض من ذكرهم، فالله تعالى لا يحكي قصصهم للتسلية، كما هو دأب القصّاصين ولا لما

يقصده المؤرخون، بل لتكون عبرة للمتأخرين وليتجنبوا ما وقعت فيه تلك الأمم من الخطأ في مواجهة الرسالات.

وقوله: ﴿نَذِرْ﴾ بكسر الراء ليدلّ على الياء المحذوفة، أي نذري وهو - كما مرّ - جمع نذير وهو اسم مصدر بمعنى الإنذار. والظاهر أنّه عطف تفسير على ﴿عَذَابِي﴾، فالمراد بالندر نفس ما وقع على الأمم من العذاب، فيكون إنذاراً للأمم المتأخرة. والاستفهام لإنشاء التعجب أو كما قالوا: للتعجب، أي إنّ العذاب الذي كان به الإنذار كان فوق ما يتصوره ويتوقّعه المشركون.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾. التيسير: التسهيل أي سهّلنا فهم القرآن لعامة الناس لكي يتذكروا. وحقاً إنّ معاني القرآن الكريم صعبة المنال، بل يستحيل للبشر أن يصل إليها بنفسه، فهي معان غيبية لا يدركها البشر ولكن الله تعالى للطفه بعباده يسّر تلك المعاني وسهّل الوصول إليها بصياغتها في كلام فصيح عربي يتبيّن ظاهره بالمقدار الكافي للتذكّر والانتباه لكلّ من يعرف اللغة العربية من دون تدقيق وتأمل.

وكلّما تأمل فيه العارفون وغاروا في أعماقه وصلوا إلى بحار لا تنتهي عجائبها، وذلك لا يمنع من تذكّر عامة الناس بالقراءة الميسّرة.

والذكر خلاف النسيان والظاهر أنّ المراد تذكّر العهد والميثاق الإلهي وقد تكرر في القرآن الكريم التأكيد على هذا الامر.

والميثاق هو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ

هَذَا غَافِلِينَ^١ وهذا الميثاق راسخ في النفس البشرية بالفطرة إلا أن التوَعَّل في الشؤون المادّية ينسي الإنسان فطرته، فلا بدّ له من مذكّر وقد مرّ الكلام حول الجملة الأخيرة.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ عاد من الأقسام القديمة جداً وكانوا يسكنون الجزيرة العربية وقد مرّ ذكرهم في سورة الأحقاف. والظاهر أنّ مساكنهم كانت بين اليمن وعمان. والمخاطبون بالقرآن كانوا يعرفونهم ويتناقلون أخبارهم ومن تعابيرهم تسمية كلّ قديم بالعادي نسبة إلى هذا القوم وفي الحديث: «عاديّ الأرض لله ولرسوله»^١ وقد أرسل الله تعالى إليهم هوداً عليه السلام وقد تكرر ذكر قصّتهم في القرآن ولكنّه هنا أشار إليها إشارة إجمالية للتأكيد على عدم تذكّر القوم من ذكر هذه الأقسام وعدم اعتبارهم بما حدث لهم، ولذلك لم يذكر اسم الرسول. وإنّما المهمّ أنّهم كذبوا رسولهم فانظروا كيف كان عذابي ونذري واعتبروا بها.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ هذا تفصيل بعد إجمال القول في الجملة السابقة. والصرصر: الريح شديدة الهبوب مأخوذ من الصرّة بمعنى الضجة والصوت الشديد، وكلّ ما كان من هذا القليل يدلّ على التكرار نحو دمدم تكرر دمّ بمعنى سوّى، فكأنّ المباني سوّيت عليهم مكرراً حتّى صارت أرضاً مستوية ولذلك جاء بعدها «فسواها». ونحو زلزل تكرر زلّ أي انحرف عن مكانه، وكبكبوا تكرر كبّ أي أسقط وغير ذلك.

وقيل: الريح الصرصر شديدة البرد، فإن كانت بهذا المعنى فهو من باب الإبدال نظير جفجف بمعنى جفّف، فإنّ أصله الصرّ وهو شدة البرد والأوّل أولى. والنحس بسكون الحاء أو كسره صفة مشبهة من النحوسة وهي ضد السعادة، ومعناها سوء الحال والشقاء، أي في يوم شقاء وشؤم عليهم، وإضافة اليوم إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وأما المستمرّ فقد أشكل توصيف اليوم به، فلا بدّ من تأويله، فيمكن أن يكون الوصف للنحس، أي النحوسة استمرت عليهم عدّة أيّام لقوله تعالى: ﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ضَرَصًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾^١ وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ﴾^٢ ويمكن أن تكون صفة ليوم، ولكنّ المراد به مرحلة من الزمان كما يقال: يوم نعيم ويوم بؤس، ويقال: إنّ اليوم يطلق على الوقائع والحروب، وعليه فالיום يشمل سبع ليالٍ وثمانية أيّام.

وقيل: المستمرّ ليس بمعنى الاستمرار، بل بمعنى الشديد لشدة العذاب فيه، والمرّة الشدّة، كما مرّ في تفسير سورة النجم.

وقيل: إنّ معنى الآية أنّ هذا اليوم وهو يوم الأربعاء يوم نحس مستمرّ وأنّ نحوسته لا تختصّ بهم.

وقد وقع الكلام في صحّة دعوى النحوسة والشؤم في الأيام وغيرها وكذا ما يتفأل به ويعتقد أنّه موجب للوصول إلى الأهداف المبتغاة ومع أنّ هذا المعتقد لا يستند إلى دليل علمي ولا شرعي إلا أنّه ربما يستغرب من التأكيد في القرآن

١. فصلّت (٤١): ١٦.

٢. الحاقة (٦٩): ٧.

على كون هذه الأيام نحسات أو هذا اليوم نحساً في هذا المورد بالخصوص من موارد نزول العذاب الإلهي.

ولكنّ الصحيح هو كون الأيام المذكورة نحسات عليهم خاصّة لا أنّ ذلك من خصوصية اليوم أو الأيام وإلا لكان جميع أيّام الأسبوع نحسات، لقوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ مضافاً إلى أنّ كلّ يوم أو كلّ حادث يحمل شراً لقوم قد يكون خيراً وبركة لقوم آخرين، بل هو كذلك دائماً أو غالباً، فلا معنى لكون اليوم نحساً بوجه مطلق.

نعم هناك روايات كثيرة من الفريقين تنهى عن بعض الأعمال في بعض الأيام، كالسفر والزواج والحجامة وغير ذلك، ولكنّها غالباً ضعيفة أو مرسلة، بل هناك روايات كثيرة أيضاً تردّ على ذلك وتنفي نحوسة الأيام، كما أنّ هناك ما يدلّ على أنّه لا بأس بالسفر وغيره من الأعمال في أيّ وقت شئت مع الصدقة والتوسّل ونحو ذلك.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾. الجملة صفة للريح و﴿تَنْزِعُ﴾ بمعنى تقلع والتعبير تظهرهم كأنّهم مشبّهون بالأرض وبما حولهم من الأجسام يقاومون الريح العاتية، ولكنّها تقلعهم من الأرض وتبعث بهم في الهواء. والأعجاز جمع عَجَز أي مؤخّر الشيء، والمراد بها هنا أصول النخل. ولعلّ وجه تشبيههم بها عظم جثثهم، لأنّ أصول النخل عظيمة.

والمنقعر من القعر بمعنى أقصى الشيء وعمقه. والمعروف أنّ المراد به هنا ما قلع من الأرض فهو تشبيه لهم بأصول النخل الساقطة. وقيل: إنّهُ بمعنى الضاربة في عمق الأرض، فالمراد التأكيد على عظم خلقتهم أو شدّة تشبّثهم بالحياة.

ويحتمل أن يكون بمعنى ما أخرج قعره فبقي قشرة خالية ليطابق قوله تعالى:
﴿كَأَنَّهُمْ أَغْجَارٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾^١ وإن لم يذكره المفسرون ولا اللغويون.
﴿فَكَثِفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ مرّ الكلام حول
الآيتين.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَّا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أُلْهِىَ الَّذِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَتِّظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْفِرَّةَ أَنْ لِّلَّذِكْرِ فَهْلٍ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٣٢﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾. ثمود: ثالث الأقوام البائدة التي تعرض لهم في هذه السورة المباركة للإشارة إلى أحوالهم، كشواهد على الأنباء التي فيها مزدجر ولم يعتبر بها المشركون في مكة والجزيرة العربية.

والظاهر أن ثمود هم أصحاب الحجر الوارد ذكرهم في سورة الحجر وهي مدينة قديمة، يقال: إن ذكرها ورد في أقدم التواريخ والآثار، وقيل: إنها المعروفة حالياً باسم مدائن صالح بين المدينة وتبوك، ولم يثبت ذلك، والله العالم.

والنذر: جمع نذير، وقد مرَّ أنه اسم مصدر بمعنى الإنذار ويمكن أن يكون هنا بمعنى المنذر، أي كذبوا المرسلين، كما ورد في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾^١ ولذلك قيل: إنهم بعث إليهم أكثر من رسول ولكن يمكن أن يكون التعبير بذلك بلحاظ أن تكذيبهم لرسولهم لم يكن من جهة شكهم في رسالته شخصياً، وإنما كذبوه باعتبار كون رسالته امتداداً لرسالات السماء وهم كانوا يسمعون أخبار الرسل.

﴿فَقَالُوا ابْشِرُوا مِنَّا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ﴾ الاستفهام للإنكار. وقد استنكروا أن يتبعوا بشراً مثلهم، كما استنكروا أن يتبعوا واحداً منهم وهذان أمران مختلفان ولو قدم التوصيف بالواحد على قوله: ﴿مِنَّا﴾ لم يفد هذا المعنى، بل كان المعنى أنه واحد منهم، ولكن هذا الترتيب يفيد أنهم يستنكرون أمرين: متابعة بشر منهم أي مثلهم، وهذا الأمر ورد في آيات كثيرة نقلاً عن الأقوام السابقة. والآخر أنه واحد. والظاهر أن المراد بالوحدة أنه يعدّ من عامّتهم ليس له أتباع وجنود، فلا ينافي ذلك إيمان بعض الفقراء والضعفاء به، كما قال قوم نوح عليهم السلام: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِكَ﴾^١.

﴿إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، أي إذا اتبعنا بشراً منفرداً من عامّة الناس فنحن إذاً لفي ضلال وسعر.

قيل: إنّ سعر بمعنى الجنون، يقال: ناقة مسعورة إذا كانت مسرعة، فكأن بها جنوناً. ولكن الذي يظهر من موارد استعمال هذا اللفظ أنه بمعنى الشرّ المستطير كلهب النار، ولذلك يطلق أيضاً على مواضع الجرب في الإبل، والسعرة بكسر السين السعال الحادّ، ولعلّ السعر بمعنى قيمة البضائع في السوق أيضاً من هذا الباب، لأنّها ترتفع فيوقع عامّة الناس في حرج شديد.

فالصحيح أن السعر جمع سعيّر بمعنى النار المشتعلة، وعليه فالظاهر أنهم بذلك يردون على ما جاءت به الرسل من أن متابعة الأهواء والكبراء والآباء تجرّهم إلى ضلال بعيد وإلى عذاب السعيّر، فقابلوه بأنّ متابعة إنسان واحد من عامّة الناس أقرب إلى الضلال والسعر.

وأثوا بلفظ الجمع تأكيداً على أنّ متابعتهم يستلزم أنواعاً من عذاب الدنيا، فهم بذلك يفقدون أموالهم وسلطانهم ويتحولون إلى أمة ضعيفة متخلفة نظير ما يقوله المهرجون في عصرنا في مواجهة الدين بوجه عام.

﴿الَّذِينَ الذَّكُرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾، الاستفهام للإنكار أيضاً، والمراد بالذكر رسالات السماء، لأنها تُذكر الإنسان بما تمليه عليه الفطرة من الإيمان بالله. وتسميتهم لرسالة السماء بالذكر قد يكون من باب المماشة مع الخصم أو من باب التهكم والاستهزاء، ويمكن أن تكون التسمية من القرآن وليست من تعبيرهم.

والإلقاء يستعمل في الخطاب، قال تعالى: ﴿فَالْقُوا إِلَهُكُمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^١ وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾^٢ وقال في خصوص الوحي: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^٣.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾، أي دوننا، والظاهر أنّه بتضمين الإلقاء معنى الاختيار أو بتقدير الاختيار، أي واختير من بيننا.

وهذا أيضاً من الأعداء المتكررة ويبتني على استبعاد أن يختار الله تعالى لرسالته بشراً من عامة الناس ليست له ميزة على الباقين، فلا يملك مالا كثيراً ولا جاهاً عريضاً ولا سلطة وهيمنة وليست له ميزة ذاتية أيضاً كالحكمة والدهاء، كما قالت العرب: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَرِيِّينَ عَظِيمٍ﴾^٤.

ونقصد بالحكمة ما يفهمونه من هذا اللفظ. ويمكن أن يكون المراد بيان أنّهم

١. النحل (١٦): ٨٦.

٢. النساء (٤): ٩٤.

٣. المزمل (٧٣): ٥.

٤. الزخرف (٤٣): ٣١.

يَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَنْزِلَ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَغْلَمَ حِينَئِذٍ يُعْلَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾^٢.

ويلاحظ أن أعداءهم مترتبة، فهم يرفضون أولاً أن يعث الله بشراً رسولاً، ثم يرفضون ثانياً أن يتبعوا غير الكبراء والأمراء، ثم يرفضون ثالثاً – وعلى تقدير أن الوحي ينزل على بشر من عامة الناس – أن يختار الله تعالى من لا ميزة له من مال وبنين ودهاء وحكمة ونحو ذلك، فإما أن يختار إنساناً مميزاً أو يرسل الوحي إلى كل واحد منهم.

﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌّ﴾، ﴿بَلْ لِلْإِضْرَابِ، أَي لَمْ يَلْقَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ، بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌّ، والكذاب صيغة المبالغة وتوصيفه بذلك لأنه بزعمهم كذب على الله تعالى. و﴿أَشِرٌّ﴾ صفة مشبهة من الأشر – بفتحتين – وهو شدة البطر. والبطر الطغيان بسبب النعمة ويتضمن معنى الكبر وحب الرئاسة، فالمراد أنه بدعوى الرسالة يريد السيطرة علينا.

وهذا الاتهام من قوم صالح عليه السلام مما تكرر أيضاً في مواجهة أصحاب السلطة للأنبياء عليهم السلام قال تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾^٣.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾، تهديد واضح لهم بالعذاب، والمراد بالغد

١. الأنعام (٦): ١٢٤.

٢. المائدة (٧٤): ٥٢.

٣. يونس (١٠): ٧٨.

المستقبل القريب أو المؤكّد. وهذا حكاية للخطاب الموجه إلى صالح عليه السلام أي قلنا له: ﴿سَيَعْلَمُونَ...﴾، وقرئ: «ستعلمون» وهو إمّا حكاية لخطاب من الله تعالى لهم، وإمّا حكاية لما أمر به صالح عليه السلام أن يقول لهم.

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَازْتَبِهِمْ وَأَصْطَبِينَ﴾ خطاب لصالح عليه السلام وبيان تفصيلي نوعاً ما للتهديد المبطن في الجملة السابقة، ومنه يظهر بوضوح أنّ العذاب الموعود عذاب دنيوي، فلا وجه لما قيل من أنّ المراد بالغد يوم القيامة. ويظهر أيضاً أنّ التهديد والعزم على العذاب اتخذ مسبقاً قبل نزول الآية، وإنّما أخر لتتمّ الحجّة عليهم.

ويتبيّن أيضاً أنّ إرسال المعجزات والآيات فتنة وامتحان شديد بحيث تظهر به كوامن النوايا.

والفتنة في الأصل الإحراق أو الإذابة بالنار، وحيث إنّ الإذابة تظهر خلوص الذهب والمعادن اعتبر كلّ ما يبتلى به الإنسان في الحياة الدنيا من خير وشرّ فتنة، ومنها الآيات والمعاجز التي كانت تؤيّد بها رسالات الرسل.

والناقة إنّما أرسلت لهم آية بطلبهم، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ * قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾^١.

وفي بعض الروايات أنّهم طلبوا ناقة تخرج من الجبل، فخرجت بإذن الله تعالى. ولكن ذلك غير ثابت والرواية تشتمل على مناكير والسند لا يخلو عن إرسال، والظاهر أنّه محاولة لإثبات كونها آية، كما أنّ بعضهم روى أنّهم سألوه

أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء تضع ثم ترد ماءهم فتشربه ثم تعود عليهم بمثله لبناً. ولكن الذي يظهر من الآيات الكريمة أنها كانت آية من جهة أنها كانت تشرب كل ما يشربه أهل القرية وحيواناتهم في يوم واحد. ومن هنا كانت فتنة لهم؛ لأنهم لم يتحملوا ذلك فعقروها.

والارتقاب بمعنى الانتظار كما ورد في «كتاب العين» أو الترصد كما يظهر من موارد الاستعمال، وهما مختلفان؛ فالترصد يشتمل على معنى المراقبة وحيث إنه تعلق بذواتهم فلا بد من تقدير فعل مناسب ولعله ما يصدر منهم بالنسبة للناقة. وبذلك يتبين بعض وظائف الرسول في المجتمع ودوره في تربيتهم وفي بلوغهم مرحلة استحقاق العذاب.

والاصطبار، قيل: إنه تأكيد في الصبر، ولكن الظاهر من مفاد الصيغة التلبس بالصبر، ومعنى ذلك أنه حتى لو وصل الأمر إلى موقف يصعب فيه الصبر أو ربما يتوهم أنه لا ينبغي، فلا بد من تكلف الصبر.

والمراد الصبر على أذاهم كما هو المعروف بين المفسرين أو الصبر في هذه المراقبة فإن مراقبة الجهلة مما يشق على الحكيم، ويمكن أن يكون المراد التأكيد على أن العذاب نازل لا محالة، فإذا تأخر بعضاً من الوقت فلا تيأس واصبر وترقب.

﴿وَبَيَّنُّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾. قسمة مصدر بمعنى المفعول، أي إن الماء مقسوم بينهم، أي بين القوم والناقة. وظاهر إطلاق التقسيم من دون قيد هو التنصيف وقد بيّنه في الآية التي نقلناها آنفاً من سورة الشعراء: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

والشرب بكسر الشين النصيب من ماء الشرب. واحتضر بمعنى حضر، والمحضر أي الذي يحضره صاحبه، والغرض أن كل نصيب من الماء يحضره صاحبه ولا يحضره غيره. ولعل المراد أن من عجب أمر الناقة مضافاً إلى شربها كل الماء أنها تعرف موعد نصيبها، فتحضر الماء في وقته.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾. لم يتحمل القوم ناقة الله وسقياها ولم يصدقوا تحذير الرسول حيث نهاهم أن يمسوها بسوء، ويبدو من الآية أنهم اتفقوا على قتلها، ولكنهم لم يجروا على المباشرة إلا أن هناك دائماً من بين الناس من هو أشقاهم وأجرأهم على الله تعالى أو على ارتكاب العظائم، وهؤلاء يعتبرون ذلك ميزة لهم وشجاعة ويفتخرون به، ولذلك لم يتقدم للإجهاز على سيد الشهداء عليه السلام أحد من الأشيقاء حتى بادر إليه أشقاهم وهو شمر. ومنهم عاقر ناقة صالح عليه السلام وهو المراد بصاحبهم في الآية، وقد وصمه الله تعالى بأنه أشقاها، أي أشقى قوم ثمود في قوله: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾^١ ولكنهم جميعاً أشقياء حيث نادوه وطلبوا منه قتلها، ولذلك نسب العقير إليهم جميعاً في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^٢.

والتعاطي - على ما في «كتاب العين»^٣ - تناول ما لا يحق، وأصله من العطو أي التناول. والظاهر أنه من جهة أن باب التفاعل يأتي أيضاً بمعنى التلبس بأمر لا يستحقه كالتفعل، فتقول تعاظم وتعالى أي اعتبر نفسه عظيماً وعلياً، كما تقول

١. الشمس (٩١): ١٢.

٢. الأعراف (٧): ٧٧.

٣. كتاب العين ٢: ٢٠٨.

تكبر بنفس المعنى.

والمفعول محذوف، أي تعاطى العقر أو السيف أو الناقة، وفي «العين» أيضاً أنه بمعنى التجري.

والعقر الجرح والقطع، وعقر الفرس أو البعير قطع قوائمه، ويطلق على النحر أيضاً، لأنهم كانوا يعقرون الإبل، ثم ينحرونها مستمكنين منها، فأطلق العقر على النحر.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾. مرّ تفسيرها وهذه إشارة إجمالية تفصيلها في الآية التالية. والاستفهام هنا للتعجب أو للحث على الاعتبار بما حدث للقوم أو مقدّمة للجواب الآتي.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ جواب عن الاستفهام في الآية السابقة، والصيحة الصوت العالي.

وقد عبّر عن عذابهم في سورة الأعراف، الآية ٧٨: بـ «الرجفة»، وفي سورة هود، الآية ٦٧: بـ «الصيحة» كما هنا، وفي سورة فصلت، الآية: ١٣ و ١٧ وكذا في الذاريات، الآية ٤٤: بـ «الصاعقة»، وفي سورة الحاقة، الآية ٥: بـ «الطاغية».

فالصاعقة كلّ ما له صوت شديد ويعبّر بها عن مطلق الهلاك أيضاً، فهي متحدة مع الصيحة، كما يعبّر بالصيحة أيضاً عن كلّ عذاب ينزل فجأة، ويعبّر بها أيضاً عن الغارة. وأمّا التعبير بالرجفة فباعتبار أنّ الصوت الهائل يوجبها.

والطاغية بمعنى ما تجاوز الحدّ المألوف.

فيظهر من كلّ ذلك أنّ العذاب المرسل عليهم كان صوتاً شديداً غير مألوف

للشّر تسبّب في رجفة عظيمة وانفجار قوي، فأهلكهم فجأة بحيث لم يتمكّنوا من أيّ حركة فظّلوا جاثمين، كما ورد به التعبير في سورتي الأعراف وهود. والتعطيم الذي يحدثه الصوت الهائل معروف في عصرنا وهو يصدر من انفجار يصنعه البشر، فكيف بما يصنعه جبار السماوات والأرض لغضبه؟! وتوصيف الصيحة بالوحدة للتعبير عن كونه غير طبعي أولاً، وعن سرعة أخذهم وإهلاكهم ثانياً، ثم سهولة ذلك وبساطته فلم يكن الأمر بحاجة إلى جنود ومقدمات، وفي ذلك استهانة بالكفرة وتحقير لهم. وقوله: ﴿فَكَانُوا﴾ أي فصاروا. والهشيم ما هشّم وحطّم من الأعشاب والأعواد والقصب.

والمحظر صانع الحظيرة أو صاحبها وهي ما تصنع من الحشيش ونحوه لحفظ الماشية - والحظر: المنع - فتمنع الماشية فيها من الهرب والضياح أو تمنعها وتحفظها من بعض السباع.

وهشيم المحظر ما كان يصنعه من الحشائش المحطمة لتعليف الحيوان أو ما كان يصنع منه الحظيرة، والغرض تشبيههم بقطع صغار من الحشيش، كما عبّر عنهم في سورة هود: ﴿فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأنهم لم يكونوا هناك إذ لم يبق لهم أثر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ مرّ تفسير الآية وإنّما تكرر ذكرها بعد التعرّض لما جرى على كلّ قوم للتنبيه على أنّ ذكر هذه الحوادث ليس لبيان القصص أو التواريخ، بل للاعتبار، فهل من مدّكر؟

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿١٦٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَحْنُ نَحْيِيهِمْ بِسَحَرٍ ﴿١٦١﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿١٦٢﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿١٦٣﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿١٦٤﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿١٦٥﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿١٦٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ ﴿١٦٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿١٦٨﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿١٦٩﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ قوم لوط عليه السلام كانوا أيضاً يسكنون في منطقة قريبة من الحجاز وكانت آثارهم باقية إلى عهد الرسالة المجيدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِبَسَائِلِ مَّقِيمٍ﴾^١ وقال أيضاً: ﴿وَأَنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^٢ وقد يقال: إن قريتهم تسمى سدوم، وأنها تقع على الطريق بين الحجاز والشام، وهو المراد بالسبيل المقيم، أي الطريق الثابت الباقي حتى اليوم، وهو المراد أيضاً من المرور عليها صباحاً ومساءً بمعنى أن القوافل تمرّ عليها ذهاباً إلى الشام وإياباً.

وقيل: إنها الآن مغمورة بالبحر الميت، وقيل غير ذلك، ولم يثبت شيء مما يقال في هذا الباب بدليل قاطع. ومهما كان فإن أهلها كانوا مشركين وتفشى فيهم المفاسد الخلقية، كالشدوذ الجنسي واكتفاء الرجال بالرجال، كما صرح به في القرآن، وفي الروايات أن نساءهم أيضاً كنّ يكتفين بالنساء. وقد مرّ الكلام

١. الحجر (١٥): ٧٦.

٢. الصافات (٣٧): ١٣٧ - ١٣٨.

حول المراد بالنذر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ يذكر العذاب النازل عليهم قبل ذكر شركهم وعنادهم؛ لأنَّ المقصود من ذكر هذه القصص الإنذار بذكر ما جرى على أمثال المخاطبين.

والحاصب الريح التي تحمل الحصباء، ولعلَّ المراد به هنا ما كان يحمل حجارة خاصّة لا الحصباء التي حولهم، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ * مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾^١ وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فلعلَّها لم تكن من قبيل الحصباء الموجودة على وجه الأرض، أو أنَّها كانت بوضع خاصّ أو في موضع خاصّ، ومهما كان فالظاهر أنَّ التعبير بالحاصب لا يدلّ على كونه مجرد ريح شديدة ألقت عليهم بحصباء الوادي كما توهمه التسمية.

وآل لوط أهل بيته والمراد ما عدا امرأته التي استئنيت في مواضع أخرى، وقيل: إنّ أهل بيته بنتان فقط والله العالم، وهو بعيد عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾^٢.

والسحر: في كتب اللغة آخر الليل أو قبيل الصبح. وتحديد بالثلث أو السدس الأخير - كما في كلام بعض الفقهاء - لا دليل عليه من اللغة. والمراد أنّه تعالى أنجاهم قبيل نزول العذاب، حيث إنّهُ نزل عليهم صباحاً كما في عدّة

١. هود (١١): ٨٢ - ٨٣.

٢. العنكبوت (٢٩): ٣٤.

٣. الحجر (١٥): ٥٩ - ٦٠.

مواضع ومنها هنا، والظاهر أنه كان عند شروق الشمس، لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّبْحَةُ مُنْفَرِقِينَ﴾^١

﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾، ﴿نِعْمَةً﴾ مفعول لأجله، أي نجّيناهم لنعم عليهم بالابتعاد عن عذاب الاستئصال الذي يخصّ الظالمين، والتعبير بأنّ النعمة كانت من عندنا مع أنّ كلّ النعم من عنده تعالى ليدلّ على اختصاصهم بلطف وعناية خاصّة من الله تعالى حيث إنهم لم ينجرّفوا إلى الفساد الخلقي الذي تلوّثت به مدينتهم ولم يتأثروا بتلك البيئة الفاسدة التي لم تبق من أهل المدينة أحداً، وهذا من غريب تأثير المفاسد الأخلاقية والجنسية؛ فإنّها تجرف الجميع إلا من عصم الله تعالى. ويلاحظ ممّا نقله القرآن الكريم في بيان حال الأمم السالفة أنّ كلّ قرية ومجتمع كان منهم جماعة مؤمنون وإن قلّوا إلا هذه المدينة، فقد مرّ في سورة الذاريات قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^٢، بل إنّ هذا البيت، وهو بيت النبوّة لم يخل من الشرك والكفر، بل اتصف به الركن الثاني من البيت، أي امرأة الرسول لوط عليه السلام.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾، أي إنّ هذه النعمة من جهة أنّهم شكروا نعمة ربّهم. والشكر قد يكون بالقول وهو ميسور للجميع، وقد يكون بالعمل بأن يستعمل الإنسان ما أنعم الله تعالى به عليه في ما وضعه له، وهذا ربّما يشقّ على كثير من الناس، ويقابله كفر الآخرين من أهل المدينة، فهم شذّوا وانحرفوا وبدّلوا نعمة الله كفراً، فالغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان والحيوان ضماناً لبقاء النسل

١. الحجر (١٥): ٧٣.

٢. الذاريات (٥١): ٣٦.

استعملوها في غير ما وضعها الله له وهو كفران بالنعمة.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾. البطش: الأخذ الشديد. والبطشة: الواحدة من البطش وعبر بما يفيد الوحدة تنبيهاً على سرعة إهلاكهم وعلى عظمة أخذه وعقابه تعالى، فتكفيهم بطشة واحدة.

وإنما أنذرهم، لأن نزول العذاب على الأمم مشروط - حسب السنّة الإلهية - بوجود الرسول المنذر، فالله تعالى لا يستأصل قومًا إلا بعد أن يبعث فيهم إنساناً معصوماً طاهراً يشهد له الكلّ بالطهارة والنزاهة، كما قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾^١ وينذرهم بطشة الله تعالى ومع ذلك فإنّ الله تعالى يمهلهم مادام فيهم من يمكن أن ينتبه.

والتماري من المراء وهو الجدال والشكّ، وقد مرّ الكلام في النذر. وقد بلغ بهم التشكيك إلى أن كذبوا بما أنذرهم به، بل استعجلوا بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّبِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾^٢ والكلام هنا في ما تفيده صيغة التفاعل في المراء، فقيل: إنّ التماري مبالغة في التشكيك، فالمعنى أنهم كذبوا بالنذر ولذلك عدّي بالباء، فإنّ الشكّ يتعدى بـ «في» وقيل: إنّ المراد أنهم تداولوا الشكّ في ما بينهم، فكلّ منهم كان يشكّ الآخر. وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾^٣ احتمال أن يكون المراد التظاهر بالشكّ، فإنّ هذا هو مقتضى هذه الصيغة.

١. النمل (٢٧): ٥٦.

٢. العنكبوت (٢٩): ٢٩.

٣. النجم (٥٣): ٥٥.

وربما لا يكون التظاهر بالشك لإراءة الغير، فإن من غريب أمر الإنسان خداعه لنفسه ومحاولته إظهار ما يخفي خلافه لنفسه، فإذا راجع ضميره ووجدانه علم أنه غير شاك، ولكنه لا يحب أن يؤمن بما يمنعه من متابعة أهوائه وملذاته، فيحاول أن يشكك نفسه وأن يظهر لنفسه أن هذا موضع شك. ومن هنا قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^١ والخداع في هؤلاء وهم فرعون وقومه بلغ مرحلة الجحود، خلافاً لما هم مستيقنون به، فكيف بالشك؟

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾. المراودة: الإصرار على طلب الشيء وتكرار المراجعة. وأصله من الريادة بمعنى الطلب، ومنه الرائد، أي الذي يبعثه القوم في طلب الماء والكلاء، ومنه الإرادة بمعنى الطلب أيضاً.

وعدي بـ «عن» لتضمينه معنى التخلي عن الضيف وتركهم وشأنهم، وكان غرضهم أن يفعلوا الفاحشة بهم، وهذا كان من فتن الله تعالى في آخر فرصة لهم لتصحيح موقفهم أو الإصرار على شذوذهم وقذارتهم، فأرسل الملائكة في هيئة شباب حسان الوجوه، فما كان من القوم إلا أن هجموا على دار نبيهم يطالبونه بضيفه، وهو أيضاً على ما في الآيات الكريمة ما كان يعلم حقيقة الأمر، فساءه مجيء الملائكة وهو يحسبهم شباباً وضاق بهم ذرعاً، وقال: إنه يوم عصيب حيث يواجه قومه ويطالبونه بهم.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ * قَالُوا أَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالِينَ^٢ ولكن الملائكة ﴿قَالُوا يَا لَوِطُ إِنَّا

١. النمل (٢٧): ١٤.

٢. الحجر (١٥): ٦٧ - ٧٠.

رُسِّلَ رَبُّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ^١، ولا شك أن الذين أتوا لم يكونوا كل أهل المدينة إلا أن الله تعالى نسب الفعل إليهم جميعاً لرضاهم به ولذلك عمَّهم العذاب.

وطمس العين لم يرد في الموارد التي ذكر فيها هذا القوم إلا هنا، والمعروف أن الطمس بمعنى محو الشيء وإزالته، ولذلك فسَّروا الآية بأنَّ عيونهم مسحت ولم يبق حتَّى مواضعها، ولكن الظاهر أنه أعم من ذهاب العين والأثر، وأن طمس النجوم بمعنى ذهاب ضوئها، فلا يبعد أن يكون المراد أنَّ عيونهم عميت فلم يروا أحداً.

وروي عن بعضهم القول بأنَّهم إنَّما حجب إدراكهم، فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطمس فعبر به عنه. ولكنّه لا يناسب تعقيب الآية بكون ذلك عذاباً لهم.

وكان يكفيهم ذلك للإيمان بالرسالة والكفّ عن شذوذهم وكفرهم، ولكنهم أصرّوا على موقفهم، فتمَّت الحجة عليهم والله الحجة البالغة.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ الجملة خطاب موجه لهم وأمر بتذوق عذاب الطمس. وهو في الواقع تعبير عن حالهم يصوّرهم كأنَّهم أحياء حين نزول هذه الآيات وأنَّهم يسمعون الحديث عن ما حدث لهم، وحينما يجدون أنفسهم وقد طمست أعينهم يخاطبون هكذا: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾.

ولعلّ الوجه في توجيه الخطاب الإشارة إلى أنَّهم شعروا بأنَّه عذاب من الله تعالى ومع ذلك لم يرجعوا عن غيِّهم وضلالهم.

والكسرة في راء ﴿وَنُذْرٍ﴾ تدلّ على ياء المتكلم، أي نذري والمراد بها ما وعد

بالإنذار وهو العذاب الذي كذبوا به، بل طالبوا به.
والذوق: الإحساس بالطعم. ويستعمل مجازاً في غيره، كذوق الرحمة أو العذاب أو الموت.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾. التصريح: هو الإتيان صباحاً، يقال: صَبَّحْنَاهُمْ أي أتيْنَاهُمْ صباحاً، فالمعنى أن العذاب أتاهم صباحاً.
والبكرة: أوّل الصباح وهو الأوّل من كلّ شيء، ولذلك يقال لأوّل الأولاد البكر، والمراد هنا أوّل طلوع الشمس كما مرّ.

والظاهر أن توصيف العذاب الشامل الذي نزل عليهم بالمستقرّ باعتبار مقابله للعذاب السابق وهو طمس العيون، فتدلّ الآية على أنّه كان عذاباً مؤقتاً، كما أنّه كان خاصّاً بالمجموعة المهاجمة، ولكنّ المفسرين قالوا: إنّ المراد ثباته بلحاظ اتصاله بعذاب البرزخ أو القيامة.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ أعاد الخطاب السابق الذي افترضهم يواجهون الخطاب والعذاب فعلاً. ولعلّ الوجه في التكرار أن الأوّل ورد بعد الطمس ولتلك المجموعة منهم وهذا بعد عذاب الاستئصال ولجميعهم، ومهما كان فالخطاب يفيد معنى استشعارهم بأنّه عذاب من السماء وليس حادثاً طبيعياً.

ولم يرد هذا الخطاب في سائر القصص المنقولة هنا، بل ورد السؤال عن كيفية العذاب والنذر حتّى على التأمل فيه. ولعلّ السبب هو إظهار شدة الغضب على هؤلاء؛ إذ لم يؤمن منهم أحد ولأنّهم ارتكبوا الفواحش غير مباليين بإنذار الرسول. كما يلاحظ في سرد حكايتهم فرق آخر في التعبير وهو التأكيد على ما وقع بالقسم المقدّر الذي تدلّ عليه اللام وأداة التحقيق وهو «قد»، وقد تكرّر ذلك في هذه الآيات.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ مرّ الكلام حول الآية.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ وهؤلاء خامس الأقوام المذكورة هنا لتنبيه المشركين. وذكر قصّتهم ملخصاً؛ إذ الغرض هو التذكير بما فصل القول فيه في غير مورد.

والظاهر أنّ المراد بآل فرعون قومه وجنوده، كما عبّر بهذين في موارد أخرى، والنذر أتتهم كلّهم والعذاب أيضاً شملهم، فليس المراد قرابته خاصّة كما قال بعض المفسّرين. وقد مرّ الكلام حول النذر.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾. المراد بالآيات المؤكّدة بقوله ﴿كُلِّهَا﴾ الآيات التسع التي أرسل الله تعالى موسى عليه السلام مصحوباً بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾^١ وهي العصا واليد والخمسة التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾^٢ مع ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾^٣ فتكون الآيات تسعة بناءً على ما قيل من أنّ السنين غير نقص الثمرات، فالمراد بالأول الجذب الناتج من عدم نزول المطر ونضوب الماء وهو غريب في بلاد النيل، وأمّا الثاني وهو نقص المواد الغذائية، فقد ينتج من عوامل أخرى حتّى مع وجود الأمطار. وحيث كان الغرض من ذلك التنبيه، فلا يبعد أنّه تعالى ابتلاهم في وقتين مختلفين ليكون كلّ منهما آية مستقلة.

١. النمل (٢٧): ١٢.

٢. الأعراف (٧): ١٣٣.

٣. الأعراف (٧): ١٣٠.

ولكنّ الصحيح أنّهما واحد، وأمّا الآية التاسعة فقد قيل: إنّه غرقهم في البحر، وردّ بأنّه عذاب وليس آية تنبّههم.

ويمكن تبديله بفتح الطريق اليابس في البحر لموسى عليه السلام فإنّه في الواقع من أعظم الآيات وكان ينبغي تنبّههم لذلك، ولكنّ الطغيان والغباء استوليا عليهم، فاقتحموا البحر والله بذلك أتمّ الحجة عليهم.

والأخذ هو التناول ويستعار للقهر والانتقام، واختيار الوصفين العزيز والمقتدر يناسب طغيان فرعون وخيلاءه حيث اعتبر نفسه العزيز المقتدر مع أنّ العزّة والقدرة ليستا إلا من الله تعالى يؤتيهما من يشاء.

والعزّة بمعنى المنعة والعزيز الذي لا يتحكّم في إرادته شيء.

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾
 سَنُرْزِقُ أَجْمَعُ وَيُؤْتُونَ الدَّبِيرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ
 الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ
 سَفَرٍ ﴿٤٨﴾

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ﴾ بعد سرد قصص الأمم الكافرة الغابرة يستنتج أنه لا فرق بين كفار هذه الأمة والكفار السابقين، فتشملهم سنة الله تعالى في نزول عذاب الاستئصال إذا ما استمروا على طغيانهم.

والخطاب يمكن أن يكون موجهاً إلى مجموع هذه الأمة، أي الأمة التي أرسل إليها الرسول ﷺ وخوطبت بالقرآن الكريم وهم أهل مكة والجزيرة العربية، فتكون الإضافة تبعيضية، أي الكفار منكم.

ويمكن أن يكون الخطاب موجهاً إلى كفار قريش خاصة، فتكون الإضافة بيانية من قبيل يوم الأحد. وهذا أولى، فالمعنى أنتم - وأنتم كفار - خير من أولئكم الكفار؟ واسم الإشارة يشار به إلى المذكورين في الآيات السابقة.

وإنما لم يقل «أنتم خير من أولئكم» ليشير إلى مناط الحكم وهو الكفر، فحيث إنه جامع بينكم فالحكم مشترك إلا أن تكونوا خيراً منهم.

والمراد بكونهم خيراً أن تكون لهم ميزة تستوجب عدم نزول العذاب عليهم مهما طغوا وتجبروا من صفة ذاتية كالسخاء والعدل أو عمل يمتاز به مجتمعهم كمساعدة الفقراء ونحو ذلك.

والاستفهام إنكاري، فمعناه النفي ولا حاجة إلى جواب مع أن الجواب واضح وهو أنه ليس لهذا القوم ميزة عليهم.

ويمكن أن يستفاد من الآية أن كل ما كان في تلك الأمم من موجبات نزول العذاب موجود فيهم من الكفر واتهام الرسول والظلم واستعباد الضعفاء والكبر والغطرسة وإلا لكان ذلك ميزة لهم. وحيث إن من الأمم المذكورة هنا قوم لوط فيستفاد منه أن الانحلال الخلقي أيضاً كان موجوداً فيهم وإن لم يكن بتلك الصورة، ولعل من ذلك ما يقال من وجود نساء ذوات أعلام في مكة وإن حاول بعض المؤرخين إنكاره.

﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾، ﴿أَمْ﴾ منقطعة، فتفيد الإضراب والاستفهام الإنكاري معاً، أي كفاركم ليسوا خيراً من أولئكم، فهل لكم براءة في الزبر فأنتم آمنون من العذاب. والمعنى أيضاً هو النفي.

والبراءة: التباعد عن الشيء والخلاص والسلامة.

والزبر جمع زبور، أي الكتاب وهو فعول بمعنى اسم المفعول من زَبَرَ أي كَتَبَ والمراد الكتب السماوية. والمعنى أنهم يمكن أن لا يواجهوا عذاب الاستئصال بأحد أمرين: إما أن تكون لهم ميزة عليهم تستوجب ذلك، وإما أن يكون لهم صلح براءة وخلاص من عذاب الاستئصال نزلت في الكتب السماوية. ومن الواضح أنهم ليس لهم براءة فيها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ وهذا أيضاً إضراب آخر وهذا القول إما أن يكون كلاماً لبعضهم، كما حكي ذلك عن أبي جهل يوم بدر، فيكون إخباراً عن المستقبل أو أنه مما قاله بعضهم في مناسبة قبل الآية وإن لم ينقل أو أنه حكاية لحالهم حيث يتصورون لأنفسهم قوة أمام إرادة الله تعالى إعجاباً بوحدتهم وتكاتفهم، فالمعنى أنه لو فرضت بيننا وبين المسلمين مواجهة فإننا منتصرون. ولا

يبعد أنهم يقولون ذلك في مقابل إرادة الله تعالى لا في مواجهة المسلمين؛ إذ لم يكن لهم شوكة ذلك اليوم. وهذا ليس مستبعداً من جهل الإنسان وغروره وهناك موارد كثيرة يبرز الإنسان عضلاته أمام ربه جهلاً وسفاهة.

والجميع بمعنى المجتمع، أي نحن مجتمعون و﴿مُنْتَصِرٌ﴾ صفة للجميع باعتبار لفظه، فإنه مفرد وإن كان جمعاً في المعنى. وهو إشارة إلى اتفاقهم وأنهم يد واحدة في مقابلة ربهم.

والمنتصر إما بمعنى المنتقم، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ وإما بمعنى الممتنع، أي لا نهزم لأننا مجتمعون متكاتفون. وأما تأويله بالتناصر، فبعد عن مفاد صيغة الافتعال.

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ جواب عن تفاخرهم واغترارهم بجمعهم، واللام في ﴿الْجَمْعُ﴾ للعهد، أي سيهزم جمعهم.

والدبر: الخلف. وقوله: ﴿يُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، أي يفرون. و﴿وَلَّى﴾ أي اتبع الشيء بالشيء، فإن قيل: ولاه وجهه، أي أقبل إليه، وإن قيل: ولاه دبره، أي خلفه، فيكون بمعنى الإعراض أو الفرار.

والهزم هو الغلبة، أي سيغلبون في المواجهة ويفرون. وهذا إذا كان إشارة إلى ما حدث لهم في غزوة بدر، فهو من الأخبار بالمغيبات. وبناءً على ما مرّ من احتمال أن يكون قولهم مجرد دعوى فرضية تجول في أفكارهم حيث يتصورون أنّ جمعهم يقاوم الإرادة الإلهية كما تخيّل كثير من الأغبياء كفرعون، فالجواب أنّه إذا أراد الله بكم سوءاً فلا مردّ له ولا يبقى لكم طريق إلا الفرار ولن ينفعكم الفرار.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ إضراب عن تهديدهم بالعذاب

الديوي للتنبيه على أن هذا ليس هو العذاب الموعود؛ إذ قد لا يصاب الإنسان في الدنيا بشيء، فكم من طاعة أهلك الحرث والنسل وكفر بالله تعالى ولم يصبه شيء، بل الموعد لمجازاة كل إنسان على كل عمل صغير أو كبير هو يوم القيامة.

والساعة أي اللحظة، عبّر بها عن تلك المرحلة من الكون باعتبار أنه يحدث فجأة ومن دون تطوّر ومرور بمراحل من الخلق. وتكرار لفظ الساعة للتأكيد والتهويل.

وأدهى أفعل تفضيل من الداهية، أي الأمر المنكر الفظيع الذي يأتيك من مأمّن، أي من حيث لا تنتظر ولا تتوقّع، وهكذا عذاب يوم القيامة، فالإنسان لا يتصوّر ما سيحدث هناك، قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ هُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^١ فهو بالنسبة للمنكرين يأتيهم من مأمّن؛ لأنهم لم يؤمنوا به أساساً وبالنسبة لكثير من المؤمنين أيضاً داهية؛ لأنهم لم يقدّروا عظمتهم ولم يتصوّروه، كما هو.

وفي «الكشاف» تفسير الداهية بالأمر المنكر الذي لا يهتدى إلى طريق الخلاص منه^٢ وما ذكرناه هو الوارد في كتاب «العين»^٣ للخليل وفي كتب اللغة المعتمدة.

و«أمرٌ» بمعنى أشدّ مرارة وهو تعبير عن ما يشقّ تحمّله، فالمعنى أن الساعة أدهى وأمرّ من عذاب الدنيا؛ أدهى لأنها لا يمكن صدها، وأمرّ لأنها لا يمكن الصبر عليها.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ بيان لما يحدث لهم من العذاب وهو مجرد تقريب؛ إذ لا يمكن تصويره على ما هو عليه، لعدم أنس أذهاننا بتلك الحقائق.

ويمكن أن تكون هذه وما بعدها بياناً لوجه كون الساعة أدهى وأمرّ من عذاب الدنيا.

١. الزمر (٣٩): ٤٧.

٢. الكشاف ٤: ٤٤٠.

٣. راجع: كتاب العين ٤: ٧٧.

والإجرام في الأصل بمعنى القطع. والمعروف أنّه يطلق على من يكتسب أمراً، كأنّه يقطع لنفسه شيئاً إلا أنّه لم يتعارف إطلاقه إلا على من اكتسب شراً ولم يذكروا لذلك وجهاً، وقلنا: إنّهُ لا يبعد أن يكون السرّ في اختصاص الإطلاق بمن يكتسب شراً أنّه يقطع العلاقة بينه وبين مجتمعه، ولذلك لا يطلق على كلّ من ارتكب إثماً أو خالف القانون الوضعي، وإنما يطلق في العرف على من يرتكب أمراً فظيلاً في المجتمع.

وقلنا: إنّهُ في الشرع أيضاً لا يطلق على كلّ مخالفة، ولعلّ المراد بهم في القرآن من قطع علاقته برّبّه، فلا يشمل الفسّاق من المؤمنين.

وقد ارتبك بعض المفسّرين قديماً وحديثاً في تفسير الضلال ظناً منهم بأنّ المجرمين ليسوا هناك في ضلال، وإنّما ضلالهم في الدنيا وحيث عطف عليه السرّ وهو عذاب الآخرة، بل أتى له بالظرف: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ فلا بدّ من تأويل الضلال بأنّ المراد به الهلاك أو الخسران، أو يأوّل السرّ بالجنون، فيكون موضعهما الدنيا. والتزم بعضهم بالتقسيم، فضلالهم في الدنيا وسعيرهم في الآخرة، مع أنّ في القرآن تصريحاً بكونهم في الآخرة في ضلال عن السبيل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^١.

والسرّ فيه أنّ السبيل والصراط أمر واحد ممتدّ من الدنيا إلى الآخرة وفي الآخرة، فمن ضلّ الطريق في الدنيا فهو مستمرّ في ضلاله هناك أيضاً، أي إنّهُ لا يجد في ذلك اليوم طريقاً للخلاص.

وقد جعل الضلال لهم ظرفاً كما أنّ السعير ظرف لهم، وذلك من جهة إحاطة

الضلال بهم، فهم لا يهتدون طريقاً إلا طريق جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾. والسعر جمع سعير، أي النار المشتعلة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ تصوير لمشهد من مشاهد العذاب للتقريب إلى الأذهان وإن كان ما هناك أعظم من أن ندركه والألفاظ قاصرة عن بيانه، فالآية تصوّر المجرمين ملقون على وجوههم في النار وتسحبهم الملائكة هنا وهناك ليدوقوا مسّ النار بوجوههم، وهي أكثر احساساً من سائر الأعضاء. وهذا غاية التحقير والإيلام للإنسان الذي كرّمه الله تعالى وخلق في أحسن تقويم وأراد أن يكون خليفته في الأرض فقد ردّه إلى أسفل سافلين.

وقوله: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ خطاب يخاطبون فيه ذلك اليوم، فهنا قول مقدر، أي يقال لهم. أو أنّه حكاية حال، أي يناسب أن يقال لهم هناك كذا.

والمسّ قيل: إنّهُ بمعنى اللمس، كما في «المفردات»^١ فيكون كناية عن الإصابة، وقال ابن سيدة: مماسة الشيء للشيء أن يلقاه بذاته وهذا أوضح.

و«سَقَرَ» علم لجهنّم مأخوذ من سقرته النار إذا أحرقت، وقيل: لوّحت بشرته أي غيّرت لونها، وهي غير منصرفة للعلمية والتأنيث، وقيل: إنّهُ اسم لموضع خاصّ أو طبقة خاصّة منها ولم يثبت.

١. النساء (٤): ١٦٨ - ١٦٩.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٧٦٦ - ٧٦٧.

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٥٥﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٤﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٣﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ
مُسْتَطَرٌّ ﴿٥١﴾ إِنَّ الْأَتَقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴿٥٠﴾ فِي مَقْعَدِ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٩﴾

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، أي إِنَّا خلقنا كلَّ شيءٍ بقدر، فقولوه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾
مفعول لفعل مقدر، أي «خلقنا» يفسره قوله: ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ وهذه الطريقة في البيان
تؤكد على الشمول لكلِّ شيءٍ وتدلُّ على أنَّ هذا العموم ممَّا لا يمكن تخصيصه،
وهذا التأكيد يفهم من تقديم المفعول ومن تكراره حيث يؤتى به مرَّةً أخرى
بصورة ضمير منصوب.

والقدر - بفتح الدال وسكونها - بمعنى المقدار، أي بحدٍّ معين لا يتجاوزه،
فالتقدير هو التحديد وتعيين المقادير وإن لا يزيد الشيء ولا ينقص عن العناصر
الدخيلة في تكوينه والله تعالى قادر لكلِّ شيءٍ وقادر على كلِّ شيءٍ، بمعنى أنَّه
العالم بما يحتاج إليه كلُّ شيءٍ في وجوده، فيخلقه لا يزيد عليه ولا ينقص، لأنَّه
إذا زاد أو نقص لم يكن ذلك الشيء.

وهذا واضح بملاحظة أصول الأشياء والعناصر التي خلقها الله تعالى، فالماء
مثلاً يتكوَّن من ذرَّتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين، فلو زاد على ذلك
أو نقص لم يكن ماءً، وهكذا كلُّ ما خلقه الله تعالى من عناصر، بل كلُّ ذرة من
ذرات الكون.

ولا يختصَّ التقدير بخلق الأصول، بل كذلك خلق المركَّبات، فكلُّ كوكب
وكلُّ نجم وكلِّ مجرة وكلِّ إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد وكلِّ شيءٍ عنده

بمقدار وهو العالم بقدر الأشياء، أي بمقاديرها وحدودها وموضعها من الكون، فهو القادر عليها فحسب يجعل كل شيء في موضعه، ولو اختلفت الموازين بأقل من شعرة لاختل النظام الكوني. بل يشمل ذلك زمان تكوّن الشيء أو الحادث ومكانه وظروفه وملايساته، كل ذلك بتقدير من الله تعالى ولا يعرف وجه الحكمة في كل ذلك أحد غيره سبحانه، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^١

فهذه الجملة القصيرة لها معنى واسع جداً وتنطبق على كل شيء ممّا خلقه الله تعالى، أي كل شيء سواه، فكل ذلك مخلوق بتقدير دقيق في الوضع والزمان والمكان المناسب ويشمل ذلك حتّى أفعال الإنسان، ومن الغريب أنّ ذلك لا ينافي اختياره، فالله تعالى يقدر ويحدّد ما يفعله الإنسان باختياره أيضاً، ويجعله ضمن قائمة المخلوقات ويشمله التدبير العام، أي إنّ التدبير العام للكون وللتاريخ وللبرية يشمل شتات أعمال البشر، سواء ما نعتبره نحن ممّا يصنع التاريخ وما ليس كذلك، فربما تقع حادثة صغيرة لا يحسب لها حساب في تقديرنا ولكنه في التقدير الإلهي يصنع التاريخ ويجعل في موضعه المناسب، بل إنّ اختيار الإنسان بذاته أيضاً جزء من التقدير والتدبير العام، والإنسان ليس مختاراً مطلقاً وإنّما له التأثير في بعض العوامل التي تؤثر في حدوث الشيء.

وهنا ينشأ سؤال وهو أنّه إذا كان كل شيء مقدراً فلماذا يحاول الإنسان تغيير الواقع ومعالجة الأمراض؟ ولماذا يتجنّب الحوادث؟ وهذا ما نسمعه من كثير من الناس، فإنّ بعضهم مثلاً يسرع في السيقاة ويبرّر ذلك بأنّه لا يقع إلا ما قدره الله، فإن قدر الحادثة فلا ينفع الاحتياط وإن لم يقدر فلا يضر الإسراع.

وبعضهم يتهاون في المعالجة بحجة أن الشفاء بيد الله تعالى، فلا ينفع دواء إن لم يقدر الشفاء منه، ولا يضر ترك العلاج إن قدر الشفاء، مع أن الواقع المشهود خلاف ذلك.

والجواب عنه أن التقدير يشمل فعل الإنسان، والله تعالى يقدر ما يشاء، فقد يكون التقدير موافقاً لما يريده الإنسان ويسعى له، وقد لا يكون ولا يقع إلا ما قدره الله تعالى، ولكن الإنسان إذا لم يقم بواجبه ولم يسع له فهو المعلوم، فإذا كانت الحادثة ناتجة من السرعة فالإثم عليه شرعاً وعرفاً، وإن كان ذلك بتقدير من الله تعالى؛ لأن المقدّر ليس هو الحادثة على كل حال، بل المقدّر أنه يسرع باختياره ويتسبّب للحادثة.

وكم من الموارد نجد فيها الإنسان يحاول بكلّ جهد ويهيء كلّ المقدمات وهو بظاهره متمكّن من الوصول إلى غايته، ولكن التقدير لا يساعده والعمامة تعتقد أن الحظ لم يكن حليفاً له، وبالعكس نجد موارد كثيرة يغفل أو يتغافل القائم بالأمر والعادة تقتضي أن يموت المريض مثلاً ولكن يقع ما لم يكن بالحسبان وتأتيه النجاة من حيث لا يحتسب، ولكن كلّ ذلك لا يبرّر أن لا يقوم الإنسان بواجبه، فإن تهاون وأدى ذلك إلى موت المريض أو أيّ ضرر آخر، فإنه هو المعلوم وربما يكون ضامناً شرعاً.

هذا ولكن الكلام في ارتباط هذه الآية بما قبلها من الآيات ويلاحظ أن بعض المفسرين فسرها منفصلة عما قبلها وكأنها ليست في سياق الآيات السابقة ولا ترتبط بما خوطب به المشركون. ولكن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يدلّ بوضوح أن السياق مستمرّ في نفس الموضوع حتّى

إنه لم يترك مخاطبة المشركين، فهذه الآية وما بعدها داخلتان في سياق خطابهم وتحذيرهم.

والعلامة الطباطبائي رحمته الله اعتبر هذه الآية تعليلاً للآيتين قبلها، فكأنه جواب عن سؤال يستغرب به هذه العقوبة القاسية يوم القيامة بالنسبة للمجرمين وأنهم يسحبون في النار على وجوههم، فيجاب عنه بأن ذلك من خلق الله تعالى وقد خلق كل شيء بقدر، ومنها الإنسان وما يؤول إليه أمره في الحياة الأخرى وما يترتب على أعماله من خير وشر، فكل ذلك أمر طبيعي يتبع خلقه الله تعالى التي وضعت كل شيء في موضعه لا يتخلف عنه ولا يحيد. ثم تعرض لبحث جيد قويم حول تعليل أفعاله تعالى وهو بحث لا غنى عنه.^١

ولكن الآية المذكورة ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ تقتضي أن يكون السياق خاصاً بالتحذير عن عذاب الدنيا، فالسورة ابتدأت بذلك وانتهت به وإنما ورد ذكر العذاب الأخروي في الآيتين السابقتين كأمر فرعي للتنبيه على أن موعد الجزاء الواقعي هو يوم القيامة، فلا تغرركم النجاة من عذاب الدنيا، وأمّا الأمر الأصلي الذي تتعرض له الآيات هو التحذير من عذاب الاستئصال.

والسر في ذلك أن البشر لجهله بحقائق الأمور ولكونه عجولاً كما - أخبر به خالقه - لا يحذر من عذاب الآخرة كحذره من عذاب الدنيا، حتى المؤمنين بالآخرة تجدهم يتقون ويتجنبون المعصية إذا قيل لهم إنها تستتبع عذاباً دنيوياً وإنها تقطع الرزق أو تقصر العمر مثلاً، أمّا كونها تستتبع غضب الله تعالى وعذابه يوم القيامة فلا يردعهم أو ليس رادعاً قوياً لهم، مع أنه أدهى وأمر.

وكذلك الثواب، فإذا قيل لهم: إنّ الصدقة تدفع البلاء اهتَمُّوا بها، أمّا العبادات التي تقرّب العبد إلى الله تعالى وتبعثه مقاماً محموداً فلا يهتمّون بها.

وهذا الاستعجال في الوصول إلى النتائج يؤثّر في عزيمة الإنسان حتّى بالنسبة للعقوبات القانونية في الدنيا، فإذا رأى من تدعوه نفسه إلى ارتكاب جريمة أنّ الحكم ضده يتأخّر سنين، كما هو الحال في المحاكم المتعارفة في عصرنا حسب النظام القضائي الحديث، فإنّه لا يرتدع مهما كان العقاب قاسياً. بل حتّى في ترتّب الآثار الطبيعية، ولذلك لا يقلع المدخنون عن التدخين مهما يُحذّرون من عواقبه، لأنّهم لا يشعرون بخطر سريع.

وعليه فالظاهر أنّ الآية الكريمة تعود إلى التحذير من عذاب الاستئصال وترد على استعجالهم بالعذاب بأنّ لكلّ شيء تقديرًا ووقتًا محددًا وشروطًا، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^١.

﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كُلَّمَحٍ بِالْبَصْرِ﴾ تأتي هذه الآية في سياق الجواب عن استعجالهم بالعذاب، وذلك لأنّ أمر الله تعالى لا يكون إلا واحداً فلا يحتاج إلى تكرار، ومن جهة أخرى فإنّ ترتّب الأثر عليه سريع جداً، فهو كلمح بالبصر.

واللمحة النظرة السريعة وهو تعبير عن السرعة وقصر المدّة، والمراد أنّه إذا أمر الله تعالى بشيء فلا يحتاج إلى تهيئة مقدمات وأجواء، وإنّما هو إرادة تستيع الشيء فوراً وبلا توقّف، فلا يغركم التأخير، فإنّه لا يخاف الفتور، وإذا نزل العذاب بساحتكم فليس هناك إمهال ولا تأخير، فتوقّعوا وقوعه في كلّ لحظة، فإنّه إذا حقّت كلمة العذاب فقد نزل من دون فاصل.

وتوصيف الأمر بكونه واحدة مع أن اللفظ مذكر لعلّه من جهة أنه كلمة واحدة وهي كلمة «كن»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^١ وفي الواقع ليست هناك كلمة لفظية تقال، وإنما هو إرادة عبر عنها بهذه الكلمة.

ويمكن أن يكون الأمر بمعنى الشأن، أي ليس شأننا فيما إذا أردنا شيئاً إلا إرادة واحدة أو إشارة واحدة، فالتوصيف بالصفة المؤنثة بتقدير الإرادة أو الإشارة، والمراد أنه لا يحتاج إلى تعدّد، فهو أمر واحد وإرادة واحدة ويتحقّق المراد فوراً كلمح بالبصر.

وليس معنى ذلك أن المخلوقات توجد كلّها بصورة فورية، فإن أكثر ما نجده حولنا يوجد تدريجاً وبتطوّر، وقد صرح في القرآن الكريم بأنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيّام وقلنا بأنّ المراد ستّة مراحل من التطوّر، والله تعالى يعلم كم مضى من الزمان لكلّ مرحلة ولا يعلمه أحد غيره.

وإنّما المراد هنا أنّ ما يريده الله تعالى يتحقّق فوراً ولكن إذا كان وجوده تدريجياً فإنّه بالطبع يتدرّج في الوجود حتّى العذاب الذي أنزله الله تعالى على الأقوام السابقة – والتهديد هنا ينظر إليه – ما كان يوجد في لحظة. والحاصل أنّ التدرّج أو التطوّر من شؤون المخلوق وليس من شؤون الخلقة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يعود السياق إلى تهديد المشركين باحتمال نزول عذاب الاستئصال، كما حدث للأمم السالفة ويحثّهم على التذكّر. وهذه الآية كما قلنا تدلّ على أنّ الخطاب مستمرّ مع المشركين، والمراد

بأشباعهم الأمم السالفة التي كانت مثلهم في العقيدة والمبدأ، وقد مرّ مثله في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾^١، أي بأشباعهم ونظائرهم، وأصله من المشايعة أي المتابعة إلا أنه هنا ليس بمعنى المتابعة؛ لأنّ السابقين لا يتبعون اللاحقين، بل الأمر بالعكس ولكنه يطلق بهذه المناسبة على أصحاب المذهب الواحد ويعتبرون كلّهم شيعة واحدة، فلا غرابة في إطلاق الأشباع على السابقين.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ مكرّر في السورة وقد مرّ الكلام حوله.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، ﴿فَعَلُوهُ﴾ جملة وصفية، أي كلّ ما فعلوه مكتوب في الزبر، وقد مرّ أنّه جمع زبور، بمعنى الكتاب. والمراد الكتب التي يكتب فيها الملائكة الموكّلون بالرقابة على الإنسان وتسجيل أعماله، قال تعالى: ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾^٢ وقال أيضاً: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾^٣ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^٤ وليس المراد أنّهم يكتبون ذلك في قراطيس مثلاً أو نحوها، بل الكتابة بمعنى الجمع، والمراد أنّ ما يفعلون مجموعة ومحفوظة بذواتها ويؤتى بها يوم القيامة كما هي، قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾^٥.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾، ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ من السطر وقد مرّ أنّه بمعنى الصفّ ومنه

١. سبأ (٣٤): ٥٤.

٢. يونس (١٠): ٢١.

٣. الزخرف (٤٣): ٨٠.

٤. الانفطار (٨٢): ١٠ - ١٢.

٥. الكهف (١٨): ٤٩.

صفّ الحروف في الكتابة. والمعنى أنّ كلّ صغير وكبير مسجّل ومكتوب، فإن أريد بهما أعمال الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^١ فيكون تأكيداً لمضمون الآية السابقة، وإن أريد بهما كلّ الأشياء، فالمعنى أنّ كلّ صغير وكبير من الأمور مسجّل في علم الله تعالى، كما قال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^٢ وغيرها من الآيات، وهذا أقرب؛ لأنّه يكون بذلك دليلاً على المضمون السابق لا تأكيداً. والأصل في الكلام التأسيس لا التأكيد.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ هذا من التبشير بعد الإنذار، كما هو دأب القرآن الكريم وفيه ختم السورة باللطف والرحمة.

و﴿في﴾ للظرفية الحقيقية باعتبار أنّ الجنّات مسكنهم وهي تشتمل على الأنهار. ونهر بالفتح بمعنى النهر بالسكون ويراد به الجنس. وقيل: إنّهُ بمعنى السعة. وورد ذلك في رواية عامية.

والمقعد: موضع القعود، وهو خلاف القيام، ويعبر به عن الاستقرار، فهم في مستقرّ صدق وهو من الإضافة إلى الوصف.

والصدق: مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي مقعد صادق. والصادق من كلّ شيء ما يفي حقاً بما هو المطلوب منه، يقال: سيف صادق، أي قاطع لا يخونك في الحرب، فالمقعد الصادق ما يفي بكلّ ما يتطلبه الاستقرار والثبات.

وقيل: إنّ المراد صدق المتّقين في إيمانهم، فالمقعد مقعد صدق باعتبار أنّه

١. الكهف (١٨): ٤٩.

٢. سبأ (٣٤): ٣.

مقعد الصادقين، نظير ما يقال في توصيف مجلس يحضره العلماء: إنه مجلس العلم والحكمة. ولا بأس بهذا المعنى.

وفي «مجمع البيان»: «أي في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم. وقيل: وصفه بالصدق لكونه رفيعاً مرضياً. وقيل: لدوام النعيم به. وقيل: لأن الله صدق وعد أوليائه فيه»^١ وكل ذلك بعيد وقيل غير ذلك أيضاً.

والمليك: مبالغة في الملك حيث لا ملك ذلك اليوم إلا له، والملك دائماً ليس إلا له تعالى، ولكنه يؤتي الملك من يشاء في الدنيا وفي إطار النواميس الطبيعية، أما هناك فلا ملك إلا له تعالى.

وتكثير المليك والمقتدر للتعظيم، أي مليك ما أعظم ملكه ومقتدر ما أعظم قدرته. والغرض من التأكيد على الوصفين تذكيرهم بعظمة النعمة، فإنهم مكرمون لدى من يملك القدرة التامة التي لا حد لها ولا عجز معها.

وكونهم عنده تعالى غاية التشريف والتكريم وهو أعظم نعمة ينعم الله تعالى بها على عباده المخلصين على الإطلاق، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ رزقنا الله رضوانه في الدنيا والآخرة إنه سميع قريب.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد وآله الطاهرين.

١. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٢٩٥.

٢. التوبة (٩): ٧٢.

تفسير سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ حُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْعِمْرَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْعِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الزُّرْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَخْشَوْا
الْعِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝

اختلف المفسرون تبعاً لما روي عن الصحابة والتابعين في أن هذه السورة
مكية أم مدنية؟ وغالب الروايات على أنها مكية، وهذا الاحتمال أقوى لشهادة
السياق ونوعية الآيات والله العالم.

وقد ورد في بعض الروايات أنها عروس القرآن، ولعلّه لسجعها وقوافيها
وتكرار الآية الواحدة بمناسبات متعددة مما يزيد جمالاً وبهاءً. وموضوعها
الإنسان وما منحه الله تعالى من النعم في الدنيا وما أعدّ له يوم القيامة على
اختلاف المراتب من القرب لديه تعالى.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ابتداءً السورة بهذا الاسم الكريم المفعم بالرحمة وجعله آية بنفسه من دون أن يسبقه فعل أو يتعقبه خبر في نفس الآية ليتلى هذا الاسم وحده، فيكون له أعمق التأثير في نفوس السامعين ويتشوقوا إلى رحمة الله تعالى ويستعدوا لتلقي ما يراد تعقيبه به من خبر أو صفة، خصوصاً هذا الاسم الذي يعتبر عند السامعين المشركين غريباً وهو في نفس الوقت إيدان بأن مضمون الآيات التالية سيكون ذكر نعم الله تعالى ومظاهر رحمته. وهذه هي السورة الوحيدة التي ابتدئت باسم من أسماء الله تعالى.

وأكثر كتب اللغة القديمة خالية عن تفسير كلمة الرحمة، ولعلّه لوضوح المعنى وفي بعضها، كالصاحح أنّها الرقة والعطف،^١ ولكن ورد في التفاسير تبعاً لبعض اللغويين كالراغب في «المفردات»^٢ - وهو إلى الكلام أقرب منه إلى اللغة - بأنّها رقة في القلب تقتضي الإحسان، وأنّها إذا نسبت إلى الله تعالى قصد منها نفس الإحسان؛ إذ لا يمكن أن يوصف تعالى بالرقة، وقال العسكري في «الفروق»: «إنّ الرقة والغلظة يكونان في القلب وغيره خلقة والرحمة فعل الراحم والناس يقولون رقى عليه فرحمه يجعلون الرقة سبب الرحمة»^٣. وعليه فتوصيفه تعالى بالرحمة إسناد لنفس الإحسان والعطف إليه من دون تأويل؛ لأنّ إسناد الرحمة إلى غيره تعالى أيضاً بنفس المعنى.

والرحمن والرحيم صيغتا مبالغة من الرحمة، ويقال: إنّ الرحمن أشدّ مبالغة. وقيل: إنّ صيغة فعّال تدلّ على الشمول والسعة، وإنّ صيغة فاعل تدلّ على

١. الصحاح في اللغة ١: ٢٤٧.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٣٤٧.

٣. الفروق في اللغة: ١٨٩.

ثبوت الصفة ولزومها، ومن هنا يقال: إن اتصافه تعالى بالرحمن من جهة شمول رحمته في الدنيا لجميع الخلائق، واتصافه بالرحيم من جهة اختصاص رحمته المستقرّة والثابتة بالمؤمنين يوم القيامة، ولكن هذا التفصيل محلّ نظر.

وربما يستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^١ وذلك بلحاظ أن الكتابة بمعنى التسجيل، فيدلّ على الثبوت والدوام فيختصّ بالآخرة.

ولكنّ الظاهر أن المراد بهذه الآية أن الرحمة المكتوبة المسجلة إنّما هي للمتّقين، وأمّا غيرهم فربما لا تشملهم الرحمة أصلاً، وربما تشملهم فيدخلون الجنة، وربما تشملهم في تخفيف العذاب ونحوه.

وليس معنى الآية أن رحمته تعالى يوم القيامة لا تشمل العاصين، فإنّه تعالى يغفر الذنوب جميعاً ويغفر للتائبين وغيرهم ويقبل الشفاعات.

والآيات الدالة على سعة رحمته يوم القيامة كثيرة جداً. مضافاً إلى ما ورد في القرآن الكريم من إطلاق صفة الرحيم على الله تعالى بلحاظ رحمته في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^٢ وأيضاً بلحاظ رحمته على غير المؤمنين في الآخرة، كقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنِ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^٣.

وفي «الكافي» في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير البسملة، قال (عليه السلام):

١. الأعراف (٧): ١٥٦.

٢. الإسراء (١٧): ٦٦.

٣. الأحزاب (٣٣): ٢٤.

«والله إله كل شيء الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة»^١ ولكن السند ضعيف، وفي لفظ الحديث بتمامه ما لا يخلو عن غرابة.

وقال في «مجمع البيان»: وروي عن الصادق (عليه السلام): «الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة»^٢ ويمكن أن يكون إشارة إلى نفس الحديث السابق. ومهما كان فهو مرسل لا يستند إليه.

وكل ما يروى في هذا الباب يتعارض مع ما ورد في أدعية كثيرة مأثورة بهذا التعبير: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»^٣ ومنها دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة. وورد أيضاً في بعض كتب العامة.^٤ وفيما ذكرناه من الاستشهاد بالآيات كفاية.

ومهما كان فبسبب اختصاص هذه الصفة - أي الرحمن - بالله تعالى اعتبرت علماً للذات المتعالية لا يطلق على غيره تعالى في لغة العرب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^٥ ولعل السبب فيه هو دلالتها - كما قيل - على شمول الرحمة لكل شيء، ولا يمكن ذلك إلا منه تعالى.

والظاهر أنها من مبدعات الإسلام والمشركون ما كانوا يعترفون بهذا الاسم أو هذه الصفة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ وَلَمْ يَقُولُوا «وَمِنَ الرَّحْمَنِ» وَالْأَسْتَفْهَامُ الْإِنْكَارِي بهذا اللفظ يدل على أنهم ما كانوا يفهمون لها معنى.

١. الكافي ١: ١١٤.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن ٢: ١ - ٥٤.

٣. راجع: الصحيفة السجادية: ٣٠٨؛ الكافي ٢: ٥٥٧؛ عيون أخبار الرضا ٢: ١٩؛ التهذيب ٣: ٩٥.

٤. منها ما رواه الحاكم في المستدرک ١: ٥١٥، باب دعاء قضاء الدين.

٥. الإسراء (١٧): ١١٠.

٦. الفرقان (٢٥): ٦٠.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قدّم على كلّ النعم تعليم القرآن؛ لأنّه الآية الكبرى والنعمة العظمى والعروة الوثقى والثقل الأكبر والجبل الممدود من السماء إلى الأرض. ولا شكّ أنّ أعظم النعم على الإنسان هو ما يربطه برّبّه وخصوصاً إذا كان الرباط ممدوداً من قبله سبحانه.

ولم يذكر من وقع عليه التعليم؛ إذ لا شأن له به، وإنّما الشأن هو تعظيم النعمة. والظاهر أنّ المراد تعليم البشر بوجه عام؛ لأنّ السياق يدلّ على أنّ الغرض بيان نعمه تعالى على الإنسان، ومع ذلك فقد قدّم ذكره حتّى على خلق الإنسان. فما قيل من تقدير الرسول ﷺ أو الملائكة بعيد.

و«القرآن» علّم للكتاب العزيز، وبعضهم لا يهمزه بل يتلفّظه قرأناً ويقول: إنّهُ ليس من مادة قرأ، ولكنّ المعروف خلافه، وعلى ذلك فهو في الأصل مصدر قرأ بمعنى جمع، ومنه القرية لمجتمع الناس، ويطلق على التلاوة؛ لأنّ القارئ يجمع الكلمات والجمل المتفرقة في تلاوته.

وقيل: إنّ تسمية الكتاب العزيز بذلك من جهة أنّه جامع للأحكام وغيرها ممّا يحتاج إليه الإنسان لبلوغ الكمال المنشود.

ثم إنّ سياق الآيات له مغزى آخر فقد ذكر أربعة من الآيات الإلهية بعد ذكر الاسم الكريم من دون عطف، ثمّ عطف الموارد الأخرى، وهذا لا يبعد أن يكون بمعنى التدرّج في مكانة هذه الآيات وعظمتها، فأعظمها هو القرآن الكريم، ثمّ خلق الإنسان، ثمّ تعليمه البيان، ثمّ سائر النعم التي أنعم بها على الإنسان، حيث ذكرها ضمن آيات متعاطفة، كمجموعة واحدة.

ولكن في «الكشّاف» ذكر وجهاً لهذا التفريق بين الجمل وتبعه من بعده، فقال

بالنسبة للجمل الأولى: «وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد، كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذلّ، كثرك بعد قلّة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد، فما تنكر من إحسانه؟»^١

ثمّ قال في وجه التعاطف في غيرها: «فإن قلت: كيف أخلّ بالعاطف في الجمل الأول، ثمّ جيء به بعد؟ قلت: بكتّ بتلك الجمل الأول واردةً على سنن التهديد ليكون كلّ واحدة من الجمل مستقلةً في تقرير الذين أنكروا الرحمن وآلاءه، كما يبيّك منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قدّمته، ثمّ ردّ الكلام إلى منهاجه بعد التبيكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف»^٢.

وما ذكرناه أولى؛ إذ مقتضى ما ذكره أنّه لا فرق بين كلّ هذه النعم والآيات، ولكنه بصورة عشوائية انتخب بعضها، فذكرها بدون عاطف وابتدأ بالعطف أيضاً بدون فارق بينها، فإنّ حركة الشمس والقمر لا تختلف عن سجود النجم والشجر ورفع السماء وسائر النعم الأرضية.

هذا مضافاً إلى أنّهم لم يعتبروا خلق الإنسان من ضمن الآيات المهمّة الإلهية، بل اعتبروها مقدمة لذكر النعمة التالية، وبناءً على ما ذكرناه يعتبر من أعظم الآيات، بل لعلّه أعظمها على الإطلاق بعد القرآن الكريم.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ربما يستفاد من الآية والسياق - كما قلنا - أنّ خلق الإنسان من أعظم آيات الله تعالى بعد القرآن الكريم، والله تعالى استحسّن خلقه لهذا الكائن

١. الكشف ٤: ٤٤٣.

٢. نفس المصدر ٤: ٤٤٤.

المعجزة بما لم يذكره في أي خلق آخر، حيث قال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^١. ولم يرد هذا التعبير «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» إلا في هذا المورد، مع أنه تعالى ذكر مراحل خلق الإنسان في عدة موارد وبصور مختلفة، ولعلّ الفارق بينها هو الإشارة في هذه الآية بخلق النفس البشرية التي بها يمتاز البشر على غيره من الحيوان، حيث قال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾. وقال تعالى أيضاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^٢.

ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٣؛ لأنّ المراد بهذه الآية أنّ خلق الكون بأجمعه أكبر، أي أعجب من خلق الناس، والمراد به إعادة خلقهم يوم القيامة؛ لأنّ خلق الكون إنّما كان من لا شيء، بل بمجرد الإرادة الإلهية. والغرض التنبيه على أنّ إعادة الخلق يوم القيامة أهون من بدء الخلق، وهذا المعنى متكرّر في القرآن الكريم.

ويكفي في تكريم الإنسان أنّه تعالى أمر ملائكته بالسجود له، فقال تعالى: ﴿إِذَا سَأَلْتَهُمْ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^٤ وليس ذلك سجوداً لآدم عليه السلام، بل هو للإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾^٥ ولعلّ السجود الذي هو غاية التذلل تعبير عن أمرهم بتلبية حاجات

١. المؤمنون (٢٣): ١٢ - ١٤.

٢. التين (٩٥): ٤.

٣. غافر (٤٠): ٥٧.

٤. الحجر (١٥): ٢٩.

٥. الأعراف (٧): ١١.

الإنسان الطبيعية وتنفيذ إرادته تحقيقاً لما أَرَادَهُ اللهُ تعالى من استخلافه في الأرض. والملائكة هم وسائط أوامر الله التكوينية التي بها تحدث كل حركة أو سكون في الكون.

ومما يدل على تكريمه وتعظيم خلقه أيضاً قوله تعالى في تأنيب إبليس لعدم سجوده لآدم عليه السلام: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾^١ والتعبير باليدين كناية عن مزيد العناية بخلقه؛ لأن الإنسان إذا اهتم بأمر استعمل يديه معاً، كما أن الإتيان بالضمير المفرد في: ﴿خَلَقْتُ﴾ يدل على مزيد العناية، فكأنه تعالى خلقه بالمباشرة لا بالوسائط الطبيعية. وقد مرّ في تفسير الآية الكريمة ما ينفع في المقام. ولو لاحظنا جسم الإنسان أيضاً وجدناه من أغرب الموجودات الحيّة وأكثرها تعقيداً، وكلّما تقدّم العلم انكشف له عالم جديد مدهش في داخل هذا الكائن الغريب، ومن أغرب ما فيه أنّه كلّما تقدّم في العلم وانكشفت له الحقائق زاد كفراً وطغياناً على ربّه، فحقّ فيه قوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾^٢. والمفسّرون اعتبروا هذه الآية مقدّمة للآية التالية، وقالوا إنّها ليست مقصودة بالذات وما ذكرناه أقرب.

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ البيان بمعنى الكشف والإيضاح، وأصله من البين بمعنى الفرقه، وحيث إنّ وضوح الشيء يتوقّف على تفكّك أجزائه بعضها عن بعض ومعرفتها واحداً واحداً، وأنّ توضيح الأمر المشتبه يستلزم تفكيك المتشابهات بعضها عن بعض والفصل بين الحقّ والباطل، عبّر عن إيضاح الشيء بالبيان.

١. ص (٣٨): ٧٥.

٢. عبس (٨٠): ١٧.

وهذه ثالث الآيات الإلهية المذكورة هنا، وهي أيضاً عجيبة ومهمّة في هذا الكون، فإنّ الظاهر أنّ المراد بالبيان قدرة الإنسان على بيان ما يعلمه، وهو ما نعبّر عنه بالنطق، فليس المراد بالنطق مجرد التلفظ بالحروف، بل المراد التعبير عمّا يختلج في النفس.

والمراد بالتعليم إيجاد هذه القدرة في الإنسان، وليس بمعنى تعليم اللغات، كما يتوهم، فالإنسان قادر على التعبير عن كلّ شيء من المحسوسات، بل من المعقولات، بل ما لا يدرك كنهه من صفات الله تعالى وما يتعلّق بما وراء الطبيعة، وينقل هذه المعلومات بكلّ بساطة وبكلّ دقّة إلى غيره من بني نوعه من المخاطبين، بل إلى الأجيال المتأخّرة، ولولا ذلك لبقى الإنسان كسائر الأحياء في تجربته الأولى. فكلّ ما نجده من التقدّم والتطوّر العلمي في مختلف المجالات مدين لهذه القدرة التي وهبها الله تعالى للإنسان الكفور.

وقد أشار سبحانه إلى أهميّة هذه الصفة، حيث اعتبرها سرّاً تقدّم الإنسان على الملائكة حينما قارن بين قدرة الإنسان الأوّل على البيان وعجزهم عنه، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^١ حيث يظهر من هذه المكالمة أنّ الملائكة لا يعلمون إلا ما علّمهم الله تعالى والإنسان أيضاً كذلك، وكلّ ما في الكون منه تعالى إلا أنّه أودع في الإنسان القوّة على التعبير عن كلّ ما يعلمه ولم يودع ذلك في موجود

آخر حتّى الملائكة، فهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون ولا يُظهرون إلا ما حُمّلوا ولا يُبدعون أمراً من عندهم، إذ لم يجعل الله تعالى لهم قدرة الإبداع والبيان، فهذا هو السرّ في تقدّم الإنسان وتكامله وهو السرّ في استحسانه تعالى لخلقه.

والظاهر أن المراد بتعليم آدم الأسماء هو تعليم البيان المذكور هنا، وأن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ ما قاله في آية قبل الآية السابقة بعد اعتراض الملائكة على خلق الإنسان بأنّه إن كان خليفة وحرّاً فإنّه يفسد فيها ويسفك الدماء، وأنّ الغرض من خلقه لو كان التسبيح والعبادة، فإنّا نسبح بحمدك ونقدّس لك حيث أجابهم تعالى بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولعلّه أشار بذلك إلى أنّ هذا المخلوق بحريّته وتكامله قادر على أن يطوّر نفسه ويصل إلى مقام أعلى من الملائكة، وهذا هو الغاية الأسمى من الخلق، لا خلق من يودع فيه التسبيح فيسبح ويقدّس.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ من هنا يبدأ بالتنبيه على الآية الرابعة، أي نظام حركة الشمس والقمر وسائر النعم الإلهية الكونية أو الأرضية، والجملة مستأنفة لا ضمير فيها يعود إلى الرحمن، كما كان في سابقتها، حيث كان ضمير الفاعل في: ﴿عَلَّمَ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ و﴿عَلَّمَهُ﴾ يعود إلى المسند إليه، ولكنّها في سياق ما أخبر به عنه في الآيات السابقة، وارتباطها بتلك الجمل ارتباط معنوي، وذلك لأنّه يعدّ فيها آياته تعالى، كما هو مدلول السياق، فكأنّه قال هنا: الشمس والقمر بحسبان. وكذلك الجملة التالية، فكأنّه قال: والنجم والشجر يسجدان له.

والحسبان مصدر من الحساب والتقدير، أي إنّ حركتهما وكلّ شيء فيهما بنظام وتدبير دقيق. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ^١ وخصّهما بالذكر دون سائر النجوم والكواكب لأنّهما محسوسان لكلّ إنسان بصير، ولا تتوقّف ملاحظتهما على خبرة وتدقيق علمي، ونظامهما يؤثّر في حياة الإنسان تأثيراً عميقاً، حيث يحسب به السنين والشهور وغير ذلك، والقرآن لا يخاطب البشر في عصر خاصّ، بل يجري مجرى الشمس والقمر، فيبقى خطابه حيّاً في كلّ عصر.

ونظام الكون المشار إليه هنا نظام في غاية الدقّة، وقد اكتشف الإنسان بعض خصائصه منذ أقدم العصور وعلى أساسها نظّم حياته، وكلّما تقدّم العلم انكشفت خصائص أخرى من هذا النظام الدقيق الذي لا يتغيّر بمقدار شعرة.

والمراد بحركة الشمس والقمر المشار إليها في التعبير بالحسبان هو ما نشاهده ونشعر به من دورانهما حول الأرض، وإن كان في الواقع ناشئاً من حركة الأرض حول نفسها، فإنّ الحساب لا يتغيّر بذلك، كما لم تتغيّر محاسبة الفلكيين طيلة القرون على الرغم من انكشاف الخطأ.

والحسبان والتقدير الدقيق ملحوظ في النظام الكوني من كلّ جوانبه حتّى في وزن الكرات وحجمها وبُعدها والفواصل بينها وحركتها حول نفسها وحول غيرها وحركة المجموعة معاً وسرعة كلّ حركة ومدارها وميلان مدارها وغير ذلك، فكلّ أمر في ذلك مقدّر بمحاسبة دقيقة يعجز الإنسان عن تأملها، فيا للغباء في من تصوّر أنّ كلّ ذلك حدث بالصدفة ومن دون تدبير وحكمة!!!

ويلاحظ من هذه الآية فما بعد الازدواجية في التعبير، أي المقارنة بين زوجين متناسين في العرض، فهنا قرن الشمس بالقمر، ثمّ النجم بالشجر، ثمّ

الرفع بالوضع، تارة بين السماء والميزان، وأخرى بين السماء والأرض، ثم الفاكهة بالنخل، ثم الحب بالريحان، ثم يأتي تكذيب الجن والإنس، ثم خلقهما، ثم المشرقان والمغربان، ثم البحران يلتقيان، ثم اللؤلؤ والمرجان، ثم يأتي في ذكر عذاب المجرمين ترددهم بين النار والحميم، وفي ذكر أصحاب الجنة أن لهم جنتين؛ إماء ذوات أفنان، وإماء مدهامتان، وفي كل منهما عينان؛ إماء تجريان، وإماء تنضخان، وفي الأوليين من كل فاكهة زوجان، وهكذا تبدو من سياق الآيات تركيز على العرض الازدواجي مما يضيفي على عروس القرآن جمالاً خلافاً زائداً على بلاغتها وإعجازها.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ النجم مأخوذ من نجم الشيء إذا طلع، فيقال لنجوم السماء لأنها تطلع بعد غروب، وللنبات إذا طلع من الأرض. والظاهر بقرينة مقارنته للشجر أن المراد به هنا هو النبات، ولكنهم خصوا بذلك ما ينبت من دون ساق، والشجر يطلق على ما له ساق.

والسجود غاية التذلل، وكل شيء خاضع لله تعالى تكويناً، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾^١ وعليه فالسجود والتذلل بمعنى الانصياع للقانون التكويني الحاكم على الكون بأمر الله تعالى.

ويمكن أن يكون السجود إشارة إلى حالة طبيعية فيهما، قال العلامة الطباطبائي رحمته الله في «الميزان»: «وسجود النجم والشجر انقيادهما للأمر الإلهي بالنشوء والنمو على حسب ما قدر لهما كما قيل، وأدق منه أنهما يضربان في

التراب بأصولهما وأعراقهما لجذب ما يحتاجان إليه من المواد العنصرية التي يغتذيان بها، وهذا السقوط على الأرض إظهاراً للحاجة إلى المبدأ الذي يقضي حاجتهما - وهو في الحقيقة الله الذي يربّيهما كذلك - سجد منهما له تعالى^١. ونضيف إلى ما ذكره عليه السلام التمايل المشهود في النبات إلى الأرض بفعل الريح وغيرها، فهذا التمايل والسقوط يشبه حالة السجود وهذا ليس تمثيلاً وتخيلاً، بل هو إشارة بالكناية والرمز إلى أمر حقيقي هو انصياح الكون لإرادة الله تعالى ضمن استجابته لقوانين الطبيعة، وقد جاءت الإشارة إلى هذه العناية الأدبية في عدة موارد في القرآن الكريم.

فمنها قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾^٢ والرعد ليس اسماً لشيء له صوت، بل هو نفس الصوت، فإسناد التسبيح إليه إسناد مجازي، والمراد أنّ هذا الصوت الهائل المخيف الذي نسمعه تسبيح لله تعالى، وكلّ استجابة طبيعية في الكون خضوع لأمره تعالى، بل تسبيح له تكويناً، بمعنى أنّها تدلّ على عظمة الخالق وتنزّهه عمّا يصفه به الجاهلون.

والتوحيد الحقيقي هو أن لا يعتقد بوجود قانون يحكم الكون إلا مع الخضوع لإرادته تعالى، ولكنّ الكلام هنا في أنّ الصوت بذاته اعتبر تسييحاً لله تعالى مصاحباً لحمده، وهذا لا يكون إلا بعناية أدبية باعتبار أنّ هذا الصوت حيث كان يحكي عن تلك الاستجابة الطبيعية لأوامر الله التكوينية، فكأنّه هو صوت التسبيح، وإلا فالاستجابة لا تختصّ بالصوت.

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٩٦.

٢. الرعد (١٣): ١٣.

وبعبارة أخرى الصوت بما أنه انفعال طبيعي لعوامل أخرى في الطبيعة فهو امتثال لأمر الله تعالى التكويني، وليس ذلك من جهة كونه صوتاً، وحيث إن التعبير هنا يعتبر الصوت كأنه صوت تسييح، فهذا لا يكون إلا بعناية رمزية أدبية. ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ومن الواضح أن الظل ليس إلا أمراً عديمياً ينشأ من إشراق الضوء على جسم كثيف يمنع من إشراقه على جزء من الأرض ونحوها، وهو بالطبع يتحرك بتحريك مصدر الضوء وهو الشمس، فيذهب يميناً وشمالاً والتفتؤ هو الرجوع.

ولكن الله تعالى يعبر عن هذا التحرك بالسجود لله تعالى، لا لأنه خضوع تكويني فحسب، فإنه لا يختص به، بل لأن وضعه وهيئته كهيئة الساجد على الأرض، فهو بذاته تعبير عن السجود له تعالى بنحو من العناية الرمزية. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^١.

وأوضح منهما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^٢ فإن الغرض من هذه الآية إثبات أن قلب الإنسان قد يكون أقسى من الحجر، وليس ذلك بالطبع قساوة طبيعية كما في الحجر، فإن المراد بالقلب روحه الذي يقسو بالمعصية وارتكاب الآثام والجرائم، فهذا تشبيه للقساوة

١. النحل (١٦): ٤٨.

٢. الرعد (١٣): ١٥.

٣. البقرة (٢): ٧٤.

المعنوية بالقساوة الجسمية، وهو تشبيه بعناية أدبية هي أنه كما أنّ الحجر صلب لا يؤثر فيه شيء بالقياس إلى التراب ونحوه، فكذلك قلوب هؤلاء، فإنّ المتوقّع منها أن تتأثر بأوامر الله تعالى ونواهيها، ولكنّها لكثرة جرائمها أصبحت قاسية لا يؤثر فيها ما يؤثر في سائر القلوب.

وفي بيان كون قلوبهم أقسى ذكر أنّ الحجر ربما يلطف فتتفجر منه الأنهار أو يشقّق فيخرج منه الماء، وهذا يحدث بصورة طبيعية ولا ينافي قساوته، ولكنّ التعبير الأدبي يصوّر ذلك، وكأنّه صفة اختيارية تدلّ على لطافته الطبيعية ليرتّب عليه كون قلوبهم أقسى من الحجارة، وكما أنّ التشبيه كان بعناية أدبية كذلك هذا الاختلاف الذي يقتضي شدّة القساوة.

والعناية هنا من جهة أنّ الحجر كسائر أجزاء الكون يستجيب لقوانين الطبيعة، ولا يمكنه التخلف، وذلك لأنّه لا يملك ما يمنعه في داخل ذاته من الاستجابة ويدعوه إلى العصيان، فهو مطيع بصورة طبيعية، والإنسان أيضاً كذلك في مواجهة القانون التكويني مهما عصى وتجرّب، ولكنّ الأوامر الموجهة إلى الإنسان لا تختصّ بالأوامر التكوينية كالحجر، بل يوجّه إليه أوامر تشريعية من ربّه وهو يملك في دخيلة ذاته ما يمنعه من الاستجابة ويدعوه إلى العصيان إلا أنّ الله تعالى يحذّره من الاستجابة لتلك الدواعي، وينبّه أنّها من الشيطان وهو عدوّه اللدود، فإذا استجاب لها وتكرّرت الاستجابة قسى قلبه، بحيث لا يتأثر من أوامر ربّه أصلاً، وحينئذ يكون قلبه أقسى من الحجر؛ لأنّه يستجيب للأوامر التكوينية طوعاً ولا يوجّه إليه غيرها.

ومحلّ الشاهد هنا التعبير بالهبوط من خشية الله تعالى، فهو حسبما نرى سقوط

يحدث نتيجة جاذبية الأرض تحت تأثير عوامل ترززع الحجر من مكانه، ولكن الله تعالى يعتبر ذلك هبوطاً من خشيته، والهبوط فعل اختياري والخشية هي الخوف وهو يختص بمن له نوع من الإدراك، فهل للحجر وغيره من الجمادات والنباتات وكل أجزاء الكون إدراك مجهول لنا؟

ربما يكون كذلك، كما ربما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^١ فَإِنَّ التَّسْبِيحَ التَّكْوِينِي يفقهه الإنسان إلا من هو غافل عن حقائق الكون، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾^٢ فَإِنَّ إِسْنَادَ الْعِلْمِ بالصلاة إلى الطير يستدعي أن يكون لها نوع من الإدراك، ومع ذلك فلا يمكن الجزم به لاحتمال التأويل في كل ذلك.

وسواء ثبت ذلك أم لم يثبت، فَإِنَّ في التعبير عن السقوط الطبيعي بالهبوط عن خشية عناية أديبة؛ سواء قلنا: إِنَّه تعبير أدبي عن الاستجابة للأوامر الإلهية التكوينية، أم قلنا: إِنَّه تعبير عن الإطاعة والامتثال عن إدراك، وذلك لَأَنَّهُ لَا يختلف سقوط الحجر من الأعلى عن صموده وعدم سقوطه، بل عن اندفاعه إلى الأعلى بفعل البراكين مثلاً، فكل ذلك استجابة لقانون الطبيعة، وبالتالي امتثال تكويني لأمر الله تعالى، فاختصاص التعبير عن السقوط بالهبوط، وكذلك التعبير عن تحرك الظل على الأرض أو تمايل الشجر بالسجود ليس إلا لعناية أديبة باعتبار أَنَّ الحالة الخاصة تشبه حالة السجود والهبوط الاختياري عن خشية.

١. الإسراء (١٧): ٤٤.

٢. النور (٢٤): ٤١.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، المراد من رفع السماء خلقها مرتفعة عن الأرض، والارتفاع أمر نسبي، وسماء كل شيء أعلاه، كما قال ابن دريد في «الجمهرة»^١، فكل ما أظننا سماء، وكل ما أقلنا أرض، وعليه فيمكن أن يراد بها هنا الكواكب والأنجم، ويمكن أن يراد بها الغلاف الجوي، ويمكن أن يراد بها العوالم العلوية، أي ما وراء الطبيعة فيكون الرفع معنوياً.

والميزان في الأصل ما يوزن به ويطلق مجازاً على كل مقياس ومعيار، والمراد بالوضع الجعل، فيمكن أن يكون المراد بالميزان هنا قوانين الطبيعة أو الشريعة أو العدل أو نفس الآلة الحقيقية التي يوزن بها البضائع، وقد فسر أيضاً بالقرآن الكريم وبالإمام الحق، وهذا من باب التطبيق.

وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾^٢ وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^٣ والظاهر أن المراد به فيهما الشريعة.

والملفت في التعبير المقابلة اللفظية بين كلمتي الرفع والوضع وإن اختلف المعنيان، فإن السماء إذا أُريد بها الكواكب والأنجم أو الغلاف الجوي فالرفع بمعنى الرفع المحسوس، وإذا أُريد بالميزان القوانين التشريعية الإلهية فالوضع اعتباري وليس حسياً.

ومهما كان ففي الآية إشارة إلى الترابط بين رفع السماء وجعل الموازين، سواء الحقيقية منها والمجازية، فكأنه تعالى يؤكد للإنسان أن خالق الكون هو

١. جمهرة اللغة ١: ٤٨٢.

٢. الشورى (٤٢): ١٧.

٣. الحديد (٥٧): ٢٥.

واضع الشريعة والقانون، وهو الأمر بمتابعة النظم والالتزام بالمقاييس الصحيحة، ولم يفعل ذلك إلا وفقاً للمصلحة الكلية في النظام الكوني، وفيها تنبيه أيضاً على أنه لا يحق لأحد أن يشرع ويحكم إلا خالق الكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد أكد هذا الأمر في آيات كثيرة.

﴿أَلَا تَطْفَعُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ الطغيان هو التعدي والتجاوز، والظاهر أن المراد بالميزان في هذه الآية آلة معرفة الأوزان خاصة، أو المراد به المصدر، أي نفس عمل الوزن، و«أن» في قوله: ﴿أَلَا﴾ يمكن أن تكون تفسيرية وليس تفسيراً لقول، بل لفعل وهو وضع الميزان في الآية السابقة. و«لا» ناهية، فالمراد أن تفسير هذا الوضع هو النهي عن الطغيان فيه، سواء أريد بالميزان في الآية السابقة آلة الوزن، فيكون المعنى أن خلق هذه الآلة وهذا الجعل التكويني تفسيره النهي التشريعي، أو أريد به الشريعة ونحوها، فالمراد أن تفسير هذا الجعل التشريعي هو هذا النهي. ويمكن أن تكون «أن» مصدرية ناصبة بتقدير لام التعليل، فالمعنى لئلا تطغوا، و«لا» حينئذ نافية، أي الغرض المترتب على جعل الميزان أن لا تطغوا فيه. والاحتمال الأول أنسب بالجملة التالية، حيث ورد فيها الأمر بإقامة الوزن، فيكون عطفاً للأمر على النهي.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ القيام هو الانتصاب والاعتدال. وإقامة الشيء جعله منتصباً قائماً حقيقة أو مجازاً، ومنه إقامة الصلاة بمعنى المحافظة عليها والإتيان بها كاملة صحيحة إقامة الوزن هو الوزن الصحيح، وعليه فقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يكون قيداً توضيحياً لبيان أن الوزن الصحيح لا يكون إلا بالعدل والإنصاف، ولذلك فسرت الإقامة بجعل لسان الميزان قائماً، ولكن لا

يختصّ الحكم بميزان له لسان، فهو أعمّ من ذلك.

والقسط العدل وأصله السهم والنصيب، فعبر عن التعدي إلى نصيب الآخرين بالقسط، وعن إعطاء كلّ نصيب لصاحبه أيضاً بالقسط، ولذلك قيل: إنّ من الأضداد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^١ واختصّ الإقساط بالعدل، فيقال: أقسط لمن عدل فقط، فكأنّ الهمزة تفيد السلب، كما يقال: شكا إليه فأشكاه، أي رفع شكواه؛ فالقسط هنا يراد به الجور والإقساط رفع الجور عنه. قال تعالى: ﴿وَأَفْسُطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِطِينَ﴾^٢.

والخسران، أي النقصان، فالإخسار هو الإنقاص، وهذا نهى عن الإنقاص في الوزن إذا وزنت البضاعة لغيرك، وقد اهتم القرآن بهذا الأمر تنديداً بما كان يفعله المشركون في الجاهلية وهو ظلم واضح، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾^٣ والتطفيف: التقليل. وورد في القرآن التنديد بقوم شيعب لهذا السبب أيضاً حيث كانوا ينقصون المكيال والميزان.

ويحتمل أن يكون المعنى لا تخسروا ولا تنقصوا ميزان أعمالكم يوم القيامة بالعدوان على الناس وترك الإنصاف في مختلف مجالات الحياة. ويلاحظ تكرار كلمة الميزان في ثلاث آيات متتاليات مع إمكان الاستغناء عنه بالضمير على افتراض وحدة المعنى، أي آلة الوزن وذلك للاهتمام بأمره والتأكيد عليه.

١. الجن (٧٢): ١٥.

٢. الحجرات (٤٩): ٩.

٣. المطففين (٨٣): ١ - ٣.

﴿وَالْأَرْضَ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ومن نعمه تعالى وآياته أن جعل الأرض لنا قراراً. والوضع في هذه الآية يقابل الرفع في السماء. والمراد به جعلها مسخرة لهم وذلولاً يمشون وينون ويزرعون عليها ويحفرونها ويحراثونها ويعبدونها بالطرق والجواد وينبشونها ويستخرجون دفاتها وكنوزها وهم قد خلقوا منها ويعودون إليها فتؤويهم وتستر معايبهم وجيفهم وتحيلها إلى مواد مفيدة، كما كانت تفعل ذلك بزوائد طعامهم وشرابهم وأثاثهم، وهي في كل ذلك هادئة مستقرة لا تمتنع عليهم بشيء ولا تؤذيهم؛ لأنّ خالقها تعالى جعلها ذلولاً لهم إلا ما يكون منها في مقاطع نادرة من الزلازل وثوران البراكين، وفي ذلك أيضاً مصالح مخفية لهم، وإنّما يتضررون بذلك نتيجة جهلهم لمواضع الانتفاع وبناهم في مواضع الخطر. ولا يمكن للإنسان أن يعدّ وجوه النعمة في هذه الأرض لكثرتها.

واختلف في معنى الأنام بالرغم من قلة من تعرّض له، وأقدم من قال فيه على ما رأيت الخليل عليه السلام قال في «العين»: «الأنام: ما على ظهر الأرض من جميع الخلق»،^١ وقيل: إنّ المراد به الإنس والجنّ، بدليل هذه الآية حيث ورد بعد ذكر هذه النعم الخاصة بالأنام: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والخطاب للإنس والجنّ ولم يسبق للجنّ ذكر، فلا بدّ من حمل الأنام على ما يشملهم. وهذا الاستدلال لا ينافي ما في «العين»، وإنّما يردّ على من خصّه بالإنس.

ولكن الاختصاص بالإنس هو الأظهر بملاحظة موارد الاستعمال، كقول لييد:

فإن تسألنا فيم نحن فإننا عصفير من هذا الأنام المسخر^١
والظاهر أنه جمع لا مفرد له، وحكى ابن دريد في «الجمهرة» عن الكوفيين
أن مفردة «نيم»، وروى قول الشاعر: «فما ان مثلها في الناس نيم» وقال: ولم يعرفه
البصريون.^٢ وهذا الشعر أيضاً من الشواهد على الاختصاص.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ يبدو أن هذه السورة وهي عروس القرآن
- كما في الحديث - معنية بالجهة الجمالية من النعم الإلهية فمع أن الأرض فيها
كل ما يحتاج إليه الإنسان من مأكل ومشرب وملبس وغيرها إلا أنه تعالى خص
هنا بالذكر ما يتلذذ الإنسان، بطعمه أو بمنظره فلم يذكر من أنواع الأطعمة إلا
الفاكهة، وهي ما يؤكل للتلذذ لا لسد الجوع ولم يذكر من النخل ثمرته التي هي
من أغنى الثمار من حيث القيمة الغذائية وهي في نفس الوقت من ألذها طعماً،
وإنما أشار إلى كون النخل ذات أكمام.

والكم: - بالكسر والضم - كل ما يغطي شيئاً ومنه كم القميص، والمراد به هنا
ما يكون فيه طلع النخل، فأشار بذلك إلى جهة من جهات حسن النخل وبهائه.
ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلُ بِأَسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾^٣ فتعرض لجمال النخل في
طوله وفي طلعه المنضود والنخل من الأشجار المتوافرة لدى العرب وهم
معجبون بها.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحب: يقال للحنطة والشعير والأرز ونحوها، كما
يقال لبذور الرياحين.

١. معجم مقاييس اللغة ٣: ١٣٨.

٢. جمهرة اللغة ٢: ٩٩٣.

٣. ق (٥٠): ١٠.

والعصف: على ما في «العين»: «ما على ساق الزرع من الورق الذي يبس فتفتت».

والريحان على ما فيه أيضاً: «اسم جامع للرياحين الطيبة والطاقة الواحدة: ريحانة. والريحان: أطراف كل بقلة طيبة الريح إذا خرج عليه أوائل النور»^٢ والنور - بفتح النون - الزهر. والظاهر أنه فعلاّن من الريح وهو الرائحة الطيبة.

ويلاحظ هنا أيضاً أنّ الامتتان في الآية بذكر الحبّ وهو الطعام المتعارف والأساس للإنسان إلا أنّها اهتمّت أيضاً بجهة جمالية فيه، وهو كونه ذا ورق جميل وإن كان بعد يسه تعصف به الريح ويعبر عنه بالتبن إلا أنّه هنا يُذكر بعنوان ورقه الجميل، وأضاف إليه الريحان وهو الثبت ذو الرائحة الطيبة.

وإذا قرئت بالجرّ فتكون معطوفة على العصف، ويراد به حينئذ أطراف الحبّ إذا خرج أوائل نوره وهو - بالفتح - زهره، فالاهتمام هنا أيضاً بجهة جمالية أو رائحة طيبة.

وفي الصحاح - نقلاً عن الفراء -: أنّ العصف ساق الزرع والريحان ورقه.^٣ ولكن بعض المفسرين يقول: إنّ ذكر الحبّ الذي هو طعام الإنسان والعصف الذي هو طعام الحيوان.

ولعلّ السرّ في الاهتمام بالجهة الجمالية هو تنبيه الإنسان على أنّ من آياته تعالى جمال الطبيعة، فإنّ الملاحظ الذكيّ يعلم أنّ الجمال في الطبيعة أمر متعمّد

١. كتاب العين ١: ٣٠٧.

٢. نفس المصدر ٣: ٢٩٤.

٣. الصحاح في اللغة ٢: ٣٩٤.

مقصود، وليست ظاهرة عفوية يمكن فيها التأويل البارد الجافي الذي يتقوله أعداء الله تعالى في كل ما يروونه من دقة في الكون، مع أن الهدف المنبئ عن الحكمة بين واضح في كل جوانب الكون ولكّهم لهم قلوب لا يفقهون بها. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. استفهام إنكاري بعد تعداد مجموعة من النعم الإلهية. والآلاء جمع إلي وإلى وإلى: النعم. والتأكيد على كلمة الربّ للإيحاء بأن ما أنعم به هو مقتضى ربوبيته، ولكن مقتضى العبودية أن تشكروا نعمه لا أن تنكروها وتكفروا بها.

والتكذيب قد يكون بإنكار كونها نعمة، وقد يكون بإنكار كونها من الله تعالى.

والظاهر أن الخطاب للجنّ والإنس وإن لم يسبق ذكر الجنّ إلا أنه في الآية التالية يذكرهم، مضافاً إلى أن سياق الآيات يقتضي أن يكون الجنّ مخاطباً؛ لأنه خاطبهم في قوله تعالى: ﴿سَنَقْرُءُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾. وقيل: إنه سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ وقد مرّ الكلام حول معنى الأنام.

واعترض على ذلك بأنّ الجنّ غير مخاطبين بالقرآن، وإنما الخطاب فيه موجّه إلى الإنسان فقط. ويردّه توجيه الخطاب إليهم في نفس هذه السورة، كما قلنا مضافاً إلى ما ورد من الآيات التي تدلّ على توجيه التكليف إليهم، بل بعث رسل منهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ وهذا يدلّ - بضميمة ما دلّ على صرف الجنّ لستمعوا القرآن في سورة

الأحقاف^١ - أنهم مخاطبون بخطاباته بالمقدار الذي يصل إليهم، كما أن الإنس أيضاً كذلك، فلا يصل الخطاب إلى جميعهم.

وقيل: إنه خطاب للذكر والأنثى من الإنس، وقيل: للمؤمنين والكافرين، وقيل: إنه خطاب للبشر، والتثنية للتكرار والتأكيد نحو ليك وسعديك، أي تلبية بعد تلبية، وقيل: إنه من قبيل خطاب التثنية للمفرد، وإن من هذا الباب أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنٍ﴾^٢.

وكل ذلك تكلفات لا موجب لها ولا مصحح. وقد مرّ في تفسير سورة ق ما هو الصحيح في الآية المذكورة.

هذا مضافاً إلى أن مجرد إمكان تقسيم الجمع المخاطب إلى فريقين لا يبرر خطاب التثنية، فإذا كان الإنسان يخاطب جمعاً يشمل الرجال والنساء لا يصح أن يخاطبهم بضمير التثنية. وهذا الإشكال يرد حتى على تقدير إرادة الجن والإنس. وقد مرّ آنفاً خطابه تعالى الثقلين في سورة الأنعام بنفس العنوان، مع الإتيان بضمير الجمع.

ومن الملفت أنه في نفس هذه السورة بعد أن ورد الخطاب بضمير الجمع للجن والإنس عاد فأتى بضمير التثنية في نفس الخطاب، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ وهذا يدلّ على أن للتثنية شأنًا في هذه السورة، وقد مرّ التنويه على التعبير

١. الأحقاف (٤٦): ٢٩.

٢. ق (٥٠): ٢٤.

الازدواجي في هذه السورة والمقارنة بين شيئين متناسبين.

ومن هنا لا يبعد أن يقال: إنَّ تغيير الضمير في هذا الخطاب ولو بملاحظة إمكان تصنيف المخاطبين إلى فريقين أنما كان بملاحظة اتسام السورة بطابع الثنية ورعاية وحدة القوافي في الآيات، ولذلك أتى بالثنية في موارد لا بدَّ من تأويلها، كالمشرقين والمغربين والجنتين في موردين وأنَّ للفاكهة في الجنة زوجين، كما سيأتي الكلام حول ذلك إن شاء الله تعالى.

ومن جهة أخرى الثنية ليست دائماً بمعنى تحديد العدد، بل تأتي كثيراً ما لتدلّ على التكرار والمضاعفة، وهذا وارد في الكلام المتعارف أيضاً، كما يقوله الشعراء كثيراً من خطاب: «خليلي» ولا يقصد بهما شخصان معيّنان ولا شخص واحد، فلعّلّ القصد بالثنية تكرار الخطاب لكلّ من يسمع أو يقرأ. ومن هذا القبيل قول امرئ القيس: «ففا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»^١.

وفي الكتاب العزيز أمثلة لذلك، كقوله تعالى: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ»^٢ ولا يقصد به الثنية؛ إذ لو ارجعت البصر آلاف المرات لم تجد في خلق الرحمن فطوراً.

وقوله تعالى: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ»^٣ إذ الأجر يؤتى يوم القيامة أضعافاً مضاعفة.

ومثله قوله تعالى: «وَمَنْ يَفْتَنُ مِّنْكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ»^٤.

١. التبيان في تفسير القرآن ٩: ٣٦٧.

٢. الملك (٦٧): ٤.

٣. القصص (٢٨): ٥٤.

٤. الأحزاب (٣٣): ٣١.

ومنه التعبير بالضعفين، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾^١ إذ لا يراد به التحديد قطعاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾^٢ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ الْعَذَابِ﴾^٣.

ومثله أيضاً التعبير بالجنّتين، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾^٤ وكذلك الآية التالية، إذ مجرد كون مجموعة من البساتين عن يمين البلد أو الطريق وشماله لا يبرّر التثنية، فهي في الواقع مجموعة من الجنان، فالتثنية لإفادة التكرّر فقط لا التحديد بالعدد.

ومهما كان فقد تكرّرت هذه الجملة واحداً وثلاثين مرّة في هذه السورة للتأكيد على هذا الاستنكار، وليدلّ على أنّ الغرض منها هو التنديد بتكذيب النعم، وفي أشعار العرب موارد كثيرة من هذا القبيل حيث يتكرّر في قصيدة واحدة مصرع واحد عدّة مرّات للتأكيد على مضمون خاص.

١. البقرة (٢): ٢٦٥.

٢. الأحزاب (٣٣): ٣٠.

٣. الأحزاب (٣٣): ٦٨.

٤. سبأ (٣٤): ١٥.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٨﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٩﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٠﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿٢١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٢﴾

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. هذا تذكير للإنسان بمبدأ نشوئه وخلقته، وهو أول ما أنعم الله عليه حيث أوجده من العدم ليتنعم بهذه النعم، وأولها، بل أهمها معرفته تعالى وعبادته، فهو الغرض الأسمى من خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^١.

وهل المراد بالإنسان جنسه، باعتبار أن كل إنسان مخلوق من التراب، بمعنى أن المواد التي خلق منها تعود كلها إلى التراب وما فيه من العناصر، أم أن المراد به أبو البشر وهو آدم ﷺ فهو الذي خلقه الله تعالى من تراب، وأما سائر البشر فقد خلقوا من نطفة أمشاج؟

اختلف المفسرون في ذلك في هذه الآية وفي غيرها، والصحيح هو التفصيل بين الآيات الكريمة، فهناك عدة آيات ظاهرها أن جنس الإنسان مخلوق من تراب، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾^٢ وهناك ما ظاهرها الاختصاص بأبي البشر، كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^٣.

١. الذاريات (٥١): ٥٦.

٢. غافر (٤٠): ٦٧.

٣. السجدة (٣٢): ٧ - ٨.

والظاهر أنَّ المراد بالإنسان في هذه الآية بالذات آدم عليه السلام؛ لأنَّ نسل الإنسان وإنَّ صحَّ أن يقال: إنَّهم من تراب، ولكن ليسوا مخلوقين من صلصال كالفخار. والصلصال في الأصل تكرر امتداد الصوت؛ لأنَّ الصليل بمعنى امتداد الصوت، قال الخليل عليه السلام: «صلَّ اللجام إذا توهَّمت في صوته مدأً، وإن توهَّمت ترجيعاً قلت: صلصل».

وهذا شأن كلِّ كلمة يتكرَّر فيه الأصل الشائي، كدمدم وزلزل وغير ذلك. والمراد به هنا الطين اليابس؛ لأنَّه إذا حرَّك يخرج منه صوت متكرر. والفخار هو الخزف والطين المطبوخ، فقوله تعالى: «كَالْفَخَّارِ»، أي إنَّه يشبه الخزف في الصلابة وإن لم يكن مطبوخاً.

وقد ورد التعبير بالصلصال في خلق أبي البشر في مورد آخر، قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ»^١ وكرَّر ذلك أيضاً بعدها فقال: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ»^٢ ومرةً أخرى في حكاية قول إبليس: «قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ»^٣ والحمأ: الطين الأسود المتنن، كما في «العين»^٤، وفيه أنَّ المسنون المصبوب وقال غيره المسنون المتغيَّر، ومنه قوله تعالى: «فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْنَهُ»^٥ والظاهر أنَّ

١. كتاب العين ٧: ٨٤.

٢. الحجر (١٥): ٢٦.

٣. الحجر (١٥): ٢٨.

٤. الحجر (١٥): ٣٣.

٥. كتاب العين ٣: ٣١٢.

٦. البقرة (٢): ٢٥٩.

هذه إحدى مراحل تكوّن الإنسان، فلعّله ابتداءً من تراب، ثمّ تحوّل إلى طين، ثمّ إلى حمأ مسنون، ثمّ إلى طين يابس عبّر عنه بالصلصال، ثمّ أصبح صلباً كالفخار، ثمّ تحوّل إلى كائن حيّ، ثمّ نفخ الله فيه من روحه. ومهما كان فهذه المراحل ليست من تطوّرات النسل البشري.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ الجانّ واحد الجنّة، لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا مِنْهُمْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^١ وهم نوع من ذوي العقول بدليل التكليف، وهم مستترون عن حواسنا لا نراهم ولا نسمع كلامهم ولا نحسّ بهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَأَاهُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^٢ والكلمة مأخوذة من جنّ الشيء إذا استتر ومنه الجنّة - بالضمّ - أي الترس للاستتار به في الحرب.

وقيل: إنّ الجانّ اسم أبي الجنّة، ولم نجد في القرآن ما يدلّ عليه، ولا نعلم عن حقيقة الجنّ شيئاً إلا ما حكاه لنا القرآن أو ورد في الروايات المعتمدة، ولذلك لا يمكننا الحكم بأنّ الخلق من النار هل هو خاصّ بأبيهم أو أنّ كلّ أفرادهم خلقوا من مارج من نار.

والمارج من مرج بمعنى خلط، فهو اسم فاعل بمعنى المفعول، أي نار مختلطة، وقال ابن فارس: «أصل المرج الاضطراب»^٣ وعليه فالمراد به نار مضطربة، أي متحرّكة فينطبق على لهب النار، ومن هنا قال بعضهم: إنّها النار الخالصة، وإلا فالمرج ليس بمعنى الخلوّص، بل الاختلاط وهو ضده.

١. الرحمن (٥٥): ٥٦.

٢. الأعراف (٧): ٢٧.

٣. معجم مقاييس اللغة ٥: ٢٨٤.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ النعمة التي يراد الإشارة إليها هنا أصل الخلق والتكوين، لا خصوص خلق الإنسان من طين والجآن من نار، والإيجاد أصل النعم، فكأن الآية تخاطب الثقلين أن الله تعالى خلقكم لينعم عليكم كل هذه النعم، فأَيَّ نعمه تنكرون؟!

ولا نعيد تفسير هذه الآية إلا إذا كان له معنى خاص في مورد آخر.
﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ خبر آخر عن: «الرَّحْمَنُ»، كما هو الحال في الآيات السابقة. والغرض من هذا التعبير التأكيد على سعة الربوبية بعد التنبيه على كونه تعالى هو الخالق، ليؤكد للإنسان أنه لا يكفي الإيمان بالخالقية، بل لا بد من الإيمان بكونه تعالى رب العالمين، فالمشركون أيضاً كانوا يعترفون بأنه الخالق، قال تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^١

والمشهور أن المراد بهما مشرق الصيف والشتاء ومغربهما، وما بينهما مشارق ومغارب، ولذلك قال تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾^٢ وروي ذلك مرسلًا عن أمير المؤمنين عليه السلام.

ولعل تخصيصهما بالذكر هنا من جهة أن الغرض في هذه السورة عدّ الآلاء، وهناك نعم كثيرة تقوّم بها الحياة على هذا الكوكب وتترتب على اختلاف مشرق الصيف ومشرق الشتاء.

مضافاً إلى ما مرّ من تبني السورة للثنية والازدواجية. ولكن النعم لا تترتب على اختلاف المشارق والمغارب زماناً أو مكاناً، وإنما تترتب على نفس وجود

١. لقمان (٣١): ٢٥.

٢. المعارج (٧٠): ٤٠.

الفصلين، بل الفصول. وقيل: المراد مشرق الشمس والقمر ومغربهما وهو بعيد. ويمكن أن يقال: إنّ التعبير يصوّر حقيقة أوسع، فالمراد بالشرق والمغرب كلّ ما يبلغه البصر ويحيط به الإنسان من آفاق الكون، ولعلّ التثنية لمجرّد التكرار والتعدّد كما مرّ، ففي أيّ مكان تمدّ البصر له مشرق ومغرب، مضافاً إلى كون التثنية سمة السورة، كما مرّ أيضاً. فالغرض التنبيه على سعة الربوبية وأنّها تشمل كلّ جوانب الكون. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٦﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا الْقُلُوبَ وَالْمَرْجَاتِ ﴿١٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٠﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٢﴾

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ، أي مرج الله البحرين حال كونهما يلتقيان. والمرج هو الخلط كما مر، ولكن حيث إن قوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يدل على عدم الاختلاط الكامل، كما تدل عليه الآية التالية أيضاً، حمله المفسرون على الإرسال، مع أنه لم يرد بهذا المعنى في اللغة، وإنما استعمل مرج الدابة أو أمرجها أرسلها في المرعى، وذلك لأنّ المرج بمعنى المرعى، وهو أيضاً من جهة اختلاط الدواب، فليس الإرسال أحد معانيه. وفي «العين»: «لاقى بينهما»،^١ وكأنه من جهة كونه لازماً للاختلاط، فيمكن أن يراد به ذلك مجازاً.

والبحر في الأصل بمعنى السعة، ويطلق على الماء الكثير، سواء كان عذباً أو مالحاً، ولا شك أنّ المراد به هنا البحر المالح والعذب، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُنْجُوراً﴾^٢ فهذه الآية تشبه ما نحن بصدد تفسيرها تماماً.

والقول بأنّ المراد به بحران من الماء المالح بعيد جداً لا يصغى إليه. والبرزخ: الحائل بين الشيئين. والبغي في الأصل الطلب، ويطلق على التجاوز والطغيان؛ لأنّه طلب ما لا يستحقّه.

١. كتاب العين ٦: ١٢٠.

٢. الفرقان (٢٥): ٥٣.

والكلام في المراد بالبحرين، فقليل: إنّ المراد بهما التيارات المائية المختلفة في المحيطات، ومنها ما يدعى بتيار الخليج أو (Gulf Stream) وهو تيّار المياه الدافئة في المحيط الأطلسي الذي يؤثر كثيراً في تدفئة الأجواء في أوروبا، ويقال: إنّ هذا التيّار مع عمقه وعرضه وشدة جريانه لا يختلط بمياه المحيط.

ولكن هذا الاحتمال بعيد من جهة أنّ هذه المياه ليست عذبة. إلا أن يدعى أنّه لا وجه لحمل البحرين على المالح والعذب، فيكفي كونهما نوعين من الماء، ولكنّه لا يوافق الآية التي في سورة الفرقان.

وقيل: إنّ المراد بهما مطلق الماء المالح، والعذب على وجه الأرض، وأنّ البرزخ بينهما هو الحالة الطبيعية المانعة من اختلاطهما بحيث يطنى المالح على عذوبة الماء العذب أو العذب على ملوحة المحيطات، فكلّ منهما فوائده، حيث إنّ المحيطات والبحار أنزل سطحاً، فلا تطفئ على الأنهار والبحيرات العذبة.

والأنهار لا تصبّ رأساً في البحار، بل تجري على وجه الأرض مساحات كثيرة، فتصبّ قليلاً من الماء فيها وتبقى ملوحة البحار بالمقدار اللازم لتنقية الجو من التلوّث الذي يسببه الإنسان والحيوان. وبعض الأنهار تصبّ في البحيرات العذبة وهي لا ترتبط بالمحيطات.

والمراد بالتقاءهما صبّ الأنهار في البحار.

واختار العلامة الطباطبائي رحمه الله هذا القول^١ وهو في حدّ ذاته لا بأس به إذا ثبت وجود اللؤلؤ والمرجان في الأنهار والمياه العذبة، كما قيل.

وقيل: إنّ المراد بهما ما يعرفه العرب في عهد النزول من هذين النوعين وهما نهر الفرات وبحر العجم المسمّى اليوم بالخليج الفارسي. والتقاؤهما انصباب ماء الفرات في الخليج الفارسي في شاطئ البصرة ومن هنا كانت البلاد التي على الشاطئ العربي من الخليج الفارسي تعرف عند العرب ببلاد البحرين.

والمراد بالبرزخ الذي بينهما الفاصل بين المائين الحلو والملح بحيث لا يغيّر أحد البحرين طعم الآخر بجواره، وذلك بما في كلّ ماء منهما من اختلاف درجة الكثافة فتمنع اختلاط الآخر به، ويشاهد اختلاف لون المائين خصوصاً لمن يشاهد من الجو.

ويقال: إنّ هذا الأمر، أي عدم الاختلاط يستفيد منه المزارعون على حافة الخليج في إيران، حيث يصل إليهم الماء العذب بالمدّ، فيرتفع الماء ويسقي أراضيهم.

ولعلّ هذا القول هو الصحيح من جهة احتمال وجود اللؤلؤ والمرجان في هذه المياه العذبة على حافة البحار، كما سيأتي. ولكن يبعد اختصاص الآية بهذا الموضع، فهناك مواضع كثيرة من هذا القليل في البحار ولا وجه للتخصيص.

﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، تبين ضمن ما ذكر من الاحتمالات وجه كون البحرين وعدم اختلاطهما من الآلاء.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾، اللؤلؤ درّ يتكوّن في الصدف وهو حيوان بحريّ، وكان يقال قديماً: إنّ اللؤلؤ يتكوّن من تقاطر المطر في الصدف، وتبين أخيراً أنّه يتكوّن من دخول أيّ جسم غريب داخل جسمه حيث يسارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيه بها، ثمّ تتجمّد هذه المادّة لتكون لؤلؤة، ويكون

حجم اللؤلؤة بحسب حجم المادة الغريبة الواصلة إلى داخل الصدف.

والمرجان يطلق في زماننا على حيوان بحري تؤخذ منه مادة للزينة مختلف ألوانها. ولكن الذي يظهر من كتب اللغة وما حكى عن قدامى المفسرين أن المرجان نوع من اللؤلؤ، فالأكثر منهم قال: إنه صغاره وهو الصحيح على ما يبدو، وقال بعضهم: إنه الكبار منه، ومنهم من قال: إنه جيد اللؤلؤ.

وقد وقع الكلام في التفاسير في تأويل هذه الآية، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾^١ وذلك لأنهم لم يجدوا اللؤلؤ والمرجان إلا في البحر المالح، والآيتان تدلان على وجودهما في المياه العذبة وهذا الإشكال مما حاول دفعه قداماء المفسرين وليس أمراً مستحدثاً.

وهناك عدة محاولات لدفع الإشكال:

فمنها تفسير البحرين في هذه الآية ببحرين مالحين، وهما البحرين المعروفان للعرب: البحر الأحمر الذي عليه شطوط تهامة مثل جدة وينبع النخل، وبحر عمان وهو بحر العرب الذي عليه حضرموت وعدن. والبرزخ الذي بين هذين البحرين هو مضيق باب المندب.

وقد مرّ أن هذا القول ضعيف جداً وأنّ آية سورة الفرقان قرينة واضحة على أن المراد بهما في هذه الآية البحر العذب والمالح، مع أنّه لا يحلّ الإشكال بالنسبة إلى الآية التي في سورة فاطر، فإنّ الظاهر أن جملة: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ معطوفة على: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ كُلٍّ﴾، أي من كلّ منهما، فالنتيجة أنّ الحلية

تتخذ من المياه المالحة والعذبة.

نعم، يمكن أن يراد بالحلية في هذه الآية ما يؤخذ من الذهب من شواطئ الأنهار حيث إن الماء يأتي به من الجبال أو غيرها وقد رأينا بأعيننا مجموعة من الناس يبحثون عنه في شواطئ دجلة.

ومنها أنه بحذف المضاف والتقدير: «يخرج من أحدهما»، وهذا التأويل - على فرض صحته - لا يفيد في سورة فاطر أيضاً، كما بيناه، مع أنه في نفسه بعيد جداً.

ومنها أنه من قبيل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾^١ والضمير يعود إلى السماوات، مع أن القمر في واحدة منها وهي السماء الدنيا، فكذلك اللؤلؤ والمرجان يصح أن يقال: يخرج منهما إذا خرج من أحدهما.

ولكن الظاهر أن هناك فرقاً بين الموردين، فالقول بأن القمر فيهنّ، مع كونه في إحداهنّ إنما يصحّ باعتبار أنه في حيزهنّ، أي في مجموعة السماوات، بخلاف استخراج اللؤلؤ، فإنه لا موجب لضمّ ما لا يستخرج منه إلى ما يستخرج منه وليس هنا مجموعة تسمّى البحرين، بل هما أمران مختلفان.

وقال في «الكشاف»: «لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر، ولكن من بعضه، وتقول: خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محالّه، بل من دار واحدة من دوره»^٢.

١. نوح (٧١): ١٦.

٢. الكشاف ٤: ٤٥.

وهذا يصحّ لو صحّ أنّ الالتقاء جعلهما كالشيء الواحد، ولكنّه ليس كذلك، فإن صبّ الأنهار في البحار لا يوجب صدق اتحادهما، كما هو واضح. ومنها ما قيل من أنّ العرب إذا ذكروا أمرين وتعلّق شيء بأحدهما نسبوه إليهما، وأنّ من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾^١ قالوا: ومن المعلوم أنّ الرسل من البشر.

ولكن لم يثبت ما نسب إلى العرب، ولو صحّ في مورد فهو من التسامح، والآية المذكورة ليست من هذا القبيل؛ إذ لا يبعد أن يكون للجنّ رسل منهم، بل لا بدّ من الالتزام به لتمام التكليف، وذلك لا يستوجب وجود شريعة خاصّة بهم، ويظهر بوضوح من سورة الأحقاف أنّ الله تعالى صرف من الجنّ من استمع القرآن وبلغه إلى قومه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾^٢.

ومنها ما ذكره بعض المفسّرين المتأخّرين من أنّهما يوجدان في بعض الأنهار، وفي تفسير «الميزان» نقلاً عن دائرة المعارف للبستاني: أنّ هناك عدّة أنهار في إمريكا وأوروبا وآسيا يستخرج منها اللؤلؤ.^٣ وأكّد لي صحة ذلك بعض من أثق به نقلاً عن مواقع إلكترونية إلا أنّ ذلك يخصّ اللؤلؤ ولم نجد من يدعي وجود المرجان في المياه العذبة، ولكن ذلك لا يضرّ بهذا الوجه لما ذكرناه من أنّ المرجان لدى العرب الأوائل يطلق على نوع من اللؤلؤ. ومن هنا لا يبعد الالتزام بالوجه الأوّل في تفسير البحرين، وهو أنّ المراد ببحر

١. الأنعام (٦): ١٣٠.

٢. الأحقاف (٤٦): ٢٩.

٣. الميزان في تفسير القرآن ١٧: ٢٨.

الماء العذب الأنهار والبحيرات لاشتغالها على اللؤلؤ والمرجان بهذا المعنى، وهذا التفسير للبحرين أولى من غيره.

نعم، لو لم يتم ذلك فالأقرب أن المراد بهما مواضع التقاء الأنهار والبحار، والظاهر اشتغالها على اللؤلؤ والمرجان بالمعنى المعروف عندنا، مع أن ماءها عذب، فيصدق أنه يخرج منهما حقيقة.

﴿يَبَايَ آلَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ اللؤلؤ والمرجان يستفاد منهما للزينة والحلي. والتزين جانب مهم في حياة الإنسان. والشرعة أيضاً لم تهمله وإنما منع من الإفراط فيه، كغيره من ملذات الحياة، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا^١﴾ والريش لباس الزينة، وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ^٢﴾. هذا مضافاً إلى ما يقال من استخدامهما في علاج بعض الأمراض.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ «الجوار» حذفت منه الباء في الكتابة تبعاً للفظ حين الوصل بما بعده، والجواري جمع جارية صفة للسفن مقدرة، أي وله السفن الجواري.

و«المنشآت» يمكن أن تكون من الإنشاء بمعنى الإيجاد، وهذا الوصف إشارة إلى أنها من صنع البشر، ولكنها ككل ما في الكون ملك لله تعالى ملكاً حقيقياً؛ لأنه كسائر ما في الكون متقوم في ذاته ووجوده وبقائه به بإرادته تعالى،

١. الأعراف (٧): ٢٦.

٢. الأعراف (٧): ٣١ - ٣٢.

مضافاً إلى أنه خالق موادّها وصانعها، وهو من خلق في الموادّ هذه القابليّات وفي الإنسان هذا الفهم والإدراك وألهمه صنعها، بل الظاهر أنّ صنع السفن ممّا نزل به وحي السماء على سيّدنا نوح عليه السلام. ثمّ إنّها كسائر ما في الكون مسخّر لإرادته تعالى، وتجري في البحر بأمره، فكلّ حركة وسكون في الكون خاضع لإرادته. ويمكن أن تكون المنشآت من الإنشاء بمعنى الرفع، فتكون إشارة إلى رفع شرّعها، وهذا أنسب بالتشبيه بالأعلام أي الجبال. و﴿في البحر﴾ متعلّق بالجوار. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد تكرّر في القرآن التنبيه على هذه النعمة العظيمة، فالسفن أكبر وأرخص وسيلة لنقل الأحمال والأشخاص قديماً وحديثاً.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٩﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٤٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٤٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٣﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. من هنا يبدأ السياق تدريجياً بالانتقال إلى نعم الآخرة، فأول مرحلة منها مرحلة الموت وهذه الآية تنبّه الإنسان على حقيقة واضحة يعرفها الجميع ويغفل عنها الجميع، وهي عمومية الموت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ والضمير يعود إلى الأرض، إمّا باعتبار ذكرها قبل آيات أو باعتبار أنّ سياق الآيات يدلّ عليها.

و﴿فَانٍ﴾ اسم فاعل من الفناء، والمراد به الموت. والتعبير مبني على الظاهر، حيث يفقد شخص الإنسان، وإلا فالموت ليس فناءً للإنسان حقيقة. وليس معناه أنّه متحقّق بالفعل، كما يظنّ بعضهم، وستأتي الإشارة إليه في تفسير الوجه، بل المراد تحقّقه في المستقبل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^١ و﴿مَنْ﴾ لذوي العقول وإن كان الموت يشمل كلّ حيٍّ ولكن الغرض يتعلّق بالثقلين.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ الوجه كناية عن الذات، كما في أكثر التفاسير باعتبار أنّ هويّة الإنسان في وجهه، فيعبّر به عنه، وبهذا الاعتبار يعبّر به عن كلّ ذات وإن لم يكن له وجه، كما هو الحال في محلّ الكلام. وقد ذكروا في تفسيره وجوهاً أخرى:

منها ما في تفسير «الميزان» من أنَّ المراد به صفاته التي يعرف بها، كما يعرف الإنسان بوجهه، فإنَّا نعرف الله تعالى بصفاته، كالخالقية والرازقية ونحو ذلك.^١ ومنها أنَّ المراد به الأعمال التي يقصد بها التقرب إليه تعالى؛ إمَّا باعتبار أنَّ المراد بالوجه القصد بمعنى المقصود، أي ما يقصد بها الله سبحانه، أو باعتبار أنَّنا إنَّما أمرنا بها للتوجَّه إليه تعالى والتقرب لديه.

ومنها أنَّه الجهة التي يليها الحق، أي يتولاها بفضلها ويفيضها على الشيء من عنده، فهو الباقي دون الشيء في حدِّ ذاته، فإنَّه فإن في كلِّ وقت. ومن هنا يقال بأنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ﴾، أي هو فإن بالفعل، لا أنَّه سيفنى في ما بعد. وقد مرَّ آنفًا.

ومنها أنَّه حيثية ارتباط الشيء وانتسابه إلى الله تعالى. وغير ذلك. ولا يصحَّ شيء ممَّا ذكر بدليل توصيف الوجه في الآية الكريمة بالرفع: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، فلو كان بأيِّ معنى آخر غير الذات لزم كون الصفة مجرورة، لتكون صفة للربِّ، فلا يصحَّ الرفع إلا باعتبار أنَّ المضاف هو المضاف إليه بعينه، بخلاف الآية الأخيرة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فأتى بالوصف مجروراً؛ لأنَّ الاسم غير المسمَّى وهذا واضح.

وفي «الميزان»: أنَّ الصفة مقطوعة عن الوصفية، فالتقدير هو ذو الجلال والاكرام، ولكن لا موجب لهذا التقدير. وذكر وجهاً آخر أبعد منه.^٢ وهنا سؤال وهو أنَّه لماذا ذكر الوجه، فكان يكفي أن يقال: «ويبقى ربُّك»؟

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٠١.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٠٢.

ولعلّ الوجه فيه هو التأكيد على أنّه لا يبقى غيره جلّ وعلا، نظير التأكيد بالنفس والعين، تقول: رأيت زيدا نفسه.

وفي تفسير «التبيان» للشيخ الطوسي رحمته أنّ الوجه فيه التنبيه على أنّه تعالى ظاهر بأدلّته وآياته، كظهور الإنسان في وجهه. ولا يخفى لطفه.

وهذه الآية إنّ كانت ناظرة إلى الآية السابقة، فتكون كاستثناء المنقطع منها باعتبار أنّ عنوان من على الأرض لا ينطبق عليه تعالى، فلا تدلّ حينئذ على أنّ الموت يشمل كلّ الأحياء حتّى من في السموات وفي عالم البرزخ، نعم يؤكّد عدم استثناء أحد ممّن على الأرض. وهذا هو الظاهر.

ولكن يمكن أن يقال: إنّها تختلف موضوعاً عن الآية السابقة، فالفناء في تلك الآية لمن على الأرض، وهذه الآية تدلّ على أنّه لا يبقى أحد في السماوات والأرض حيّاً إلا الله تعالى، ومقتضى ذلك أنّ الموت يشمل جميع الملائكة أيضاً، وكذلك من كان حيّاً في عالم البرزخ، كالأنبياء والأوصياء والشهداء، وقد صرح القرآن بأنّهم أحياء عند ربّهم يرزقون، وهذا ربما ينافي الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وُفِّيخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^١ إذا قلنا بأنّ هذه الآية لا تدلّ على الحصر، وإنّما تفيد بقاء وجهه تعالى ولا تنافي بقاء الأنبياء والشهداء والصالحين والملائكة الكرام أو بعضهم.

ولكن لا يبعد أن يستفاد الحصر من التأكيد على أنّ الباقي هو وجهه تعالى، كما مرّ. كما يمكن أن يستفاد الحصر من السياق وقرينة المقام وهو مقام بيان اختصاص البقاء بالذات المتعالية.

١. راجع: التبيان في تفسير القرآن ٩: ٤٧٢.

٢. الزمر (٣٩): ٦٨.

ومن هنا قيل: إنّ من استثنى في الآية المذكورة وإن كانوا لا يصعقون بالنفخة، ولكنهم يموتون أيضاً، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^١ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾^٢ ووردت عدّة من الروايات بهذا المعنى، بل يظهر من بعض الآيات أنّ كلّ شيء يندم ويبدأ الله الخلق من جديد، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾^٣ والله العالم.

وإضافة الربّ إلى الكاف وهو خطاب للرسول ﷺ لإكرامه من جهة تخصيص الربّ به في مقام بيان عظمتة تعالى.

والجلال والجلالة: العظمة. والجلال بدون التاء مختصّ بالله تعالى، فذو الجلال، أي صاحب الجلال لا يطلق على غيره تعالى. وباعتبار أنّ فيه معنى الترفع يطلق على تنزيهه تعالى عن الصفات التي لا تليق بساحة قدسه، ومن هذا الباب يعبر عن الصفات السلبية بصفات الجلال.

والإكرام يطلق تارة ويراد به التعظيم والتقدير، فإن أُريد به ذلك، فالمعنى أنّه تعالى أهل لأن يكرم ويجلّ فلا يعصى، بل يعبد ويتقرّب إليه؛ ويطلق أخرى ويراد به تنزيه النفس من القبائح، يقال: أكرم نفسه، أي ترفع عن الرذائل والمعاصي، فإن أُريد به هذا، فالمعنى أنّه أهل للتنزيه والتقديس ممّا لا يليق بشأنه.

١. القصص (٢٨): ٨٨.

٢. الحديد (٥٧): ٣.

٣. الأنبياء (٢١): ١٠٤.

ومهما كان فذو الإكرام بمعنى أنه أهل لأن يكرم، ومثله قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾^١ أي هو أهل لأن يتقى.

﴿فَبَإِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. استغرب بعضهم كيف يعدّ الفناء نعمة يمنّ بها الله تعالى على عباده؟! وحاول بعضهم أن يثبت أن بقاء وجه الربّ هو النعمة.

والصحيح أن الفناء ليس انعداماً، بل المراد به الموت وهو انتقال من عالم إلى عالم آخر، بل هو تطوّر وتكامل في النفس الإنسانية، وأهمّ منه أن الإنسان بالموت يحظى بقاء ربّه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ^٢ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ.

ونقرأ في دعاء أبي حمزة: «حَبِّبْ إِلَيَّ لِقَاءَكَ وَأَحْبِبْ لِقَائِي، واجعل لي في لقائك الراحة والفرج والكرامة»^٣ وفي زيارة أمين الله: «اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ نَفْسِي مَطْمَئِنَّةً بِقَدْرِكَ... مشتاقّة إلى فرحة لقائك»^٤.

مضافاً إلى أن الموت أوّل مرحلة للوصول إلى ما كتب للمتّقين الصالحين من الثواب. ومضافاً إلى أن الموت من أعظم النعم على المجتمع البشري، بل على ساكني الكرة الأرضية جميعاً، ولولاه لم يبق لهم مكان على الأرض ولا ما يحتاجونه من طعام وشراب.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ هذا العنوان يشمل الإنس والجنّ والملائكة، فهم جميعاً يسألونه حاجاتهم باستمرار وهم فقراء إلى الله

١. المدثر (٧٤): ٥٦.

٢. العنكبوت (٢٩): ٥٠.

٣. مصباح المتهجد: ٥٨٢.

٤. كامل الزيارات: ٣٩.

تعالى في وجودهم واستمرار وجودهم وكل شؤونهم.

والسؤال لا يختص بالطلب لفظاً أو قلباً، بل يشمل وجود الحاجة بصورة طبيعية، فيعتبر ذلك أيضاً سؤالاً. ومن هنا فالعنوان يشمل الكفار والملحدين أيضاً. بل يمكن أن يشمل الحيوانات؛ لأنَّ «مَنْ» وإن اختصَّ بذوي العقول إلا أنه يصحَّ أن يراد به ما يشمل غيرهم.

والحاصل أنَّ الحاجات لا يقضيها إلا هو تعالى، فالكلَّ يصمدون إليه بحاجاتهم. والشأن في الأصل بمعنى الطلب، وبهذا الاعتبار يطلق على كلِّ مطلب ومقصد مهمٍّ، وكلَّ أمر وحال وخطب.

واليوم بمعنى مطلق الزمان، فهو تعالى في كلِّ لحظة في شأن حسب حاجات الخلائق، واليوم ظرف لفعله تعالى، والتنكير يفيد أنَّه تعالى في شأن جديد غير الشأن السابق، فهو يبدع الحوادث في كلِّ لحظة.

والغرض من ذلك التنبيه على أنَّ كلَّ ما يحدث من الأمور جليلها وحقيرها من إبداعاته تعالى، وأنَّه لم يفوض تدبير الكون إلى أحد ولا إلى جهاز وآلة. والكون ليس كجهاز منظَّم متروك لحاله، فيكون مستمراً في السير على ما خطَّط له، كما يتوهم، بل التدبير الإلهي يشمل كلَّ حركة وسكون في كلِّ جزء من أجزاء الكون من الذرات أو أصغر منها إلى المجرات أو أكبر منها.

وبعض المفسرين خصَّ الشأن بأعمال خاصَّة لحديث رواه الطبري بسنده عن عبد الله الأزدي، قال: تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية: «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فقلنا: يا رسول الله وما ذلك الشأن؟ قال: «يَغْفِرُ ذَنْباً، وَيُفَرِّجُ كَرْباً، وَيَرْفَعُ

أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخِرِينَ».

ولكن هذا مجرد بيان للأمثلة، وتدبيره تعالى يشمل كل صغيرة وكبيرة في الكون بأجمعه، فما من ذرة إلا وأمرها بيده وكل شيء في تحوّل وتغيّر مستمرّ وكلّ ذلك من صنعه تعالى وإبداعه.

وهذا هو ما يعبر عنه بالبداء، وهذا التعبير ورد في أحاديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وفي حديث صحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام): «ما بعث الله نبياً حتّى يأخذ عليه ثلاث خصال، الإقرار له بالعبودية، وخلع الأنداد، وأنّ الله يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء»^٢، والجملة الأخيرة في الحديث تبين معنى البداء، والكلام فيه طويل.

والصحيح في تفسيره أنّ الله تعالى ليس محكوماً بما قدره وقضاه، فيمكن أن يغيّر ما يشاء وإن كان لا يغيّر في بعض الموارد لمصلحة يراها، كما لو أخبر النبي أو الوصي بأمر وفقاً لما أخبر به عن طريق الوحي، فإنّ الله تعالى لا يغيّر الأمر؛ لأنّه يوجب عدم الوثوق بالمعجزات.

والظاهر أنّه هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^٣، كما ورد في روايات أهل البيت (عليهم السلام) فهم كانوا يعتقدون أنّه تعالى لا يمكنه أن يغيّر شيئاً ممّا قدره في الأزل والآية الكريمة تردّ عليهم.

روى الصدوق بسند فيه إرسال عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال في قول الله

١. جامع البيان ٢٣: ٤٠ (على ما في المكتبة الشاملة)؛ بحار الأنوار ٤: ٧١.

٢. الكافي ١: ١٤٧، الحديث ٣.

٣. المائدة (٥): ٦٤.

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: «لم يعنوا أنه هكذا، ولكنهم قالوا قد فرغ من الأمر، فلا يزيد ولا ينقص فقال الله جلّ جلاله تكذيباً لقولهم: ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ألم تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»^١.

وروى أيضاً عن الإمام الرضا (عليه السلام) في مناظرته لسليمان المروزي، حيث أنكر البداء، أنه قال له: «أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب؟» قال: أعوذ بالله من ذلك وما قالت اليهود؟ قال: «قالت: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يعنون أن الله قد فرغ من الأمر، فليس يحدث شيئاً، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾...»^٢. والحديث طويل. ومن هنا قال بعضهم في هذه الآية: إنها نزلت في اليهود حين قالوا إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

والتعبير عن هذه الحقيقة بالبداء، مع أنه بمعنى الظهور من جهة أنّ من يعلم مقتضيات الحوادث ولا يعلم بما يغيّر تأثيرها يتصوّر أنّ الأمر سيتمّ حسب ما تقتضيه العلل الأولية، ولمّا يغيّر الله الأمر بمقتضى آخر يبدو له خلاف ما كان يعلم.

ومن هنا حكي عن بعض العلماء في جواب من سأله عن الجمع بين هذه الآية وما صحّ من أنّ القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، أنه قال: شؤون يديها لا شؤون يتديها.^٣

والجملتان: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يمكن أن لا

١. التوحيد: ١٦٨.

٢. التوحيد: ٤٤٤.

٣. راجع: الجامع لأحكام القرآن ١٧: ١٦٧.

تكون بينهما صلة بمعنى أن كل واحدة منهما تنبئ عن شأن من شؤونه تعالى ليعرفه الناس، فالأولى تبين أن كل حاجات الكون منتهية إليه وهو الذي يقضيها ولا تقضى من جهة أخرى أبداً، والثانية تبين أن إبداعاته تعالى لا تنتهي ولا تتوقف، والكون لا يسير إلا بأمره وإرادته، ويمكن أن تكون بينهما صلة باعتبار أن الجملة الثانية تبين إبداعه المستمر في قضاء حوائج المحتاجين وإن كان الإبداع لا يختص به.

﴿فَبَإِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا يمكن أن تحصى آلاؤه تعالى التي نشعر بها طيلة حياتنا ممّا نسأله وممّا لا نسأله. ولكنّ الإنسان كفور، فلا يعدّ ما استجيب له من دعاء وما قضي له من حاجة، وإنّما يعدّ ما لم يصل فيه إلى بغيته، مع أنّه ربما يكون عدم الاستجابة أصلح له وهو لا يعلم.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾. الفراغ بمعنى الخلوّ والتجرّد، وهذا التعبير يطلق عادة في ما إذا كان القائل مشغولاً بأمر أو أمور، فيخبر عن أنّه سيفرغ منها ويتركها ويستغلّ غيرها. ويُفهم منه في الغالب التهديد وإن لم يختصّ به.

هذا في غيره تعالى، وأمّا فيه فلا يمكن التعبير بما يوهم الانشغال، فإنّه تعالى لا يشغله شأن عن شأن، فالصحيح أن هذا التعبير في هذا المقام كناية عن التهديد بلحاظ أنّه يستعمل في غيره تعالى تعبيراً عنه. ويفهم ذلك من سياق الآيات حيث وردت هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ممّا يوجب توهم الإنسان الجهول بأنّه تعالى مشغول عن محاسبته، فالتعبير بالفراغ بعد ما يوهم الانشغال يفهم منه التهديد.

ويمكن أن يكون التعبير بالفراغ كناية عن انتهاء النشأة الأولى والاشتغال بما

تستلزمه النشأة الأخرى من المحاسبة والجزاء، والمعنى الأوّل أولى.
والثقلان الجنّ والإنس. والثقل بفتحين الشيء الثقيل، كالحمل والمتاع،
ويطلق على كلّ شيء نفيس أيضاً بهذه المناسبة، ومنه حديث الثقلين الوارد في
القرآن الكريم والعتره الطاهرة.

ولعلّ إطلاقه على الجنّ والإنس من جهة أنّهما يعقلان، بخلاف سائر
الحيوانات. وخاطبهما بضمير الجمع باعتبار الأفراد.

﴿فَبَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الظاهر أنّ هذا الخطاب وما سيأتي في هذا السياق
تهديد لهم بعد التنبيه على الفراغ لمحاسبتهم، وإعلام لهم بأنّهم يُحاسَبون على
تكذيب الآلاء ويُعذَّبون عليه، فهو استنكار لتكذيب يستتبع ذلك.

يَمَعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٢٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤٩﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شَوَاطِطٌ مِّنْ نَّارٍ وَخُحَّاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٢٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥١﴾

﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا لَا
تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ المعشر - على ما في «العين» - كل جماعة أمرهم واحد،^١
كمعشر المسلمين ومعشر المشركين، والظاهر أنه مأخوذ من المعاشرة بمعنى
المخالطة، وهو اسم جمع ولا مفرد له.

والنفاذ والنفوذ: الجواز والمضي والخرق. والأقطار: الجوانب. والسموات
والأرض عبارة عن الكون كله. والمعنى: إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب
الكون لتخرجوا من سلطة الله تعالى فاخرجوا.

وهذا أمر تعجيزي واضح، بل هو أمر بالمستحيل؛ إذ لا شيء وراء الكون،
فالغرض تنبيه الإنسان على استحالة خروجه من تحت سلطان الله تعالى، وأنه لا
يستطيع إلا بسلطان، أي بقوة. والسلطان مصدر بمعنى السلطة والمراد بها القوة.
ومن أين للإنسان وغير الإنسان القوة، والقوة كلها لله تعالى؟! وهذا أيضاً واضح،
فالغرض تنبيه الإنسان وتذكيره بما يغفل عنه أو يتغافل.

ولا يبعد بقرينة السياق أن يكون المراد بهذا التحدي عدم التمكن من الفرار
من عذاب يوم القيامة، ويحتمل أن يكون عاماً من هذه الجهة، فيشمل عذاب
الدنيا أيضاً، ولكن الخطاب على كل حال موجه للثقلين في هذه النشأة.

وفي «الميزان» أنّ هذا من خطابات يوم القيامة.^١ وقال بذلك أيضاً جمع من مفسّري العامّة، وورد في بعض الروايات أنّ الله تعالى يجمعهم يوم القيامة وتحيط بهم الملائكة ويأتّيهم هذا الخطاب. والروايات ضعيفة.

وهذا الاحتمال بعيد جداً؛ لأنّ التحديّ يناسب هذه النشأة، فإنّ هناك من البشر من يتوهّم أنّه غير ملاحق وغير مأخوذ، بل هناك من الفراعنة والجبابرة من يقارن ملكه وجبروته بملكه تعالى، كما قال فرعون: ﴿وَلْتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾^٢ وأما يوم القيامة، فإنّ الإنسان يكشف عن بصره ويرى الحقائق بعينه، بل بكلّ وجوده، فلا يمكنه أن يتصوّر إمكان الفرار من حكمته تعالى.

مضافاً إلى أنّ التعبير بالخروج من السماوات والأرض، أي الكون كلّ لا يناسب حالهم في الآخرة، بل المناسب هناك أن يكون التحدي بعدم تمكّنهم من الخروج من النار لا من الكون.

ومن الغريب ما قاله بعضهم من أنّ الآية تتعرّض لسفر الإنسان إلى الفضاء وأنّ ذلك لا يمكنه إلا بسلطان وهو العلم، وقد زوّد الإنسان بأجهزة تمكّنه من السفر وأنّ الآية لا تنفي ذلك.

وهذا كلام باطل من جهة أنّ الآية تخاطب الجنّ والإنس، والجنّ يتمكّنون من السير في الفضاء، مضافاً إلى أنّ النفوذ إذا تعدّى بـ «في» يدلّ على الدخول وإذا تعدّى بـ «من» يدلّ على الخروج، تقول: نفذ الرمح في الهدف إذا دخل فيه وثبت، وإذا قلت: نفذ من الهدف، كان معناه أنّه دخل فيه وخرج منه.

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٠٦.

٢. طه (٢٠): ٧١.

ومضافاً إلى أن الآية تدلّ على عدم تمكّن الثقلين من الوصول إلى ذلك، كما في الآية التالية.

﴿قَبَائِرُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطاب تهديد، كما مرّ.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ الشواظ: اللهب من دون دخان. والنحاس: الصفر أو الدخان بدون نار، كما فسّر في كتب اللغة،^١ فالظاهر أنّ المراد إلقاء لهب النار والصفر المذاب عليهم، أو إلقاء اللهب والدخان عليهم. والانتصار: الامتناع، أي لا تقدران على المواجهة ودفع العذاب. وقيل بمعنى التناصر، أي لا ينصر بعضكم بعضاً وهو غير مناسب.

والكلام في موقع هذه الجملة، فإنّ الظاهر أنّها لبيان عدم تمكّنهم من النفوذ وأنّهم ليس لهم سلطان على ذلك. ولكن ينشأ من ذلك تساؤل لم أجد من تعرّض له، وهو أنّ مفاد الآيتين سيكون حينئذٍ أنّكم لا تستطيعون الخروج من أقطار الكون بسبب هذا العذاب، فلو فرض عدم نزول العذاب لكان بإمكانهم ذلك، مع أنّه مستحيل بذاته. فما هو المراد بهذه الآية؟

ومن قال بأنّ الآية من خطابات يوم القيامة، كما في «الميزان»^٢ فلا يهّمه هذا السؤال؛ لأنّ التعجيز هناك بالنار والعذاب، ولعلّه لذلك رجّحه في «الميزان». فالمعنى على هذا الفرض: أنّ من يحاول الفرار والخروج من النار، فإنّه يلاقي ذلك. وقيل: إنّ الملائكة التي تحيط بهم يلقون ذلك على من يحاول الفرار. وفي «المجمع» أنّ هذا مجرد فرض، فالمعنى أنّه لو فرض أنّ أحداً حاول

١. راجع: كتاب العين ٣: ١٤٤.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٨٤.

الفرار من حكومة الله تعالى في هذه النشأة، فإنه يلقي عليه العذاب.^١ وهو بعيد عن مفاد الآية، مع أنه فرض للمحال، ولا حاجة فيه إلى العذاب وإلى أين يحاول الفرار؟!

والظاهر أن المراد بهذه الآية نزول العذاب عليهم بسبب أنهم إنما طلبوا وتمنوا الخروج من أقطار السماوات والأرض ليتسنى لهم العصيان والطغيان على ربهم، ومثل ذلك ما روي في حديث عن الإمام الحسين (عليه السلام)، أن رجلاً قال له: إنني رجل عاصٍ ولا أصبر عن المعصية، فعظني بموعظة، فقال: «افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل رزق الله وأذنب ما شئت، والثاني: اخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت، والثالث: اطلب موضعاً لا يراك الله وأذنب ما شئت، والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك مالك النار، فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت».^٢

والغرض من ذلك بيان أن وجوب الإطاعة في غير الله يستند إلى أمره تعالى، فكل رسول تجب إطاعته، لأن الله أمر بها، وكذلك أولي الأمر بمعنى المعصومين (عليهم السلام)، وأما وجوب إطاعته تعالى، فهو حكم عقلي يستند إلى أحد أمرين: فإما أن يكون الإنسان عارفاً بحقه تعالى، فيطيعه لمعرفته ولشكر نعمائه، ولعل قوله (عليه السلام): «لا تأكل رزق الله...» إشارة إلى ذلك، وإما أنه يتبنّى إطاعته خوفاً من عقابه، فإذا أراد المعصية فعليه أن يبحث عن طريق للفرار من عقابه، وهذا ما ورد في الآية الكريمة والحديث الشريف.

١. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣١٠.

٢. بحار الأنوار ٧٥: ١٢٦.

فمعنى الآية بناءً على ذلك أنّ من يحاول الفرار من حكومته تعالى بطغيانه على ربه وعصيانه لأوامره، فإنّه وإن وجد في الحياة الدنيا مجالاً وفسحة إلا أنّه لن يفلت من عذاب يوم القيامة، فلا ينتصر الطغاة من الثقلين في النهاية، وعليه فالمراد بشواظ النار والنحاس عذاب يوم القيامة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الكلام فيها كسابقتها.

فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ
ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ بهذه الجملة المستقلة يبين زمان إرسال الشواظ من النار والنحاس، وهو يوم القيامة. والوردة معروفة. فيمكن أن يكون التشبيه بلحاظ اللون، كما قيل. ويمكن أن يكون بلحاظ التشقق، فإن الوردة أوراقها متفرقة وتفتح المجال للعبور، فيكون التشبيه من جهة أن السماء في ذلك اليوم ليست سداً منيعاً لا يجتازها الإنسان، على الاختلاف في معنى الانشقاق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿كَالدِّهَانِ﴾ تشبيه آخر وخبر آخر لقوله: ﴿كَانَتْ﴾، أي تكون السماء بالانشقاق كالدهان، وهو الدهن المذاب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾^١ والمهل: النحاس الذائب، وقيل: ضرب من القطران سائل كالزيت، وقيل: إن الدهان والمهل كلاهما بمعنى خثارة الزيت

و«إذا» ظرفية تفيد معنى الشرط، والمعروف أن جزاءها مقدر ليذهب الذاهب فيه كل مذهب، وتدلّ عليه نوعاً ما الآية السابقة واللاحقة.

وفي «مغني اللبيب»^٢ أن الجواب قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾

١. المعارج (٧٠): ٨.

٢. مغني اللبيب ٢: ٣٩٨.

وأن الآية التالية جملة معترضة.

وفي المراد بانشقاق السماء احتمالان:

الأول: أن المراد انهدام هذا النظام الكوني، كما ورد في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^١ بناءً على أن التبديل بمعنى تبديل الذات لا الوصف. ولا ينافي ذلك كون البروز لله الواحد القهار من صفات يوم القيامة، لأن المراد: أن الأرض يوم البروز غير الأرض، ولا تدل الآية على أن ذلك اليوم ظرف التبديل.

وأوضح منه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾^٢ وذلك لدلالة الجملة الثانية أن هذا الخلق يزول بتمامه، فلا يبقى شيء، ثم يعيد الله الخلق كما بدأه. ويبعد إرادة إعادة البشر فقط.

الثاني: أن المراد بالسماء ليس ما يقابل كوكب الأرض من أفلاك ونجوم، بل المراد عالم الغيب والتجرد. ومعنى انشقاقها وانفطارها وانفتاحها وكشطها وانفراجها ومورها — كما وردت هذه التعابير في آيات مختلفة — هو انكشاف الغمام وزوال الإبهام عن الإنسان في تلك النشأة، وتمكنه من الارتباط بالملائكة، ورؤيتهم بما يناسب تلك النشأة من الرؤية، والتحدث إليهم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾^٣ والتحدث معهم ورد في موارد عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾^٤.

١. إبراهيم (١٤): ٤٨.

٢. الأنبياء (٢١): ١٠٤.

٣. الفرقان (٢٥): ٢٢.

٤. الزخرف (٤٣): ٧٧.

والدليل على هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾^١ فَإِنَّ التَّشْقَى بمعنى الانصداع والتفتُّح، والباء بمعنى «عن»، والغمام كل ما يحجب شيئاً كالسحاب حيث يحجب نور الشمس، أي تنصدع السماء عن الستر والحجاب الموجود بين الإنسان وعالم الغيب.

والجملة الثانية تفسر التشقق بأنَّ المراد نزول الملائكة، وليس هو النزول من مكان مرتفع إلى مكان منخفض، بل هو زوال سموهم وترفعهم من أن ينالهم الإنسان ويصل إليهم. والأمر في الواقع بالعكس، فالإنسان هو الذي يرفع عنه الحجاب وتنكشف له الحقائق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^٢ والتعبير عن ذلك بنزول الملائكة من التعبير الكنائي عن أحد المتلازمين بالآخر.

وهذا المعنى هو الظاهر أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَأُنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ* وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾^٣ فَإِنَّ السماء - حسب هذه الآية - لا تزول، وإنما تكون واهية مسترخية، والملك على أرجائها، فيتمكّن الإنسان من الارتباط بهم.

والإرجاء جمع رجا، أي الجوانب. وهو الظاهر أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾^٤، حيث فرضت السماء باقية مفتوحة، وهي كأنها أبواب للوصول إلى عالم الغيب، حيث الملائكة الكرام.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

١. الفرقان (٢٥): ٢٥.

٢. ق (٥٠): ٢٢.

٣. الحاقة (٦٩): ١٦ - ١٧.

٤. النبأ (٧٨): ١٩.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾. في الجملة تقديم وتأخير، أي لا يسأل انس عن ذنبه ولا جان، والجملة يمكن أن تكون مستأنفة أو جواباً لقوله: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ كما مر. والمعنى واضح، وتنكير الإنس والجان في موضع النفي يدل على الشمول.

وربما يتوهم أنها تنافي ما أكد فيه عمومية السؤال، كقوله تعالى: ﴿قَوَّزَبْكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١ وحاول بعضهم التأويل، ولكن الآية التالية قرينة واضحة على أن المراد بنفي السؤال هنا نفيه كطريق لمعرفة المجرم، فليس الحال هناك كما هنا حيث لا يعرف المجرم إلا ببحث وتمحيص، ومع ذلك ربما يشبه الأمر على المحقق، بل يعرف المجرمون هناك بسيماهم. وقيل: إن مثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾^٢ ولكنه غير صحيح، فإن مورد هذه الآية عذاب الدنيا.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾. مر الكلام حول معنى الإجماع، وقلنا: إنه لا يستبعد بالنظر إلى جذور هذه الكلمة حيث تعني القطع أن يكون المراد به في هذا المجال الكفر والشرك، بحيث يقطع الإنسان صلته بربه، كما أنه في مجال العلاقات الاجتماعية يراد به الجرائم العظيمة التي توجب قطع الصلة بين مرتكبها والمجتمع.

والسيما والسيماء: العلامة. فالمعنى أن للمجرم علامة واضحة تميزه عن

١. الحجر (١٥): ٩٢ - ٩٣.

٢. القصص (٢٨): ٧٨.

الآخرين، بل كل إنسان يعرف بأعماله، فليس هناك حجاب.

والنواصي جمع ناصية وهي قصاص الشعر في مقدم الرأس. واللام بدل عن المضاف إليه، أي يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويلقى بهم في النار. والظاهر أن المراد بذلك الجمع بين النواصي والأقدام حين الإلقاء وهو منظر مهين جداً.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾. المعروف في تفسير الآية أن هذا خطاب تبيكت لهم ذلك اليوم. ولكنه بعيد وإلا لقال هذه جهنم التي كذبت بها أو كذب بها المجرمون لا أنهم يكذبون بها، فالظاهر أنه خطاب في الدنيا، والمخاطب الرسول ﷺ أو كل سامع وقارئ بأن هذه النار الموصوفة بالأوصاف التي عرفها بها القرآن هي جهنم التي يكذب بها المجرمون في الدنيا، فكيف يكون حالهم حين يشاهدونها؟!

وعليه فالمراد تصوير المشهد كأنه حاضر فعلاً حين مخاطبة المشركين في الدنيا، وكأنهم يشاهدونها ويشاهدون كيف يؤخذ بالنواصي والأقدام، ويلقى المجرمون فيها وهم مع ذلك يكذبون بها وينكرونها.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾. الحميم الماء الحار شديد الحرارة و﴿آتٍ﴾ اسم فاعل من أتى يأتي إذا بلغ الشيء غايته ومنتهاه، فالمعنى أنهم يترددون بين جهنم وبين ماء مغلي شديد الحرارة قد بلغ من الحرارة منتهاها. ولعله بحيث لو تجاوز هذا الحد لتبخّر.

وتردد المجرمين بين الأمرين مما أشير إليه في سورة الصافات أيضاً، قال تعالى في شأن الرّزوم: ﴿فَلَا تَهْمُ لَأَكُلُونَهَا مِنْهَا قَلِيلٌ إِنَّهَا عَنْهُمْ تُرْمَى﴾ * ثُمَّ إِنَّهُمْ عَلَىهَا لَسُورًا

مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ^١ ويبدو من هذه الآيات أنهم يأكلون من الزقوم، فلا يشبعون، وإنما يمتلئون فيطلبون الماء فيذهبون إلى ماء الحميم ليشربوا منه، فلا يروون أيضاً، وهكذا يترددون بين أنحاء العذاب حيارى. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً^٢﴾.

ولعل الغرض من بيان هذه الأوصاف تهديد الإنسان وتخويفه ليهتمّ بشأن الآخرة والمستقبل المظلم الذي سيلاقيه. ويكون للإنسان العاقل ولبعث الاهتمام فيه مجرد الاحتمال، لأهمية المحتمل غاية الأهمية.

﴿فَبَايَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

١. الصافات (٣٧): ٦٦ - ٦٨.

٢. الكهف (١٨): ٢٩.

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٦﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٨﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٌ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ ۖ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٠﴾ فِيهِنَّ قَصَصْتُ الطَّرْفَ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٢﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. ينتقل إلى بيان نعيم الجنة وهو الغرض الأول من السورة. وقد ذكر هنا جنتان لكل من فريقين من السعداء وأشار إلى اختلاف درجتهما في النعيم بطريقة لطيفة جداً. وعبر عن الفريق الأول بمن خاف مقام ربه.

ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى الفرق بين الخوف من مقام الرب تعالى والخوف من عقابه، فالملائكة الكرام أيضاً يخافون الله ولكنهم لا يخافون العقاب؛ لأنهم معصومون: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾^١ ومع ذلك فهم يخافون ربهم، كما قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^٢ وقال أيضاً عنهم: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^٣ وكذلك المعصومون من البشر ومن وصلوا إلى الغاية في معرفته

١. التحريم (٦٦): ٦.

٢. النحل (١٦): ٥٠.

٣. الأنبياء (٢١): ٢٨.

تعالى وهم المقربون السابقون على ما وصفهم به في سورة الواقعة، فإنهم يخشون ربهم ولكنها ليست خشية من العقاب، بل من مقامه تعالى وعظمته؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يقدرّون على أداء حقّه تعالى ويشعرون دائماً بالتقصير.

والمقام اسم مكان من القيام وهو في الأصل بمعنى موضع قيام الشخص، ويطلق مجازاً على المكانة الاجتماعية في البشر ويتوسّع فيه، فيطلق على الشأن والعظمة.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^١ وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾^٢ إلا أنه جمع هنا بين المخافتين.

وقيل: المراد بمقام ربّه مقام الإنسان أمام ربّه يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^٣ ولكنه لا يناسب إضافة المقام إلى الربّ، وقيل: هو مصدر بمعنى قيام الله عليه، كما هو قائم على كلّ نفس، لقوله تعالى: ﴿أَقَمْنِ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^٤ والخوف من قيمومته تعالى عليه عبارة عن التقوى. وهو أيضاً تأويل بعيد.

وأما تشية الجنة، فقد مرّ الكلام فيها وقلنا: إنّ الظاهر أنّ المراد مطلق التعدّد وأنّ اختيار صيغة التشية لنوع من جمال التعبير اختير لهذه السورة المباركة. وقيل: إنّ المراد جنة يثاب عليها وجنة يضاف إليها، لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ

١. النازعات (٧٩): ٤٠ - ٤١.

٢. إبراهيم (١٤): ١٤.

٣. المطففين (٨٣): ٦.

٤. الرعد (١٣): ٣٣.

وَزِيَادَةٌ^١ وقوله: ﴿هُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^٢.

وهناك أقوال ضعيفة جداً لا شاهد لها، كالقول بأن إحداهما منزله ومحلّ زيارة أحبابه له، والأخرى منزل أزواجه وخدمه، أو إحداهما بستان داخل قصره والآخر خارجه، أو هما منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفّر دواعي لذّته وتظهر ثمار كرامته في مقابلة من يطوف بين النار وبين حميم آن، أو جنة لعقيدته وجنة لعمله، أو جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي، أو إحداهما روحانية والأخرى جسمانية، أو جنة عدن وجنة نعيم، أو جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنّي.

وهناك قول آخر في ذكر المجموعتين من الجنّتين مع اختلاف الصفات، وهو أنّ كلّ هذه الجنان لمن خاف مقام ربّه وأنّ هذه صفة المتّقين بوجه عام، وأنّ الغرض من ذكر الجنّتين الأوليين، ثمّ الأخيرتين الإشارة إلى أنّ الله تعالى جعل لهم جنّات عديدة مختلفة ليتنقّلوا بينها، فلا يملّوا البقاء في جنة واحدة، وأنّ التعبير بكون الأخيرتين دون الأوليين يقصد به أنّهما أقرب إليه من الأوليين، بل قال بعضهم: إنّهما حسبما ورد من الأوصاف أفضل من الأوليين. وهذا القول ورد في «التبيان»^٣ و«مجمع البيان»^٤ ونسب أيضاً إلى ابن عبّاس.

ولكن هذا القول ضعيف؛ إذ لا يظهر وجه لذكر المجموعتين وبيان اختلافهما في الصفات، ولو كان السبب مجرد الإشارة إلى تعدّد الجنّات لعدم عروض

١. يونس (١٠): ٢٦.

٢. ق (٥٠): ٣٥.

٣. التبيان في تفسير القرآن ٩: ٤٧٩.

٤. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣١٤.

الملل عليهم لم يحتج إلى هذا التفصيل، فكان الأولى التنبيه على مجرد التعدد. وقد صرح في القرآن الكريم بأن أهل الجنة لا يملونها أبداً، قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾^١ والإنسان إنما يمل الطريقة الواحدة في الحياة الدنيا ويبحث دائماً عن التغيير، فينتقل من المدينة إلى القرية أو إلى الغابة ومن السهل إلى الجبل أو إلى البحر وهكذا بحثاً عن أمنيته التي يفقدها وهو الكمال، فإذا دخل الجنة استقرت به النوى؛ لأنه يبلغ غايته ويجد منيته.

هذا مضافاً إلى الاختلاف الواضح بين المجموعتين مما يدلّ بوضوح على أن الغرض من سرد كل هذه التفاصيل الإشارة إلى اختلاف درجات المتقين، كما ورد ذلك بوضوح أيضاً في سورة الواقعة والدرهم والمطففين وغيرها. ومضافاً إلى ما سيأتي في تفسير ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾.

﴿قَبَائِلُ آلَاءِ رَبِّكَ يُكَذِّبُونَ﴾ قيل: إن المراد بالآلاء هنا ما أخبر الله تعالى به عباده من الإنس والجن أنه يجزي إحسانهم بهذه الجنات وهو بذاته نعمة عظيمة. وقيل: المراد نفس النعم الأخروية. ولكن الآية حيث إنها تشتمل على الاستنكار لتكذيب الآلاء، فينبغي أن يكون المراد النعم التي يشعر بها الإنسان في الحياة الدنيا، وهي ظرف التكذيب والتصديق، فالأولى أن يقال: إن المراد بالسؤال هنا وفي ما يأتي من الآيات استنكار تكذيب الآلاء في الدنيا؛ لأنه يستتبع الحرمان من هذه النعم العظيمة في الآخرة، نظير ما مرّ في مقام التهديد بعذاب الآخرة.

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ إما أن تكون هذه صفة للجنّتين وما بينهما اعتراض، أو خبراً لمبتدأ مقدّر، أي هما ذواتا أفنان.

والأفنان جمع «فن» بفتحين أو جمع «فن» بالتشديد، وإن كان الغالب في جمعه فنون، كما أنّ الغالب في جمع «فن» الأفنان، وحيث إنّ «فن» بمعنى الغصن، فيبدو أنّ المراد هنا بمناسبة الجنة الأغصان.

يبقى السؤال عن وجه توصيف الجنة بذلك، إذ لا يعتبر كون الجنة مشتملة على أغصان ميزة فمدح بذلك! خصوصاً إذا قلنا بأنّ هاتين الجنة تتميزان عن الأخيرتين في مختلف الجهات، فإذا كانت الأخيرتان مدهامتين، أي مسودتين من شدة الخضرة، فكيف توصف هاتان بأنهما ذواتا أغصان فقط؟!

حاول المفسرون التأويل تهرباً من الإشكال، فوصفوا الأغصان تارةً بأنّها رطبة ليّنة، وأخرى بأنّها ريّانة نضرة ونحو ذلك من التعابير وفي «الميزان»^١ أنّ التنكير للتعظيم، فهي عظيمة كثيرة الورق والثمر، وأن القرينة على ذلك هو نفس مقام المدح. وقيل: خصّ الأغصان بالذكر؛ لأنّ منها الظلّ وعليها الثمر، وما إلى ذلك من المحاولات.

ولذلك أيضاً ذهب بعضهم إلى أنّ المراد بها الفنون، وهي الأنواع والضروب. وأنّ المراد أنّهما ذواتا ألوان من النعم واللذات، واستشهدوا بأشعار من العرب ورد فيها الأفنان بمعنى الأنواع دفعاً لتوهم اختصاص الأفنان بكونه جمعاً للفنن بمعنى الغصن. والفنون تستعمل بمعنى الضروب والأنواع كثيراً، كما يقال فنون من الكلام أو الأدب أو الشعر ونحو ذلك.

هذا ولكنّ الإشكال باق بناءً على التفسير بالأغصان كيفما وصفت، فإنّ توصيف الجنة بأنّها ذواتا أغصان ليس على ما ينبغي، بل الجنة ذات شجر،

والشجر ذات أغصان، مضافاً إلى أنّ الأوصاف المذكورة لا دليل عليها من اللفظ.

وأما تفسير الأفنان بالأنواع والضروب فيلاحظ عليه أنّه بذاته معنى مبهم وتقييده بالنعم والملذّات ممّا لا وجه له ولا قرينة عليه.

ولكنّ الظاهر أنّ المراد بالأفنان الشُعَب،^١ وأنّ ذلك هو معنى هذا اللفظ في أصل اللغة، وأنّ إطلاقه على الأغصان من جهة كونها متشعبة من الشجر، وكذلك الضروب والأنواع، فإنّها تشعّب من الجنس الواحد، وعليه فالمراد أنّهما جنتان تشعّب منهما جنان متعدّدة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾. لا يبعد أن تكون التثنية هنا أيضاً لبيان التعدّد والكثرة، فإنّ الجنة فيها أنهار من اللبن والماء والعسل والخمر، ولكن مورد الاهتمام في هذه الآية على ما يبدو هو توصيف العينين بأنهما تجريان في مقابل العينين الآتي ذكرهما، حيث إنّهما تفوران فقط، ولا شك أنّ العين الجارية أفضل من العين التي تفور وتنضخ بالماء ولكنّه ماء قليل لا يجري على الأرض.

ولا شكّ أيضاً أنّ الله تعالى أكرم من أن يدخل عباده الجنة ويجعل لهم عيناً تنضخ بالماء من دون جريان، وهو لم يبخل على الكافر والمؤمن في الدنيا بالعيون الجارية، فالغرض من ذلك الإشارة إلى الفرق بين المترلّتين.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾. الزوجان: المثلان المتقارنان، ويطلق على الصنفين

من نوع واحد، وتفنّن المفسّرون في تعيين الصنفين، فقليل: ما ألفوه من فاكهة الدنيا وما لم يعرفوا له نظيراً، وقيل: الرطب واليابس، وأغرب ما قيل الشتوي والصيفي، وكلّ ذلك لا أساس له، والظاهر - كما مرّ - أنّ المراد تعدّد الأصناف من كلّ فاكهة، وهذا أمر مشهود في فاكهة الدنيا، فكيف بفاكهة الجنّة؟! والكلام في المقابلة هنا بين هذا وما يأتي من فاكهة الجنّتين الآخرين، كما مرّ آنفاً بين حالتي العينين، ففي هاتين جعل لهما من كلّ فاكهة زوجان، وفي الأخيرتين من بعض أنواعها.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾. ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ حال من الذين يخافون مقام ربّهم، واللفظ، أي، «مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» وإن كان مفرداً إلا أنّ مصداقه جماعة، فالحال بهذا اللحاظ، أي إنّهم يملكون الجنّتين ويتعّمون بهما حال كونهم متكبرين على فرش.

والاتكاء افتعال من الوكاء وهو الرباط يشدّ به الشيء، فكأنّ المتكي المستند إلى شيء معتمداً عليه يشدّ رباطه به.

والفرش جمع فراش ما يبسط على الأرض وغيره، والمراد بها ما فرش على السرر بقرينة الاتكاء.

والبطائن جمع بطانة في مقابل الظهارة ما يحشى به الفراش أو الثوب.

والاستبرق معرب «ستبر» بالفارسية أي الحرير الغليظ.

والغرض بيان غاية الترف الذي منحوه، فإنّ الفرش إذا كانت بطائنها من

الحرير فكيف بظواهرها؟! وإذا كانت فرشهم من الحرير فكيف بملابسهم؟!!

و«دان» اسم فاعل من الدنوّ، أي القرب، وهو في الأصل داني حذفت الياء وأبقيت الكسرة لتدلّ عليها ولتتوافق أواخر الآيات.

والجنى ما يجتنى ويقتطف من الثمر، فثمار الجنّتين دانية، أي قريبة منهم، فلا يتعبون للوصول إليها ولا لاقتطافها.

﴿فَبَإِذَا آتَىٰ رَبُّكُمُ الْتَذَابَانَ﴾

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود إلى الجنّتين؛ لأنّ المراد بهما الجنان فإنّ الثنية - كما قلنا - لإفادة التعدّد، مضافاً إلى ما مرّ في معنى الأفنان أنّها بمعنى الشعب.

وقيل: إنّ الجمع باعتبار التعدّد بحسب الأفراد، فإنّ لكلّ واحد جنّتين.

وقيل: الضمير يعود إلى الفرش، والظرية بلحاظ دوامهنّ هناك. وقيل غير ذلك.

والطرف هو الجفن، ويعبر عن النظر بالطرف، لأنّه يستوجب تحريك الجفون، فالظاهر أنّ المراد بقصر الطرف أنّهنّ لا ينظرن إلى غير أزواجهنّ، وهذه صفة يحبّها الرجل في امرأته ما لم تتغيّر غيرته ورجولته بموبيقات العصر.

ويمكن أن يكون المراد أنّهنّ لا ينظرن إلى أحد مطلقاً، وهذه أيضاً صفة ممدوحة في المرأة باعتبار أنّ طبيعة المرأة تقتضي أن تكون مطلوبة لا طالبة، مضافاً إلى أنّه أمر مطلوب لدى المجتمع العربي وبحسب التقاليد الدينية بوجه عام، فإنّ الأولى بالمرأة أن لا تنظر هنا وهناك بحثاً عن الرجل، وهذه أيضاً صفة يستحبّها الرجال من النساء إن كانوا ذوي غيرة وإيمان.

والطمث - كما يظهر من «معجم مقاييس اللغة»^١ - هو المسّ المؤثر، ومنه الطمّث بمعنى الحيض ومنه إزالة البكارة، فالمناسب لهذا المقام هو أنّهنّ طاهرات لم يمسّهنّ أحد قبل أزواجهنّ المؤمنين ولم يؤثّر فيهنّ أحد. وربما يستغرب نفي المسّ من الجنّ، والسبب في هذا الاستغراب توهم أنّ الحور العين من جنس البشر، فوقع الإشكال في إمكان الارتباط الجنسي بين الجنّ والبشر.

ولا يبعد أن يكون المراد بمسّ الجنّ معنى آخر غير الارتباط الجنسي، فلا حاجة إلى ما ذكره المفسّرون من التأويلات التي منها ما يضحك.

فمنها ما حكاه الآلوسي عن أبي عثمان سعيد بن داود الزبيدي قال: «كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجنّ، وقالوا: إنّ هاهنا رجلاً من الجنّ يزعم أنّه يريد الحلال، فقال: ما أرى بذلك بأساً في الدين، ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل، قيل: من زوجك؟ قالت: من الجنّ، فيكثر الفساد في الإسلام»^٢.

ومنها ما قاله الزمخشري: «لم يطمث الإنسيات منهنّ أحد من الإنس ولا الجنّيات أحد من الجنّ»^٣، فالترّم بأنّ الحور العين نوعان، إنسي وجنّي مع أنّهنّ حسب ما تفيدّه الآيات نوع خاصّ وهنّ مطهّرات من كلّ دنس، ومهما كان فلا شكّ في أنّهنّ لسن من بنات حواء.

١. معجم مقاييس اللغة ٣: ٤٢٣.

٢. تفسير الآلوسي ١٩: ١٨٩.

٣. الكشف ٤: ٤٩.

ومسّ الجنّ يعبر به عن الجنون ونحوه من الشذوذ في الحالات النفسية والعقلية، حيث كان التصوّر العامّ أنّه بمسّ من الجنّ، فلعلّه هو المنفيّ. ويمكن أيضاً أن يراد به ما كان الناس يوجّهون به حالات من زوال البكارة حيث ينسب ذلك إلى تأثير من الجنّ، فيراد بالنفي أنّه لا مجال لهذا التوهّم الباطل فيهنّ.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿كَأْتَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾. تشبيه لهنّ بذلك من جهة الحسن والنضارة والصفاء والكرامة.

والياقوت من الأحجار الكريمة المعروفة وهو في الصلابة أقوى المعادن بعد الألماس، ولونها أحمر غالباً، ويضرب به المثل في الصفاء.

والمرجان - كما مرّ - صغار اللؤلؤ وهي أشدّ بياضاً من كباره.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، استفهام تقرير يفيد النفي، أي من الواضح أنّ الإحسان لا يجازى إلا بالإحسان. ومعنى ذلك أنّ هذا ممّا يحكم به العقل وليس حكماً شرعياً ولا أمراً خاصّاً بالمؤمن ولا بيوم القيامة، وإنّما يتمّ تطبيقه يوم القيامة على جزاء الذين أحسنوا في الدنيا.

وهذا الأمر يثير إشكالاً يبتني على أنّ الحكم العقلي العامّ مورده الإحسان إلى الشخص وإسداء الجميل إليه، فمن أحسن إليك وأكرمك أو أنعم عليك بنعمة وجب عليك أن تردّ إحسانه بإحسان، بل الأولى أن تردّ عليه بإحسان أفضل، فإنّ الإحسان بالمثل يوجب تقدّمه عليك، لأنّه هو البادي.

وهذا ما ورد في حديث رواه العياشي في تفسيره، عن علي بن سالم قال:

سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «آية في كتاب الله مسجلة». قلت ما هي؟ قال: «قول الله تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر. ومن صنع إليه معروف، فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن تصنع كما صنع حتى يربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء»^١ والإشكال أن هذا الأمر لا يمكن تطبيقه على الجزاء في الآخرة والآية الكريمة تطبقه عليه.

ومن الغرب ما عبّر به بعض من يدّعي التفسير، فقال: فإذا أحسن العباد إلى ربّهم بطاعتهم إياه فإنّ الله يجزيهم بالإحسان إحساناً من خلال لطفه بهم وعطفه عليهم! وهذا التعبير خاطئ جداً، ويدلّ على جهل واضح بحقّه تعالى، فإنّ إطاعة الله تعالى ليس إحساناً إليه وهو غني عن عبادتهم، وإنّما يحسنون بذلك إلى أنفسهم. فالصحيح أن يقال: إنّ مورد الحكم العقلي عامّ يشمل الإحسان إلى الشخص والأتیان بالعمل الحسن في حدّ ذاته وإن لم يكن إحساناً إلى أحد وإطاعة الله تعالى وعبادته حسن في حدّ ذاته، فيشمّله الحكم العام، فالمراد بالإحسان الأوّل في الآية الكريمة أن يحسن الإنسان عمله أو أن يأتي بالحسنات وبالتالي الإحسان إليه بأفضل ممّا يناسبه، بل يزيده أضعافاً مضاعفة، ومع ذلك فإنّه داخل في حيز الجزاء وإن كان كلّ ما يعطيه الله تعالى فضلاً؛ إذ لا يستحقّ عليه أحد شيئاً، ولكنّه لفضله وكرمه اعتبر ذلك جزاءً، وهذا غير ما يزيدهم ممّا لا يتوقّعون ولا يشاءونه، بل لا يتصوّرونه.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾ مُدْهَمَّامَتَانِ ﴿١٨﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾
 فِيهِمَا فَنَكُهُتُ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ فِيهِنَّ خَيْرُ
 حِسَانٍ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٢٦﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٧﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٢٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٢٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٣٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٣١﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٢﴾

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. «دون» يأتي بعدة معانٍ، والذي يناسب المقام أحد المعنيين: القرب، أي كون الشيء أقرب من شيء، والثاني التحقير وكون شيء أخس من شيء وأحطّ قدرًا، وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أَنَّ تلك الجنّتين أعلى قدرًا، فخصَّ الله به السابقين المقربين من عباده الذين يخافون مقام ربهم، وهاتان الجنّتان دونهما في المنزلة والقرب لدى الله تعالى، وخصَّهما بأصحاب اليمين حسب تعبير سورة الواقعة، والأبرار حسب تعبير سورة الدهر والمطففين.

وقيل: إِنَّ هاتين كالأوليين لمن خاف مقام الربّ تعالى إلا أَنَّ هاتين أقرب إليه من الأوليين، فكونهما دونهما من جهة الأقربية. وهذا بعيد جدًا، بل غير صحيح؛ إذ لم يفرض لأهل الجنة مكان ومسكن غير الجنة حتّى يكون له جنّتان قريبتان منه وجنّتان بعيدتان. ولو فرض كونه ساكنًا في هاتين والأوليين بعيدتان عنه يذهب إليهما لتغيير المكان حتّى لا يملّ الجنة - كما قالوا - فلماذا اختار

الأدون من حيث الصفات، ولعله لذلك ادعى بعضهم أنّ هاتين أعلى منزلة وقدراً من حيث الصفات المذكورة، وسنقارن بينهما في ما يأتي إن شاء الله.

والصحيح الذي لا ريب فيه أنّ الله تعالى لا يبخل على عباده الصالحين الذين استحقّقوا الجنة بالأشجار والعيون والفواكه والفرش والسرر والحدود العيون، فهو لم يبخل على خلقه في الدنيا مع كفرهم وعنادهم، فكيف يبخل على أهل الجنة؟! وإنّما الغرض بيان اختلاف درجات القرب لديه، وإنّما بيّن ذلك بالتنبيه على اختلاف أنواع النعيم ليدرك الفطن أنّ كلّ ذلك تعبير عن نعيم فوق هذه الأوصاف لا تصل إلى كنهه أذهاننا المأنوسة بنعيم الدنيا التافه.

وللاحظ بهذا الصدد قوله تعالى في سورة الدهر: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾^١ فشراب الأبرار يمزج فيه الكافور، وهو من عين يشرب منها عباد الله خالصاً، بل هم يفجّرونها تفجيراً حينما يوفون بالنذر، فهي من صنعهم.

ويقول تعالى أيضاً عن الأبرار في سورة المطففين: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إلى أن يقول: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مِخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾^٢. وفي هذا المعنى آيات أخرى لا بدّ من التأمل فيها.

﴿فَيَا آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿مُذَاهِمَتَانِ﴾ صفة للجنّتين أو خبر مبتدأ محذوف، كما مرّ نظيره، والمدّهامة

١. الإنسان (٧٦): ٥ - ٧.

٢. المطففين (٨٣): ٢٢ - ٢٨.

اسم فاعل من ادهام، أي علاه السواد، ويقال: إن الدهمة - بضم الدال - في الأصل من الغشيان في ظلام الليل، كما يقال دهمهم الجيش، أي غشيهم ليلاً، ثم استعمل في ظلام الليل بالذات، ثم في كل سواد.

والغرض في الآية بيان شدة خضرتهما أو كثرة الشجر فيهما، وأصل إطلاق الجنة أيضاً بهذا الاعتبار، حيث تطلق على المكان الذي يستره الشجر لكثرتها. وقد وصفت الجنّتان الأوليان بأنهما ذواتا أفنان، وقلنا: إن الأفنان بمعنى الشجرات، فالمعنى أن الجنّتين يتشعبان إلى جنان أو جنائن وحدائق متعدّدة، ولا ريب أن هذا التوصيف أعلى قدراً من كونهما شديد الخضرة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾، النضخ فوران العين وهو أشدّ من النضح، بل الظاهر أن النضح يطلق على ترشح الماء أيضاً، ففي «كتاب العين»: «الجرة تنضح بالماء، أي يخرج الماء من الخزف لرققتها. والجبل ينضح إذا تحلب الماء من بين صخوره»^١.

والعيون تختلف، فهناك عيون تفور بالماء، ولكن لا يتجاوز حدّها، وهناك عيون تجري منها الأنهار، فالغرض من هذا التعبير بيان الفرق بين المقامين، فالعينان في هاتين الجنّتين تفوران فقط، وفي الأوليين تجريان، وهذا - كما ذكرناه - مجرد تعبير عن الفرق بين مقامات القرب لدى الله تعالى وإلا فالأنهار تجري تحت كلّ جنة من جنان الآخرة، وقد امتلأ الكتاب العزيز بذكر هذا الأمر.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ﴾. من الواضح أنَّ هذا التعبير يدلّ على كون هاتين الجنتين أقلّ منزلة ورتبة، فهناك من كلّ فاكهة زوجان، بل أزواج على ما بيّناه، وهنا فاكهة مبهمّة ونخل ورمّان. وقد حاول بعض المفسّرين أن يثبت أنّ هذا أعلى درجة ممّا ذكر هناك، وهذه المحاولة لا تليق بمن يفهم اللغة العربية.

ومثل هذا الاختلاف ورد في سورة الواقعة، حيث ذكر في نعم المقرّبين: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾^١ وفي نعم أصحاب اليمين: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾^٢، والفرق واضح، ولكنّ الذي لا ينبغي أن يغفل عنه - كما قلنا - أنّ النعم المادّية هناك متوفّرة للجميع بكلّ أنواعها ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت، والله تعالى لا يخل على المتّقين بشيء من ذلك، إنّما الاختلاف في درجات القرب لدى الله تعالى، وهذه هي الجنّة الحقيقية. ولا يمكن في ذلك أن يتساوى الناس. وكيف يمكن أن يتساوى من ضحّى بكلّ شيء في سبيل الله تعالى، ومن اقتصر على أداء الواجبات وترك المحرّمات؟! فهذا بعيد عن عدله تعالى وحكمته، بل غير ممكن.

﴿قَبَائِرُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾، «خيرات» مخفّف خيرات بالتشديد، أي ذوات الخير. والخير كلّ ما هو مرغوب فيه، فمنه خير نسبي، ومنه خير مطلق، والظاهر هنا أنّ المراد كونهنّ خيرات من كلّ الجهات المطلوبة في الزوج.

والحسان جمع حسناء وورد في رواية أنّهنّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه.^٣

١. الواقعة (٥٦): ٢٠.

٢. الواقعة (٥٦): ٣٢.

٣. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣١٩.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾. حور جمع حوراء، أي التي بها حور - بفتحيتين - فقيل: هو شدة سواد العين في شدة بياضها، وقيل: هو شدة بياض الجسم، وقيل غير ذلك.

ومقصورات بمعنى محبوسات^١ والخيام جمع خيمة، قال ابن فارس: «الأصل فيها الإقامة»^٢ ومنها الخيمة وهي - كما قالوا - بيت من بيوت الأعراب مستدير بينونه من عيدان الشجر.^٣

والتعبير على كل حال يدل على الفرق بين الجنّتين من هذه الجهة أيضاً، فالزوجات هناك قاصرات الطرف بأنفسهنّ لا ينظرن إلى أحد، وهنا مقصورات محبوسات، وهنّ هناك في الجنّة أو على السرر والفرش، وهنا محبوسات في الخيام وهي تُشعر بحياة البداوة.

وهذا نظير الفرق بين ما يؤتى السابقون المقربون، وما يؤتى أصحاب اليمين على ما في سورة الواقعة، حيث يبدو على القسم الثاني البداوة والبساطة، فينما الأولون في جنّات النعيم على سرر موضونة تجد أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿لَمْ يَطْمِئْهُمْ نَسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ مرّ تفسيره، ويظهر من تكرار نفس العبارة أنّ

١. جمهرة اللغة ٢: ٧٤٣؛ تهذيب اللغة ٨: ٢٧٩.

٢. معجم مقاييس اللغة ٢: ٢٣٦.

٣. لسان العرب ١٢: ١٩٣؛ المصباح المنير ١: ١٨٧.

هناك وجوهاً مشتركة بين المقامين، ومنها ما يعود إلى كرامة أهل الجنة، ككون أزواجهم ممن لم يمسهنّ قبلهم أحد سواء بالمسّ الجنسيّ أو بمسّ الجنّ بمعنى آخر حقيقي أو وهمي.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾. وهنا أيضاً وجه مشترك وهو الاتكاء ممّا يدلّ على الترف، وعدم الانشغال بغير ما يتلذّذ به الروح والجسم. والرفرف أصله من رفّ، أي برق وتحرك، والمراد هنا على الظاهر البسط، وقيل: الوسائد، وخضر صفتها، وكذلك عبقرى وحسان.

والعبقري كلّ فاخر في صنعه نسبة إلى عبقر، وهو بلد الجنّ حسب أساطير العرب، ولذلك ينسب كلّ شيء نادر إليه. وقيل: العبقرى بمعنى الطنافس، وقيل "الديباج.

وحسان جمع حسناء، كما مرّ. ومن الواضح أنّ هذا التوصيف دون توصيف متّكأ المقربين في الأولين، حيث إنّ بطائنها من إستبرق، فكيف بظواهرها، فقد ترك توصيفها كأنّها فوق التصرّور، مضافاً إلى حالة المتكئين هناك من جهة دنوّ الثمار إليهم مع اتّكائهم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. البركة أصلها من البروك بمعنى الثبوت والاستقرار، ومنه البركة لمجمع الماء وتستعار البركة للخير الكثير المستقرّ، وصيغة «تفاعل» و«تفعل» لإفادة اتخاذ الصفة ونحوها، كالتعالى لمن اتخذ لنفسه علوّاً على الآخرين، وكالتلبّس بمعنى اتخاذ لباس خاصّ. ومنه التكبر بمعنى

اتخاذ الكبير لنفسه وهو مذموم إلا من الله تعالى؛ لأنّ معناه في غيره تعالى أنّه يتّخذ لنفسه كبيراً ليس له، ويعتقد لنفسه موضعاً ومقاماً فوق حدّه، وأمّا الله تعالى، فهو الكبير المطلق. والمتكبر أحد الأسماء الحسنى ويطلق عليه تعالى هذا الاسم؛ لأنّ كبره ليس عطاءً من أحد، بل هو منه، فكلّ ما يفرض كبيراً فهو منحة من الله تعالى، وأمّا الله سبحانه فهو كبير بنفسه، ومثله تعالى والتعظيم والتقدّس ونحوها. وعلى هذا الأساس، فنسبة التبارك إليه تعالى بمعنى أنّه اتخذ لنفسه الخير الكثير الثابت، والمستقرّ يسبغه على من يشاء، ولا يصحّ هذا التعبير لغيره ولم يرد في غيره في لغة العرب، ولا في تعابير الشرع والمشرّعة؛ لأنّ البركة لكلّ شيء من الله تعالى وليس من نفسه، ولذلك أيضاً لا يصحّ التعبير عنه تعالى بالمبارك - بفتح الراء - .

والتبارك أُنشد في مواضع من القرآن إلى الذات المتعالية، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١ ولم يرد إسناده إلى الاسم إلا هنا. ولا حاجة إلى ما ذكروه من التأويل، كالقول بأنّه من باب الإقحام أو المبالغة؛ فإنّ الخير والبركة كلّ منه تعالى، ولكنّا نتبرّك باسمه؛ لأنّنا ندعوه باسمه الكريم، فبركة الاسم من جهة أنّه الوسيلة للدعاء وطلب الخير.

وقد مرّ الكلام في وجه الإضافة إلى ﴿رَبِّكَ﴾ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾، كما مرّ هناك أيضاً الكلام حول توصيفه تعالى بذی الجلال والإكرام.

والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين.

تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾

سورة الواقعة تتعرض لردّ تكذيب المشركين للمعاد ولتصنيف الناس يوم القيامة، وتختتم بالتأكيد على سلامة القرآن الكريم من دسّ الشياطين وتأثيرهم في آياتها، كما زعم المشركون.

وسياّتي التنبيه على ما يدلّ على أنّ الغرض الأساس منها هو تصنيف الناس إلى ثلاث طوائف، والتأكيد على الفرق بين المقرّبين وسائر أصحاب الجنّة. وهي مكّية بشهادة سياق آياتها، وقيل في بعض آياتها: إنّها نزلت في المدينة أو في بعض الأسفار. والأحاديث الواردة في ذلك غير صحيحة عندنا، وسياّتي الكلام حول بعضها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، الواقعة، أي الحادثة العظيمة التي حدثت من قبل، وأطلقت على يوم القيامة باعتبار أنّ وقوعها حتمي، فكانّها وقعت، فالمعنى إذا

وقع الأمر الذي لا بدّ من وقوعه.

و﴿إِذَا﴾ ظرف زمان يتضمّن معنى الشرط، والجزاء محذوف، أي إذا وقعت الواقعة سيحدث ما لا يكون بالحسبان.

ويمكن أن يقدّر الجواب ممّا يأتي من ذكر تصنيف الناس يوم القيامة، كأنّه قال: إذا وقعت الواقعة كان الناس أصنافاً ثلاثة: فأصحاب الميمنة...، ويمكن أن يكون الظرف متعلّقاً بقوله: «اذكر» مقدّراً.

﴿لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الواقعة حدوث الأمر العظيم، وكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية، أي ليس لوقعتها كذب في الوعد، بل هو وعد صادق حتمي، يقال: صدق وعده، أي أنجزه، فهذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾^١ وقيل: إنّ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفة لمحذوف، أي نفس كاذبة، وإنّ اللام للظرفية، أي حين وقوعها لا يكذب بها أحد.

وقيل: إنّ ﴿إِذَا﴾ متعلّق بـ ﴿لَيْسَ﴾ أي إذا وقعت فلا يكذب بها أحد. وكلاهما باطلان؛ إذ أنّ كلّ واقعة مشهودة لا يكذب بها أحد.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ خبران لضمير مقدّر، أي هي خافضة رافعة، تخفض أقواماً كانوا يعدّون من عليّة قومهم، وترفع أناساً كانوا يعدّون في الدنيا من الطبقة السفلى. ويحتمل أن يكون كناية عن قلب النظام الكوني رأساً على عقب.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ ظرفية أخرى تتضمّن معنى الشرط. وجوابها محذوف أيضاً كسابقتهما.

والرج: التحريك الشديد، والمراد به الزلزال، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ

الأَرْضُ زِلْزَالَهَا^١، وقوله: ﴿رَجًّا﴾ مفعول مطلق جيء به للتأكيد على عظمة الرجّة والاضطراب، أي رجاً عظيماً، كما أنّ قوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ أيضاً يفيد نفس المعنى، أي ذلك الزلزال المهيّب.

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ عطف على ﴿رُجَّتِ الْأَرْضُ﴾ والبس له معنيان - وكلاهما يناسب المقام - أحدهما: الدكّ والتفتيت، والآخر: السوق والتسيير. وقد ورد في الكتاب العزيز آيات تذكر النسف والدكّ، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا^٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ^٣﴾ وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً^٤﴾ كما ورد التسيير في عدة آيات، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً^٥﴾ وقال أيضاً: ﴿وَنُسَيِّرُ الْجِبَالَ سَيْرًا^٦﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ^٧﴾ وربما يقال: إنّ التسيير مقدّمة للدكّ والانهيّار.

وقوله: ﴿كَانَتْ﴾ هنا بمعنى صارت. والهباء: الغبار الدقيق. والمنبثّ: المتفرّق. قال في «العين»: «الهباء المنبثّ: ما يظهر في الكوى من ضوء الشمس».^٨ والكوى جمع كوة بفتح الكاف وضمه النقب في الحائط ونحوه يدخل منه النور في الحجرة.

١. الزلزلة (٩٩): ١.

٢. طه (٢٠): ١٠٥ - ١٠٦.

٣. المرسلات (٧٧): ١٠.

٤. الحاقة (٦٩): ١٤.

٥. الكهف (١٨): ٤٧.

٦. الطور (٥٢): ١٠.

٧. التكوير (٨١): ٣.

٨. كتاب العين: ٤: ٩٧.

ومثلها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مَهِيْلًا﴾^١ أي الرمل المنشور، وقوله تعالى: ﴿وَتَكُوْنُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾^٢ أي الصوف المتطاير في الجو.

والمعروف في التفسير أن هذه الآيات تشير إلى زوال هذا النظام الكوني وإقامة نظام جديد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^٣. وعلى هذا الاحتمال فالتعرض لزوال الجبال للتهويل، فإن الإنسان العادي تعجبه عظمة الجبال وشموخها، ولذلك كانوا يسألون الرسول ﷺ عما يحدث لها يوم القيامة، كما مر في آيات سورة طه من قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ وإلا فالأمر أكبر من ذلك بكثير، بل لا يعدّ انهدام الأرض بكاملها شيئاً أمام ما يحدث في ذلك اليوم.

ولكن الظاهر أن الآيات تشير إلى حقيقة أخرى من حقائق يوم القيامة لا من الأمور التي تحدث قبلها، كزوال الأرض والسماء، وهذه الحقيقة هي ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^٤ فقولهم: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يدل على أن ذلك يحدث يوم قيام الناس وحشرهم لا يوم زوال الكون وتبدله.

فالظاهر أن المراد بنسف الجبال وتسييرها وذكها وجعل الأرض قاعاً صفصفاً

١. المزمّل (٧٣): ١٤.

٢. القارعة (١٠١): ٥.

٣. إبراهيم (١٤): ٤٨.

٤. طه (٢٠): ١٠٥ - ١٠٨.

ليس فيها تعاريج ولا انخفاض وارتفاع ونحو ذلك من التعابير هو الإشارة إلى أن الإنسان ليس له مهرب يوم القيامة ولا ملجأ يأوي إليه أو يختبئ فيه، وأن كل حقائق أعماله وأفكاره وأقواله واضحة بيّنة للجميع، فلا يمتي الإنسان نفسه جهلاً وحمقاً بأنه يتمكن من الاختفاء واللجوء إلى الجبال، كما يفعل ذلك في مواجهة حوادث الدنيا، مع أنه هنا أيضاً لا يمكنه الفرار من عذاب الله، كما قال نوح عليه السلام في جواب ابنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾^١ وهناك من البشر من يتوهم أنه حتى لو قامت القيامة، فمن الممكن أن يبحث الإنسان عن طريق للفرار، ولعله السبب في سؤال المشركين عن الجبال ومصيرها في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي وصرتم...، فإن البشر قبل ذلك لا يظهر عليهم هذا الانقسام، وإنما يحدث ذلك يوم القيامة، فربّ إنسان يعتبره عامّة الناس في هذه الدنيا ولياً من أولياء الله تعالى أو صديقاً أو مؤمناً أو مسلماً على الأقل، ثم يتبين يوم تبلى السرائر أنه من ألدّ أعداء الله، كما أنه يمكن العكس أيضاً. والأزواج: الأمثال المتقارنة، فالبشر في ذلك اليوم ثلاثة أصناف.

فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٢﴾
 وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٤﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٥﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٧﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿٨﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا
 مُتَقَابِلِينَ ﴿٩﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٠﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ
 ﴿١١﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٢﴾ وَفِكَهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَحَرٍ طَعِيرٍ مِمَّا
 يَشْتَهُونَ ﴿١٤﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿١٥﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿١٦﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 ﴿١٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿١٨﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿١٩﴾

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾. الفاء لتفصيل بيان الأزواج الثلاثة

المذكورة في الآية السابقة، وهم أصناف البشر يوم القيامة.

واليمينة مصدر ميمي من اليمين، وهو الخير والبركة. يقال: إنَّ الأصل فيه هو
 الجانب الأيمن، وإنما عبروا عن الخير والبركة باليمين واليمينة تفاعلاً بالطائر
 الذي يأتيهم من اليمين، كما أنَّ المشأمة من الشؤم وهو مأخوذ من الشمال
 تشاؤماً بما يأتيهم من جانب الشمال. والمشأمة: الميسرة. ومهما كان أصل الكلمة
 فالمراد بهم هنا أصحاب الخير والبركة والسعادة وهم أصحاب الجنة.

والمذكور في التفاسير أنَّ قوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿مَا أَصْحَابُ
 الْمَيْمَنَةِ﴾ خبره، و﴿مَا﴾ استفهامية للتعجب والتفخيم وكان الأصل أن يقال: «ما هم»
 أي كيف هم وما أعظمهم؟ ولكن أبدل الضمير بالاسم الظاهر لتكرار الكلمة
 والاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾.^١

وهكذا قالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ إلا أن التعجب هناك ليس للتفخيم، بل للتفطيع، أي ما أفضع حالهم.

ولكن الظاهر أن ﴿مَا﴾ استفهامية وأن الأصل في هذه الجملة أن تكون هكذا: «فأصحاب الميمنة وأصحاب المشمة والسابقون السابقون» وبذلك يذكر تفصيل الأزواج الثلاثة، ولكنه عند ذكر الفريقين الأولين ذكر استفهاماً عن حقيقتهم: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ وهو سؤال يفرضه الحال، كأنه يعبر عن حال المستمع والقارئ ولا يفيد، أي تعجب أو تفخيم أو تفطيع. ولم يقل: «من هم أصحاب الميمنة»، لأنه لا يريد أن يعرف الأشخاص، وإنما يريد أن يبين حقيقة الفرق، فهذا الاستفهام جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وإثارة هذا السؤال تفيد تلهفاً لمعرفة الجواب الذي سيأتي فيما بعد.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ تبين الحال فيها، والمشاركة مصدر ميمي من الشؤم وهو ضد اليمن، أي الشر والشقاء، وأصله - كما قالوا - من الشمال، أي الجانب الأيسر.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، وهذا هو الصنف الثالث وهم الأفضل والأشرف. والسبق هو التقدم على الأقران في أمر ما.

واختلفوا في المراد بهذا التكرار، فقيل: إن الثانية خبر للأولى، ولكن على تأويل أن السابقين لا يمكن الإخبار عنهم وتوصيفهم بأكثر من أنهم سابقون، فيكون الإبهام في توصيفهم نظير الإبهام في الفريقين الآخرين، حيث أتى باستفهام التعجب، وهذا نظير قول الشاعر «وشعري شعري»، أي هو معروف بفصاحته وبلاغته، فلا حاجة إلى تعريف.

وقيل: إنه خبر، ولكن باختلاف موضع السبق، فالسابقون إلى الطاعة والعبادة سابقون إلى الجنة والقرب لدى الله تعالى شأنه.

ولكن الظاهر أن الثانية للتأكيد بمعنى تأكيد مفهوم السبق، نظير قولك: «زيد عالم عالم»، كأنك تقول: عالم حقيقي، وليس كغيره ممن يدعى عالماً بالمسامحة.

وعليه فالمعنى: الذين سبقوا الآخرين سبقاً بعيد المدى بحيث لا يمكن لغيرهم من الصالحين الوصول إليهم، وبذلك يتحدد معنى السابقين، وأنهم صنف خاص وليسوا من سابقي أصحاب اليمين، إذ لا شك أن في مجموعة أصحاب اليمين أيضاً درجات مختلفة، فمنهم المتقدمون، ومنهم المتأخرون، ولكن السابقين يختلفون عنهم بأجمعهم اختلافاً جوهرياً يستدعي اعتبارهم فريقاً خاصاً، وعليه فهذا التكرار وإن كان للتأكيد إلا أنه يفيد التقييد بمعنى خاص. وسيأتي مزيد توضيح له.

واختلفوا أيضاً في المراد بالسابقين، فقيل: هم الأنبياء عليهم السلام. وهذا أفضل ما قالوا، ولكنه غير صحيح من جهة أنه لا يوافق قوله تعالى: «وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ»، إذ ليس في الآخرين منهم إلا واحد وهو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وسيأتي أن المراد بالآخرين المعاصرون لنزول الآيات ومن بعدهم.

وقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة من المسلمين، وقيل: هم الذين صلّوا إلى القبلتين، وقيل: هم السابقون إلى الهجرة أو إلى الصلوات الخمس، وقيل: هم أهل القرآن.

وهذه الأقوال كلها باطلة؛ إذ لا ينطبق على الأولين، ومن الواضح أن الآيات

لم ترد في خصوص هذه الأمة، بل هي تقسم البشر إلى الأصناف الثلاثة، والمراد بالأوليين منهم البشر الأولون في مقابل الآخرين، كما مرّ آنفاً.

وقيل: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار الذي ذكر في يس وعليّ بن أبي طالب عليه السلام وكلّ رجل منهم سابق أمته وعليّ أفضلهم. وضعف هذا القول واضح؛ إذ لا ينطبق على ثلّة من الأولين ولا قليل من الآخرين.

وقيل: هم السابقون إلى اتباع الأنبياء عليهم السلام وهو باطل أيضاً؛ إذ يكون الأنبياء بأنفسهم خارجين عن كلّ الأصناف.

وتبيّن بما ذكرناه في وجه التكرار أنّ المراد بهم من هم في السبق إلى الخيرات في مرتبة عالية جداً بعيدة عن متناول عمّة المؤمنين الذين هم أصحاب اليمين، وهؤلاء هم حجج الله تعالى على خلقه من الأنبياء والأئمة المعصومين - عليهم سلام الله.

والحاصل أنّ الآية تصرّح بانقسام البشر يوم القيامة إلى ثلاث طوائف، ويظهر منه بوضوح عدم التداخل، فلا يعتبر المقرّبون من المراتب العليا في أصحاب اليمين وكذلك العكس، مع أنّ ظاهر العنوان، أي «أصحاب اليمين» ربما يشمل الجميع، ولكن هذا مصطلح قرآني يراد به فريق خاصّ من أصحاب الجنّة، فلا بدّ من أن يكون هناك ما يميّز المقرّبين تمييزاً جذرياً يصحّ اعتبارهم طائفة مستقلة في قبال أصحاب اليمين، وأمّا إذا اعتبرناهم من الطبقة العليا المميّزة بالسبق من أصحاب اليمين أو الأبرار أو نحو ذلك لم يصحّ التقسيم، فإنّ في أصحاب اليمين بعد هذا التقسيم أيضاً مراتب كثيرة تختلف اختلافاً كبيراً، كما أنّ المقرّبين أيضاً لهم مراتب مختلفة، بل وأصحاب الشمال أيضاً تختلف

مراتبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَّبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ والآيات السابقة عليها تدلّ على أنّ المراد بهم أصحاب النار.

فلا يصحّ التقسيم إلا بوجود مميّز جوهرى للمقرّبين وهو السبق بدرجة لا يمكن للآخرين اللحاق بهم، ولا يمكن ذلك إلا إذا كان ذلك بموهبة وعناية خاصّة من الله تعالى، وإلا فلو كان ممّا يكتسب لأمكن للآخرين اللحاق بهم، وليس ذلك إلا العصمة الإلهية التي وهبها للأنبياء والمرسلين والأئمة الطاهرين عليه السلام.

ومن هنا يمكن الاستدلال بهذه الآيات الكريمة على صحّة ما تعتقده الإمامية من عصمة بعض من هذه الأئمة لينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ولا ينطبق ذلك على عنوان الصحابة لكثرتهم، مع أنّه لم يقل بعصمتهم أحد، ولا يمكن القول بها لمن لاحظ سيرة بعضهم، فلا يبقى إلا القول بعصمة الأئمة الطاهرين عليه السلام.

روى الكليني بسنده عن جابر الجعفي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا جابر إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق ثلاثة أصناف، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، فالسابقون هم رسل الله وخاصّة الله من خلقه»^١.
﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ الجملة استثنائية. وفيها احتمالان: الأوّل أن يكون هذا شروعاً في بيان جزائهم يوم القيامة، فأوّله وأفضله هو القرب لدى الله تعالى.

١. الأنعام (٦): ١٣٢.

٢. الكافي ١: ٢٧١، الحديث ١.

والثاني أن يكون هذا تحديداً لمصدق السابقين لا بياناً لجزائهم، أي إنّ السابقين السابقين هم المقرَّبون، أي الذين أنعم الله تعالى عليهم في الدنيا بأن قرَّبهم إليه وجعلهم خاصَّته واجتباهم وزكَّاهم وعصمهم من الزلل والخطأ وتعقَّب حياتهم في الدنيا من أوَّل يوم ولادتهم، بل قبل الولادة، فصنَّعوا على عينه وبعنايته الخاصَّة ليكونوا مثلاً وأئمة وقادة للبشرية في الصراط المستقيم. والاحتمال الثاني هو الأقرب، وسيأتي ما يؤيِّده في آخر السورة المباركة. والتعبير يفيد الحصر حيث أتى بالخبر محلِّي بلام التعريف، أي ليس المقرَّبون إلا هؤلاء.

والمراد بالقرب القرب المعنوي، أي قرب المكانة والمنزلة لدى الله تعالى. وهناك فرق بين المتقرِّبين والمقرَّبين، فالإنسان بالطاعة والعبادة يتقرَّب إلى الله تعالى، أي يحاول أن ينال منزلة لديه تعالى أو كرامة أو حاجة، وأمَّا المقرَّبون لديه فهم الذين قرَّبهم وأكرمهم بكرامته الخاصَّة وعصمهم من الزلل وصنَّعوا على عينه تعالى، كما قال في شأن موسى عليه السلام ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾. فالتقرَّب فعل العبد والتقريب فعل الله سبحانه.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. قيل: إنّ الظرف خبر بعد خبر. ولكن الأولى أن يكون الظرف متعلِّقاً بالتقريب، فيكون المراد بالنعيم نعيم القرب، أي إنّ تقرِّبهم وتنزِّلهم في المكانة المقرَّبة لدى الله تعالى يتحقَّق بكونهم في جَنّات النعيم، وبناءً عليه فالمراد بالجَنّات معنى آخر غير ما هو المتبادر منها، كما أنّ نعيمها من سنخ آخر لا يعرفه إلا من نال لذَّة القرب، بل لذَّة التقريب.

ويؤيد هذا الاحتمال الفصل بين ذكر كونهم في الجنّات وتفصيل النعم التي فيها بقوله: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» ممّا يوحي بأنّ تلك النعم من واد آخر غير كونهم في جنّات النعيم.

ولعلّ الإتيان بالجمع للتفخيم والتعظيم، فالمقرّب لدى الله تعالى كأنّه يعيش في جنّات من النعيم لا في جنّة واحدة.

وقيل: إنّ الجمع باعتبار أنّ كلّ واحد منهم في جنّة. وهذا لا باس به، ولكن بمعنى أنّ التعدّد بلحاظ اختلاف مراتب القرب.

«ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» خبر لمبتدأ محذوف، أي هم ثلّة. واختلفوا في معنى الثلّة، ففي كتاب «العين»: «الثلّة: جماعة من الناس كثيرة»^١. ولم يرد التوصيف بالكثرة في غيره من كتب اللغة، ولكن يتبيّن من توصيف المقرّبين من الآخرين بالقلّة أنّهم في الأوّلين موصوفون بالكثرة.

ومن الواضح أنّ المراد بالآخرين في عهد النزول المعاصرون لنزول القرآن ومن بعدهم ممّن يعتبرون من هذه الأمة.

والمراد بالأوّلين في مقابلهم الأمم السالفة، فما قيل من أنّ المراد أوائل هذه الأمة وأواخرها خطأ واضح، وإنّما لجأوا إليه لاستبعادهم أن يكون السابقون في هذه الأمة أقلّ من الأمم السابقة، والسبب عدم التأمل في معنى السبق، وبناءً على ما ذكرناه يرتفع الاستبعاد، فإنّ الأنبياء في الأمم السابقة هم السابقون وهم ثلّة عظيمة، ومن هذه الأمة لا ينطبق هذا العنوان إلا على محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ السرر جمع سرير ما يستقرّ عليه الإنسان في خفض عيش ودعة، وكأنّه مأخوذ من السرور.

والوضن - كما في «العين» - نسج السرير وأشباهه بالجواهر والثياب.^١
والغرض كونها سرراً أنيقة مزينة. وتوصيفهم بأنهم على سرر، لبيان أنّهم متفرغون للتلذذ والتنعم، لا يشغل بالهم هم ولا يحزنهم شيء.

﴿مُتَقَابِلِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾، الاتكاء أيضاً من أمارات الترف والرفاه وفراغ البال.
وكونهم متقابلين ينبئ عن استئناس بعضهم ببعض وتجمّعهم حول بعض للحديث عن النعم الإلهية. والتقابل أفضل أنحاء المجالسة.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾. الطواف: المشي حول الشيء ولا يتعدّى به
«على» ولكنّه ضَمَّنَ معنى العرض، أي يكرّرون العرض عليهم وهم طائفون حولهم ويتنقلون إلى غيرهم من الجلساء المتقابلين.

والولدان جمع الوليد وهو الخادم الشاب، والظاهر أنّ توصيفهم بالخلود بمعنى أنّهم لا يشيبون، فيقون دائماً على صفة كونهم ولدان.

وظاهر الآيات أنّهم خلق خلقهم الله لهذا الأمر، أي خدمة أهل الجنة تكريماً لهم. وهناك روايات ضعيفة تدلّ على أنّهم من أولاد البشر في الدنيا وهو بعيد.

ومهما كان، فلا استبعاد في أصل الاستخدام ولو فرض تكليف رجال من الإنس صالحين مؤمنين بأن يخدموا المقرّبين كالأنبياء والمرسلين والأئمة الطاهرين - عليهم جميعاً سلام الله - فلا أظنّ أحداً منهم يتثقل عنه أو يشعر باحتقار ومذلة أو تعب، بل هو غاية العزة والشرف، وهو مطلوب لهم ومحجوب

لديهم، بل ممّا يقلقهم هو أن يكونوا لاختلاف الدرجة والمقام والبعد الشاسع بينهم وبين المقرّبين في موضع لا يحظون بلقائهم وزيارتهم، فلو أنيطت بهم خدمتهم فإنّ ذلك غاية المنى.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾. الأكواب جمع كوب، وهو القَدَحُ إناء للشرب لا عروة له ولا خرطوم.

والأباريق جمع إبريق إناء له عروة وخرطوم يستعمل لصبّ الماء ونحوه، وقيل: أصله فارسي وهو أبريز، وقيل: هو من البريق حيث إنّهُ غالباً يصنع ممّا يلمّع ظاهره، ومنه جارية إبريق، أي يبرق جسمها بياضاً وصفاءً.

والكأس إناء للشرب أيضاً، والظاهر أنّها لا تطلق إلا على إناء يشتمل على الخمر، والمراد بها جنس الكأس، فتصدق على الجمع والمفرد.

والمعين: العين التي يجري ماؤها على الأرض. والمراد هنا الخمر الذي يجري على الأرض في أنهار.

والباء في قوله: ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ متعلّق بـ ﴿يَطُوفُ﴾، أي يطوف الولدان عليهم بالأكواب وكؤوس الخمر.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾. الضمير في ﴿عَنْهَا﴾ يعود إلى الخمر أو الكأس. وهما يذكّران ويؤنثان. والصّدع في الأصل شقّ في شيء له صلابة، واستعير للصّداع، أي وجع الرأس، فالمعنى لا يصيبهم صداع عنها، أي بسببها من تأثير السكر، كما يحصل من خمر الدنيا على ما قيل.

وقيل: المراد به التفرّق، فإنّ السكر يوجب المشاحنة والنزاع بين الأحباب وينشأ منه التفرّق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي

الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ^١ ولكن خمر الجنة لا تسكر، فلا توجب التفرق. وقيل: بمعنى أنها لا تنقطع عنهم.

والنزيف: الصبّ الغزير. واستعير لزوال العقل، يقال نُزِفَ - مَبْنِيًّا للمجهول - من السكر، أي زال عقله بالمرّة، فإذا قُرِئَت الكلمة هنا كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾^٢ فالمعنى واضح وإذا قرئت مبنياً للمعلوم، كما هو المشهور فمن باب أنزف القوم إذا نزف ماء بثرهم وهو أيضاً بنفس المعنى.

هذا وقد مرّ بعض الكلام حول خمر الجنة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ﴾^٣.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ عطف على الكأس، فهي أيضاً ممّا يطاف عليهم. والفاكهة ما يؤكل للتلذذ. وأهل الجنة لا يأكلون لسدّ الجوع، فلا جوع هناك، ولكن للتلذذ، فكلّ ما يؤكل هناك فاكهة.

والتخير: الاختيار، وأصله طلب الخير، ثم أطلق على كلّ ما يختاره الإنسان وإن كان شراً باعتبار أنّه لا يختاره إلا وهو يجد فيه خيراً له وإن اشتبه الأمر عليه. ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ عطف على الفاكهة. والاشتقاء: الميل والرغبة. والمهمّ في الأمرين عدم التحديد بنوع، فالفاكهة كما يختارون، ولحم الطير كما يشتهون. ولعلّ التخصيص بذكر الطير لكونه أفضل اللحوم ولا تحديد هناك، فلهم ما يشاءون من اللحوم وغيرها.

١. المائدة (٥): ٩١.

٢. الصافات (٣٧): ٤٧.

٣. الطور (٥٢): ٢٣.

وأهل الجنة وخصوصاً المقربون يتناولون الفاكهة ولحم الطير بدون واسطة أيضاً، كما مرّ في قوله تعالى: «وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ»^١ ولكن ربما يكون الأخذ من يد الخدم في مواضع التجمّع والتقابل على السرر ألدّ لهم.

«وَحُورٌ عِينٌ» قد يكون عطفاً على الولدان، أي كما يطوف عليهم الولدان للخدمة، كذلك تطوف عليهم الحور العين. أو هو مبتدأ خبره محذوف، أي «وفيها حور عين» أو «ولهم حور عين».

وقرئ: «وَحُورٍ عِينٍ» بالجرّ، فيكون عطفاً على أكواب بتقدير فعل آخر، أي ويُرَوِّجون بحور عين. أو على جنّات فيكون التقدير: «وفي حور عين»، بمعنى أنّهم محاطون بهنّ.

وقد مرّ بيان معنى الحور قريباً في تفسير سورة الرحمن.

والعين جمع عينا، أي المرأة واسعة العين. وهناك بحث في وجه تخصيص الرجال بالحور العين، ذكرناه في تفسير قوله تعالى: «وَرَوْحَانُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ»^٢. «كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ» تشبيه لهنّ باللؤلؤ في الصفاء والجمال. والأمثال: الأشباه. ولعلّ الإتيان به مع الكاف لتأكيد التشبيه.

والمكنون: المستور. ولعلّ التوصيف به إشارة إلى صونهنّ من أن يمسهنّ أحد، كما مرّ في سورة الرحمن، ويمكن أن يكون إشارة إلى نفاستهنّ، فإنّ كلّ نفيس يحفظ عادة، أو يكون للمبالغة في الصفاء، فإنّ اللؤلؤ يفقد بعض بريقه إذا مسّه الأيدي.

١. الرحمن (٥٥): ٥٤.

٢. الطور (٥٢): ٢٠.

﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مفعول لأجله، والباء للسببية، أي ننعيم عليهم بكل ذلك، جزاءاً لهم بسبب أعمالهم في الدنيا. ولم يقل: «جزاءاً بما عملوا»، بل: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مما يدل على الاستمرار، ولذلك ورد في الأثر الحث على الاستمرار على العمل الصالح وإن كان قليلاً.

وهذه الآية تقطع آمال المبطلين، فإن كان المقرَّبون يؤتون نعيم الجنة جزاءاً لعملهم المستمر، فكيف بغيرهم؟! فلا بد من شدِّ العزم وبذل الجهد.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾. اللغو: الكلام الباطل الذي لا يفيد شيئاً، بل ربما يضر. والتأثيم أن يتهم بعضهم بعضاً بالإثم. والآية تصف اجتماعهم وهم متكونون على السرر متقابلين، وأنهم لا يتحدثون بما يسيء إلى أحد منهم، وليس هناك إثم من أحد حتى يتبادلوا التهم، كما هو الحال في مجتمعات الدنيا حتى بين المؤمنين والصالحين، فكل ما يعكّر جو الصفاء والمودة بعيد عن محافلهم.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع يفيد التأكيد على انتفاء اللغو والتأثيم، فإن معناه أنه لو كان بينهم حديث لغو لكان ذلك قولهم سلاماً، وهذا ليس لغواً، كما هو واضح، فلا لغو نهائياً.

والقيل كالقول، أي إلا قولهم سلاماً، والتكرير لبيان تكرر السلام، إما منهم أو من الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^١ والسَّلام والسَّلْم والسلامة بمعنى واحد، وهو ما يقابل الابتلاء بالآفات والعاهات الظاهرة والباطنة، وهو من غير الله تعالى دعاء يراد به التحية.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٦٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٦٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٦٩﴾
وَوَطْلٍ مَّنْذُودٍ ﴿٧٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٧١﴾ وَفُكْحَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٧٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ
﴿٧٣﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً ﴿٧٥﴾ جَعَلْنَاهُمْ أَجْكَارًا ﴿٧٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا
﴿٧٧﴾ لَا صَحْبَ الْيَمِينِ ﴿٧٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٨٠﴾

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾. قوله: ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ خبر و﴿مَا﴾ بناءً على المشهور للاستفهام، المفيد للتعجب والتفخيم. ولكننا ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أن الاستفهام أمر يفرضه الحال ويعبر عن حال المستمع والقارئ ولا يفيد تعجباً ولا تفخيماً، وما ورد هنا أيضاً تكرار لذلك الاستفهام مقدّمة لذكر الجواب.

وهؤلاء هم أصحاب الميمنة الذين مرّ ذكرهم في عدّ الأصناف الثلاثة من البشر. واليمين ممّا كانت العرب تسمّين به، كما كانوا يتشاءمون من الشمال، وذلك في ما إذا مرّ طائر عن يمينهم أو شمالهم.

ويمكن أن يكون إشارة إلى من يؤتى كتابه بيمينه. وهو أيضاً تعبير عن كون مصيرهم إلى الخير، كما أنّ التعبير بإيتاء الكتاب بالشمال كناية عن أنّ أعمالهم المسجّلة في كتابهم تنتهي بهم إلى الشؤم والشرّ، ولا يراد بمثل هذه التعابير معانيها الظاهرة.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خبر لمبتدأ مقدر، أي هم في سدر. ويبدأ السياق بذكر ما يتنعمون به، وهو بالنسبة إلى ما سبق من نعم المقربين منزلة دانية جلاً و - على ما قيل - فيه شيء من البداوة والبساطة. وقد مرّ في تفسير سورة الرحمن أنّ الغرض

بيان الفرق بين المقامين والمترلتين لدى الله سبحانه، وأنّ هذا يشير إلى أنّ نوع النعم هناك ليس كما نتوهم. وإنّما يعبر بها عن تلك النعم التي لا تتصوّرها لضيق التعبير وضيق الفهم لدينا.

والسدر شجرة النبق. والخضد - كما في «العين» - «نزع الشوك عن الشجر»^١ والمعنى أنّ جنتهم مليئة بشجر السدر يستظلّون بها، ولكن ليس لها أشواك كما في الدنيا. وكونهم في الشجر بمعنى أنّهم في مكان فيه هذا الشجر.

﴿وَطَلَحَ مَنُصُودٌ﴾ الطلح - كما في «العين» - : «شجر أمّ غيلان شوكة أحجن من أعظم العضاة شوكاً وأصلبه عوداً وأجوده صمغاً»^٢.

«أحجن» أي أعوج، و«العضاة»، جمع عِضاة أي الشجر الذي له شوكة. والنَّضْد جعل الشيء بعضه على بعض قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعُ نَضِيدٌ﴾^٣ حيث ركبت الحبات في طلع النخل بعضها فوق بعض بطريقة منتظمة. ولعلّ النضد في هذا الشجر في أغصانه أو نوره حيث يقال: «إنّ له نوراً طيّب الرائحة».

ومهما كان فقد وقع المفسّرون في مشكلة لتأويل هاتين الآيتين حيث لا يتوقّع أن تكون شجر الجنّة من هذا القليل وهناك محاولات للتأويل.

فمنها ما رواه بعضهم من أنّ المسلمين نظروا إلى «وَجٍّ» وهو واد مُخَصَّب بالطائف فأعجبهم سدره، وقالوا: يا ليت لنا مثل هذا، فنزلت الآية.

١. كتاب العين ٤: ١٧٥.

٢. كتاب العين ٣: ١٦٩.

٣. ق (٥٠): ١٠.

ومثل ذلك روي عن مجاهد في الطلح والسدر، ففي «روح المعاني»: «أخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد قال: كانوا يعجبون بوجّ وظلاله من طلحه وسدره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ* فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾^١.

وهذا كلام غريب وهل شجر الجنة وتحديد نوعه يتبع إعجاب جمع من المؤمنين في عصر من الأعصار؟!

ومنها ما قاله كثير منهم من أنّ الطلح شجر الموز، وروي ذلك عن أمير المؤمنين (عليه السلام) وعن ابن عباس وغيرهما، ولكن أنكر ذلك بعض اللغويين، قال ابن سيده في «المحكم والمحيط الأعظم»: «وقوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ فُسرّ بأنه الطَّلَعُ وفُسرّ بأنه المَوْزُ»^٢. وهذا غير معروف في اللغة.

ومنها ما في «مجمع البيان» عن الحسن البصري أنّ الطلح ليس بالموز، ولكنّه شجر له ظلّ بارد رطب، ثمّ قال: «وقيل: هو شجر يكون باليمن وبالبحجاز من أحسن الشجر منظراً»^٣.

وفي «روح المعاني»: «وقال السدي شجر يشبه طلع الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل، وقيل: هو شجر من عظام العضاة، وقيل: شجر أمّ غيلان وله نور كثير طيّب الرائحة»^٤.

والمحاولة والتهرّب واضحان على كلّ ذلك.

١. روح المعاني ٢٧: ١٤٠.

٢. المحكم والمحيط ٣: ٢٤١.

٣. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣٢٩.

٤. روح المعاني ٢٧: ١٤٠.

وفي «تفسير ابن عاشور» بعد مبالغة في مدح السدر وثمره قال: «ولما كان السدر من شجر البادية وكان محبوباً للعرب ولم يكونوا مستطيعين أن يجعلوا منه في جنّاتهم وحوائطهم - لأنّه لا يعيش إلا في البادية، فلا ينبت في جنّاتهم - خصّ بالذكر من بين شجر الجنّة إغراباً به وبمحاسنه التي كان محروماً منها من لا يسكن البوادي وبوفرة ظلّه وتهدّل أغصانه ونكهة ثمره»^١ ولا أعلق على ذلك بأكثر من أنّي رأيت هذا الشجر في كثير من البيوت في المدن والقرى.

ومنها ما في «تفسير الرازي»: من أنّ الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، والسدر في غاية الصغر، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر، فقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها والورق أحد مقاصد الشجر. ثمّ قال: «وهذا جواب فائق وفّقنا الله تعالى له»^٢ وعلق عليه الآلوسي بقوله: «وهو ممّا لا بأس به»^٣.

أقول: بل لا قيمة له وكيف يكون ذكر نوعين من الشجر دليلاً على وجود كلّ ما بينهما من أنواع الشجر حسب اختلاف حجم الورق؟! إنّ هذا ممّا يضحك النكلى. ولكنّه على كلّ حال يدلّ على وقوع القوم جميعاً في ضيق وشدة لتأويل هاتين الآيتين.

ومنها ما رواه العامّة - على ما في «مجمع البيان»^٤ - عن أمير المؤمنين عليه السلام من

١. التحرير والتنوير ٢٨: ٢٩٩.

٢. تفسير الكبير ٢٩: ٤٠٤.

٣. تفسير الآلوسي ٢٠: ٢٢٥.

٤. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣٣٠.

أنّه تحريف عن الطلع، قال في «روح المعاني»: «وقرأ علي - كرم الله تعالى وجهه - وجعفر بن محمد وعبد الله - رضي الله تعالى عنهم - وطلع - بالعين - بدل وَطَلَحَ - بالحاء - وأخرج ابن الأنباري في المصاحف وابن جرير عن قيس بن عباد، قال: قرأت على علي - كرم الله تعالى وجهه -: ﴿وَطَلَحَ مَنْضُودٌ﴾ فقال: ما بال الطلح؟ أما تقرأ: «وطلع»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿لَمَّا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾ ف قيل له: يا أمير المؤمنين أنحكها من المصحف؟ فقال: لا يهاج القرآن اليوم.^١

ثم قال الآكوسي: «وهي رواية غير صحيحة، كما تبّه على ذلك الطيبي، وكيف يقر أمير المؤمنين - كرم الله تعالى وجهه - تحريفاً في كتاب الله تعالى المتداول بين الناس، أو كيف يظنّ بأنّ نقلة القرآن ورواته وكتّابه من قبل تعمّدوا ذلك أو غفلوا عنه؟ هذا والله تعالى قد تكفّل بحفظه؛ سبحانه هذا بهتان عظيم».^٢

وفي «مجمع البيان» بعد أن روى الحديث المذكور عن العامّة، قال: «ورواه أصحابنا عن يعقوب بن شعيب، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَطَلَحَ مَنْضُودٌ﴾، قال: لا وطلع منضود».^٣ ولم أجد الرواية في مصدر آخر.

والروايتان لا يعتمد عليهما قطعاً؛ أمّا الأولى فعامية، وأمّا الثانية فمرسلة. ولكن ما يدلّ على هذا المقدار من التحريف ليس بعزيز، بل أكثر ما يعدّ من اختلاف القراءات من هذا القبيل، بل فيها ما هو أعظم اختلافاً منه.

وإنّما اعتبر هذا الحديث ممّا يدلّ على التحريف؛ لأنّه ينفي القراءة المشهورة وهذه القراءات عند القوم متواترة لا يجوز نفي شيء منها، وقد رووا أنّ القرآن

١. روح المعاني ٢٧: ١٤١.

٢. روح المعاني ٢٧: ١٤١.

٣. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣٣٠.

نزل على سبعة أحرف.

ولكنّ الصحيح عندنا أنّ القرآن نسخة واحدة، ففي «الكافي»، علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ الناس يقولون: إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، فقال: «كذبوا أعداء الله ولكنّه نزل على حرف واحد من عند الواحد»^١.

وفي رواية أخرى فيه أيضاً عن الحسين بن محمد، عن علي بن محمد، عن الوشاء، عن جميل بن درّاج، عن محمد بن مسلم، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ القرآن واحد نزل من عند واحد ولكنّ الاختلاف يبيح من قبل الرواة»^٢.

هذا مع أنّ الطلع أيضاً لا يناسب المقام؛ إذ أنّه ليس اسماً للشجر حتّى يقال: إنّ أصحاب اليمين في طلع منضود؛ إذ لا يصدق على النخل ولا أظنّ أنّه يطلق مجازاً عليه، وليس هو بذاته أيضاً شيئاً يذكر في ما هو المتوقع من أشجار الجنة، والتي وصفها في موارد أخرى من القرآن الكريم حتّى بالنسبة للمرتبة الدانية، بل حتّى في هذه السورة بالذات حيث يأتي ذكر الفاكهة الكثيرة وهي على الشجر طبعاً.

فالظاهر - كما مرّ - أنّ الغرض ليس هو تحديد نوع الشجر في هذه الجنة، بل الإشارة إلى الفرق الكبير بين المرتبتين، فلا مانع من كون المراد بالطلع الشجر المعروف بأُمّ غيلان أو غيره ممّا يستظلّ به، وهو على كلّ حال يدلّ على نوع من البساطة والتّقشّف في العيش، مع أنّ الله تعالى لا يبخل على أهل الجنة قطعاً بما لم يبخل على عامّة الناس في الدنيا، فالغرض هو الإشارة إلى أنّ الفرق بين مرتبة

١. الكافي ٢: ٦٣١.

٢. الكافي ٢: ٦٣٠.

الفريقين من حيث القرب لدى الله تعالى، كالفرق بين جنة فيها كل أنواع الفاكهة وكل ما يتلذذ به الإنسان، وجنة ليس فيها من الشجر إلا ما يستظل به. كما مرّ مثله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾^١ والله العالم.

﴿وِظِلٌّ مُمْدُودٌ﴾. قيل: إنه الظلّ الدائم الذي لا يتقلّص كالظلّ بين الطلوعين أو إنه ظلّ طويل لا يخشى زواله. وفي «روح المعاني» أن الآثار تدلّ على أنه ظلّ الأشجار.^٢

ولكنّ الصحيح أنّه ليست هناك شمس حتّى يستظلّ عنها بالشجر، كما قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾^٣ وإن كان مورد هذه الآية المقربون، ولكنّ الظاهر عدم الفرق من هذه الجهة، فالغرض ليس هو تفصيل حالة الظلّ هناك، بل الإشارة إلى الفرق بين المقامين كما قلنا، ويلاحظ البساطة في العيش تحت الظلّ، كما كانت زوجاتهم في سورة الرحمن مقصورات في الخيام، وليس معنى ذلك أن الله تعالى يبخل عليهم بدار، كما في الدنيا على الأقلّ، بل الغرض ما ذكرناه، والله العالم.

﴿وَمَاءٌ مِّنْكُوبٍ﴾، أي مصبوب معدّ للشرب، فلا يحتاج إلى من يناوله ولا إلى تكلف البحث عنه، ومع ذلك فالبساطة واضحة في التعبير بالنسبة لما مرّ من الأكواب والأباريق مع خدمة الولدان وطوافهم، والغرض واضح.

﴿وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، أي لا تنقطع باختلاف الفصول كما في الدنيا، ولا يمنعون عنها بأيّ سبب من الأسباب، ككونها مضرّة لهم صحياً أو

١. الرحمن (٥٥): ٦٢.

٢. روح المعاني ٢٧: ١٤٠.

٣. الإنسان (٧٦): ١٣.

ممنوعاً قانوناً، فهم يختارون ما شاءوا ومتى شاءوا، ومع ذلك فالفرق واضح بين المنزلتين، حيث إنّ الفاكهة هناك لا تتحدّد بنوع، بل هي ممّا يتخيرون وهنا توصف بالكثرة فقط، والغرض واضح.

﴿وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾. الفرش جمع فراش ما يبسط للاستقرار عليه. والظاهر أنّ المراد بالرفع كونها على السرر، وفيه أيضاً تنزّل عن السرر الموضونة المعدة للمقرّبين.

وقيل: المراد بها أزواجهم وأنّه يعبر عن المرأة بالفراش، وأنّ المراد بكونهنّ مرفوعات، علوّ قدرهنّ في الجمال والكمال. وإنّما قيل بذلك لعود الضمير في الآية التالية وسيأتي له وجه آخر.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾. الضمير يعود إلى الفرش بناءً على أنّ المراد بها النساء، ويمكن أن يعود إلى أزواجهم من الحور العين وإن لم تذكر قبل ذلك إلا أنّه أشار إليهنّ بذكر الفرش حيث إنّها معدّة للاتكاء عليه، وهو يتمّ عادة مع الأزواج، كما قال تعالى: ﴿هُنَّ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ﴾^١.

والإنشاء: الخلق ابتداءً، أي من دون استناد إلى سبب طبيعي، فهنّ لم يولدن من آباء وأمهات، وعليه فينحصر ذلك في الحور العين.

و﴿إِنِشَاءً﴾ مفعول مطلق لعلّه للإشارة إلى أنّه إنشاء وخلق عجيب من جهة كونهنّ كالبشر ولسن من البشر، ولا يعتريهنّ التغيّر الذي يطرأ على الإنسان في الدنيا.

وقيل: إنّ المراد بهنّ نساؤهم في الدنيا وأنّ الإنشاء إعادة خلقهنّ خلقاً جديداً

حيث إنَّهنَّ يعدنَّ شابات، كما أنَّ الرجال يعودون شباباً، وورد ذلك في بعض الروايات، ولكنَّها ضعيفة. وظاهر الآية ما ذكرناه والنعيم في الجنَّة فوق تصوُّرنا، فلا حاجة إلى شباب ولا تضرُّه الشيبة.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾. البكر أوَّل كلِّ شيء، ويقال لأوَّل من يولد لأبويه بكر، كما يقال للفتاة قبل زواجها، وهو هنا كناية عن عدم المسِّ، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّ عَنْهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾^١ والرجل يحبُّ أن لا تعرف زوجته رجلاً غيره.

والتعبير بالجعل بمعنى أنَّ هذا شأنهنَّ في أصل الخلقة، فهنَّ لسن كنساء الدنيا حيث إنَّ البكر منهنَّ من لم تتزوج ولم يمسه رجل، والحدود العن لا يمكن أن يمسهنَّ أحد. وقيل: معناه أنَّهنَّ يبقين أبكاراً حتَّى مع أزواجهنَّ.

﴿عُرْباً أَتْرَاباً﴾. العُرب جمع عروبة - بفتح العين - المرأة المتحبة لزوجها، وفي «معجم مقاييس اللغة»: «الضحوكة الطيبة النفس»،^٢ واعتبره أصلاً آخر في قبالة الإعراب بمعنى الإفصاح والتبيين، ولكن لا يبعد أن يكون من نفس الباب، فالمراد بالمرأة العروب من تفصح لزوجها عن حبِّها له ولا يمنعها الحياء.

والأصل في المعنى هو تسمية هذا الجيل من البشر، وحيث إنَّ العرب لا تفهم من سائر الناس مقاصدهم للجهل بلغتهم اعتبر الإفصاح من الإعراب وكأنَّ العرب هم الذين يفصحون عن مقاصدهم فقط وسمَّوا غيرهم عجماً. والعجمة: العجز عن البيان، ولذلك اعتبروا الحيوان أعجم.

والأتراب جمع ترْب وهو اللدَّة، أي من ولد معك، وأكثر ما يستعمل في الإناث، فالأتراب أي الفتيات اللاتي في عمر واحد. وهو هنا بمعنى الأمثال؛ إذ

١. الرحمن (٥٥): ٥٦ و٧٤.

٢. راجع: معجم مقاييس اللغة ٤: ٣٠٠.

ليست هناك ولادة.

وقيل: إنّ المراد تساوي أعمارهنّ حسب ظاهر الحال مع أزواجهنّ. ومهما كان فالغرض من ذلك التأكيد على دوام حالتهنّ من الشباب والجمال، وعدم عروض التغيّر والشيبة عليهنّ، فإنّ ممّا يكدر صفو العيش في الدنيا حينما يلاحظ الرجل زوجته الشابة الجميلة هو العلم بأنّ الحالة لا تستمرّ وأنها تتغيّر، وأمّا الجنّة فلا تغيّر فيها ولا تقادم في العمر.

﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ اللام متعلّق بـ «أنشأناهنّ»، أي خلقناهنّ لهنّ. وقد مرّ الكلام في معنى الثلّة. وهذا يدلّ على أنّ أصحاب اليمين موجودون بكثرة في الأوّلين والآخرين، وإنّما ورد التنبيه على ذلك للإشارة إلى الفرق بين الفريقين وأنّ القسم الأوّل أي المقربّين لا يوجد في الآخرين إلا قليلاً، وبذلك يتبيّن أنّ الهدف الأساس من هذه السورة وهذه التعابير المختلفة هو الإشارة إلى رفعة مقام المقربّين في هذه الأمة.

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿١١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿١٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ تَحْتُمُومٍ ﴿١٣﴾
لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿١٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ
الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٧﴾
أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَمُكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ لَا كِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن رُّقُومٍ
﴿٢٢﴾ فَمَا لُونُ مِنهَا الْبَطُونُ ﴿٢٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٢٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرْبَ أَلْهِيمٍ
﴿٢٥﴾ هَذَا نَزَّاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٦﴾

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ هؤلاء هم أصحاب المشئمة الذين سبق
ذكرهم. والتعبير عنهم بأصحاب الشمال من جهة أن العرب كانوا يتشاءمون به،
وقيل: لأنهم يؤتون كتابهم بشمالهم. ومرّ الكلام في وجه الاستفهام عند تفسير
قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾.

﴿فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾. السُموم صفة مشبهة من السُّم - بالضم والفتح - وأصله بمعنى
الثقب الصغير، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِغَ الْجِمْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^١ ويقال للمادة القاتلة
سم؛ لأنه ينفذ في مسام الجسم، ولذلك أيضاً يعبر عن الريح الحارة الجافة أنه
سموم. والسموم من أسماء جهنم، قال تعالى: ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾^٢ ولعل الوجه
أنها تحرق الباطن، أي الروح، كما قال تعالى: ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ﴾^٣.

١. الأعراف (٧): ٤٠.

٢. الطور (٥٢): ٢٧.

٣. الهزلة (١٠٤): ٧.

والحميم الماء شديد الحرارة. والظاهر أنَّ الآية إشارة إلى ما جاء في قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَيَبِينُ حِمِيمٌ أَن﴾ حيث يترددون بين جهنم والحميم، كما سيأتي هنا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾.

﴿وَزُلْ مِنْ يَحْمُومٍ﴾. اليعموم من الحمم، وهو السواد الحالك وينطبق على الدخان الأسود، ويمكن أن يكون المراد به النار بنفسها، وقد عبّر عنها بالظلل في قوله تعالى: ﴿هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.^٢ وورد في بعض الآثار - على ما قيل - أنَّ نار جهنم أسود أو يكون التعبير عن النار باليعموم من جهة الحرارة، فإنَّ الحمم يفسر به أيضاً.

والتعبير بالظلّ على كلّ حال تهكم واستهزاء بهم يقابل به الظلّ الممدود لأصحاب اليمين.

﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾. فالظلّ من النار - لو فرض لها ظلّ - كيف يتوقّع منه البرد؟!^١

والكريم كلّ مستحسن من الأمور، فهذا الظلّ ليس فيه، أي صفة حسنة من مميّزات الظلال، فلا هو بارد مريح ولا هو نافع، بل ليس ظلاً أصلاً، وإنّما سمّي ظلاً؛ لأنّه يستريحهم ويخيم عليهم بالنار والعذاب.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، الآية في مقام التعليل لعذابهم، والإشارة في قوله: ﴿قَبْلَ ذَلِكَ﴾ إلى العذاب الذي أحاط بهم.

١. الرحمن (٥٥): ٤٣ - ٤٤.

٢. الزمر (٣٩): ١٦.

وقد أشكل الأمر بالنسبة للتعليل بكونهم مترفين، بناءً على أن الترف بمعنى النعمة، والمترف الذي أنعم الله عليه وليس هذا موجباً للعذاب. ولكن الظاهر أن معنى المترف الذي أبطرته النعمة وأشغلته عن ذكر ربه فطغى وتجبر، قال في «الصحيح»: «أترفته النعمة: أي أطعته»^١ وهذا يظهر بملاحظة الآيات التي ورد فيها ذكر المترفين، ولو فرض أن المعنى لغة غير ذلك، فيمكن أن يقال: إن المصطلح القرآني هو هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^٢ ولو كان المراد مجرد الإنعام لم يكن بمتابعة ما اترفوا فيه بأس. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^٣ وهذا يفيد أن كونهم مترفين يقتضي الفسق، وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ﴾^٤ وغير ذلك.

هذا ويمكن القول بأن المراد ليس اعتبار الترف بذاته سبباً للعذاب، بل بضميمة ما يأتي بعده، فالسبب كونهم مترفين وموسعاً عليهم في النعمة، ومع ذلك يصرون على الحنث العظيم وينكرون المعاد.

ويظهر من بعض العبارات أن الإشكال عندهم من جهتين من جهة أن المترفين ليسوا كلهم مشركين، بل هناك كثير من المؤمنين يعدون منهم ومن جهة أن المشركين ليسوا كلهم مترفين، بل كثير منهم فقراء معدومون.

١. الصحيح (للجوهري) ٥: ١٩.

٢. هود (١١): ١١٦.

٣. الإسراء (١٧): ١٦.

٤. سبأ (٣٤): ٣٤.

والصحيح أنّ المترفين الذين بلغ بهم الترف إلى الطغيان كلّهم من أهل النار وإن كانوا يعدّون من المؤمنين، فالجبايرة الطاغون ممّن تسلّطوا على بلاد المسلمين وقتلوا أختيارهم ونهبوا أموالهم في الدرك الأسفل من النار وهم شرّ من الكفّار، وأمّا المشركون والكفّار الفقراء فاستحقاقهم للنار ليس للترف، بل لأسباب أخرى والآية ليست في مقام حصر التعليل، بل لبيان بعض الأسباب، وفي اختيار ذلك تعريض بالمخاطبين حيث إنّهم كانوا من أهل الترف.

ولكن ربما يقال بأنّ بعض الأوصاف المذكورة للصنف الثالث لا تشمل كثيراً من الكفّار فقد وصفوا في الآيات التالية بالضالّين المكذّبين وهناك من الضالّين من هم ليسوا مكذّبين ولا مصدّقين؛ لأنّهم لم يواجهوا رسولاً ولا سمعوا بكتاب ولا باليوم الآخر ووصفوا أيضاً بأنّهم يصرّون على الحنث العظيم، وينكرون البعث وهم ليسوا بأجمعهم كذلك، فمنهم من يؤمن بالله ويؤمن ببعض الرسالات وباليوم الآخر، بل إنّ أصحاب النار بعضهم مسلمون، فليس كلّ مسلم يعمل بما أمر الله به، بل إنّ منهم الطغاة الجبايرة، فالسورة المباركة لا تشمل جميع أصناف البشر لا في التقسيم الأوّل في بداية السورة ولا الذي في آخرها.

والجواب أنّ التقسيم شامل لجميع البشر وإن كان كثير من الناس يدخلون تحت قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَوْنَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إلا أنّهم في النهاية إمّا يعذبهم أو يتوب عليهم، وإنّما الاهتمام في هذه السورة بتقسيم أصحاب الجنّة إلى المقربين وأصحاب اليمين، ولكن كما أنّ أصحاب اليمين لهم درجات في الجنّة وتختلف مواضعهم وأنحاء ثوابهم كذلك

أهل النار تختلف دركاتهم وأنحاء جزائهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ بِمَا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^١ والذي يذكر الله تعالى جزاءه في الغالب هم المكذبون الضالون المترفون خاصة؛ لأن غالب المخاطبين بالقرآن كانوا منهم. وأما أنه تعالى كيف يحاسب الناس على اختلاف عقولهم وظروف حياتهم وبعدهم أو قريهم من عصر النبوة ونزول الكتاب، فلا يعلم به إلا هو ولا شك أنه تعالى لا يؤاخذ أحداً إلا بمقدار ما تمت عليه من الحجة وإن كانت الحجة ما تمليه عليه الفطرة والعقل السليم.

﴿وَكَاُنُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾. الحنث: الإثم. ويطلق شرعاً على خصوص نقض العهد واليمين، والمراد به على الظاهر مخالفتهم للعهد الأزلي الذي أخذ منهم في عالم الذر، ولعل المراد به ما جُبل عليه الإنسان بفطرته من الاعتراف بربوبيته تعالى، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾^٢ ولذلك وصفه بالحنث العظيم؛ لأنه مخالف للفطرة.

والإصرار عليه هو الاستمرار على الكفر أو الفسق حتى بعد مشاهدة الآيات البينات. وقوله: ﴿كَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يفيد أن هذا كان دأبهم وديندهم وكانوا مستمرين على ذلك.

﴿وَكَاُنُوا يَقُولُونَ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ عطف على الجملة السابقة، وهذا أيضاً يدل على استمرارهم على هذا القول وتكرارهم له؛ لأنه كان راسخاً في نفوسهم.

١. الأنعام (٦): ١٣٢.

٢. الأعراف (٧): ١٧٢.

وقولهم: ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ استفهام إنكاري يقصد به التكذيب. وقد حكي ذلك في موارد متعددة من الكتاب العزيز. وعطف العظام على التراب لاحتمال عدم انقلاب بعض العظام تراباً أو بمعنى أنه حتى لو لم تتحول العظام إلى التراب، فإنّ العود إلى الحياة غير ممكن.

وهذا التكذيب بعد ما رأوا الآيات وسمعوا ما أخبر به الله تعالى على لسان رسله يدلّ على كفرهم وعدم اقتناعهم بقدرته تعالى على إحياء الموتى. وتكرار الاستفهام في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لتأكيد الإنكار؛ إذ كان من الممكن أن يقول: ﴿إِذَا مِتْنَا... إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، كما أنّ تأكيد الجملة بحرف ﴿إِنْ﴾ واللام لتأكيد الاستغراب أو لإنكار هذا التأكيد الذي ورد في كتب السماء، بمعنى أنّهم يقصدون بذلك الاستغراب من هذا التأكيد على أمر غير معقول أو مستبعد.

﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أعاد حرف الاستفهام في هذه الجملة لتأكيد الاستنكار بالنسبة للآباء الأولين، أي وهل يبعث آباؤنا الأولون القدماء مع أنّهم مضى على موتهم زمن طويل ولم يبق منهم أثر ولا عنهم خبر؟! فكأنّهم يستبعدون إحياءهم بعد طول الزمان لعدم بقاء أيّ اثر منهم في التراب.

ويحتمل أن يكون المراد استبعاد إحيائهم من جهة أنّه لو أمكن لأحياءهم الله تعالى طيلة هذه المدة. والواو لعطف الجملة على الجملة، أي: ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ مَبْعُوثُونَ مع بعد عهدهم﴾. وهذا الاستبعاد ممّا تكرّر في كلام الكفّار السابقين، كما حكاها الله عن فرعون حيث قال تعالى: ﴿قَالَ قَمًا بِالْأَقْرِونِ الْأَوَّلَى﴾^١

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾. أمر الله تعالى نبيه أن يردّ عليهم تعريضاً بأنهم لا يستحقّون الخطاب من الله تعالى. وهذا جواب عن استغرابهم من بعث الناس والآباء الأولين بوجه خاص، والجواب يزيدهم استغراباً؛ لأنّه يدلّ على إحياء الجميع أولاً، ثمّ على جمعهم في موعد محدّد، وهذا أمر في غاية الغرابة لا تكاد تصوّره عقول البشر، ولكنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء. وقد عبّر عن يوم القيامة بيوم الجمع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾^١.

والمراد بالأوّلين والآخريّن جميع البشر منذ بدء الخليقة إلى يوم القيامة. والميقات مصدر من الوقت وهو بمعنى الزمان المحدّد للفعل، ويطلق الميقات بمعنى اسم الزمان غالباً وقد يستعمل في المكان أيضاً كمواقيت الحجّ. والإضافة هنا بيانية، أي موعد محدّد هو يوم معلوم.

و﴿إِلَى﴾ لانتهاه الغاية باعتبار أنّ الجمع يتضمّن بذاته معنى السوق، فهم يساقون إلى تجمّع في هذا اليوم. والمراد باليوم مرحلة من الزمان، وليس بالمعنى المعروف، كما هو واضح.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتِيهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ﴾، «ثمّ» للتراخي وهو هنا زمني؛ لأنّ زمان العذاب ودخول النار متأخّر عن الجمع. ويحتمل كونه رتبياً، أي إنّ الأمر لا يقف عند حدّ الإحياء والجمع، بل هو أفضع وأفزع. ووصفهم - مضافاً إلى الضلال عن الحقّ - بالتكذيب ليوم القيامة ولشريعة السماء؛ لأنّه هو السبب الأقوى للعذاب، فلو كان الإنسان الجاهل متوقّفاً وساكتاً لهان الأمر ولأمكن أن يشمل العفو،

ولكنّ البشر قديماً وحديثاً يصرّ على تكذيب ما لا يبلغه علمه.

﴿لَاكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ الأولى للابتداء والثانية لبيان الشجر، وقد مرّ بعض الكلام حول الزُقُوم في تفسير سورة الصافات الآية ٦٢ والدخان الآية ٤٣، وقلنا: إنّه لم يثبت له استعمال في اللغة، فلا يبعد كونه مصطلحاً قرآنياً لطعام أهل النار الذي لا يسمن ولا يغني من جوع وليس له مثل في الدنيا.

﴿فَالْيَتُومَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾، إشارة إلى عدم تأثيره في الشيع، فهم يملأون بطونهم ولا يشبعون ولا يهنأون، فإنّ الزُقُوم طعام محرق للجوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْإِثْمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحُمِيمِ﴾^١ وتأنث الضمير إمّا بتأويل الشجرة، أي شجرة الزقوم أو لأنّ الشجر جمع أو لأنّ الشجر والثمر يذكّران ويؤنثان، كما في «مجمع البيان»^٢.

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾. الحميم – كما مرّ آنفاً – الماء شديد الحرارة، والفاء يدلّ على التعاقب، أي إنّ هذا الشرب يعقب الأكل المذكور مباشرة، فهم من تأثير هذا الطعام يعطشون فيذهبون إلى الحميم ويشربونه حميماً على حميم، فلا يرفع عنهم عطشا، بل يحرق أحشاءهم. وتذكير الضمير إمّا باعتبار لفظ الشجر أو يعود إلى الزقوم أو إلى الأكل.

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾. كرّر كلمة ﴿فَشَارِبُونَ﴾ مع الفاء تعجباً من حالهم، فهم يشربون الماء المحرق لا كما يشرب العطشان الماء، بل كما يشرب الإبل الهيم. والهيم جمع أهيم وهائم والاثني هائمة وهيماء وهي الإبل يصيبها داء العطاش

١. الدخان (٤٤): ٤٣ - ٤٦.

٢. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣٣٤.

فتشرب الماء ولا ترتوي، والأصل فيه - على الظاهر - هو العطش، ولذلك يطلق الهيام (بفتح الهاء) على الرمل الجاف الذي لا يرتوي من الماء ولا يتماسك. وحيث أُطلق على الإبل الهائم على وجهه في الصحراء من شدة العطش، أُطلق على كل متحير أيضاً ومنه العاشق الولهان.

﴿هَذَا نُزُّهُمُ يَوْمَ الدِّينِ﴾، انتهى إلى الآية السابقة ما أمر به الرسول ﷺ أن يبلغهم، وهذا تعقيب من الله سبحانه وفيه تهكم شديد، فإنّ النزّل ما يقدم للضيف في أوّل قدومه، فإذا كان ما ذكر من الطعام والشراب نزلهم يوم الجزاء من الله تعالى وهو أكرم الأكرمين، فماذا يكون جزاؤهم الكامل؟! والدين: الجزاء.

خُنْ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ خُنْ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا خُنْ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ
أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ خُنْ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ
لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ خُنْ مُحْرَمُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ خُنْ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾
لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ
أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ خُنْ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ خُنْ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتْنَعًا لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٣﴾

«نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ»، «لولا» للتخصيص، أي الحث على التصديق
إلا أن الكلام وقع في أنه حث على تصديق أي شيء، فإن الحث ورد بعد قوله:
«خَلَقْنَاكُمْ» والمعروف أن المخاطبين وهم مشركو مكة والجزيرة العربية يقرّون
بأن الله تعالى هو الخالق، كما قال تعالى: «وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»^١
وغيرها من الآيات؟ ولذلك اضطرّ بعضهم ومنهم العلامة الطباطبائي رحمته الله إلى القول
بأن المراد حثهم على تصديق البعث والحياة الآخرة بدليل أن هذا هو ما كانوا
ينكرونه.^٢

ومنهم من أوّل ذلك بأنه لما لم يحقق تصديقهم عملهم، حيث لم يقتربوا
بالطاعة والأعمال الصالحة، بل اقترن بما ينبي عن خلافه من الشرك والعصيان

١. الزخرف (٤٣): ٨٧.

٢. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٧٠.

نزل منزلة العدم والإنكار، فحثهم على التصديق بذلك، أي التصديق العملي.
ولكن الظاهر أنه حث على تصديق أن الله تعالى هو الخالق المدبر وهو رب
الكون، وهم كانوا ينكرون الربوبية، والمطلوب التصديق بالخلق المستتب
للربوبية، ولعلهم كانوا يرون أن الله تعالى ابتداء الخلق وترك ما خلق، وأن الذي
يستمر في التأثير على الكون الأسباب الطبيعية أو الآلهة. وأما التصديق بالبعث
فهو بعيد عن السياق، خصوصاً بملاحظة الآيات التالية.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾. يبدأ بذكر شواهد على الربوبية المطلقة، فأولها خلق كل
فرد من البشر، ثم إماتته. والفاء في: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ للترتيب، أي أنتم لا تصدقون بأن
الله تعالى خلق الخلق على وجه التدبير، فهل رأيتم ما تمنون؟! فالمعنى أنكم
ترون هذه الشواهد على الربوبية فكيف تنكرونها؟! ولكن المعروف في التفسير
أن هذه الآيات لإثبات قدرته تعالى على إعادة الخلق والبعث، وهو بعيد جداً
بالنسبة للشواهد الآتية من تطوير الزرع وإنزال الماء وإيقاد النار. وإنما قالوا بذلك
لأنهم حملوا التصديق في الآية السابقة على تصديق المعاد، كما مر، وقد تبين ما
هو المراد منه.

والمراد بهذا الاستفهام فرض موضوع ليحكم عليه بحكم أو يستفهم عن
شيء منه، كما تقول لأحد: رأيت فلاناً الذي فعل كذا - تريد أن تذكره بعلامة
ليتذكره السامع - فإنه كذا وكذا، واستعمال هذا التعبير في هذا المعنى كثير في
القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾^١
و﴿تُمْنُونَ﴾ من الإماء وهو إفراغ المنى، و«ما» موصولة، أي أفأرأيت المنى الذي

تمنونه؟ وهو الدور الذي يقوم به الرجل في عملية التناسل، وبذلك ينتهي دوره وهو لا يعلم ماذا يحدث بعد ذلك ولا المرأة تعلم به، فمن هو المباشر لخلق الجنين؟

﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾. الضمير المفعول يعود إلى ﴿مَا تُمْنُونَ﴾ حيث إن هذا المني يتطور في الرحم خلقاً من بعد خلق إلى أن يكون إنساناً كاملاً، فيمكن أن يكون السؤال هنا عن أن هذا الخلق والتكامل يحدثان بفعل من؟ هل الأب هو الذي يخلق الولد بجسمه الكامل؟ فلو كان الإنسان هو الخالق لنسله لعلم به ولعلم بتفاصيل الخلق وأطواره وهو لا يعلم ماذا يحدث ولا كيف يحدث ولا متى يحدث؟ فكيف يكون خالقاً وهو يجهل أدنى ملابساته؟! فإن لم يكن هو الخالق فمن هو خالق البشر؟ أليس هو الله تعالى؟!

ويمكن أن يكون السؤال عن خلق النفس الإنسانية التي هي حقيقة الإنسان وإن كان الضمير في ظاهر اللفظ يعود إلى ﴿مَا تُمْنُونَ﴾ إلا أن المراد بخلقه خلق الإنسان الكامل، وهو في الواقع متقوم بنفسه وروحه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^١، فإن الظاهر أن المراد بالخلق الآخر الذي أنشأه الله هو خلق نفسه، وهو أمر يخص الإنسان وقد عبر عنه تعالى بالنفخ فيه من روحه حيث قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^٢، وهذا لا يختص بآدم عليه السلام.

١. المؤمنون (٢٣): ١٢ - ١٤.

٢. الحجر (١٥): ٢٩.

لقلوه تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ إذ لا وجه لتأخير بيان نفخ الروح عن خلق النسل إلا الإشارة إلى أن ذلك يشمل نسله أيضاً.

والترديد بين الأمرين في قوله: ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ من جهة أنه لا بدّ له من خالق، ولا يمكن القول بأن خلق الجنين وغيره من أجزاء الكون يستند إلى قوانين الطبيعة، وأنه لا حاجة إلى خالق مدبّر للكون، كما يتفوّه به من يدعون العلم في هذا العصر، فهم مع شدة توغّلهم في علوم الطبيعة ومشاهدة آيات الله تعالى في الكون لا يزدادون في معرفة ربّهم إلا جهلاً وتباعداً.

ومن الغريب أنهم يكتشفون في كلّ يوم آية من آيات التدبير، ولا يزدادون إلا بعداً وعناداً. فهم يعلمون مثلاً أن كلّ كائن حي له دور في حفظ البيئة الطبيعية، وأن انقراض أي نوع من الحيوان والنبات يضرّ بالبيئة، فلو فرضنا جدلاً أن الحياة وجدت على هذا الكوكب صدفة وتبعاً لقوانين طبيعية عمياء وأنه ليس وراء وجودها عقل مدبّر، فمن أين أتى هذا النظام والتسلسل؟ وهل يمكن أن يتحقّق ذلك بصورة عشوائية؟! أليس هذا أغرب من دعوى أن جهازاً دقيقاً إلكترونياً كالحاسب الآلي مثلاً وجد بفعل تراكم أجزائه بعضها على بعض بصورة عشوائية أو بفعل الريح مثلاً أو بتركيب طفل أو أعمى؟!!

فلو فرضنا جدلاً أن يحلّ العلم مشكلة تكوّن الأعضاء في الحيوان والدقّة المتناهية فيها بأنّ ذلك كلّّه بفعل الجسم نفسه، فهو مزوّد بجهاز يحذف الأعضاء الزائدة بالتطوّر ويخلق ما يحتاج إليه الجسم من أعضاء أخرى حسب

تبدل بيئته التي يعيش فيها كما يقولون! مع أنّ نفس تزويد الجسم بهذا الجهاز وهذه الحالة وتكيف الحيوان حسب مقتضيات البيئة يدلّ بوضوح على تدبير من حكيم.

ولكن مع قطع النظر عن ذلك، كيف يمكن تفسير الترابط بين الأحياء وبين بيئتها؟! مثلاً نحن نجد أنّ كلّ حيوان يجد في بيئته ما يحتاج إليه من غذاء ودواء مهيناً في الطبيعة. من صنع له ذلك؟! جسمه؟ البيئة؟ الأرض؟ الإنسان؟

فالإبل مثلاً حيوان يعيش في الصحراء ويسير مساحات شاسعة حاملاً الإنسان وأحماله بلا ماء ولا كلاء ويصعب على الإنسان عادة أن يحمل معه كلّ ما يحتاجه هذا الحيوان الضخم من المأكول والمشروب، فلو فرضنا جدلاً أنّ السنام وهو ما يمدّه بالطاقة نظراً إلى ما يخترن فيه من الدهون ممّا صنعه الجسم بقانون طبيعي وهو تكيفه بما حوله من البيئة الصحراوية، وسلّمنا أنّ ذلك لا يدلّ على تدبير الخالق الحكيم مع أنّ دلالته واضحة، ولكن ما هو التفسير لتكيف البيئة مع حاجة هذا الحيوان؟! فهناك في الصحراء نبت شائك يبقى طول الصيف ولا يأكله إلا الإبل، فيبقى له كلاءاً وماءاً ودواءاً أيضاً، فإنّه يحتوي على مادة تزيل الأملاح المترسبة في المجاري البولية وقد اكتشفها الإنسان واستعمله دواءً لذلك.

وكيف يمكن لعقل أن يصدق بأنّ كلّ هذا النظام الدقيق الحاكم على الكون والمليّ لحاجات كلّ كائن تحقّق صدفة، وليس وراءه خالق حكيم مدبّر قادر محيط بالوجود إحاطة علم وقدرة غير متناهية؟! فالذي يلاحظ الكون يجد في كلّ شيء أنّ هناك من يستهدف في خلقه أمراً ويتتبع غرضاً منشوداً. أليس هذا

دليلاً واضحاً على الربّ المدبّر!؟

وخصوصاً ما أُشير إليه في هذه الآية بناءً على ما ذكرنا من احتمال أن يراد بالخلق خلق النفس الإنسانية فإنّه من أغرب ما يخلق في هذا الكون، فالتطوّر الجنيني إلى أن يكمل الجسم الإنساني وإن كان غريباً أيضاً، ولكنّه يشابه التطوّر الحاصل في سائر الأحياء وإن كان خلق جسم الإنسان أكثر تعقيداً، ولكنّ الأغرب منه تكون هذه النفس البشرية، ولذلك عبّر عنه تعالى بأنّه إنشاء لخلق آخر، وليس تحولاً للجنين من طور إلى طور، ولذلك أيضاً مجّد الله نفسه بعد ذكره فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^١.

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾. في العبارة تقدير، أي نحن خلقناكم وقدرنا بينكم الموت، لتكون الجملة جواباً عن السؤال السابق، مع إضافة أنّه تعالى لم يترككم بعد الخلق، بل تقديره وتدبيره يتبعانكم ويشملان كلّ جوانب حياتكم ومماتكم.

ومثل ذلك أيضاً يأتي في الآيات التالية، فالله تعالى ينبت الزرع ويحفظه، وينزل الماء من السماء ويخزنه، وكلّ ذلك من باب المثال، وإلا فلا شيء يعزب عن علمه، وأمره وتقديره ساريان في كلّ ذرّة من ذرّات الكون. ويلاحظ أنّ الجواب في كلّها ورد على منوال واحد.

والحاصل أنّ هذه الآية تنتقل إلى حدث آخر ملازم لخلق الإنسان وهو تقدير الموت له، فمن أوّل يوم يتكوّن الجنين يقدر له الموت؛ إمّا بأجل يتحدّد حسب قابليته الذاتية للبقاء، فهو بمقتضى التركيب العضوي له قابلية محدودة للحياة،

وإمّا بالعوارض السانحة له فقد تستوجب موته قبل بلوغ أجله الطبيعي. وكلّ ذلك مقدّر من الله تعالى.

وهناك سؤال في المقام وهو أنّه لماذا لم يقل قدرنا لكم الموت، مع أنّه مقدّر لكلّ أحد برأسه، بل عبّر بأنّه مقدّر بينكم، فما هو الوجه في ذلك؟

قيل: لأنّ التقدير متضمّن للتقسيم، أي قدرنا وقسمنا بينكم الموت، فكأنّه رزق مقسوم، والغرض أنّ الأعمار مقسّمة من حيث قصر المدّة وطولها. وهذا تأويل بعيد والأعمار تقدّر ولا تقسّم، فليس هناك شيء واحد أو عدد محدود يخصّص كلّ أحد من البشر بجزء أو بعض منه.

والظاهر أنّ المراد أنّه تعالى قدر الموت بين أجيال البشر، وهذا تنبيه على الدور الذي يؤديه الموت في تعاقب المجتمعات، فالموت جاء ليفصل بين الماضي والحاضر، ولولا تقدير الموت بين الأجيال لضاقت الأرض بأهلها ولا تمتعت الحياة عليها على رحبها وسعتها.

وكّلما حاول البشر تأخير الموت وتطويل معدّل عمر الإنسان أضّر ذلك بحياته على هذا الكوكب من جهات عديدة، ومنها اضطرابه إلى تغيير في جينات المواد الغذائية وتنميتها تنمية صناعية لتلافي النقص بسبب زيادة العدد، والنتيجة هو هذا الوضع المتردّي من جهة عدم كفاءة المواد الغذائية وإيجابها للأمراض المستعصية وانتشار السمّة وغير ذلك من المفاسد.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾. السبق في الأصل بمعنى التقدّم على الآخرين في فروسية أو عدوّ أو نحوها، ثمّ استعير لكلّ غلبة، كالغلبة في المسابقات العلمية أو في الرماية ونحوها، فالمعنى لا يغلبنا أحد في ما نقصده. وفي هذه الجملة احتمالات:

الأول: أنها مرتبطة بالآية التالية، والمعنى أنه تعالى ليس مغلوباً في تبديل الأمثال والتنشئة في حياة أخرى. ويناسبه التعدّي بـ«على» إذ الغلبة تتعدى بها يقال: فلان مغلوب على أمره وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾^١.
 الثاني: أنها مكتملة للجملة السابقة، والمعنى أن الموت مقدّر لكل أحد ولا يفلت منه حي.

الثالث: أنها مكتملة للسابق أيضاً، ولكنّ المعنى أن الله تعالى هو الذي قدر الموت وليس مغلوباً في ذلك لقانون الطبيعة، وبذلك يدفع توهم أن الموت ضرورة طبيعية، فلا دخل للتقدير والإرادة الإلهية فيها، كما يتوهمه المسمّون بعلماء العصر، ويبيّن أنه تعالى لا يغلب من شيء وأن الموت والحياة إنّما أرادهما الله تعالى لحكمة، كما يبيّنهما في الآية التالية، وليس أمراً مغلوباً عليه، فلو أراد تعالى استقرار الحياة في الدنيا لفعل.

وبناءً على هذين الاحتمالين لا يتعلّق قوله: ﴿عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ﴾ بقوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾، بل بما قبله، كما سيأتي.

﴿عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ﴾. الأمثال جمع مثل أي النظير، أي نبذل منكم أمثالكم، فنضعهم في مواضعكم. وفي هذه الجملة احتمالان:

الاحتمال الأول: أن المراد بها تغيير الأجيال، فهذا الجيل يفنى ويزول ويأتي جيل آخر من الناس أمثالهم، ويكونون بدلاً منهم، فيصدق تبديل الأمثال وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾^٢.

١. يوسف (١٢): ٢١.

٢. الأنعام (٦): ١٣٣.

وبعد هذا الاحتمال في هذه الجملة بناءً على الاحتمال الأول في الجملة السابقة بأن يكون قوله: ﴿عَلَى﴾ متعلقاً بمسوقين؛ لأنَّ معنى الآية يكون بناءً عليه أنَّه تعالى ليس مغلوباً في تبديل الأمثال والأجيال، وحيث إنَّ تبديلها نتيجة طبيعية لموت الآباء ونشوء الأبناء وإن كان مستنداً إلى إرادته تعالى كأي أمر طبيعي آخر إلا أنَّه لكونه طبيعياً لا حاجة فيه إلى هذا التأكيد، وأنَّه ليس مغلوباً فيه، فبناءً على الاحتمال الأول في الجملة السابقة لا بدَّ من حمل هذه الجملة على الاحتمال الآتي.

وإنَّما يصحَّ هذا الاحتمال بناءً على أحد الاحتمالين الأخيرين في الجملة السابقة، فتكون هذه الجملة في مقام الحال من قوله: ﴿قَدَرْنَا﴾ أي قدرنا الموت بينكم من أجل أمرين: الأول تبديل الأمثال بمعنى إيجاد جيل جديد في موضع الجيل السابق. والأمر الثاني ما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَنُنشِئُكُمْ﴾ وهو إحياء الموتى يوم القيامة.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد تبديل الأمثال يوم القيامة، فإنَّ هذا الجسم يفنى ويأتي جسم آخر مثله، فيكون قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ تفسيراً وإكمالاً لقوله: ﴿نُبَدِّلُ أَمْثَالَكُمْ﴾. ولا يستلزم هذا الاحتمال مخالفة لظواهر الآيات والروايات الدالة على أنَّ هذا الجسم بعينه يعود، فإنَّه على كلِّ حال سيكون تجلداً وحدثاً آخر بعد انعدام الصورة الأولى حتَّى لو كان بنفس المواد.

والله تعالى يعبر عن إحياء الموتى يوم القيامة بخلق المثل، كما قال: ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنْ أَتَانَا مِبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ^١، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ^٢﴾.

وهذا الاحتمال يأتي على كل الاحتمالات الثلاثة المذكورة في الجملة السابقة، فهو واضح بناءً على الاحتمال الأول، فإن المعنى يكون: «نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمغلوبين في إحيائكم»، وكذلك بناءً على أي واحد من الاحتمالين الآخرين، فإن المعنى: نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمغلوبين في ذلك، وإِنَّمَا قدرنا الموت لإحيائكم في عالم آخر وحياة أخرى.

وهذا الاحتمال الثاني في تبديل الأمثال هو الظاهر، لتعنيته في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا^٣﴾، ويستبعد حمل تبديل الأمثال في هذه الآية على تغيير الأجيال الذي هو أمر طبيعي مستمر؛ لأنه تعالى علّقه على المشيئة بعنوان الظرف، وهذا التعليق لا يأتي عادة إلا في الأمور المخالفة للطبيعة أو لما يتوقعه الإنسان، مضافاً إلى أنه لا يبقى في الآية ما يدلّ على الإحياء بعد الموت وهو المقصود من سياق الآيات، كما سيأتي إن شاء الله تعالى في تفسيرها. ويشهد لما ذكرنا ما مرّ آنفاً من التعبير عن الإحياء بعد الموت بخلق المثل في كلامه تعالى. وإذا لاحظنا أنّ التعبير واحد في الآيتين، فلا محالة تحمل هذه الآية - أي التي في سورة الواقعة - أيضاً على نفس المعنى.

﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عطف تفسير على الجملة السابقة بناءً على ما

١. الإسراء (١٧): ٩٨ - ٩٩.

٢. يس (٣٦): ٨١.

٣. الإنسان (٧٦): ٢٨.

ذكرنا، وهناك اختلاف في كتب اللغة في معنى الإنشاء، والمراد به هنا الإحداث والخلق، والمراد بما لا تعلمون النشأة الآخرة، أي إن الأساس والحكمة في تقدير الموت إحياء الإنسان في حياة أخرى لينال ما يستحقه على عمله، والتعبير عن تلك النشأة بعدم العلم من جهة أن الإنسان حتى لو آمن ولاحظ الآيات والآثار الواردة في تلك النشأة وتيقن بالمعاد، كأنه يراه، فإنه لعدم أنسه بتلك الحقائق يستحيل عليه معرفتها على ما هي عليه.

فتحصل من مجموع ما ذكرنا أن معنى الآيتين في جواب السؤال عن الخالق أننا نحن خلقناكم ولم نخلقكم سدى، ولم نترككم، بل قدرنا الموت بين أجيالكم ليذهب جيل ويأتي آخر، وما نحن بمغلوبين على أمرنا في تقدير الموت بينكم أو في تبديل أمثالكم يوم القيامة وإنشاءكم في خلق جديد للمحاسبة على أعمالكم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾. الغرض من هذه الآية رفع الاستبعاد عن إنشاء البشر بعد الموت في خلق جديد. والمراد بالنشأة الأولى بدء الخليقة حيث خلق الله تعالى الأشياء من العدم ومن غير سبق مثال وأنموذج ولا وجود مادة يخلق منها الصور، فالذي يعلم بهذه النشأة كيف يمكن أن يستبعد نشأة أخرى على غرار تلك النشأة؟!

ويلاحظ أنه تعالى في الآية السابقة نفى علم البشر بتفاصيل النشأة الآخرة، فقال: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهنا استدلل بعلم الإنسان بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الآخرة، ولكنه أيضاً ليس علماً بالتفاصيل، فالغرض من ذلك تنبيه الإنسان بأن علمه محدود، وحيث يعلم أصل النشأة الأولى. فاللازم أن لا ينكر

أصل النشأة الآخرة، وأمّا التفاصيل فهو لا يعلم بها في الشأنتين.

«ولولا» للتخصيص على التذكّر، ويقصد به التنبيه على ما غفل عنه الإنسان ممّا لا ينبغي أن يغفل عنه. والواقع أنّ البشر لإخلاقه إلى الأرض وما عليها من مغريات يحاول المستحيل ليررّ موقفه من الدين والعقيدة وشرائع السماء حتّى لو آمن ظاهراً بالله تعالى ورسله وكتبه. والإنسان لا يتذكّر النشأة الأولى، كما هو واضح؛ لأنّه لم يشهده ولكنّه يعلم به، فالمراد بالتذكّر ملاحظة تلك النشأة ليؤمن الإنسان بالنشأة الآخرة، بل يكفي الاحتمال لأهمية المحتمل.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾. الحرث هو الكسب والجمع، ويراد به هنا ما يعمله الإنسان في الزراعة من تهئة الأرض وإلقاء البذر ونحوهما، وضمير ﴿تَزْرَعُونَهُ﴾ يعود إلى البذر أو النبات المعلوم من السياق.

وقد مرّ الكلام في معنى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾، فالمعنى لاحظوا ما تزرعونه، ثمّ تجتنون الثمر أو تحصّدون المحصول ما هو دوركم في إيجاد الثمرة والحبّ ونحوهما؟ هل أنتم تتعقّبون الحبّ بعد الحرث وإلقائه وتمارسون كلّ هذه العمليات المعقّدة التي تتعقّب عملية الحرث وإلقاء البذر؟ هل لكم دور في نماء الزرع واستقائه الماء وسائر المواد اللازمة من الأرض وغير ذلك ممّا يتوقّف عليه النبات إلى أن يحصل الناتج؟

الجواب واضح، فالإنسان يشعر أنّه لا دور له في ذلك ولا قدرة له عليه ويبقى السؤال: من هو الذي يدبّر هذه العمليات؟ والجواب واضح أيضاً هو الله تعالى، الذي قدر للنبات أن ينمو وينتج من خلال قوانين طبيعية، وناموس كوني إلهي لا يتخلّف.

والغرض من ذلك هو ما مرّ من الحثّ على الإيمان بربوبيته تعالى وتدييره لكلّ حركة وسكون وتقدّم وتأخّر. والإيمان بذلك يستتبع الإيمان برسله وشرائعه والإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء وهذا بالطبع يحدّد نشاط الإنسان ويمنعه من متابعة الأهواء بكلّ حرية وطلاقة.

وقد مرّ أنّ هناك قولاً بأنّ الغرض من هذه الآيات الاستدلال على إمكان المعاد. وهو غير واضح.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ في الجملة تقدير، كما مرّ في سابقها وهو «نحن زرّعناه»، ولو نشاء لجعلناه حطاماً ليكون جواباً عن السؤال.

والحطّم الكسر والحطام ما تكسّر من اليبس. والغرض أنّ الله تعالى بعد أن قدّر في قانون الكون ما ينتهي إلى حصول النتيجة من الحرث وهو الانبات، قدّر أيضاً ما يحفظه لكم من المبيدات لتمكّنوا من الانتفاع به. ولو شاء لسلّط على زرعكم ما يحطّمه كالعواصف وهو يفعل ذلك في موارد استثنائية.

﴿فَظَلُّنْمْ تَفَكَّهُونَ﴾. ﴿فَظَلُّنْمْ﴾ مخفف «فظلّتم» وظلّ في مثل هذا الموضع بمعنى صار باستمرار.

و﴿تَفَكَّهُونَ﴾ في الأصل «تفكّهون»، حذفت إحدى التاءين تخفيفاً. والتفكّه في الأصل بمعنى التلذّذ بالشيء، ومنه الفاكهة، أي ما يؤكل للتلذّذ، ويطلق أيضاً على ما يتلذّذ به من الأحاديث، ومنه التعبير عن الغيبة بالتفكّه بأعراض الناس. والتعبير هنا مبني على التهكّم، فإنّهم إذا ابتلوا في زرعهم فصارت حطاماً فإنّما يتذكّرون أمرهم بمرارة وأسف، ولكن يعبر عن ذلك بالتفكّه تحقيراً واستهزاءً. وقيل: إنّ التفكّه استعارة عن الإعجاب، وقيل: عن التندّم، ونسب إلى بعضهم

القراءة بالنون، أي تفكّتون، ومعناه تندمون،^١ وقيل: إنّه من باب الإبدال وأصله تفكّتون وأبدل النون هاءاً، وقيل: إنّ التفكّه بمعنى نفى الفكاهة، أي المسرة، كما يقال تحرج عن الشيء بمعنى أنّه تركه للحرص أو تحوّب عنه، أي تركه لكونه إثماً ومثله قولهم: «تأثم». وكلّ ذلك مردود بأنّ الآية التالية مقولتهم، فلا بدّ من تقدير ما يدلّ على القول.

﴿إِنَّا لَمُعْزَمُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، هذا كلامهم الذي يتفكّهون به. والمُعْزَم بمعنى من وقع في ضرر مالي لازم له لا يتركه، والأصل في الغرم - على ما في «العين» و«معجم المقاييس» - اللزوم،^٢ ومنه المُعْزَم بمعنى المدين الذي لا يتركه الدائن ويلجّ عليه، والمراد هنا الخسارة التي لزمتهم من التعب وصرف المال والوقت من دون حاصل. ثمّ يضربون عن ذلك بقولهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، أي ممنوعون من الرزق الذي كانوا يتوقّعون.

والغرض من كلّ ذلك بيان حالة الإنسان إذا أصيب في زرعه بعد ما أنفق عليه وتعب. وهذا لسان الحال وإن لم يقوله. والمقصد النهائي التنبيه على هذه النعمة التي اقتضتها ربوبيته تعالى بأن لم يجعلكم في كلّ مورد تزرعون وتحراثون في هذه الحالة المزرية ولو شاء لفعل، بل حفظ لكم زرعكم إلى أن تنتفعوا بشمره وما تحصّدونه، فتديره تعالى ليس في عملية الزرع والانتاج فحسب، بل تعقّبه بالحفظ من الآفات.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾. الماء من أهمّ ما يتوقّف عليه حياة الإنسان

١. راجع: اللّباب في علوم الكتاب ١٨: ٤٢١.

٢. كتاب العين ٤: ٤١٨؛ معجم مقاييس اللغة ٤: ٤١٩.

والحيوان، بل هو منشأ الحياة، فهذه الآيات تذكر الإنسان بهذه النعمة التي يستخفّ بها ويسأله من أين تحصل عليها؟ فالماء الموجود على الكرة الأرضية في المحيطات والبحار غير قابل للشرب وكلّ ما على وجه الأرض من الماء العذب ينزل من السماء بفعل حرارة الشمس والتبخير، ثمّ التكتّف في طبقات الجوّ العليا ويختزن في الجبال وينزل أو يفور تدريجاً في الأنهار والعيون والقنوات. كلّ هذا الجهاز المسخّر لوصول الماء العذب إلى الإنسان والحيوان والنبات طول السنة وفي البلدان المتفرّقة من يدبّر أمره؟ ومن خلقه بهذه الكيفية؟!

﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾. المزن جمع مزنة، أي السحاب، وبعض المفسّرين زعموا^١ أنّ الآية إنّما خصّت ماء المطر بالذكر ولم تتعرّض لسائر المياه العذبة؛ لأنّ العرب المخاطبين لم يكن لهم ماء عذب غيره. وبما ذكرناه آنفاً تبين وجه تخصيص المطر بالذكر، مع أنّ ما ذكر غير صحيح حيث كانت لهم آبار عذبة مع أنّهم كانوا يعلمون ويشاهدون الأنهار والقنوات في سائر المناطق. والآيات لا تكلمهم بما فيهم من خصائص في البيئة، بل بما هم بشر يعقلون ويعلمون ما حولهم.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. والتقدير هنا: «نحن أنزلناه ولو نشاء جعلناه أجاجاً...»، فهو الذي أنزل الماء مضافاً إلى أنّه حفظه وخرّنه ومنعه من التأثير بالاملاح الموجودة على سطح الأرض. فلو لم يخزن الماء في الجبال ليخرج تدريجاً ومن خلال الصخور والأتربة التي تصفيه و ينتشر على وجه

الأرض في العيون والآبار والقنوات ونحوها مما نجده في الطبيعة، لكان يتأثر بالأملاح الموجودة على وجه الأرض وينقلب ماءً مالحاً غير قابل للشرب وغير مفيد في الزراعة. والأجاج الماء شديد الملوحة والمرارة.

ثم حضّهم على شكر هذه النعمة العظيمة وغيرها.

وقد تغيّر التعبير هنا، فلم يذكر لام التأكيد في جواب «لولا» بخلاف الآية السابقة، ولعلّ الوجه في ذلك أنّ الزرع خاصّ بالإنسان وبما يتبعه من الحيوان، فأكد للإنسان الكفور أنّه إذا استمرّ على كفره وشاء الله عذابه فهو قادر على أن ينزل على زرعه العواصف، فيجعله كالصريم، وأمّا الماء العذب فلا يختصّ بالإنسان، فلم يؤكّد نزول العذاب باللام.

وقيل: إنّ اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب؛ لأنّ جعل الماء العذب مالحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الماء المالح أكثر من الماء العذب، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيّرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتج في جعل الماء العذب مالحاً إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق، وأمّا المطعوم فإنّ جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد، فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾. الإبراء إشعال النار، وهذا تنبيه على نعمة عظيمة أيضاً يغفل عنها الإنسان، والنار تحتاج إلى وقود وكانوا قديماً يوقدونها بالحطب ويستخرج ذلك من الأشجار اليابسة، والآية تنبّه الإنسان إلى أنّ ميزة الاتّقاد في الشجر ليس من صنع الإنسان، بل هي موهبة إلهية، ويقال: إنّ الشجر يمتص

الطاقة من الشمس أيام اخضراره وبنفس المادّة التي توجب اخضراره، وتبقى الطاقة كامنة فيه إلى أيام يسه، فتظهر الطاقة بالإشعال. فمن هو الذي دبر للإنسان هذا الأمر وهياً له ما يمكن إيقاد النار به للاصطلاء والطبخ وغير ذلك من شؤون الحضارة البشرية التي تتسع يوماً فيوماً وتتوسّع بذلك حاجته إلى إيقاد النار بشتّى وجوهها؟

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾. الظاهر أنّ المراد بالشجر ما يوقد منه النار وهو الوقود لا الزناد، كما قاله المفسّرون، وكأنّهم استبعدوا أن يكون التعجيب من نفس الشجر الذي يجعل وقوداً فرجّحوا أن يكون التعجيب من جهة أنّ الشجر الأخضر يستخدم في ما يوقد به النار وهو الزناد، وقالوا: إنّ المراد به المرخ - بفتح الميم وسكون الراء - والقفار - بفتح العين - وأنّ العرب كانت توقد النار بحكّ المرخ على القفار.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾^١ وهناك أيضاً حاول المفسّرون تطبيقها على الزناد. وقلنا هناك: الظاهر أنّ المراد هو جعل الشجر وقوداً لا زناداً، لقوله تعالى: ﴿مِنَ الشَّجَرِ﴾ ولم يقل: «بالشجر»، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ولم يقل: «به توقدون»، ومفاد الآية أنّه تعالى جعل منه ناراً لا زناداً، مع أنّ الزناد لا يختصّ بالشجر المدعى فيه ذلك، بل الغالب فيه استخدام الأحجار.

والحاصل أنّ المراد بالآية هنا هو التنبيه على هذا التدبير الربوبي حيث جعل في الشجر خاصية الوقود لينتفع به الإنسان.

«نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ» تقديم الضمير يقتضي أن تكون الجملة جواباً عن السؤال السابق، فلا بد من تقدير الإنشاء، أي نحن أنشأناها وجعلناها... والآية تبين وجه الحكمة في انشائها وخلقها وأن في ذلك من الحكمة وجهين: الأول: التذكير بربوبية الخالق، والثاني: كونها متاعاً للإنسان في الحياة. الدنيا وهذان لا يختصان بالنار وإنما اهتم بذكرهما هنا للتأكيد على أهمية دور النار في الحضارة البشرية مع غفلة الإنسان عن ذلك بوجه عام.

وبعض المفسرين ذكروا أن المراد بكونها تذكرة أنها تذكر الإنسان بنار جهنم. ولكن التعبير بالتذكرة لا يناسب ما لا يعلم به الإنسان ولا يشعر به، بل يناسب ما يشعر به في ضميره ووجدانه ولكنه يغفل عنه كربوبية الخالق، كما قال تعالى: «وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْنَا فِيهَا حُلُلًا لِّلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ۚ وَذِكْرَىٰ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَبِعٍ ۚ»^١ وقال تعالى: «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ»^٢ وقال تعالى: «وَمَن كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»^٣ وغير ذلك. والمقوين من الإقواء وهو الخلو عن الشيء مع الحاجة إليه، قال ابن فارس «القواء الأرض لا أهل بها، ويقال: أقوت الدار: خلت وأقوى القوم: صاروا بالقواء والقي. ويقولون: بات فلان القواء وبات القفر إذا بات على غير طعم. والمقوي: الرجل الذي لا زاد معه وهو من هذا كانه قد نزل بأرض قي»^٤. فالمراد - والله العالم - أنها متاع لكل من يحتاج إليها للاصطلاء أو الطبخ أو أي حاجة أخرى

١. ق (٥٠): ٧ - ٨.

٢. غافر (٤٠): ١٣.

٣. الذاريات (٥١): ٤٩.

٤. معجم مقاييس اللغة ٥: ٣٧.

وهي كثيرة جداً خصوصاً إذا عمّنا النار إلى كلّ أنحائه ووجوهه، فإنّ كلّ ما تسير به عجلة العلم والحضارة البشرية يرجع بنحو إلى النار.

وقيل: المقوي المسافر؛ لأنّه ينزل القواء وهو القفر، وخصّ بالذكر؛ لأنّه بحاجة أكثر إلى النار. وقيل: المراد به الفقراء؛ لأنّهم لفقهم يشبه حالهم من نزل بالقفر. وقيل: المراد به الجائعون. وقيل غير ذلك. وما ذكرناه أشمل وأنسب.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿١٧﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَسِعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا كُنَّ تَكُونُ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿١٩﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٢٠﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٢١﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ أَفَبِهَذَا اتَّخَذْتُمْ مِّثْلَهُ مَثَلًا ﴿٢٣﴾ إِنَّهُمْ يَخْتَصِمُونَ لَكُمْ أَنْتُمْ وَرَبُّكُمُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. الفاء للتفريع، أي حيث تبينت عظمة الخالق وربوبيته فسبح باسمه. والخطاب للرسول ﷺ ويعم الخطاب كل سامع وتال للقرآن. روى الشيخ الطوسي رحمه الله بسنده عن عقبة بن عامر الجهني أنه قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». والتسبيح التنزيه عما يقوله الظالمون من نفى ربوبيته تعالى. والتعبير بالرب مضافاً إلى الضمير لبيان العلة، أي حيث ثبت أنه ربك فسبح باسمه.

والباء زائدة للتأكيد أو للتعدية، وقد ترك في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^٢ والعظيم صفة للرب أو للاسم.

وقد وقع السؤال هنا عن تعدية التسبيح إلى الاسم الكريم، مع أنه للمسمى في الواقع، فقيل: إن الباء ليست زائدة، بل سببية، والمعنى: «فسبح ربك بذكر اسمه»، أو للاستعانة، أي مستعيناً بذكر اسمه، أو للمصاحبة، أي مصاحباً له، وفي ذلك إشارة إلى التسبيح اللفظي، أي لا تكتف بالتسبيح قلباً واعتقاداً. وهذا الجواب

١. تهذيب الأحكام ٢: ٣١٣، الحديث ١٢٩.

٢. الأعلى (٨٧): ١.

بكلّ وجوه لا يصحّ في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

وقيل: تسبيح الاسم تسبيح للذات بطريق أولى، فمعنى تسبيح الاسم تنزيهه من أن يذكر بما لا يناسبه نظراً إلى عظمته بعظمة المسمّى.

ويمكن أن يقال: إنّ التسبيح ليس اعتقاداً ولا أمراً لفظياً نظير ما ورد الأمر به في ذكر الركوع والسجود، فإنّ المطلوب هناك هو اللفظ حتّى لو لم يفهم الإنسان معناه أو لم يقصده غفلة، كما هو الغالب، بل المراد بالتسبيح هنا أمر إنشائي كالمدح والذمّ، وهو عبادة خاصّة بالله تعالى، فكما أنّ الإنسان ينشئ باللفظ أو غيره البيع أو النكاح، أو ينشئ التمنيّ أو الترجّي، أو ينشئ مدحاً أو ذماً أو تعجباً، كذلك ينشئ التسبيح.

ثم إنّ إنشاء الحقائق الاعتبارية باللفظ أقوى من إنشائها بغيره، فإذا كان التسبيح باللفظ أو الكتابة فلا يتعلّق إلا بالاسم الكريم، وإن كان الغرض إنشاء التسبيح للذات المتعالية، فكما يصحّ تعدية التسبيح إلى الذات، كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ كذلك يصحّ تعديته إلى الاسم؛ لأنّه هو المتعلّق في الإنشاء اللفظي. وللبحث في حقيقة الأمور الإنشائية مجال واسع في الأصول.

ولعلّ من قال: إنّ الباء للمصاحبة أو السببية قصد هذا المعنى.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. الفاء للتفريع أيضاً، وهذا تفريع على ما مرّ من ردّ المكذّبين للقرآن والذي ابتدأ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتِهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾.

وقد تكرّر في القرآن الكريم تصدير القسم بـ ﴿لَا﴾، بل لم ترد كلمة «أقسم» بدونها، واختلفوا في توجيه ذلك.

ف قيل: إنّها زائدة تفيد التأكيد. وقيل: إنّ المراد نفي ما اعتقدوه في القرآن من

أنه سحر أو شعر أو غير ذلك ثم يبدأ بالقسم. وهذا القول يساند القول الأول بمعنى أنه يشرح وجه كونها مؤكدة. ويمكن تأييده بتعارف هذا النفي، أي نفي رأي المخالف في موارد التأكيد من دون قسم حتى في سائر اللغات أيضاً.

وقيل: إنه في الأصل «لأقسم»، بل قرئ بذلك أيضاً. وقيل: إنه في الأصل بمعنى نفي القسم تحرجاً منه وتخوفاً من عاقبته، مع أن الأمر مما ينبغي أن يقسم عليه، ثم تطوّر الأمر واستعمل حتى في غير موارد التحرج، كما هنا وبقيت «لا» زائدة تفيد التأكيد.

وقيل: إنها لنفي القسم، والمراد في الخطاب أن الأمر أوضح من أن يقسم عليه وأنت تعترف به، فلا حاجة إلى قسم. وربما لا يكون الأمر واضحاً لدى المخاطب إلا أن القائل يدّعي فيه ذلك للتأكيد على ثبوته.

ومثل هذا النفي متعارف في غير القسم أيضاً، تقول للمخاطب: «لا أوصيك بكذا وكذا وتقصد التأكيد على ذلك، فمعنى «لا أوصيك» أنك بنفسك مهتمّ بهذا الأمر، فلا حاجة إلى وصية. ولعلّ هذا الوجه أقرب من غيره.

واختلفوا أيضاً في المراد بـ«مواقع النجوم»، والظاهر كما في «الميزان»^١ وغيره أن المراد بها محالها ومواضعها في السماء، وقيل: إن المراد مساقطها، فالموقع من الوقوع بمعنى السقوط، أي مغاربها أو سقوطها يوم القيامة، وقيل: بمعنى رجمها للشياطين.

وقيل: إن النجوم بمعنى قطعات القرآن النازلة شيئاً فشيئاً. وذلك لأنّ النجم في الأصل بمعنى الطلوع، تقول: نجم أي طلع، ولذلك أطلق على النبات أيضاً،

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٣٦.

فيمكن أن يكون منه مطلع كل شيء، ومنه آيات الكتاب العزيز، أو باعتبار أنهم كانوا يقسمون كل أمر ممتد كأكساق الدين باحتساب مطلع النجوم المختلفة، فيدفع له عند طلوع نجم كذا مبلغاً، ثم أصبح تعبيراً عن كل نوع من التقسيم. وهو بعيد عن السياق، وإنما اختاره من اختاره لاستبعاد أن يكون القسم بمواقع النجوم عظيماً.

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. هذه الجملة معترضة بين القسم والمقسم عليه، لتأكيد عظمة القسم، أي إن القسم بمواقع النجوم قسم عظيم لو تعلمون ذلك. وجملة ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراض في اعتراض.

و﴿لَوْ﴾ إما شرطية حذف جزأها، أي لو تعلمون قدره لعلمتم عظمته، أو للتمني، أي ليتكم كنتم تعلمونه. ولم يكن المخاطبون يوم نزول الآيات يعلمون عظمة هذا الأمر المقسم به لجهلهم بعظمة الكون الذي خلقه الله تعالى.

والبشر في هذا العصر قد اكتشف بفضل العلم والمراصد العظيمة مجموعات هائلة من النجوم والمجرات، وهناك منها الكثير مما لا يحصيها أحد إلا الله تعالى ولا تبلغها مراصد البشر، وكل هذه البلايين من النجوم تسير وتسبح في هذا الفضاء الهائل الذي يحترار البشر في أن يعتبره محدوداً أو غير متناه، ولا يمكن أن يصطدم بعضها ببعض. فسبحان الذي خلقها ونظمها ودبر أمورها.

﴿إِنَّهُ لَفَرَّانٌ كَرِيمٌ﴾، هذه الجملة هي المقسم عليها. والغرض تنبيه المخاطبين - وهم ضالّون مكذّبون - بكرامة هذا الكتاب العزيز.

والقرآن مصدر بمعنى المقروء. والكريم كل أمر شريف قيم، فيمكن أن يراد به تميّزه عن سائر الكتب أو المعارف أو خصوص الكتب السماوية، ويمكن أن

يراد به كونه كريماً وعزیزاً عند الله تعالى. وقيل: إنه كريم بمعنى كونه بذالاً لما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته.

﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ وصف ثانٍ للقرآن. والكنّ هو الستر، فالمكنون المستور، والظاهر أنه كناية عن الحفظ باعتبار أنّ الإنسان إذا أراد أن يحفظ شيئاً من الأيدي المعتدية يستره، فتكون الآية كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾^١.

والمظروف وهو القرآن ما يقرأ ويتلى من الآيات والألفاظ والمعاني. والظرف هو الكتاب، أي المكتوب وليس هو مكتوباً بالمعنى المتعارف، فإنّ الكتابة في الأصل بمعنى الجمع، أي في مجموعة مستورة وهو اللوح المحفوظ، ولا نعلم حقيقته ولكن الظاهر — والله العالم — أنّ المراد به ما يودع فيه القرآن وتحمله الملائكة إلى الرسول ﷺ وليس أمراً مادياً.

وكيفما كان فهو أمر مستور محفوظ عن أن تناله أيدي الشياطين وتعبث به وتزيد وتنقص خلافاً لما زعمه المشركون، كما تدلّ عليه الآية التالية. والقرآن الكريم يؤكّد على هذا الأمر في موارد عديدة وبعبارات متعدّدة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزِيلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾^٢ وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٣ وغير ذلك.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾. الظاهر أنّ هذه الجملة صفة ثانية للكتاب، وتفسّر معنى المكنون كما بيّنّا، والمسّ معروف، والمراد به التأكيد على نفي الوصول

١. البروج (٨٥): ٢١ - ٢٢.

٢. الشعراء (٢٦): ٢١٠ - ٢١٢.

٣. الحجر (١٥): ٩.

إليه، فالمعنى أنّه لا يصل إليه ولا يحمله أو يتحمّله إلا المطهّرون، والمراد بهم الملائكة الكرام، كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾^١ وهو تأكيد على عدم تأثير الشياطين فيه وأنه لا يصل إليه إلا الملائكة الكرام. وتوصيفهم بالمطهّرين بمعنى أنّ الله تعالى طهّره وعصمهم من الزلل والخطأ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^٢.
وقيل: إنّ المراد بالمسّ المسّ باليد أو مطلق الجسم، وأنّ المراد بالمطهّرين المطهّرون من الحدث والخبث، وأنّ ﴿لَا﴾ للنهي أو للنفي مع إرادة إنشاء الحكم أي المنع. وهذا يناسب ما نسب إلى سلمان الفارسي - رضوان الله عليه - من قراءة الكلمة بتشديد الطاء والهاء وكسر الثانية، وهو في الأصل «المتطهّرون». وورد الاستشهاد بالآية على حرمة المسّ بدون طهارة في بعض الروايات. ولكنّ القراءة غير ثابتة والرواية ضعيفة والسياق لا يناسبه.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة أخرى للقرآن الكريم. والتنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول، أي منزل من ربّ العالمين. والتنزيل باعتبار كونه من الله تعالى وكلّ ما يصل إلينا من قبله تعالى، فهو منزل لأنّه من مقام العلوّ والرفعة المطلقة، ولذلك فإنّ خلق الحديد أيضاً إنزال من عنده تعالى، كما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾^٣ والأنعام أيضاً نازلة من عنده تعالى، كما قال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^٤.

١. عبس (٨٠): ١٣ - ١٦.

٢. التحريم (٦٦): ٦.

٣. الحديد (٥٧): ٢٥.

٤. الزمر (٣٩): ٦.

وهذا ردّ على توهم المشرّكين أنّه من إلقاء الشياطين أو من قول الكهنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١.

ويمكن أن يكون المراد بالتنزيل تبسيطه وإخراجه بصورة ألفاظ عربية سهلة التداول بعد ما كان في كتاب مكنون ولوح محفوظ، لكي يصل إليه كل إنسان عارف باللغة ولو من دون دقّة وتحقيق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^٢، ومن هنا أسند إلى ربّ العالمين، فإنّ من شأن الربوبية أن يهيئ للعالمين ما يوصلهم إلى غاية الكمال البشري.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾. الاستفهام للاستنكار. والظاهر أنّ المراد بهذا الحديث القرآن الكريم؛ لأنّه المذكور في سياق الآيات، والفاء للتفريع، أي مع ملاحظة أنّ القرآن تنزيل من ربّ العالمين، ولا يمسّه إلا المطهّرون، فهل أنتم تذهنون به؟

والإدهان بمعنى التذهين إلا أنّه يستعمل كناية عن المداراة وترك الجدّ، فالغرض هنا أنّهم لا يحملون هذا الحديث على محمل الجدّ، ولذلك يعبرون عنه تارةً بالشعر وتارةً بالسحر.

وقيل: إنّ المراد بالحديث المعاد، والمعنى أنّهم لا يهتمون بهذا الخبر العظيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾^٣. وقيل: إنّ الإدهان كناية عن التكذيب. ولكنّه غير مناسب للأصل اللغوي.

١. الحاقّة (٦٩): ٤١ - ٤٣.

٢. يوسف (١٢): ٢.

٣. ص (٣٨): ٦٧ - ٦٨.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾. الجملة عطف على الجملة السابقة، أي «أو تجعلون رزقكم»، والظاهر أن المراد بالرزق الحظّ من الخير - كما في «مجمع البيان»^١ - وإن كان في الأصل بمعنى العطاء والإنعام مطلقاً، فالمعنى أن الله تعالى أنعم عليكم بهذا الخير العظيم أي القرآن، ولكنكم لا تتفكرون به، بل تكذبونه وتجعلون التكذيب حظكم ونصيبيكم من هذا الخير.

ولكن كثيراً من المفسرين اضطربوا إلى تأويل الآية بما لا يطابق ظاهرها وسياقها، لورود عدّة أحاديث عن طرق العامة في شأن نزول الآية؛ منها ما رواه مسلم عن ابن عباس، قال: مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾»^٢.

وقوله: «قالوا: هذه رحمة الله» أي قال الشاكرون. وقوله: «وقال بعضهم» أي الكافرون، والمراد بالكفر بالنعمة لا الكفر بالله تعالى، لوروده في مقابل الشاكراً، مضافاً إلى أن الظاهر أن المراد بهما فريقان من الصحابة لقول الراوي في أول الحديث على عهد رسول الله ﷺ وهذا التعبير لا يطلق إلا في عهد نزوله في المدينة وبسط حكمه في المنطقة.

ومن هنا فإنّ الحديث يدلّ على نزول هذه الآيات في المدينة أو في بعض الأسفار كما قيل، وقد مرّ أنّ سياق السورة يقتضي كونها مكّية بكاملها ويبعد

١. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ٣٤٢.

٢. الدر المنثور ٦: ١٦٢؛ صحيح مسلم ٢: ٦٠.

فصل هذه الآيات عن السياق.

ويبدو من الحديث أنّ المراد بمواقع النجوم مغاربها، أي مواضع وقوعها، فإنّ النوء يقال للنجم إذا مال للمغيب، وقد مرّ أنّ الظاهر كونها بمعنى مواضعها من السماء، وهو ما يجعله قسماً عظيماً ومماً لا يعلم به المخاطبون.

والاعتقاد بأنّ المطر من الأنواء من عقائد العرب في الجاهلية، فقال المفسّرون: إنّ في الآية تقديراً، أي وتجعلون شكر رزقكم وهو المطر أنكم تكذبون بأنّه من الله تعالى، فتقولون مُطرنا بنوء كذا.

وقال جمع من اللغويين: إنّ الرزق عند بعض العرب بمعنى الشكر، واستشهدوا ببعض الأشعار.

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَخُنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ
وَلَكِنْ لَا تَبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرُحَانٌ وُجِّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ
الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتَزَلُّ مِنَ حَيْمِرٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ حَيْمِرٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾. الفاء لتفريع الكلام على تكذيب الإنسان لآيات الله تعالى الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾، فهذه الآيات تظهر عجز الإنسان أمام إرادة الله تعالى ونواميس خلقه، لكي يكسر طغيانه الذي يتجلى في هذا التكذيب والإصرار عليه.

و﴿لَوْلَا﴾ للحثّ والتحضيض، وهنا استعملت مجازاً في التحدي. وفاعل ﴿بَلَغَتْ﴾ النفس ولم يسبق ذكرها، ولكنها معلومة من السياق، والمراد بها الروح التي بها الحياة، فإنها هي التي في الجسم.

وبلوغ النفس الحلقوم كناية عن آخر لحظات الحياة، ولا يدلّ على أنّ الموت يسري تدريجاً من الرجل إلى الحلق، كما توهم. أي فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم ترجعونها أي ترجعون النفس. وبهذا التعبير الحيّ يوقف الإنسان أمام المحتضر، وهو أبوه أو أخوه أو أيّ شخص عزيز عليه أو عظيم في عينه، ولكنه عاجز عن مساعدته، فالقصد من الحثّ عليه إظهار عجز الإنسان عن ذلك. وهذا التعجيز خطاب لجنس الإنسان وإن رتبّه على تكذيب المكذّبين، فهذه

الآيات تصوّر حالة الإنسان لدى الموت وعجزه في مواجهة هذا الحدث مهما كان المتوفى عظيماً، فيستوي في ذلك الأنبياء والأولياء وعامة الناس، كما يستوي الملوك والجبابرة والرعايا. ويستوي الأبطال وأصحاب الأجسام الحديدية – كما يقال – والضعفاء والمرضى، ويستوي العلماء والأطباء وغيرهم وإن كانت هناك محاولات في موارد من الاحتضار إلا أن لكل إنسان موعداً تتوقّف فيه كلّ الحيل، ويقف الجميع أمام هذا الموقف الحرج مكتوفي الأيدي لا حول لهم ولا قوة ولا يهتدون إلى حيلة.

﴿وَأَنْتُمْ حِينَتٌ تَنْظُرُونَ﴾، أي تنظرون إليه حين موته، وهي جملة حالية للمحضر المعلوم من السياق، فهو ينازع الموت وأنتم تنظرون إليه عاجزين أمام القهر الإلهي.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. والله تعالى أقرب إلى الإنسان من نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^١ وهو كناية عن كونه أقرب إليه من روحه ونفسه، فهو أعلم به من نفسه وأقدر على تغيير مقاصده من نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^٢ فبطريق أولى هو أقرب إليه من غيره. ولا يختصّ ذلك بحال الموت وإنما أكّد عليه هنا؛ لأنّ علاقة الآخرين منقطعة عنه حينئذٍ حتّى في الظاهر بينما هو بين ظهرانيهم.

والمراد بالقرب الإحاطة بكلّ شؤونه، فالله تعالى قيوم على كلّ نفس، بل على كلّ شيء، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^٣.

١. ق (٥٠): ١٦.

٢. الأنفال (٨): ٢٤.

٣. الرعد (١٣): ٣٣.

والغرض أنكم تنظرون إلى المحتضر ولا ترون ما هو مشغول به وراء الحجاب، فهو مشغول بربه وبالملائكة المحيطين به، فقد يسلمون عليه ويرحبون به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^١ وقد يضربون وجهه ودبره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾^٢ وقد يكون له حال آخر. ومهما كان فأنتم لا تبصرون هذه الأحوال حتى لو علمتم بها.

والآية تنبه الإنسان على أمر في غاية الأهمية والجميع يغفلون عنه، ونحن حينما نحضر جنازة ميت من أقاربنا أو أصدقائنا نهتم غاية الاهتمام بجسمه فنحيط به ونحترمه ونقبله ونودعه، مع أننا ندفنه في التراب ونعلم أنه بعد عهد سيتحول تراباً ولا يبقى منه أثر في الغالب، ولكنه حاضر معنا بروحه إلا أنه مشغول بربه، ولعله لا يهتم ولا يلاحظ أي عمل من أعمالنا، فلا يختلف لديه أن يحرقه الناس أو يحترمونه ويدفنونه كما هو الواجب، فقد وصل إلى لقاء ربه وهو غاية الغايات وغاية ما يتمناه المؤمن.

فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. ﴿لَوْلَا﴾ هنا تكرر للتضيض السابق، ومع ذلك فقد فصل بينه وبين فعله، والترتيب هكذا: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدنين. والضمير في ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ للنفس، كما مر. أي ترجعون نفس المحتضر إليه وتخلصونه من الموت. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد على عجز الإنسان أمام إرادة الله تعالى

١. النحل (١٦): ٣٢.

٢. الأنفال (٨): ٥٠.

القاهرة، فهو كاذب إن ادّعى القدرة، وحيث جاء هذا الشرط بعد الاشتراط بكونهم غير مدينين، فمعناه: إن كنتم صادقين في دعوى أنكم غير مدينين. والكلام في المراد بقوله تعالى: ﴿مَدِينِينَ﴾ فَإِنَّهُ يَحْدَدُ المعنى المراد من مجموع هذه الآيات. فقيل: إِنَّهُ من الإدانة بمعنى المجازاة، ومنه يوم الدين، أي يوم الجزاء. والمعنى أنكم إن كنتم كما تزعمون غير مبعوثين للجزاء فارجعوا نفس هذا المحتضر وادروا عنه الموت إن كنتم صادقين، أي قادرين أو صادقين في هذه الدعوى. وعليه فالآيات جاءت للاستدلال على البعث والنشور.

وجاء في «الميزان» في بيان وجه الاستدلال بالآية أنها تفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبين في تكذيبكم لهذا القرآن الذي ينبئكم بالبعث ردّدتهم نفس المحتضر التي بلغت الحلقوم؛ إذ لو لم يكن الموت بتقدير من الله كان من الأمور الاتفاقية التي ربما أمكن الاحتيال لدفعها، فإذا لم تقدروا على رجوعها وإعادة الحياة معها، فاعلموا أنّ الموت حقّ مقدّر من الله لسوق النفوس إلى البعث والجزاء.^١

وقال بعضهم: إنّ المعنى لو كنتم غير مدينين لما أخرجت الأرواح من الأجساد؛ إذ لا فائدة تحصل من تفريق ذنك الإلفين لولا غرض سام وهو وضع كلّ روح فيما يليق بها من عالم الخلود جزاءً على الأعمال.

والحاصل أنّ الإنسان عاجز في مواجهة الموت وأنّه يفرض نفسه على الإنسان فرضاً مهماً تكامل علم الإنسان وتمكّن من تسخير الطبيعة، وليس ذلك إلا لإرادة إلهية قاهرة وحكمة تترتب على الموت وهو البعث للجزاء.

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٩: ١٣٨.

ولا شك أنّ الإنسان عاجز أمام الموت مهما حاول، وهو يحاول فعلاً وقد تمكّن من صدّ كثير من الأمراض الفتّاكة وهو يحاول المزيد، ولكنّه لا يتمكّن أبداً من التحفّظ من الموت كلياً، وليس هذا من مصلحة الإنسان بوجه عام. ولكنّ السبب لا يكمن في خصوصية لروح الإنسان وإرادة خاصّة به ليكون موته مقدّمة للجزاء، بل هو مقتضى طبيعة الحياة على هذا الكوكب حيث إنّ الحياة هنا تستند إلى حياة الخلايا في جسم الإنسان والحيوان، وهي لا تستقرّ فلا فرق بين الإنسان وسائر الحيوانات من هذه الجهة ولا يدلّ على إرادة البعث والنشور.

والظاهر أنّ المراد بالمدين المقهور والديان الفهّار. قال في «الصحاح»: «دانه ديناً أي أذلّه واستعبده»^١ ومع ذلك تبع الجوهري المفسّرين وذكر أنّ المراد بالآية محاسبين. وقال في «معجم مقاييس اللغة»: «أصل واحد إليه يرجع فروعه كلّها وهو جنس من الانقياد والذلّ»^٢. أي فلولا إن كنتم غير مقهورين ومغلوبين بإرادة الله تعالى ترجعونها إلى محتضركم، والغرض بيان عجز الإنسان أمام إرادة الله تعالى وقهره، كما ورد في دعاء الصباح المنسوب إلى أمير المؤمنين (عليه السلام): «وقهر عباده بالموت والفناء»^٣.

والإنسان مقهور أمام قانون الطبيعة التي تسير بإرادته تعالى في جوانب كثيرة، ولكنّ الموت من أوضح ما يقهره، والإنسان معترف بعجزه أمام هذه الظاهرة

١. الصحاح في اللغة ٥: ٢١١٨.

٢. معجم مقاييس اللغة ٢: ٣١٩.

٣. بحار الأنوار ٨٤: ٣٤١.

المتكررة التي يراها كل يوم بالنسبة لغيره ويعلم أنه سيأتي دوره ولكنه يرتع كالبهيمة الغافلة.

والآية تنبه الإنسان على أن سعيه في إرادة البقاء في هذه الدنيا سعي باطل ومحاولة فاشلة حتى لو تغلب على كل الأمراض وتمكن كما هو يحاول حالياً من صنع ما يحفظ شبابه ألف سنة، فإن الموت سيأتيه لا محالة، وللموت أسباب عديدة أكثرها خارجة عن اختيار الإنسان، كما قال تعالى: ﴿أَيُّهَا تَكُونُوا يُذَرِّكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾^١.

﴿أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾، أي فله روح وريحان. وهذا تفصيل لحال المحتضر المذكور حين الموت وما يلاقيه حسب التقسيم المذكور في أول السورة، فهو عود على بدء كما في كثير من السور، ولعل ذلك يدل على ما هو الغرض الأسمى من السورة وهو بيان هذا التقسيم، كما أشرنا إليه في ما سبق. بل لعل الغرض هو الإشارة إلى امتياز المقربين عن سائر أصحاب الجنة؛ لأن التقسيم إلى أصحاب الجنة والنار المذكور في موارد كثيرة جداً من الكتاب العزيز.

نعم وردت الإشارة إلى هذا التقسيم في سورة الأعراف وفي قصّة الأعراف بالذات، وهي أيضاً من الآيات التي تدل على عظمة أصحاب الأعراف وأنهم هم الذين يقسمون النار والجنة، ولا يدخل أهل الجنة جنّتهم إلا بعد إذنهم، كما وردت أيضاً في سورة الإنسان وسورة المطففين وفي مواضع أخرى متفرقة.

والروح - بفتح الراء - في الأصل بمعنى النفس - بفتح الفاء - ويطلق كناية

عن الفَرْج والراحة باعتبار أنَّ الإنسان إذا استراح من ضيق نفسه يتنفس الصعداء قال تعالى: ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾،^١ أي من فَرْجِه وتنفيسه، وقيل: إنه بمعنى الرحمة.

والريحان فسر في اللغة بالرزق وبالنبات طيب الرائحة.

ومعنى الآية أنَّ المقربين يُقدِّمون حين الموت على رَوْح وريحان وجنة نعيم. وبهذا أيضاً يمتازون عن أصحاب اليمين، فإنَّهم إنَّما يردون الجنة بعد مرورهم بحشر وحساب، وإنَّما يُلقَوْنَ سلاماً حين الموت والمقربون يردون من حين الموت على سرور وراحة ورزق كريم وجنة نعيم.

والمقربون - كما مرَّ - ليسوا من أصحاب اليمين، بل يمتازون عنهم بأنَّ الله تعالى قربهم إليه. وأخطأ من ظنَّ أنَّ من سبق إلى الايمان بالأنبياء ينطبق عليهم ذلك، فهؤلاء من المتقربين بأعمالهم لا من المقربين، وإلا لانطبق العنوان على كل أصحاب اليمين أو كثير منهم أو على الأقلَّ على السابقين منهم، ولم يكن وجه حينئذٍ لتثليث الطوائف. بل المقربون هم الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمته الخاصة واجتباهم وعصمهم من الزلل والخطأ والذنوب، وقد ورد التعبير بالمقربين عن السيِّد المسيح ﷺ في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.^٢ وقال بشأن سيِّدنا موسى ﷺ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾^٣ فهو تقرب من الله تعالى لا تقرب من العبد.

١. يوسف (١٢): ٨٧.

٢. آل عمران (٣): ٤٥.

٣. مريم (١٩): ٥٢.

ويلاحظ أنه لم يذكر في هذا المقام صفة السبق، فلم يقل: فأما إن كان من السابقين، بل ذكر كونهم مقرّبين فقط ممّا يدلّ على أنّ هذا هو ما يميّزهم عن غيرهم، ومن هنا رجّحنا في بدو السورة أن يكون قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ لتحديد المصداق لا لبيان الجزاء، وذكرنا أنّ التقريب من الله تعالى إنّما يحصل لهم في هذه الحياة، وأنه تعالى يتعقّب تكونهم قبل الولادة وبعدها ويعدّهم عن كلّ ما يخلّ بقداستهم وطهارتهم حتّى في الصغر، بل حتّى ما يوجب سقوطهم من أعين الناظرين حتّى لو لم يكن محرّماً. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ قَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَخَاسِنِ اخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَةً وَنَهَارَةً»^١.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، أي فيقال له سلام لك. ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ الثانية متعلّقة به، أي هم يسلمون عليك، فيكون بشارة له بأنّهم ينتظرون قدومه.

والسلام في الأصل بمعنى الأمن والسلامة، ولكنّه كناية عن التحيّة، وعدي باللام مع أنّه يعدى بـ «على»؛ لأنّه حكاية عن سلام أصحاب اليمين.

وقد مرّ ذكر أصحاب اليمين في أوّل السورة. وقيل تقديره: أنت من أصحاب اليمين، وعليه فيمكن أن يكون إلقاء السلام عليه بمعناه الأصلي لا التحيّة، ومعناه: أنّ الملائكة يشرّونه بأنّه في الأمن والسلام المطلق؛ لأنّه من أصحاب اليمين. ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ﴾. مرّ التعبير

١. نهج البلاغة (صبحي الصالح): ٣٧٦، الخطبة ١٩٢، المعروفة بالقاعدة.

عنهم بالضالين المكذبين، ولعلّ الوجه في تغيير العبارة أنّهم هناك ضلّوا طريق الهداية، فكذبوا بالقرآن وبالرسالة وباليوم الآخر، وأمّا الضلال في هذه الآية وهو ضلالهم يوم الجزاء أو يوم الموت، فلعلّ المراد به أنّهم ضلّوا طريق الجنة وسلكوا طريق الجحيم؛ لأنّهم كذبوا من قبل. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^١ ولذلك قدّم التّكذيب على الضلال هنا.

والنزل ما يقدّم للضيف في أوّل قدومه، والتعبير به هنا استهزاء واضح. والحميم: الماء الحارّ شديد الحرارة، كما مر. والتصلية: الإحراق. والجحيم: النار المتأجّجة.

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ إشارة إلى القرآن الكريم أو إلى الخبر المذكور. والحقّ: الأمر الثابت. واليقين فعيل بمعنى الفاعل من يقن إذا زال عنه الشكّ، ووضح وأوجب الاستقرار والسكون، وبهذا الاعتبار يطلق على العلم الموجب للسكون والاطمئنان. وهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف أو العكس، فعلى الأوّل يكون المعنى أنّ هذا أمر متيقّن حقّ اليقين، كقولك: زيد عالم حقّ العالم، أي إنّّه ليس ممّا يطلق عليه اليقين بالتسامح العرفي، وعلى الثاني يكون المعنى أنّه حقّ متيقّن؛ إذ ربما يكون الأمر متيقّناً ولكنّه خاطئ.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، تفرّيع على ما ذكر من أنّ القرآن أو هذا الخبر حقّ متيقّن، والوجه في ترتّب التسبيح على ذلك أنّه لا ينبغي أن يتوهّم في ما يقوله

تعالى إلا كونه الحقّ المتيقّن، وحيث كان التعبير يوهم ذلك أمر بتسبيحه تعالى
عن كلّ ما لا يليق به. وقد مرّ تفسير الآية.

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمّد وآله الطاهرين.

فهرس المطالب

تفسير سورة الذاريات

٧	 سورة الذاريات (١-٦)
١٥	 سورة الذاريات (٧-١٤)
٢٣	 سورة الذاريات (١٥-١٩)
٢٩	 سورة الذاريات (٢٠-٢٣)
٣٦	 سورة الذاريات (٢٤-٣٠)
٤٤	 سورة الذاريات (٣١-٣٧)
٥٠	 سورة الذاريات (٣٨-٤٦)
٥٩	 سورة الذاريات (٤٧-٥٣)
٦٦	 سورة الذاريات (٥٤-٦٠)

تفسير سورة الطور

٨٣	 سورة الطور (١-١٦)
١٠٢	 سورة الطور (١٧-٢٨)
١٢٠	 سورة الطور (٢٩-٣٤)
١٢٧	 سورة الطور (٣٥-٤٣)
١٣٧	 سورة الطور (٤٤-٤٩)

تفسير سورة النجم

١٤٩	 سورة النجم (١-١٨)
-----	-------------------------

١٧٦.....	سورة النجم (١٩- ٢٨)
١٨٧.....	سورة النجم (٢٩- ٣٢)
٢٠٣.....	سورة النجم (٣٣- ٥٥)
٢٢٣.....	سورة النجم (٥٦- ٦٢)

تفسير سورة القمر

٢٢٩.....	سورة القمر (١- ٨)
٢٥١.....	سورة القمر (٩- ١٧)
٢٦١.....	سورة القمر (١٨- ٢٢)
٢٦٥.....	سورة القمر (٢٣- ٣٢)
٢٧٤.....	سورة القمر (٣٣- ٤٢)
٢٨٣.....	سورة القمر (٤٣- ٤٨)
٢٨٩.....	سورة القمر (٤٩- ٥٥)

تفسير سورة الرحمن

٣٠١.....	سورة الرحمن (١- ١٣)
٣٢٧.....	سورة الرحمن (١٤- ١٨)
٣٣٢.....	سورة الرحمن (١٩- ٢٥)
٣٤٠.....	سورة الرحمن (٢٦- ٣٢)
٣٥٠.....	سورة الرحمن (٣٣- ٣٦)
٣٥٥.....	سورة الرحمن (٣٧- ٤٥)
٣٦١.....	سورة الرحمن (٤٦- ٦١)
٣٧٢.....	سورة الرحمن (٦٢- ٧٨)

تفسير سورة الواقعة

٣٨١.....	سورة الواقعة (١- ٧)
----------	---------------------

٣٨٦.....	سورة الواقعة (٢٦- ٨)
٣٩٨.....	سورة الواقعة (٤٠ - ٢٧)
٤٠٨.....	سورة الواقعة (٥٦- ٤١)
٤١٧.....	سورة الواقعة (٧٣- ٥٧)
٤٣٦.....	سورة الواقعة (٨٢- ٧٤)
٤٤٥.....	سورة الواقعة (٩٦- ٨٣)